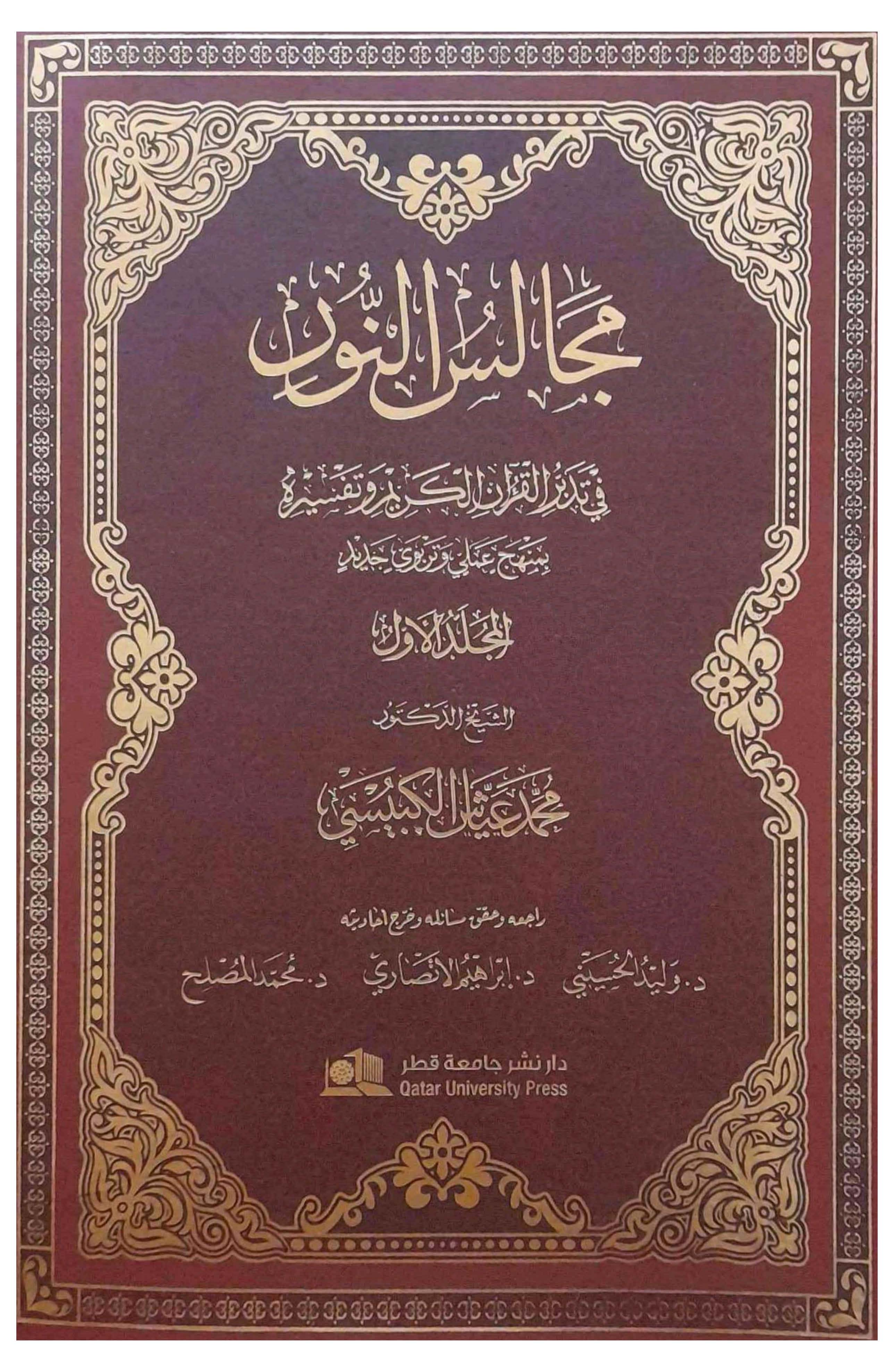

مجالس النور
في تدبر القرآن الكريم وتفسيره
بمنهج علمي وتربوي جديد
المجلد الأول
الشيخ الدكتور
محمد عيّاش الكبيسي
راجعه وحقق مسائله وخرج أحاديثه
د. وليد الحسيني
د. إبراهيم الأنصاري
د. محمد المصلح
دار نشر جامعة قطر
Qatar University Press

مجالس النور

في تدبر القرآن الكريم وتفسيره

بمنهج علمي وتربوي جديد

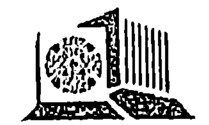
المجلد الأول

الشيخ الدكتور

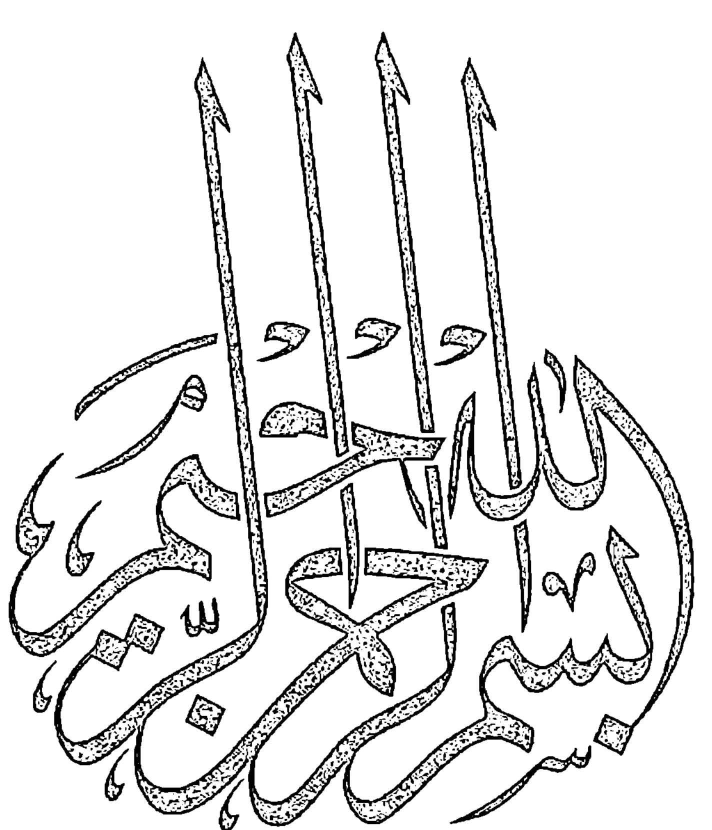
محمد عياش الكبيسي

راجعه وحقق مسائله وخرج أحاديثه

د. وليد الحسيني د. إبراهيم الأنصاري د. محمد المصلح



دار نشر جامعة قطر
Qatar University Press



مجلدات مجالس النور

	عدد المجالس	الصفحات	
المجلد الأول	٧٨	١ - ٥١٧	من فاتحة الكتاب إلى سورة الأنفال
المجلد الثاني	٨٧	٥١٩ - ١٠٢١	من سورة التوبة إلى سورة الشعراء
المجلد الثالث	٧١	١٠٢٣ - ١٥٢٩	من سورة النمل إلى سورة ق
المجلد الرابع	٦٤	١٥٣١ - ١٩٩٢	من سورة الذاريات إلى سورة الناس

المحتويات

المجلد الأول

- مقدمة		١٠
- المقدمات العشر		١٢

سورة الفاتحة

- المجلس الأول	المنظومة القيمئية	٣٠

سورة البقرة

- المجلس الثاني	بناء المجتمع المسلم وتمييزه عن المجتمعات الأخرى	٤١
- المجلس الثالث	استخلاف الإنسان على هذه الأرض	٥٧
- المجلس الرابع	العهد الإلهي لبني إسرائيل	٦٢
- المجلس الخامس	بنو إسرائيل في خضمّ التجربة	٦٧
- المجلس السادس	محاكمة ومحاججة	٧٧
- المجلس السابع	دروس ومسائل من وحي التجربة	٨٥
- المجلس الثامن	معالم في هويئة الأمة الجديدة	٩٣
- المجلس التاسع	تمييز الهويئة	٩٩
- المجلس العاشر	أسباب الضلال	١٠٥
- المجلس الحادي عشر	بناء المجتمع	١١٠
- المجلس الثاني عشر	رسالة الصوم	١١٥
- المجلس الثالث عشر	رسالة الجهاد	١٢٢
- المجلس الرابع عشر	رسالة الحج	١٢٦
- المجلس الخامس عشر	جبهة النفاق	١٣٠
- المجلس السادس عشر	يسألونك	١٣٥
- المجلس السابع عشر	فقه الطلاق	١٤٢

- المجلس الثامن عشر	التربية العسكرية	١٥٣
- المجلس التاسع عشر	مجادلات في مسائل الإيمان	١٥٧
- المجلس العشرون	فقه الإنفاق	١٦٢
- المجلس الحادي والعشرون	فقه العلاقات المالية	١٦٩
- المجلس الثاني والعشرون	مُوجِهات ختاميَّة	١٧٦

سُورَةُ آلِ عِمْرَان

- المجلس الثالث والعشرون	المحكم والمتشابه	١٧٩
- المجلس الرابع والعشرون	التمايز بين أهل الحق وأهل الباطل	١٨٥
- المجلس الخامس والعشرون	التجربة الإصلاحية الكبرى في تاريخ الأنبياء عليهم السلام	١٩٠
- المجلس السادس والعشرون	حوارات مع أهل الكتاب	١٩٨
- المجلس السابع والعشرون	حقيقة العلاقة بين الرسالات السماوية	٢٠٧
- المجلس الثامن والعشرون	مقوِّمات بناء الأمة المسلمة	٢١٣
- المجلس التاسع والعشرون	في الطريق إلى أُحُد	٢١٩
- المجلس الثلاثون	بيان المعركة	٢٢٤
- المجلس الحادي والثلاثون	دروس المعركة	٢٣٣
- المجلس الثاني والثلاثون	الرد السريع	٢٤٠
- المجلس الثالث والثلاثون	العلاقة بأهل الكتاب	٢٤٢

سُورَةُ النِّسَاء

- المجلس الرابع والثلاثون	وحدة الأصل البشري	٢٥١
- المجلس الخامس والثلاثون	نظام الإرث	٢٥٨
- المجلس السادس والثلاثون	المجتمع الطاهر	٢٦٢
- المجلس السابع والثلاثون	تنظيم شؤون المجتمع	٢٦٨
- المجلس الثامن والثلاثون	اليهود وعداوتهم للمؤمنين	٢٧٦
- المجلس التاسع والثلاثون	التشريع ومرجعية الحكم	٢٨٠
- المجلس الأربعون	التربية العسكرية	٢٨٥
- المجلس الحادي والأربعون	العلاقات العسكرية	٢٩٣

-	المجلس الثاني والأربعون	توجيهات تربوية للمقاتلين	٣٠١
-	المجلس الثالث والأربعون	العلاقات الأسرية	٣٠٧
-	المجلس الرابع والأربعون	المنافقون	٣١١
-	المجلس الخامس والأربعون	أهل الكتاب	٣١٦

سورة المائدة

-	المجلس السادس والأربعون	إكمال الدين وإتمام النعمة	٣٢٢
-	المجلس السابع والأربعون	ميثاق الله السابق لأهل الكتاب	٣٣١
-	المجلس الثامن والأربعون	الأمن والحياة	٣٣٦
-	المجلس التاسع والأربعون	أهل الكتاب واختبار الحكم	٣٤٢
-	المجلس الخمسون	الولاء والبراء	٣٤٦
-	المجلس الحادي والخمسون	حوار مع أهل الكتاب	٣٥١
-	المجلس الثاني والخمسون	بناء المجتمع المسلم	٣٥٧
-	المجلس الثالث والخمسون	معجزات النبي عيسى على نبيِّنا وعليه الصلاة والسلام	٣٦٣

سورة الأنعام

-	المجلس الرابع والخمسون	القرآن في مواجهة المُكذِّبين	٣٦٩
-	المجلس الخامس والخمسون	حوار مع المشركين	٣٧٧
-	المجلس السادس والخمسون	التكوين الإيماني للمجتمع المسلم	٣٨٢
-	المجلس السابع والخمسون	الهَديُ الإبراهيميُّ	٣٨٩
-	المجلس الثامن والخمسون	الوحيُ والحياة	٣٩٤
-	المجلس التاسع والخمسون	طرقُ الغِواية والضلال	٤٠١
-	المجلس الستون	نماذج من العَمَه والضلال	٤٠٧
-	المجلس الحادي والستون	الشريعةُ السَّمحة	٤١٢
-	المجلس الثاني والستون	وصايا عشرٌ وتوجيهات ختامية	٤١٦



- المجلس الثالث والستون — درس الحياة الأول — ٤٢٣
- المجلس الرابع والستون — يا بني آدم .. خطاب الإنسانيّة والفطرة — ٤٣٠
- المجلس الخامس والستون — حوارات في دار الجزاء — ٤٣٥
- المجلس السادس والستون — دعوة المرسلين من محمد إلى نوح عليه السلام — ٤٤١
- المجلس السابع والستون — هود وصالح عليهما السلام — ٤٤٦
- المجلس الثامن والستون — لوط وشعيب عليهما السلام — ٤٥٠
- المجلس التاسع والستون — النبوة في مواجهة السحر — ٤٥٨
- المجلس السبعون — الصراع المفتوح مع فرعون وملئه — ٤٦٣
- المجلس الحادي والسبعون — قيادة موسى عليه السلام لقومه بعد هلاك فرعون — ٤٦٧
- المجلس الثاني والسبعون — الخطاب القرآني لليهود — ٤٧٥
- المجلس الثالث والسبعون — سبيل الهداية وأسباب الضلال — ٤٨١
- المجلس الرابع والسبعون — تلخيص وتوجيهات ختاميّة — ٤٨٦

سورة الأنفال

- المجلس الخامس والسبعون — يوم الفرقان — ٤٩٢
- المجلس السادس والسبعون — تمايز الصفوف — ٥٠٠
- المجلس السابع والسبعون — بيان المعركة — ٥٠٦
- المجلس الثامن والسبعون — فقه الجهاد — ٥١١

مقدمة

يسر دار نشر جامعة قطر أن تزف إلى جمهور قرائها الكرام باكورة إنتاجها وأول إصداراتها كتاب "مجالس النور في تدبر القرآن الكريم وتفسيره بمنهج علمي وتربوي جديد ، مستفتحة بمجاله تفسير القرآن الكريم الذي هو أشرف المعارف وأزكى العلوم قاطبة لتعلقه بأحسن الحديث وأقوم القيل؛ كلام الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

إنّ كتاب مجالس النور الذي بين أيديكم قد حاز قصب السبق في ترشيحنا وانتقائنا له من بين عشرات الأعمال الجليلة التي قُدّمت للدار من لدن كوكبة من العلماء المتخصصين في حقول معرفية شتى. لنستبشر به كأول مولود للدار ألفيناه يتيمة الدُر وواسطة العقد.

إنّ القراء الكرام سيجدون في هذا الكتاب محاولة جادة تتسم بمنهج عمليّ وتربويّ تجديديّ موفّق؛ يقرّب القرآن الكريم من حياة الناس وهمومهم تقريبًا يعينهم على التفاعل المثمر مع القضايا المستجدة في كل مجال من مجالات حياتهم، بأسلوب يجمع بين العبارة السهلة والمنهج الرصين باتزان، فلا هو مع رصانة منهجه عسير على جمهور المثقفين، ولا سهولة عبارته قللت من فوائده للمتخصصين، وبهذا فهو يسد فراغًا كبيرًا في المكتبة العربية الإسلامية ويلبي احتياجًا مهمًا في أوساط الشباب والمثقفين.

إنّ فريق الدار وهو يصول ويجول مع مؤلف الكتاب ومساعديه في عمليات التدقيق والتحرير والتنسيق لإعداد الكتاب للنشر قد وقف على جملة من مزاياه منها:

• تقسيمه إلى مجالس للتدبر بلغت ثلاثمائة مجلس، يتناول كل مجلس منها مقطعًا من الآيات الكريمة المترابطة في موضوعاتها ومقاصدها وفوائدها، ويختم بدقائق تفسيرية تسهّل فهم غريب الكلمات الواردة فيه.
• وضع عنوان لكل مقطع يبرز الفكرة المحورية فيه.
• تصدير مجالس كل سورة بقائمة المحاور التي تجمع موضوعاتها.

ويأتي اختيار الدار لهذا الكتاب ووضعه بين يدي القارئ الكريم منسجمًا مع رسالة الجامعة التي نصت على الالتزام «بإجراء البحوث ذات الصلة بالتحديات المحلية والإقليمية والإسهام الإيجابي في تحقيق احتياجات المجتمع وتطلعاته». ومن هنا؛ يحقّ للدار أن تفخر بهذا العمل البحثي الجماعي النوعي لا سيّما وأنّ مؤلف الكتاب واثنين من مساعديه هم من كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بالجامعة.

وإنّ الدار لتثني على هذه الروح العالية بين فريق التأليف في منهجية العمل الجماعي التكاملي؛ مما انعكس بوضوح على خروج هذا الجهد الثري الذي ينتظمه خيط مترابط الأفكار متناسق

الصياغة بلا شذوذ ولا إفراط ولا تفريط، في جرأة محمودة احترمت قداسة المسلمات تاركة للأمة عنان المراجعة لاختيار ما يناسبها من اجتهادات السابقين واللاحقين، مع ما أضافوه من لمسات جعلت من الكتاب مرجعًا في التفسير التربوي العملي الذي يخاطب الأمة بكل فئاتها ومستوياتها.

فلهم من الدار كل التقدير والامتنان، وهي بحق فرصة تعبر فيها الدار عن دعمها وتشجيعها لهذا النمط من البحوث الجماعية التي تضمن مستوى عالياً من الجودة والإتقان.

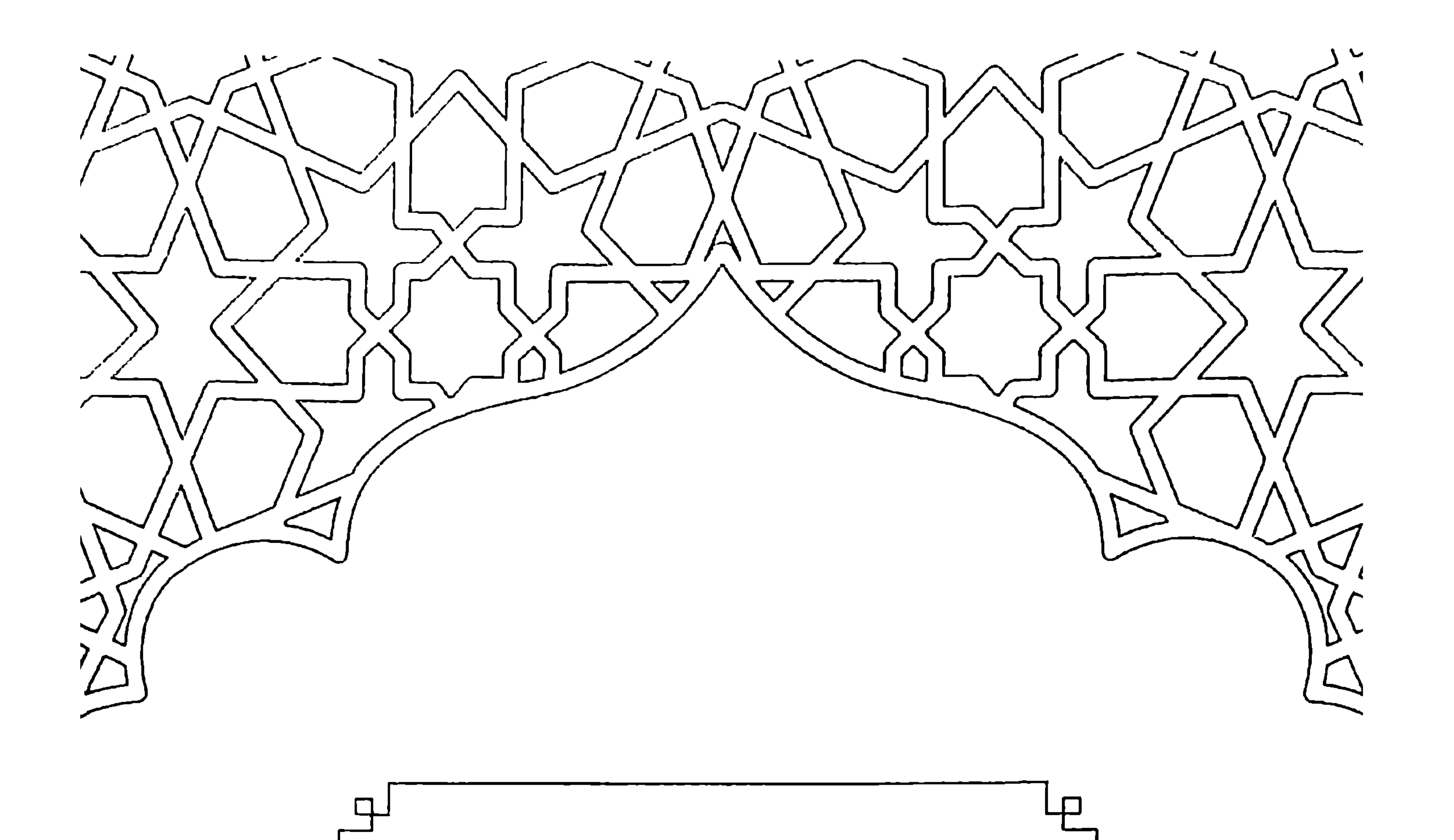
ولا يسعنا في الدار إلا أن نشيد بالدور المهم لوحدة البحوث في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة قطر في متابعة تحكيمه حيث ننوه بالمستوى الرفيع للتحكيم ودقة ملاحظات المحكّمين التي استوعبت الكتاب كله رغم ضخامته، وهي ملاحظات أثرت الكتاب وزادته إحكامًا.

إنّ دار نشر جامعة قطر وهي تشق طريق ارتقائها لتحتل مكانتها اللائقة بها بين دور النشر العالمية لتؤكد التزامها بأعلى المعايير العالمية للنشر مستشعرة عبء الأمانة وعظم المسؤولية والثقة الغالية التي قلدتها لها الجامعة ممثلة في سعادة رئيس الجامعة الدكتور حسن راشد الدرهم، وسعادة الأستاذة الدكتورة مريم العلي المعاضيد، نائب الرئيس للبحث والدراسات العليا ورئيس المجلس الاستشاري للدار، اللذين آمنا برسالة الدار ورؤيتها وما فتئا يقدمان لها كافة أنواع الدعم المعنوي واللوجستي حتى رأت النور في عهدهما الميمون على الدار وعلى الجامعة، فلهما من جميع العاملين معهم خالص الود والامتنان.

كما تتقدم الدار بالشكر أجزله والعرفان أكمله لكل من تواصل معها وكان شريكًا لها في نشر العلم والمعرفة من مؤلفين وباحثين وأكاديميين في كافة المجالات والتخصصات، آملة أن تقدم لجمهورها دائمًا الجديد والمفيد في عالم النشر.

الدكتور طلال عبدالله العمادي

مدير دار نشر جامعة قطر



المقدمات العشر

المقدمات العشر

بسم الله الرحمن الرحيم

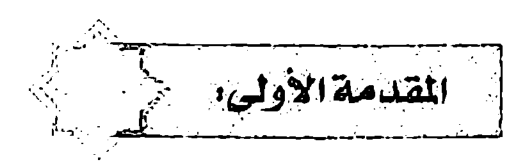
الحمدُ لله، وسلامٌ على عباده الذين اصطفى، والصلاة والسلام على نبيِّه مُحمَّد المصطفى، وآله وأصحابه وأزواجه وذريَّاته، ومن سَارَ على سُنَّتِه واقتَفَى.

أما بعد:

فبعدَ طولِ تردُّدٍ وتهيُّبٍ واستشارةٍ واستخارة، بدأْتُ هذه الليلة (ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان لسنة ١٤٣٥هـ) بكتابة تفسيرٍ جديدٍ للقرآن الكريم، وهي الليلة التي يغلب على الظنِّ أنها ليلة نزول القرآن، ولعلَّه استهلالٌ مُباركٌ، واقترانٌ لتدوين تدبُّرِه بيومِ نزوله، فإنما التفسير تدبُّرُ العباد لكتاب ربِّهم، وهو - لا شكَّ - من أغلى الواجبات، وأسمى القربات ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ﴾ [محمد: ٢٤].

وهو - أي: التدبُّر - حلقةُ الوصل بين وجوب تلاوته ووجوب العمل به، وكلَّما كان العمل بالقرآن واجبًا كان تدبُّره واجبًا كذلك؛ إذ ما لا يتمُّ الواجب إلا به فهو واجب.

هذا وقد ارتأيتُ أن أُقدِّم بهذه المقدِّمات والموجِّهات المنهجيّة التي اعتمدتها في هذا العمل من مُبتدَئِه إلى منتهاه؛ خدمةً للقارئ، ورجاءَ أن يطَّلِع على الإضافة المرجوَّة من هذا الجُهد الذي أسأله تعالى أن يكون مُسدَّدًا منه، ومقبولًا عنده.



المقدمة الأولى:

القرآن كلام الله، والتدبُّرُ فعلٌ بشري، وما يُدوِّنه المُتدبِّرُون هو التفسير، وعليه فالتفسير ليس معصومًا إلا إذا كان نقلًا عن المعصوم؛ كتفسير القرآن بالقرآن، أو تفسيره بالسنَّة

الصحيحة، والتفسيرُ اجتهادٌ يستحق المفسِّر فيه ما يستحقه الفقيه، وشارح السنَّة، والباحثون في العلوم الشرعية الأخرى أجرًا واحدًا إن أخطأ، وأجرَين إن أصاب، شرطَ كونه من أهلِ الاستنباط، وإلا كان متلاعبًا في الدين يستحق الوزر واللوم أصابَ أو أخطأ؛ لأنّ صوابه محض صُدفة، وليس عن اجتهاد.

وقد جاء عن النبي ﷺ قوله: «**مَنْ قَالَ فِي القُرْآنِ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**»[1]. ويشمل هذا التحذير كل من تجرَّأ على تفسير القرآن بجهلٍ في قواعد التفسير وأدواته، أو بنزعة هَوًى تَلوِي النصوص لغرضٍ ما بعيدًا عن لغتها وسياقها ومقاصدها.

هذا إذن تمييز ضروري بين مساحة الوحي المقدَّس وبين الفكر البشري، وإن كان هذا الفكر متصلًا بالوحي فهمًا واستنباطًا واستدلالًا، ويَنتج عن هذا جرأة علمية محمودة لنقد التراث التفسيري، وفتح المجال لقراءات جديدة تتناسب مع مسيرة الحياة الإنسانية، والكشوفات العلميَّة الصاعدة في مجالات هذا الكون الرحيب.

المقدمة الثانية:

الفارق بين التفسير الأصولي المقبول والتأويل المرفوض كالتأويلات الباطنية إنما هو في الالتزام بثوابت النص، وثوابت اللغة، وثوابت العقل.

أما النصُّ فهو الأصل، وهو مدارُ البحثِ والاجتهاد، والقرآن مقطوعٌ بصحة وروده، وإنما يقع الاجتهاد على ما احتمل أكثر من معنًى من غير الخروج إلى معنًى آخر لا يحتمله النص، أو في التقاط لطيفة تُوسِّع مدلول المعنى الأول ولا ترفعه، أو تجمع بينه وبين نصٍّ أو نصوصٍ أخرى، مما يسمى اليوم بالقراءة التحليليّة المركَّبة، وكذلك البحث في مقتضيات التنزيل وموانعه، وناسخ النص ومنسوخه، وسُنَّة التدرُّج فيه، ونحو هذا مما هو من صَمِيمِ التدبُّرِ المطلوب، والاستنباط الذي خَصَّ الله به أهلَ العلم.

---

(١) رواه الترمذي في «جامعه» (٢٩٥٠)، وقال: حسن صحيح، والنسائي في «السنن الكبرى» (٨٠٨٤)، وأحمد في «مسنده» (٢٠٦٩).

أما اللغة؛ فهي - لا شك - وعاءُ القرآن، فالتضلُّع فيها شرط التدبُّر الصحيح، وكل تأويل لا تحتمله اللغة العربية فهو تأويلٌ باطل مُنافٍ للأصول، وكلّ تأويلٍ بضعيف اللغة وغريبها فهو ضعيف ومرجوح؛ لِمَا عُلِمَ أن القرآن قد تحدَّى العرب ببيانه وفصاحته، واستعمال الغريب معِيبٌ في لسان الأدباء والشعراء، فكيف بكلام ربِّ العالمين؟!

أما العقل؛ فقد نصَّ القرآن على شرطيَّته في التدبُّر، فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1]، وادِّعاءُ التعارض بين العقل والنقل ادِّعاءٌ باطل، ويعود مآله قدحًا وتشكيكًا بالوحي نفسه، وليس المقصود بالعقل هنا تلك النظريات العلميّة، أو المباحث الفلسفيّة التي شاع الاختلاف بين أربابها، فضلًا عن غيرهم، وإنما المقصود: كل ما أقرَّتْه العقولُ ببديهتها واستنتاجاتها الثابتة والمُبرهَنة، وما توصَّلَت إليه بحواسِّها؛ كالمرئيات، والمسموعات، وسائر المُدرَكات التي لا يختلف فيها الناس، وهي أصلٌ من أصولِ الحياة الآدمية لا يُنكِرُها إلا مُكابِرٌ.

وأما ما شاعَ من جدل حول تقديم العقل على النقل وعكسه فهو جدل باطل، وهو كمن يتجادل في تقديم قواعد اللغة على قواعد الشرع أو عكسه؛ إذ العقل لا يُشرِّع حكمًا دينيًّا، وكذلك اللغة، وإنما هما وسيلتان لفهم النص، وترجيح المصدر على الوسيلة، أو ترجيح الوسيلة على المصدر لا معنى له، أما إذا كان المقصود منح العقل صلاحيّة التشريع بمعزل عن الوحي، فهذا باطل، أصاب العقل في تشريعه أو أخطأ.

وإذا سلِمَت لنا الأصول الثلاثة، فإن هناك مُوجِّهات تُستمدُّ من روح التشريع، ومبادئه العامة، ومقاصده الكليَّة، تجب مراعاتها في كل مسألة كبيرة أو صغيرة، فإذا كان المعنى الذي يحتمله النص أقربَ لهذه الموجِّهات فهو الأقرب للأخذ به.

ومثال هذا: إذا كانت رحمةُ الله قد سبقَت غضبَه، فليسبِق إذن المعنى الذي هو أقرب للرحمة، والذي تتحقَّقُ فيه مصالح العباد، وهكذا.

---

(١) تكرر هذا النص الكريم ثلاث مرات في القرآن الكريم: سورة الرعد/ ٤، وسورة النحل/ ١٢، وسورة الروم/ ٢٤.

المناهج التفسيرية على اختلافها وتنوعها تتكامل ولا تتعارض ما دامت تدور في مساحة الاجتهاد المشروع؛ فالتفسير الأثري الذي يعتمد جمع الروايات التفسيرية من الأحاديث الصحيحة، وأقوال الصحابة والتابعين وسلف الأمة الصالحين، يُعطِينا صورةً لتدبُّر القرآن في ذلك العصر الذي هو أفضل العصور، والذي امتازَ بمخرجاته التربوية الرائدة، والتي لا يمكن إلا أن تكون نتاجًا لذلك الفهم والتدبُّر الصحيح والسليم للقرآن الكريم.

وممن اعتَنَى بهذا النهج: الإمامُ ابن جرير الطبري، ثم الإمام ابن كثير، وللأول مَيْزة السبق والجمع، وللثاني مَيْزة التمحيص والاختصار، مما سهَّل انتشارَه واعتمادَه لدى عامَّة العلماء والباحثين.

وأما التفسير اللُّغوي، فقد تكفَّل بتَمتِينِ الصلةِ بين كتاب الله واللغة العربية التي نزل بها صرفًا ونحوًا وبلاغةً، وممن اشتهر بهذا النهج: العلامةُ الزمخشري في كتابه «الكشَّاف»، وهذا النهج في التفسير يُحقِّقُ واجبًا شرعيًّا نصَّ عليه القرآن بقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]، ففَهْمُ القرآن مبنيٌّ على فهم العربيَّة ولا ينفَكُّ عنها.

وأما التفسير العلمي الموضوعي عقيدةً وفقهًا وأخلاقًا وتاريخًا وإعجازًا، فمِمَّن ألَّف فيه تأليفًا واسعًا وشاملًا: الإمامُ القرطبي، والإمامُ الرازي.

وهناك من اقتصر على بابٍ واحدٍ من أبواب العلم، كأخلاق القرآن، وإعجاز القرآن، وهذا شائعٌ في هذا العصر أكثر مما سبق، وهذا كلُّه واجبٌ شرعيٌّ بقوله تعالى: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ [النساء: ٨٣].

فكلّ صاحب اختصاص في أيِّ علم من العلوم عليه أن ينهَلَ من القرآن الكريم، فهو المصدر الأول للتشريع، وهو مصدر المصادر؛ إذ حُجيَّة السنَّة، ثم الإجماع والقياس

والمصلحة إنما استُمِدَّت من القرآن الكريم، والاستنباط هذا هو غاية المنهجَين السابِقَين الأثري واللغوي، فجمع الروايات التفسيرية للآية الواحدة، أو جمع القواعد الصرفية والنحوية ودقائق البيان والبلاغة، إنما يُقصد من كلٍّ ذلك استنباط الحكم، والوصول إلى مقصود الآية، وهذا هو الاستنباط.

هذا وقد تراوَحَت جهود المفسرين بين هذه المناهج الثلاث: تلخيصًا، أو تهذيبًا، أو تحقيقًا، حتى أطلَّت بوادر الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة حركات التغريب والغزو الثقافي، فانبرى المُفسِّرُون الجُدُد لقراءة القرآن قراءةً تنسجِم مع حاجة الأمة ومشاعرِها، وحركتها الدؤوب لاستعادة التوازن المطلوب، بعد سلسلة النكسات التي أدَّت في النهاية إلى سقوط الخلافة، وضياع الخيط الناظم لوحدة الأمة.

وقد أضاف التفسيرُ في هذه المرحلة طرائق جديدة في التفسير، تتناسب مع متطلبات العصر، منها:

- طريقة راحَت تكشف ما في القرآن من مَعِينٍ لا ينضُب من القواعد والمبادئ، إضافةً إلى الأحكام التفصيلية القادرة على مواكبة العصر، ووضع الحلول المناسبة لمشاكِله، وهو ما عُرف بالتفسير المقاصدي.

وهذا المنهج إنما يسعى لاسترداد الثقة بعقيدة الأمة وتراثها، وأنه عندها ما يُغنِيها عن المنتجات الحضارية والثقافية القادمة من الخارج، ومن خير مَن جسَّدُوا هذا المنحَى: الطاهرَ ابن عاشور في تفسيره «التحرير والتنوير»، وكذاك الشيخ محمد رشيد رضا في تفسيره «المنار».

- بينما استعلَت الطريقة الثانية على هذا الواقع، وراحَت تستوحِي منهجَ القرآن في تأسيس الأمة وتكوينها، ولا أعلم أحدًا من المُفسِّرين سبقَ الأستاذَ سيد قطب في هذا، ولعلَّ انخراط سيد في عملٍ جماعيٍّ ذي طبيعة حركيّة شاملة، قد دفعه لقراءة القرآن قراءةً يدفعها العطش لاستنباط (المنهج الحركي)، الذي يُواكِبُ حاجة (الجماعة)، وهي الفكرة المحورية

للظلال، تأسيسًا وتكوينًا وتميُّزًا، وولاءً وبراءً، وكان هذا على حساب المجالات الأصولية والفقهية والتشريعية التي تحتاج إليها الجماعة نفسها.

وربما تنبَّه الشيخ سعيد حوَّى لهذا، فأردفه بكتابه الأساس لمعالجة المساحات التفصيليّة التي يعالجها الظلال، وهذه هي طبيعة العمل البشري مهما بلَغَ من النضج والإتقان.

المقدمة الرابعة:

الإسلام بناء متكامل، وقد ورد هذا المعنى بقوله ﷺ: «**بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ**»(1)، وهذه صورةٌ كليَّةٌ تنتظم فيها كلُّ معاني الإسلام كاللبنات المتماسكة.

وكم هو البَون الشاسع بين من يرَى الإسلام لَبِنَات متناثرة لا يربطها رابط، ولا يجمعها جامع، وبين من يراه وحدة بنائية كاملة، فتلك لا تقِي من حَرٍّ ولا من قُرٍّ، ولا تَقوَى على مقاومة العوادي والبوادي، فمصيرها التفتُّت والتلَف.

وأما هذه فهي البيت الذي يأوي إليه الناس طلبًا للسكن والطمأنينة، والوقاية والحماية.

هذا وقد تكفَّل القرآن بوضع الخارطة الأساس لهذا البناء، ولم يُوكِل هذه المهمة لغيره؛ إذ مهمة السُّنَّة البيان بعد التأسيس، والتفصيل بعد الإجمال؛ ولذلك ترى أحاديث الطهارة مثلًا، وهيئات الصلاة تأخذ مساحة واسعة من السنَّة على خلاف القرآن، بينما تجِدُ القصص النبوي الذي يؤسس للمناهج الإصلاحية، وطرائق التحرُّك بهذه العقيدة أوسع في القرآن بكثيرٍ عما هو في السنَّة.

ومن ثَمَّ فمَن أخذ الصورة الكليَّة للإسلام عن السنَّة، سيكون بالضرورة مخالفًا لمَن يأخذها عن القرآن، وهذه واحدة من مشاكل الفهم التي زلَّت بها الأقدام وتباينت بها الأفهام.

---

(1) رواه البخاري (٨، ٤٥١٥)، ومسلم (١٦).

وجديرٌ بالتنويه هنا أن الذي يقرأ القرآن أيضًا بغير هذه المنهجيَّة - أقصد: منهجيَّة البناء المتكامل - فإنه سيقع فيما وقع فيه مُقدِّمُ السنَّة على القرآن في أخذ الصورة الكليَّة عن الإسلام.

المقدمة الخامسة:

كما أن القرآن قد تكفَّل بوضع الخارطة الكليَّة للبناء الإسلامي المُتماسِك والمُتكامِل (المِلَّة)، فإنه تكفَّل أيضًا بوضع الخارطة الكليَّة لبناء المجتمع (الأمة)؛ إذ القرآن ليس كتابًا نظريًّا، ولا قانونًا تشريعيًّا مُجرَّدًا، ولا عقيدةً فلسفيَّةً تضع المقدِّمات المنطقيَّة، أو تُحلِّل الظواهرَ الكونية، إنه منهج حياة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

ومن ثَمَّ فالإسلام رسالة سماويَّة مقدَّسة (الملَّة)، وصورة ماثلة في الأرض (الأمَّة)، فهاتان هما قوام الدين والدنيا، لا تنفكُّ إحداهما عن الأخرى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢].

فالتمسُّك بالأمة لا يقلُّ أهميةً وضرورةً عن التمسُّك بالمِلَّة، مع ملاحظة الفارق بين الرسالة المقدَّسة المعصومة من الخطأ، وبين الواقع البشري للأمة المُعرَّض للزَّلَل والشَّطَط ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [فاطر: ٣٢].

فالقرآن لم يأتِ ليُؤسِّس أمةً ملائكيَّةً أو سماويَّةً، إنه يعمل في هذه الأرض وبين هؤلاء البشر، ومن ثَمَّ تجِدُ القرآن بقدر ما يؤكِّدُ أُسُس البناء في الأمة من مبادئ إيمانيَّة، ومنظومة قيميَّة، وأنظمة تشريعيَّة يُؤكِّد أيضًا معاني التوبة والإنابة، والتناصح والتسامح؛ فما يذكره القرآن استحقاقًا على الإثم والخطيئة، ربما يرفعه واقعًا وتطبيقًا.

وهذا من رحمة الله الغالبة، وحكمته الماضية، وعلمه بأحوال خلقه، ومن لم يدرك هذه المنهجيَّة القرآنيَّة في بناء المجتمعات والأمم، فإنه سيضطرب فهمُه لآيات الله، ويقع في التناقُض أو التضادِّ، والقراءة الناقصة والمقطَّعة لتجارب النبيين السابقين، ولسيرة أكرم المرسلين عليه وعلى إخوانه الصلاةُ والتسليم، مما يصعُب معه التقاط المنهج الصالح للتأسِّي والاقتداء والاعتبار.

المقدمة السادسة:

ثمّ بعد ذلك - أي: بعد بناء الخارطة الكليَّة لمفهوم الملَّة، ثم لمفهوم الأمَّة - لا يُغفل القرآن البُعد الثالث، وهو البُعد الإنساني الأوسع، والذي جعله القرآن غايته الكبرى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، فالقرآن ما جاء أبدًا ليعزل المؤمنين به عن هذا العالم الفسيح، بل هم أدواته البشريَّة للوصول إلى هذا الإنسان حيثما كان.

ومن ثَمَّ جاء الخطاب القرآني: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾[1] يخاطبهم أينما كانوا في الزمان، وأينما كانوا في المكان، في التاريخ والجغرافيا، من آدم وحوَّاء، وقصَّة الخلق الأولى إلى أشراط الساعة وإعلان النهاية الحتميَّة لهذه الحياة.

إنه يتحدَّث عن الأرض كلّ الأرض ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]. لا يتحدَّث عن الحواجز والفواصل، لا عن الدولة القديمة، ولا عن الدولة الحديثة، لا عن جزيرة العرب، ولا عن جزائر العجم، يخاطب الإنسان رضيعًا وطفلًا، شابًّا وشيخًا، رجلًا وامرأةً، ويجعل الاحترام قاعدة التواصل الأولى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠].

---

(١) هذه النصوص الكريمة تكرَّرت في مواضع عديدة من كتاب الله تعالى.

مثنّيًا بالقسط والعدل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨].

مُثلِّثًا بالتسامح، والإيثار، ومبادئ الأخلاق: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ ﴾ [الحشر: ٩].

مُربِّعًا بالظلم والعدوان من أيِّ طرف على أيِّ طرف: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠]، ولو كان هذا العدوان بين الرجل وأهل بيته: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ ﴾ [النساء: ١٩]، أو بين الشريك وشريكه: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ١ - ٣]، أو استغلالًا للضعفاء: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴾ [التكوير: ٨، ٩]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ [النساء: ١٠].

أما ما نراه اليوم من تغليبٍ لمفهوم الولاء، وجعله فيصل التعامل مع الناس، فهذا مردُّه الجهل بفقه العلاقات الذي فتح القرآن آفاقه، وأكَّده النبي الكريم ﷺ في سيرته العطِرة، بل وجهْل بعقيدة الولاء والبراء نفسها؛ فالتمايُزُ في الهويَّة والنظرة الكليَّة للدين والكون والحياة شيء، والتقاطع والتدابر والتخاصم شيء آخر.

أمَا رأيتَ كيف قاطَعَت قريشٌ المسلمين ومعهم بنو هاشم، ثم نقض الله وثيقة المقاطعة بأمرٍ من عنده؟! فكان في هذا الفَرَج والخير للمسلمين، فكيف تنعكس الصورة فيسعى المسلمون إلى عزل أنفسهم ومقاطعة العالم لهم؟!

القرآن إنما جاء لإصلاح هذه الحياة، وتحقيق السعادة لأهلها، ونشر الرحمة في ربوعها، والحياة ليست لونًا واحدًا، ولا وترًا ثابتًا، ومن ثَمَّ كان من شروط التدبُّر السليم مُراعاة الدوائر المختلفة في هذه الحياة، وخصوصيَّة الخطاب القرآني لكل دائرة، فالخطاب الموجَّه للدعاة وهم يجوبون الأرض لنشر هذا النور لا يمكن أن يكون هو عين الخطاب الموجَّه للجنود وهم في ثكناتهم وخنادقهم، والخطاب الموجَّه لإعداد القضاة الذين يحكمون بالعدل ليس هو الخطاب الموجَّه للمعلِّمين الذين يأخذون بأيدي طلابهم في مراقي التعلُّم والتربية، والخلط بين هذه الدوائر يُنتج غبشًا ثقيلًا، واختلاطًا مؤذيًا.

وهذه إحدى مشكلات العصر، فكم ترى من دعاة يكثرون من الاستشهاد بقصَّة طالوت مثلًا، وكأنهم سائرون إلى الحرب، فتتخرَّج أجيال عندهم لا تحسن التعامل مع المؤسسات المدنية، ولا توطيد العلاقات الاجتماعية.

والحقُّ أن قصَّة طالوت ومنعه لجنده من شرب الماء إنما جاءت نموذجًا للتربية العسكريّة وليست للتربية الدعويّة، فالانضباط العسكري شرط في الجنديَّة، بينما الحلم والتسامح والتغافل شروط التربية الدعويَّة، ومثل هذا قُلْ في الفارق بين إعداد القاضي وإعداد المعلِّم.

وقد ترى في القرآن النبيَّ الذي يدعو على قومه والنبيَّ الذي يدعو لهم، فيظنُّ الظانُّون أن هذا نابعٌ من اختلافٍ في طبائعهم عليهم الصلاة والسلام، فترى فينا من يُفاضِلُ بين هذا النبيِّ وذاك، وأخطر من هذا الاستشهادُ الانتِقائي بحسب طبيعة المستدِل أو المستشهِد، وهذا كثير وشائع في زماننا، ومردُّه الأساس غياب المنهجية السليمة في تدبُّر القرآن، وإدراك طرائقه في إصلاح هذه الحياة بكل دوائرها ومساراتها، ولو كان القرآن كما توهَّمُوا لضاعَت قاعدة التأسِّي، وأصبحت مدعاةً للتشتُّت مكان التجمُّع، وللتفرُّق مكان التوحُّد، كيف والله

يقول: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، ويقول: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣].

المقدمة الثامنة:

اليوم إذا أرادَت الأمة أن تتجاوز مرحلة الصدمة وردة الفعل، فستُواجِهُها أسئلةٌ كبيرةٌ في مختلف مجالات الحياة، من بينها: صورة المجتمع الإنساني، والعلاقات البينيّة بين أفراده ومكوناته، وصورة الدولة الحديثة وعلاقاتها بالمجتمع الدولي، وآليات النهضة والتنمية المطلوبة، والموقف من المقولات القيميَّة السائدة؛ كالحرية، والمواطنة، وحقوق الإنسان، والتعدديَّة السياسيَّة، والتداول السلمي للسلطة، والتي أصبحت ركنًا ركينًا في ثقافة العصر، وهي تنمو ولا تتوقف عند حد، ومن ثَمَّ فلا بُدَّ من الاستِجابة لها بالتدبُّر النامِي والمستمر أيضًا.

لقد جرَّبَت الجماعات الإسلامية والحركات الجهادية حظَّها في الاشتباك السلمي أو العنفي مع هذه المقولات ومن يقف وراءها، وكانت النتائج لحدِّ الآن ليست بصالحها، وكان التعذُّر دائمًا بفارق القوَّة وفارق الإمكانيات والخبرات المتراكمة، وكأنَّه كان على الآخر أن يتنازل عن مكتسباته وإنجازاته، لكي يتيح لنا فرصةَ تجربة الحل الإسلامي الذي نراه!

لقد كانت نظرية (الحل الإسلامي) أشبه بصندوق ورِثَه الأبناء عن أجدادهم، وكانوا يعتقدون أنهم حينما تأتي الفرصة المناسبة، فإنهم سيجِدُون في هذا الصندوق كل ما يحتاجون إليه، وحينما جاءت الفرصة وفتحوا الصندوق لم يجدوا فيه إلا ورقةً واحدةً مكتوبًا عليها: (الحل هو في الرجوع إلى الإسلام)!

إن الإسلام الذي نتواصَى دائمًا بالرجوع إليه خاصةً في أيام الفتن والمحن يتطلَّبُ أن نرتقي نحن إلى مستواه؛ لنتدبَّره ونفهمه، ونستخرج الدواء الناجِع منه، ولو كان الإسلام يحل مشكلاتنا بنفسه لما قال الله تعالى: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]،

فالذين يستنبِطُونه هم صِنفٌ من المؤمنين تميَّزُوا بالعلم حتى وصلوا إلى مقام الإرث النبوي: «**العُلَمَاءُ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ**»(١)، وهم الذين يقومون بعمليَّة الاستنباط التي لا يُتقِنُها غيرُهم.

نعم قد تمكَّن كثيرٌ من العلماء من استنباط الحلول الإسلامية لكثيرٍ من مشكلات العصر، خاصةً في مجال الاقتصاد، وبعض المستجدات الطبيَّة والصناعيَّة، لكنها لا تعدُو كونها حلولًا جزئيةً لا تُعين المسلم على بناء تصور كامل عن مشروع الحل الإسلامي، والإجابة الشافية عن الأسئلة الكبرى، وليس أدلَّ على هذا من الاضطراب الحادِّ في نمط التجارب الإسلامية، خاصةً تلك المتعلقة بإدارة الدولة، أو المشاركة فيها، أو الدفاع عنها، وكذا في إدارة المجتمعات، وبناء العلاقات الداخلية والخارجية.

المقدمة التاسعة:

الذي دفَعَني لهذا المرتقى الصعب، وحَمَلَني على المسير في هذا الدرب رغم قلَّة المؤنة والزاد، وضعف العدَّة والعتاد - إضافةً إلى كل ما تقدَّم - ما وجدتُه من اضطرابٍ في فهم الآيات وتنزيلها، خاصَّةً في أيام الفتن والنوازل؛ حيث تكون كأنها أسلحة بأيدي مختصمين غاضبين، يتخاصمون عليها، ويتنابَزُون بها، وكلٌّ يراها في صفِّه ومع أهله وحزبه.

وزادَ من حالة الإرباك والارتباك ضعفُ اللغة المُعينة على فهم المفردات والسياقات، إن كان في قراءة الآيات، أو كتب التفسير المطوَّلات والمختصرات؛ مما جعل المتديِّنَ - فضلًا عن غيره - يأخذ تصوراته الأولى عن الحلول ومناهج العمل من بيئته الخاصَّة، وحاضنته القريبة فكريَّةً، أو سياسيَّةً، أو تنظيميَّةً، ثم يذهب إلى القرآن ليعضد رأيَه، وهذه طريقة معكوسة لا تُبرئ الذمَّة في الأخرى، ولا تُقرِّبُ الحلَّ في الدنيا.

من هنا توجَّهتُ - وأرجو أن يكون هذا من توفيقِ ربِّي - لسدِّ هذه الثغرة، مُحاولًا تقريب القرآن للغة العصر، بمنهجٍ عمليٍّ، ونظرةٍ شموليَّةٍ بنائيَّةٍ، مُضمِّنًا الأجوبة التي يشيع التساؤل عنها هذه الأوقات في مظانِّها من الآيات، تاركًا تفاصيل الاستنباطات الفقهيّة، والإشارات

---

(١) رواه أبو داود: ٣/ ٣٥٤ والترمذي: ٥/ ٤٨ وابن ماجه: ١/ ٨١.

البلاغيّة، والمسائل الإعجازيَّة، ونحو ذلك إلى الثروة الهائلة التي سطَّرَها المفسِّرُون قديمًا وحديثًا، ففي ذلك غِنًى لطالب العلم الراغب في التدقيق والتوسُّع والازدياد.

إن هذه الإضافة لن تكون تكرارًا لما سبق، ولن تكون بديلًا عنه، بل هي إضافةٌ تُمْلِيها طبيعة العصر الذي نعيش فيه اليوم بخصوصياته وتحدِّياته، تجمعُ ما يحتاجُهُ اللاحِقُون إلى ما قاله السابقون، بطريقةٍ تراكميَّةٍ وبنائيَّةٍ.

وهذه صفة الاجتهاد المقبول في كلِّ بابٍ من أبواب العلم أصولها وفروعها، الاجتهاد الذي يبني ولا يهدم، ويوصل ولا يقطع، فكلّ كلمة في تراثنا العزيز هي محل الاحترام وإن كانت بحد ذاتها مرجوحة أو خاطئة، فالمعرفة النامية لا تؤسسها الأفكار الصائبة فقط، وإنما المراجعة والترجيح والتصويب هي التي تُكوِّنُ الذاكرة العلميَّة، والخبرة المعرفيَّة القادرة على التصحيح وضبط المسار المأمون نحو المستقبل الأفضل، وهكذا يكون كل اجتهاد بصوابه وخطئه إنما هو حلقة في هذه السلسلة المديدة، ولبِنَة في هذا البناء الشامخ.

هذا وقد اقتضَت طبيعةُ هذا الجُهد والغاية المتوخَّاة منه مع مُراعاة المقدِّمات السابقة، اعتِمادَ منهجٍ علميٍّ مُحَدَّدٍ يُمكن تلخيصُ ركائزه في الآتي:

أولًا: الانطِلاقُ من تشخيصٍ دقيقٍ لحاجةِ هذا الجيل إلى ما يُمكِنُه من فَهْم القرآن فهمًا يُعينُه على بناء شخصيّته الإسلاميّة، وتجديد هويّته ونظرته إلى الكون والحياة، وإلى هذا العالَم المتحرِّك من حوله، وامتِلاك الأجوِبَة المُناسِبة للأسئلة والتحدّيات الداخلية والخارجية، والتي باتَت تُلاحِقُه في كل شأنٍ من شُؤونِ حياته.

ثانيًا: الانطِلاقُ من فرَضيّة السياق الموضوعي الموحَّد للسورة، واتِّساق المسائل التي تُعالِجُها، ومن ثَمَّ اختيار العنوان الموحَّد لكل مجلسٍ، ثم ربط كل مجلسٍ بما قبله وبما بعده بحسب ما يَقتَضِيه السياق.

ثالثًا: اعتِماد الرؤية الشاملة لُمحكَمات القرآن، وقِيَمه ومبادئه ومقاصده الكليّة؛ لتجنُّب الوقوع في أي تدبُّرٍ أو تفسيرٍ جزئيٍّ يُصادِم رسالةَ القرآن وغاياته الكبرى، فكل مُتشابِه ينبغي أن يُردَّ إلى المُحكَم، وكل فرعيٍّ ينبغي أن يُردَّ إلى أصله الكليِّ.

رابعًا: الاعتِمادُ أولًا على فَهم القرآن بالقرآن؛ إذ القرآن يُكمّل بعضُه بعضًا، ويُفسِّر بعضُه بعضًا بقواعده الكليّة، أو بآياته التفصيليّة، مع مُراعاة التطبيق النبوي والسياق التاريخي المُستنِد أساسًا إلى فَهم السيرة النبوية الشريفة، وما يُميِّز كلّ مرحلةٍ فيها عن مراحلها الأخرى؛ إذ إنَّ نزول القرآن الكريم مُنجَّمًا ومُفرَّقًا إنما كان بالأساس ليُواكِب حاجةً مُتجددةً ومُتغيّرةً بحسب تغيُّر الظروف المحيطة بهذه الدعوة المباركة.

خامسًا: الاستِهداءُ العلميُّ والموضوعيُّ بأقوال المفسِّرين على اختِلاف مناهجهم، من دون ذِكر هذه الأقوال ولا مُقارنتها؛ إذ إنَّ هذا – على أهميته – من شأنه أن يُخرِجَ الكتابَ عن خصوصيَّته المنهجيَّة والموجّهات التي ينطلِق منها، فالكتاب ليس كتابا مُوسَّعًا، ولا كتابًا مُقارنًا، كما إنه ليس كتابًا تخصُّصيًّا يُلبّي حاجة الباحثين المتخصصين في هذا العلم، أو العلوم المُلاصِقة والمُصاحِبة.

وبناءً عليه وعلى ما تمّ تأكيده أيضًا في المقدمات الموجَّهة، فإنه ليس مُتوقَّعًا من هذا الكتاب أن يتوسَّع في الدلالات اللغوية والبيانية، ولا في الاستنباطات الفقهية التفصيلية، ولا في مسائل الإعجاز العلميِّ ونحوه، ولا في مسائل الناسِخ والمنسوخ، وروايات أسبابِ النزول وغيرها، إلا بالقَدر الذي يُناسِبُ خصوصية هذا الكتاب، مع التنبُّه إلى أنّ هذا لا يعني التسطيحَ في البحث والمعالجة، والاتّكاء على المنهج الوعظي أو العاطفي المجرَّد، فإنَّ مُعالَجَة التحديات التي تُواجِهها الأمم في ميادينها المختلفة والإجابة عن أسئلتها الكبرى في الحياة، ودراسة أسباب نَكسَتها ومقوِّمات نَهضَتها، كل ذلك يتطلَّبُ منهجًا علميًّا رصِينًا، ونظرةً شاملةً كليّةً مع بحثٍ في غاية العُمق والدقة، وجُهدًا مُركَّزًا ومُتواصِلًا لا يقِلُّ عن الجهد الذي تتطلَّبُه المعالجات العلمية التخصصية والتفصيلية.

والواقع الذي تعيشُه أُمَّتُنا اليوم يشهَد بهذه الحقيقة، ويشهَدُ كذلك بالفراغ الكبير والخطير الذي تُعانِي منه أُمَّتُنا في هذا المجال، رغم ضخامة المصادر العلمية التخصصية، وكثرة المؤلَّفات والبحوث المختلفة فيها.

سادسًا: بناءً على ما تقدَّم، فإنّ المتوقَّع من هذا الكتاب:

- تقديم تدبُّرٍ علميٍّ وعمليٍّ مُيسَّرٍ وسهلِ الفَهم بالنسبة لعامة القرَّاء، يُعينُهم على تصحيحِ حياتهم، وبناء شخصيّاتهم بما ينسَجِم مع رسالة القرآن ومقاصده الكليّة.

- إبراز منهج القرآن في بناء الأمة والمجتمع المسلم، وطريقته في إدارة المجتمعات، وحلّ مُشكلاتها، ورسم معالم النهوض لها.

- رسم الخارطة الكليّة لمنظومة القِيَم الإسلاميَّة، وبيان دورها في بناء الفرد والأسرة والمجتمع، وعلاقة هذه المنظومة بأركان الإيمان، وأحكام الشريعة التفصيلية، في تصوُّرٍ بنائيٍّ مُتكاملٍ بعيدًا عن القراءات المجزَّأَة، والاستِدلالات المقطَّعَة.

- مُعالجة القضايا المعاصرة في ضوء المقاصد الكليّة والمنظومة القِيَميَّة، والتجارِب الدعوية الثريَّة في القصص النبوي وغيره، إضافةً إلى الأدلة التفصيليَّة المباشرة.

- تيسير التدبُّر التفصيليِّ لكل آيةٍ أو كلمةٍ تحتاجُ إلى تفسيرٍ، وذلك في الفصل المُلحَق بكل مجلسٍ، والذي يأتي تحت عنوان (دقائِق التفسير)، مع مُلاحَظَة أن هذه الدقائِق إنما هي خُلاصة ما تتبَّعَه المؤلف - غفر الله له - في كتب التفسير، بما يرَاه راجِحًا ومُتناسِبًا مع منهجيَّة هذا الكتاب، وجُمهور المُخاطَبِين به.

المقدمة العاشرة:

وقد كان من نِعَمِ الله على كاتب هذه الكلمات أن هيَّأَ الله له صحبةً طيِّبةً، ومشاركةً طويلة في مجالس القرآن العامرة والمنتشرة في دولة قطر المحروسة، والتي تضمُّ حلقات دوريَّة أسبوعيَّة، كلما انتهت ختمةٌ بدأت ختمةٌ ثانية وهكذا، وقد قدَحَت في ذهني هذه المجالس فكرة (مجالس التدبُّر)؛ لتكون صنوًا ورديفًا لمجالس التلاوة.

فجاء هذا الجهد مُقسِّمًا للآيات على مقاطع، لكلِّ مجلس مقطع، مُراعيًا - قدرَ المستطاع - الوحدة الموضوعيَّة للمقطع؛ بحيث يتم المعنى دون توقف أو انتظار، وبما يقتضيه وقت المجلس المعتاد، ففي كلِّ مجلس هناك موضوع محوري يربط بين مجموعة الآيات هذه وبين

التساؤلات الكبيرة المطروحة في مجتمعاتنا اليوم، ثم يتم التعريج في كلِّ مجلس على دقائق التفسير وما فيها من لطائف وفوائد.

وكما يصلح هذا التقسيم للمجالس المعروفة، فإنه يصلح كذلك للرجل مع أهل بيته، وللأمِّ مع أولادها، وللأصدقاء فيما بينهم، بمعنى: أن هذا الجهد قد راعَى الجانبَ التربويَّ العمليَّ، مع مُراعاته لحاجة التدبُّر العلمي الهادف.

وفي الختام:

فإذا كان التفسيرُ - كما أسلَفنا - نوعًا من الاجتهاد؛ فإن المجتهد لا تبرأ ذمته بعد إحضار النيَّة الصالحة إلا بشرطين: بذل الوسع من الجهد، وتوخِّي الأمانة في النقل والتحليل والاستنتاج، مع التنزُّه عن شبهة التحيُّز، ولوثة التعصُّب.

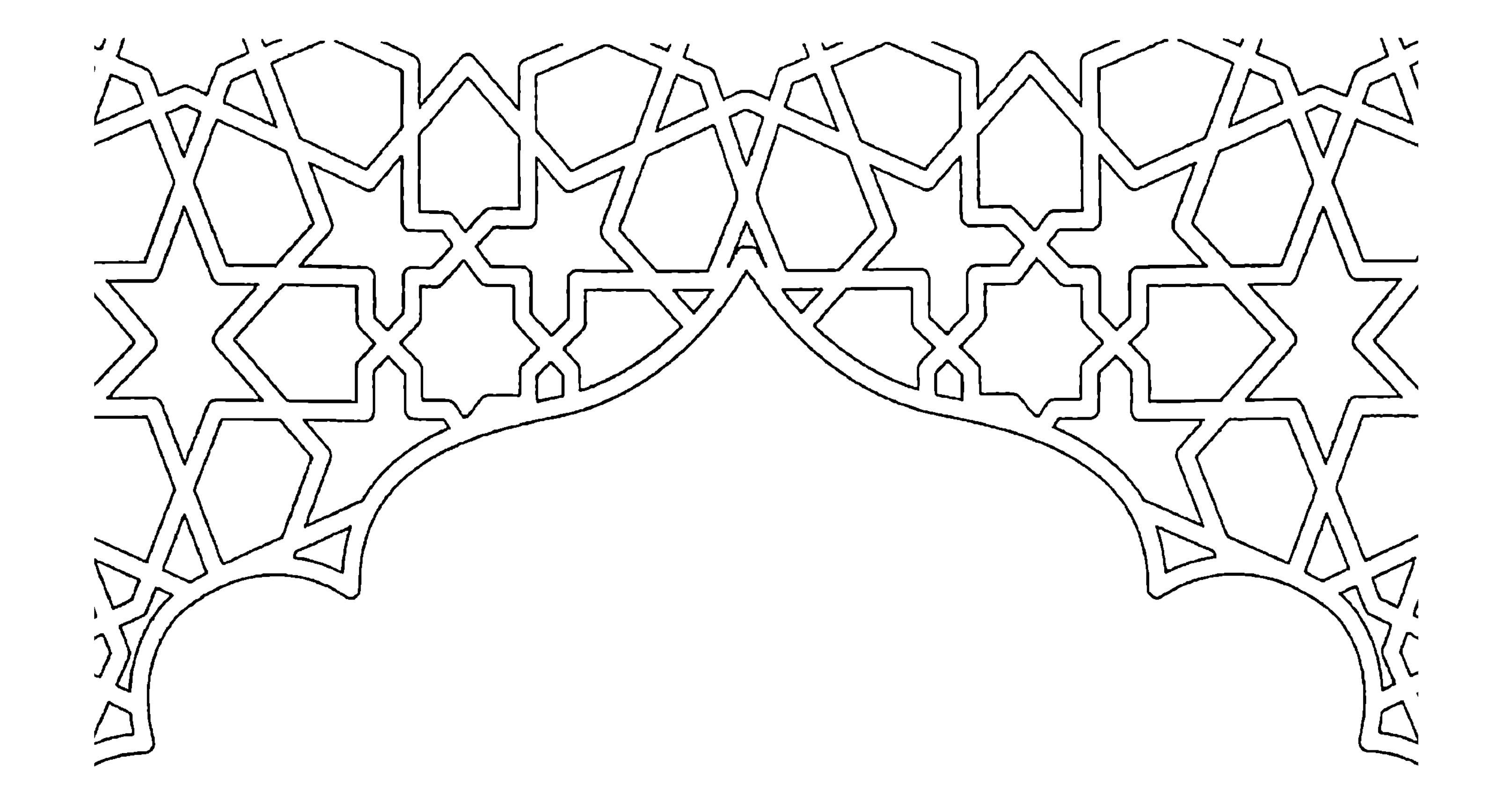
وهذا كله بيني وبين ربِّي، ويا ويل كاتب هذه الكلمات إن ردَّ الله عليه تعَبَه ونصَبَه لشهوةٍ نفسيَّةٍ، أو نعْرةٍ عصبيَّة، جعَلَتْه يَحرِف كلمات الله عن معانيها، ويشطُّ بها عن سياقها.

هذا وقد هيَّأ الله لي مَنْ ساعَدَني في بناء المنهجيَّة، والتنبيه على القواعد المرعيَّة، ثم المراجعة الأخيرة والشاملة الشيخَين الفاضِلَين: **الشيخ الدكتور إبراهيم الأنصاري**، سليل العلماء الصُّلَحاء، وصاحب الفقه الواسع، والنظر الثاقب والناقد، **والشيخ الدكتور محمد المصلح** ابن بيت القرآن، وصاحب العقل المنهجي المتميز.

أما الذي تولَّى المراجعة الدقيقة مضمونًا وأسلوبًا ولغةً فهو **الشيخ الألمعي الدكتور وليد فائق الحسيني السامُرَّائي**، خرِّيج المدارس الأصيلة، وصاحب الإجازات الجليلة.

جزاهم الله خيرًا على ما نصَحُوا وقدَّمُوا.

أما الذي يتحمَّلُ المسؤولية كاملةً عن كل خطأٍ، أو سهوةٍ، أو غفلةٍ، فإنما هو العبدُ الفقيرُ، وإخواني هؤلاء منه بَرَاء، وتبقَى حاجتي قائمة لهم ولغيرهم من المُحبِّين والناصحين للتذكير والدعاء؛ فإنما العلمُ رَحِمٌ بين أهله، والله يغفر لنا ولهم ولجميع المسلمين.



سُورَةُ الفَاتِحَةِ

المجلس الأول: المنظومة القيميَّة

سُورَةُ الفَاتِحَةِ

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾﴾

المنظومة القيمية

ذكر العلماء خصائص كثيرةً لهذه السورة المباركة مبسوطة في مظانِّها من علوم القرآن والتفسير، بَيْدَ أن ميزتها الكبرى والأظهر إنما هي وجوب قراءتها في كل ركعة، يقول ﷺ: «**لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ**»(١)، وهذا يستلزم وجوب حفظها على كل مصلٍّ، وتكرارها في اليوم الواحد سبع عشرة مرة، عدا قراءتها في النوافل والأذكار الراتبة ونحوها، وإذا قام المسلمون بهذه الواجبات الجليلة فإن قاعدة إيمانية وقيمية صلبة سيلتقون عليها تتجاوز الحدود السياسية والعِرقية والطبقية.

إن هذا الدور الكبير الذي خصّ الله به سورة الفاتحة لا بد أنه مستند إلى خصوصيَّة ذاتية في هذه السورة، ومعانٍ نفيسة لا توجد في غيرها من سور القرآن، كما ورد في الحديث الصحيح عن أبي هريرة ﷺ، أن النبي ﷺ قال – وقرأ عليه أُبَيٌّ أمَّ القرآن – فقال: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا أُنْزِلَ فِي التَّوْرَاةِ، وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ، وَلَا فِي الزَّبُورِ، وَلَا فِي الْفُرْقَانِ مِثْلُهَا، إِنَّهَا السَّبْعُ الْمَثَانِي، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُعْطِيتُ**»(٢).

---

(١) متفق عليه من حديث عبادة بن الصامت ﷺ، ينظر: صحيح البخاري (١/ ٢٦٣/ دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧-١٩٨٧م)، وصحيح مسلم (١/ ٢٩٥/ دار الجيل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).

(٢) رواه بهذا اللفظ أحمد في «مسنده» (٢/ ٣٥٧/ المطبعة الميمنية، ط. ١٣١٣هـ، تصحيح محمد الزهري الغمراوي)، عن أبي هريرة ﷺ، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح غير سليمان بن داود فقد روى له أصحاب السنن، وهو ثقة جليل =

وهذا ما ينبغي البحث فيه، والتأنِّي في تدبُّره، واستجلاء أسراره.

إن مفتاح الجواب يكمُنُ في وصفه ﷺ لهذه السورة بأنها (أمُّ القرآن)، أخرج البخاري وغيره عن أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «**أُمُّ الْقُرْآنِ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ**»[1]، ولا شك أن أُمَّ الشيء أصله، فالفاتحة هي أصل القرآن، وقد استنبط ابن عاشور معاني نفيسة لتأكيد هذا المعنى، فأرجع كل مواضيع القرآن إلى معانٍ موجودة في سورة الفاتحة؛ من التوحيد، والعبادة، والشريعة، والأخلاق، ونحوها، وهو ما يُمكن أن نُجمِله فيما باتَ يُعرف اليوم بـ (المنظومة القِيميَّة):

القيمة: هي المعيار الذي نزِنُ به الأفكار والسلوكيات الفردية والجماعية، والمنظومة تعني: تلك القيم المترابطة والتي تشكل بمجموعها معيارًا كليًّا تستند إليه الأمة في بناء تصوراتها وأحكامها الكليَّة، ومنطلقاتها الثقافيَّة والأخلاقيَّة.

إن المنظومة القيميَّة تعني: هُويَّة الأمة، وإنما تتمايز الأمم والمجتمعات البشريَّة على وِفْق تمايزها في منظوماتها القيميَّة، وأما الحاجات الحياتيَّة للإنسان، وكذا الرغبة في تحصيل العلوم وأسباب الغنى والقوَّة، ووسائل الرَّفاه والرَّغادة والحضارة، فهذه كلها مشتركات إنسانيَّة لا تُميِّز أمَّةً عن أمَّةٍ، ولا مجتمعًا عن مجتمعٍ إلا كما يتميَّز الغنيُّ عن الفقير، والصحيح عن السقيم.

إن صناعة الهويَّة يعني: صناعة الأمَّة، بهذا المستوى وتحت هذا العنوان ينبغي أن ننظر إلى خصوصيَّة (الفاتحة).

إن القِيَم الكبرى التي جاءت بها سورة الفاتحة من شأنها أن تؤسس لأمة جديدة بهويَّة جديدة؛ من أجل ذلك كانت الفاتحة هي السورة الوحيدة التي يجب على كلِّ فردٍ في هذه الأمَّة أن يحفظها ويكررها، أما هذه القيم فيمكن تلخيصها في الآتي:

= كما رواه بنحوه الترمذي في «جامعه» (٥/ ١٥٥/ دار إحياء التراث العربي، تح أحمد شاكر) عن أبي هريرة أيضًا، وقال: حديث حسن صحيح، وله روايات بألفاظ تُقارِبُه في المعنى.

(١) ينظر: صحيح البخاري (٤/ ١٧٣٨/ دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧- ١٩٨٧م).

١) البسملة:

البسملة كلمةٌ منحوتة تعني قول: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وقد أشبعت هذه المقولة بحثًا من حيث دلالاتها العقديَّة والفقهيَّة واللغويَّة، بَيْدَ أن الذي يعنينا هنا كونها قيمة أساسًا في منظومة القيم التي عنِيَت بصياغة هويَّة الأمَّة، فالأمَّة الإسلاميَّة تستفتح كل أنشطتها الهامَّة العامَّة والخاصَّة بهذه المقولة، إنها لا تستفتح باسم السلطان الحاكم، ولا باسم الشعب المحكوم، ولا باسم الحزب أو القوميَّة أو العشيرة، إن البسملة هنا هي كلمة السر في علاقة الإنسان بالغيب، وعلاقته بهذا الكون، وعلاقته بأخيه الإنسان الذي يشاركه في عقيدته وهويته.

٢) الرحمة:

ومعناها: إرادة الخير للآخر، وليست الرقَّة سوى وصف مُقترن بهذه الإرادة بحقِّ البشر لكنها ليست لازمة، ولا واردة بحقِّ الله، وتكرار المسلم لكلمة الرحمة أربع مراتٍ في كلِّ ركعة من شأنه أن يجعل قلبه وضميره يتشرَّب هذه الصفة، فهي وإن جاءت في مقام الصفة الإلهيَّة، إلا أن انعكاسها في نفس التالي حاصل بالضرورة، وتكرار الرحمة بهذين الاسمَين العظيمَين ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ دون ذِكرٍ لأسماء الله المقابلة مثل: (القهّار)، و(شديد العقاب) في سورة الفاتحة يُوحِي بتغليب صفة الرحمة، وأنها هي الأصل، وأن ما يُقابلها استثناء تقتضيه حالات استثنائية؛ ولذلك ورد في الحديث القدسي: «سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي»

إنَّ غرس هذه القيمة في وجدان الأمة المسلمة يجعل هذه الأمة صاحبة رسالة إنسانيَّة وكونيَّة، وأن استعمالها للقوة ليس إلا استثناء كذلك بحسب طبيعة التحدِّي وقسوة المعتدي، كما أن نزولها إلى المستويات المعتادة للأمم والشعوب الأخرى في حلِّ مشاكلها وحسم صراعاتها إنما هو تَخَلٍّ عن هذه الرسالة.

---

(١) رواه مسلم (٤/ ٢١٠٧/ دار الجيل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين) بهذا اللفظ عن أبي هريرة رضي الله عنه، وأصله في البخاري عن أبي هريرة أيضًا، وفيه زيادة، ينظر: صحيح البخاري (٦/ ٢٧٤٥/ دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧ - ١٩٨٧م).

إن قيمة الرحمة هي القيمة المحوريَّة للرسالة الإسلاميَّة ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، فهذا الاستثناء بعد النفي يفيد الحصر، وهو بمثابة قولك: ما الإسلام إلا رحمةٌ، وعليه فإن الخيط الناظم لمفردات الرسالة وأحكامها التفصيليَّة إنما هو الرحمة، وهذا ما ينبغي ملاحظته لكل مُجتهِدٍ ومُستنبطٍ ومُتدبِّرٍ.

٣) التوحيد:

وهو القيمة الإيمانيَّة الكبرى، فهو أصلُ الإيمان، وبابُ الإسلام، وهو دعوة الأنبياء جميعًا، وهو اليوم مَيْزةٌ لهذه الأمَّة بعد أن دخل الشرك في المِلَل الأخرى، وأسهَمَ التحريفُ المُتعمَّد للكتب السماويَّة السابقة في ضياع التوحيد واختلاطه بكثيرٍ من المعتقدات الوثنية.

لقد جاء التوحيد في سورة الفاتحة بأكثر من صيغة؛ فالبسملة هي توحيدٌ مَحْضٌ، وكذا الإقرار بربوبية الله المطلقة ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ثم في العهد العملي ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ ولا يَخفَى هنا ما يَعنِيه تقديم المفعول على الفاعل وفعله من إعلان الاختصاص والتفرُّد، وقد تضمَّنَت الفاتحة أيضًا الإقرار بأسمائه وصفاته تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾.

٤) الإيمان باليوم الآخر:

وهي القيمة الإيمانيَّة الأخرى المتعلقة بتكوين الدافعيَّة الذاتيَّة للعمل الصالح، فالإيمان باليوم الآخر ليس إيمانًا فلسفيًّا بوجود الحياة الأخرى، وإنما هو عقيدة جزائية، فما يفعله الناس هنا يلقونه هناك خيرًا بخيرٍ، وشرًّا بشرٍّ، ومن هنا جاءت تسميته هنا باسم: ﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ أي: يوم الحساب، وكل ما ورد في القرآن من وصف البعث والحشر، والجنَّة والنار، إنما هو تفسير وتفصيل لما ورد هنا في أمِّ الكتاب.

٥) الهداية:

ومعناها: العلم النافع المؤدِّي إلى العمل الصالح، وهذا التخصيص مقصود لربط المعرفة بالسلوك، فقوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا﴾ فيه إضافة دقيقة وجليلة على ما لو قال: (علِّمنا)، ويدرك أهميَّة هذه الإضافة من نَظَرَ إلى حال العالَمِ اليوم وشقائه بسبب صنوفٍ من العلم استُعمِلَت في صناعة الأسلحة التدميرية الشاملة؛ كالأسلحة النووية، والبيولوجية، والكيمياوية، وكذلك استخدام الخبرات السياسيَّة والإدارية

المتراكمة في استعمار الشعوب وقهرها وتفكيكها، حتى اقترنت السياسة بالكذب، واقترن الاقتصاد بالظلم، واقترن الذكاء بالشيطنة، فعاد العلم سببًا في شقاء البشريَّة كما كان سببًا في سعادتها، بينما مقصود الهداية تهذيب العلم وتوجيهه لتحقيق السعادة العامة.

٦) العدل:

وهو المقصود بـ: ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ وهو العدل الشامل في كل علاقات الإنسان، بينه وبين خالقه، وبينه وبين أخيه الإنسان، وبينه وبين كل الكائنات في هذا الكون الرحيب، وكل أحكام العلاقات التي وردت في القرآن الكريم إنما هي تفسير وتفصيل للصراط المستقيم.

٧) المساواة:

وهي غير العدل، فالعدل هو الحق، والناس مُتفاوتون في استحقاقاتهم؛ ولذلك نفى القرآن المساواة في كل ما يتفاوت فيه الناس علمًا وعملًا، فقال: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وقال: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٩٥]، بيد أن المساواة الواجبة إنما تكون في الحق الإنساني العام، فلا يتعالَى أصلٌ على أصل، ولا لونٌ على لون، وهذا هو المُستنبَط من قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ والذي فصّله القرآن في مثل قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، فالناس كلهم واحد من حيث وحدة المصدر، ووحدة الخلق، ووحدة المصير.

٨) العمل الجماعي:

فكل الأفعال الواردة في هذه السورة إنما جاءت بصيغة الجمع: (نعبد، نستعين، اهدِنا)، وهي إشارة لطيفة للتعاون على الخير، حتى في الدعاء والعبادة، ومن ثَمَّ تأكَّدَت صلاة الجماعة، ووحدة الصيام والفطر، ووحدة المناسك في الحج، والتواصل بين الفقراء والأغنياء في الزكاة، ثم تأكَّدَت هذه المعاني في الآداب الإسلامية التواصلية مع الجار، والصديق، والرحِم، وهكذا.

٩) الولاء لأهل الحق:

وهم أهل الصراط المستقيم، الذين أنعَمَ الله عليهم بالهداية، فالإسلام لم يَأتِ لبناء علاقة ثنائيَّة بين العبد وخالقه فحسب، بل لبناء العلاقة بين العباد أنفسهم؛ فالمؤمنُ السائرُ على الصراط المستقيم عليه أن يتذكَّر أنه لا يسير لوحده، بل معه إخوان وأخوات عن يمينه وشماله، ومن أمامه ومن خلفه، وقد جاء تفصيل هذا المعنى الجميل في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

ومن الخطأ الفادح أن يظنَّ ظانٌّ أن هذا الولاء هو انعزال عن البشريَّة، فضلًا عن إعلان الحرب عليها، كيف والله يقول: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، والآية الأولى في هذه السورة بعد البسملة هي قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ وإنما الربُّ هو المالك المُدبِّر المُربِّي، فهل رأيتم مالكًا يُريدُ بمُلكِه الخراب؟! وهل رأيتم ربًّا يُريدُ بمربوبِيْهِ الشَّرَّ؟! كيف، والله بعث موسى إلى فرعون على جبروته وطغيانه فقال: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ [طه: ٤٤].

إن الولاء لأهل الحقِّ معناه تعزيز مقوِّمات الخير في البشريَّة، وهذا ما نصَّ عليه القرآن بقوله: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، فأمَّةُ الحقِّ تتعاون وتتناصر فيما بينها، وتتمايز عن الباطل؛ لتكون أقدَرَ على هداية الآخرين وتقديم الخير لهم، وليس للانتقام منهم، أو سحق وجودهم وحقوقهم.

١٠) التمايز عن أهل الباطل:

وهم الذين تنكَّبُوا الصراط المستقيم، إما عن هوًى، وعنادٍ، وحسدٍ، ومكابرةٍ، وهم: ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ وإما لالتِباسِ الأمور عليهم بسبب حملات التشويش، والتضليل، والتقليد الأعمى، وعدم الرغبة في التعلُّم، وهم: (الضالُّون)، وكلاهما يسير بعكس طريق الهداية، فالأولون امتلكوا العلم لكنَّهم كتموه وحرَّفوه لمرضٍ في قلوبهم، فاستحقوا غضبَ الله، والآخرون جهِلُوا الحقَّ وكسلوا عن البحث فيه، ورضوا بما هم عليه.

ولئن كان المُفسِّرون قد قصَروا الصنف الأوَّل على اليهود، وقصَروا الصنف الثاني على النصارى؛ فإن ذكر الوصف في هذه السورة دون ذكر الموصوفين يوحي بإمكانيَّة القياس، فكلُّ عالمٍ يتعمَّدُ مخالفة الحقِّ بلا عذرٍ، فهو مغضوبٌ عليه عند الله، وإن كان لليهود من ذلك النصيب الأوفر، وكلُّ جاهلٍ مُقيمٍ على جهله، ولا يُكلِّفُ نفسَه عناءَ البحث غرُورًا بما عنده، أو تقليدًا لكُبرائه، أو تكبُّرًا على الآخرين، فهو ضالٌّ، وإن كان للنصارى من ذلك النصيب الأكبر، والله أعلم.

وهذان الصنفان يقفان حائلًا دون وصول الخير لعامَّة الناس، ومن هنا وجب التمايُزُ عنهم؛ ليكون الناس على بيِّنة، ولا يعني هذا التمايُزُ حِرمانَهم من حقِّ النصح والتواصل الإيجابي، كيف والقرآن نصَّ على هذا بقوله: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، وهل أهل الكتاب إلا اليهود والنصارى؟!

بقِيَ أن نتنبَّه إلى حقيقةٍ كبيرةٍ، وهي: خُلوُّ سورة الفاتحة من الإشارة إلى الشهادة الثانية، والركن الأهم بعد التوحيد: (الإيمانُ بمحمدٍ رسول الله)، وحينما تكون الفاتحة هي أمُّ القرآن، والمتكفّلة بصناعة هويَّة الأمَّة وقاعدتها الصلبة، فإننا أمام تساؤُلٍ يحتاج إلى نظرٍ وتدبُّرٍ عميقٍ.

والأقربُ في هذا: أنَّ الإشارة قد ورَدَت في القِيمَة السابعة، وهي الولاءُ لأهل الحقِّ؛ فقولُ المسلم في كلّ ركعةٍ: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ يُذكِّرُه بإمام هذا الجمع المبارك، والسبب الأساس في هدايته، وحصول النعمة له، وهو الرسولُ الأكرم ﷺ.

وقد اكتَفَت الفاتحة بهذه الإشارة؛ تأكيدًا لبراءة القرآن عن كلِّ نزعة بشريَّة، فلو صحَّت شبهة المكابرين بنسبة هذا القرآن لمحمدٍ، فلماذا يتعمَّدُ مُحمدٌ أن يحذِفَ اسمَه من أمِّ القرآن، وهي التي يقرؤها كلّ المسلمين صباح مساء؟! ولماذا يحرم نفسه من هذا الذكر وهذا المجد الذي ما بعده مجد؟!

لقد استبانَ في هذه القيم العشر أن مهمَّة الفاتحة إنما هي صياغة الخطوط العريضة، والمعالم الرئيسة لهويَّة الأمَّة وخصوصيَّتها، وطبيعة الرسالة التي تحملها لهذا العالم.

﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ معمولة لفعل محذوف تقديره هنا (أقرأ)، وهذا هو المتَّسق مع قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، وقد جرى حذفُ الفعل في البسمَلَة لسببَين:

الأول: تخفيفًا لكثرة التكرار، ولأنه معلومٌ بقرينةِ الحال.

والثاني: أنَّ البسملة تُستعمل لغير القرآن في أحوالٍ كثيرة، ولكلِّ حالٍ فعله اللائق به، فأنت تأكل بسم الله، وتشرب بسم الله، وهكذا، ومن ثَمَّ اقتُضِيَ حذف الفعل؛ ليصحَّ تقديره لكلِّ حال بما يناسبه، والله أعلم.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ تقرير حقيقة أن الله يستحق الثناء والتمجيد دائمًا وأبدًا بحكم ربوبيته، بغض النظر عن حال الذاكر الذي قد يكون في نعمةٍ، وقد يكون في مصيبةٍ، وذلك بخلاف الشكر الذي لا يكون إلا في حال النعمة.

وقد جاء تقرير الحقيقة هنا بصيغة الجملة الاسمية، بينما ورد في خطبه ﷺ تقريرها بصيغة الفعل، والظاهر أن حمد العباد لربِّهم يتخذ طابع التكرار والتجدد، فكان الفعل به أَليَق، بينما حمدُ الله لنفسه يتخذ طابع الثبوت واللزوم، فكان الاسم به أَليَق.

هذا وقد يُراد بالاسم طلب الفعل، كما يراد بالخبر الأمر، فالفصل بينهما ليس فصلًا تامًّا، وإنما لحصول معانٍ دقيقةٍ ورقيقةٍ، وفيه أن الحمد لله ذِكرٌ مناسبٌ لخواتيم الأعمال، كما أن البسملة ذِكرٌ يناسب فواتحها، فالمسلم يذكر الله في بداية عمله، ويذكره في خاتمته، والله أعلم.

﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ تقديم صفة الرحمة على يوم الجزاء مُشعِرٌ بالأُنس، وذلك على خلاف عادة البشر في قرنهم الوعيد والتهديد بالحساب، ومصداق هذه الالتفاتة حديث: «**إِنَّ للهِ مِائَةَ رَحْمَةٍ، أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ وَالبَهَائِمِ وَالهَوَامِّ، فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ، وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ، وَبِهَا تَعْطِفُ الوَحْشُ عَلَى وَلَدِهَا، وَأَخَّرَ اللهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ**»(١).

---

(١) رواه مسلم (٤/ ٢١٠٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قدَّم العبادة على الاستعانة، وهذا من حُسن التديُّنِ والتعبُّدِ، وحُسن الأدبِ مع الخالق، فالعبد الصالح يُقدِّم الطاعةَ أولًا ثم يسأل حاجَتَه.

وهنا إشارة بمظنَّة استجابة الدعاء إذا جاء بعد تقديم الطاعة.

﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أول طلب المؤمن إنما هو (الهداية) حتى لو كان محتاجًا إلى غيرها؛ كالصحَّة، والمال، والمأوى، وذلك من حُسن الفقه، وحسن التعبُّد أيضًا.

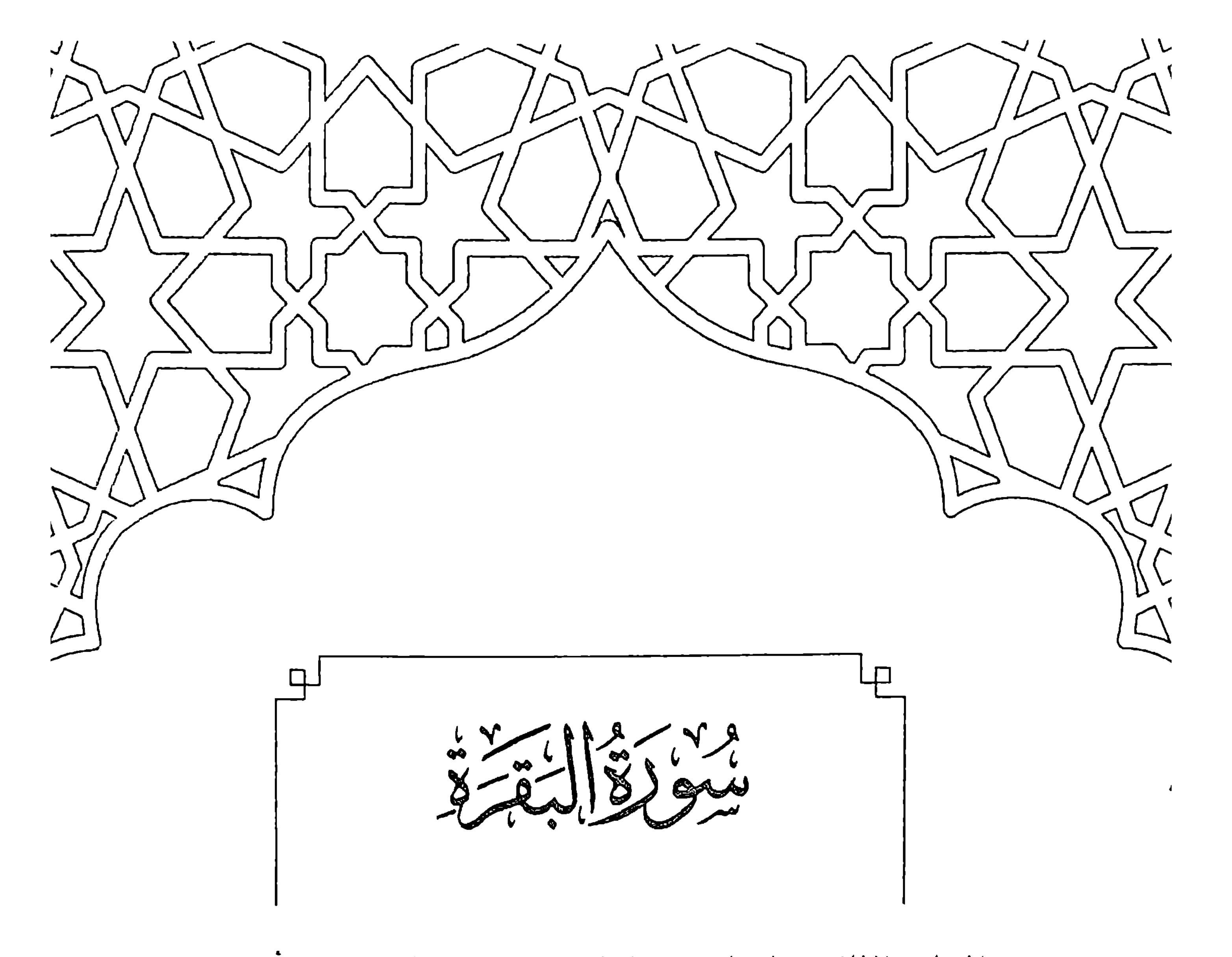
وفيه التبرِّي من حول العبد وقوَّته إلى حول الله وقوَّته، فالهداية لا يدركها بعلمه وذكائه المجرَّد إن لم يكن عنده من الاستعداد الإيماني والروحي ما يُؤهِّله لهذا اللطف.

﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فيه حُسنُ الأدب مع المؤمنين، والسابقين منهم خاصَّة، فأنت تدعُو اللهَ أن يُلحِقَك بهم ويعُمَّك بفضله معهم، وهذا تأديبٌ قرآنيٌّ لطيف يُبعِدُ العبدَ عن شوائبِ الغرور والتعالي على الآخرين، وفي العبارة إشارةٌ أخرى، فحذف النعمة ونوعها والاكتفاء بقوله عزَّ من قائِلٍ: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ يُوحِي بأن النعمة الحقَّ إنما هي الهداية، حتى لو كان معها الفقر والنقص من حظوظ الدنيا، فعاقبة ذلك كلّه إلى خيرٍ ونعمةٍ، كما ورد في الحديث الصحيح: «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**»(١).

وأما المغضوب عليهم والضالُّون فهم ليسوا على نعمةٍ مهما أوتوا من نعيم الدنيا ولذائذها، فإنما العِبرةُ بعواقِبِها ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ [التكاثر: ٨].

---

(١) رواه مسلم (٤/ ٢٢٩٥) عن صهيب الرومي ﷺ.



سُورَةُ البَقَرَة

المجلس الثاني: بناء المجتمع المسلم وتمييزه عن المجتمعات الأخرى

المجلس الثالث: استخلاف الإنسان على هذه الأرض

المجلس الرابع: العهد الإلهي لبني إسرائيل

المجلس الخامس: بنو إسرائيل في خضمِّ التجربة

المجلس السادس: محاكمة ومحاججة

المجلس السابع: دروس ومسائل من وحي التجربة

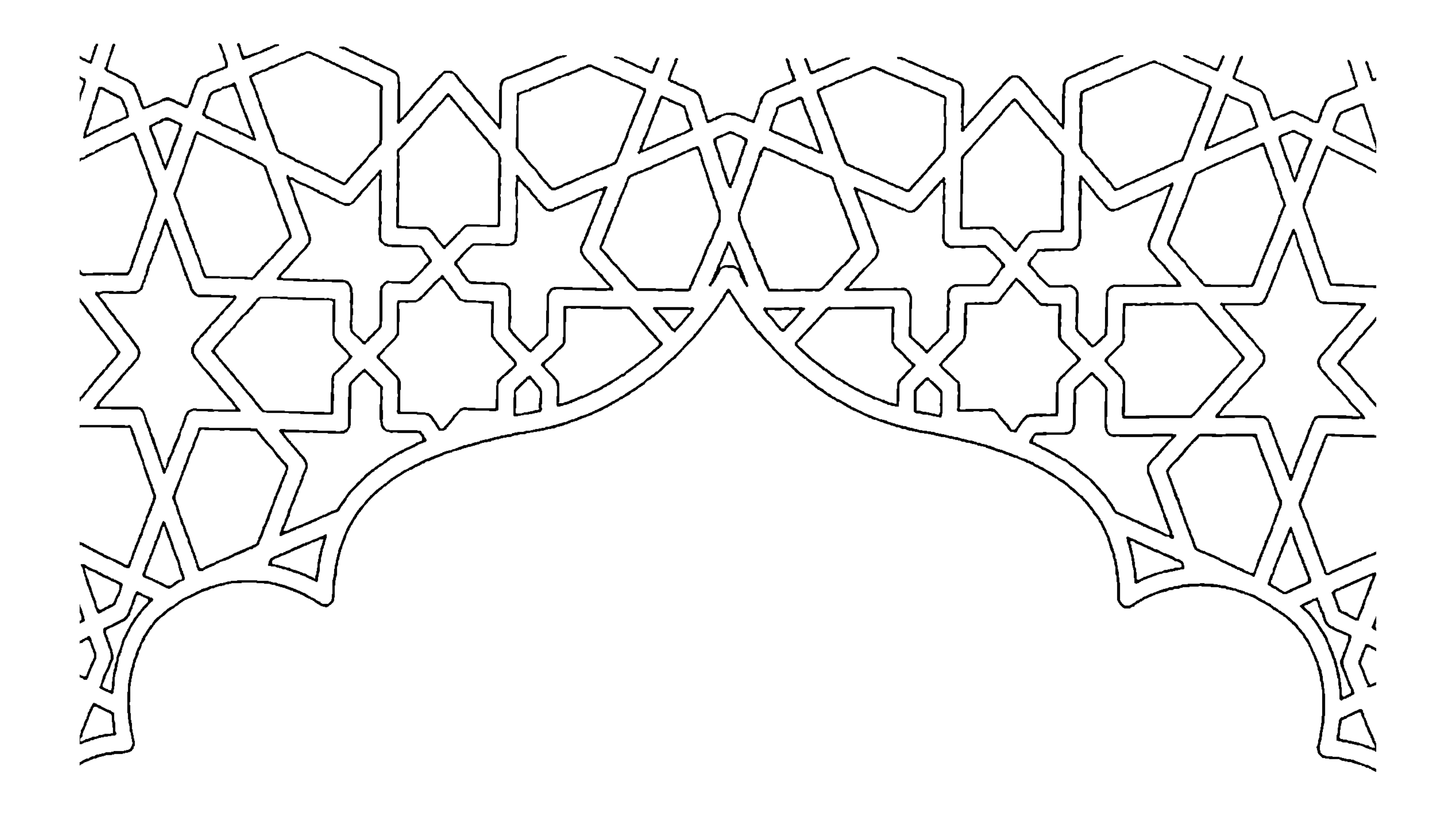
المجلس الثامن: معالم في هويَّة الأمة الجديدة

المجلس التاسع: تمييز الهويَّة

المجلس العاشر: أسباب الضلال

المجلس الحادي عشر: بناء المجتمع

المجلس الثاني عشر : رسالة الصوم



المجلس الثالث عشر: رسالة الجهاد

المجلس الرابع عشر: رسالة الحج

المجلس الخامس عشر: جبهة النفاق

المجلس السادس عشر: يسألونك

المجلس السابع عشر: فقه الطلاق

المجلس الثامن عشر: التربية العسكرية

المجلس التاسع عشر: مجادلات في مسائل الإيمان

المجلس العشرون: فقه الإنفاق

المجلس الحادي والعشرون: فقه العلاقات المالية

المجلس الثاني والعشرون: مُوجِّهات ختاميَّة

﴿الم (١) ذلك الكتب لا ريب فيه هدى للمتقين (٢) الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلوة ومما رزقنهم ينفقون (٣) والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون (٤) أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون (٥) إن الذين كفروا سواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون (٦) ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصرهم غشوة ولهم عذاب عظيم (٧) ومن الناس من يقول ءامنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين (٨) يخدعون الله والذين ءامنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون (٩) في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون (١٠) وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون (١١) ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون (١٢) وإذا قيل لهم ءامنوا كما ءامن الناس قالوا أنؤمن كما ءامن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون (١٣) وإذا لقوا الذين ءامنوا قالوا ءامنا وإذا خلوا إلى شيطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزءون (١٤) الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغينهم يعمهون (١٥) أولئك الذين اشتروا الضللة بالهدى فما ربحت تجرتهم وما كانوا مهتدين (١٦) مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمت لا يبصرون (١٧) صم بكم عمي فهم لا يرجعون (١٨) أو كصيب من السماء فيه ظلمت ورعد وبرق يجعلون أصبعهم في ءاذانهم من الصوعق حذر الموت والله محيط بالكفرين (١٩) يكاد البرق يخطف أبصرهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصرهم إن الله على كل شيء قدير (٢٠) يأيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون (٢١) الذي جعل لكم الأرض فرشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرت رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون (٢٢) وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صدقين (٢٣) فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكفرين (٢٤) وبشر الذين ءامنوا وعملوا الصلحت أن لهم جنت تجري من تحتها الأنهر كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشبها ولهم فيها أزوج مطهرة وهم فيها خلدون (٢٥) ۞ إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها فأما الذين ءامنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا وما يضل به إلا الفسقين (٢٦) الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخسرون (٢٧) كيف تكفرون بالله وكنتم أموتا فأحيكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون (٢٨) هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسوىهن سبع سموت وهو بكل شيء عليم (٢٩)﴾

إذا كانت سورة الفاتحة قد أسَّسَت لهويَّة المجتمع المسلم وقيمه ومبادئه الكبرى، فإن سورة البقرة جاءت لتبسط القولَ في تلك الأُسس، ولتبدأ في عملية البناء المتواصل لهذا المجتمع، وهكذا جاءت فواتح هذه السورة لشرح معاني الإيمان، وبيان مرجعية المؤمنين، وصفاتهم وخصائصهم في مُقارنة طويلة ومفصَّلة مع المجتمعات الأخرى المحيطة بهم، وكما يأتي:

أولًا: تقسيم المجتمع:

في سورة الفاتحة كانت الإشارة إلى ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، و(المهتدين) و﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾، و﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ فالعالمُون هم الخلق قبل تصنيفهم بحسب مواقفهم من ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾، والمُهتَدون هم السائرون على هذا الصراط، والمغضوب عليهم هم الذين تنكَّبُوا الصراط وحادُوا عنه عنادًا واستكبارًا، والضالُّون هم التائِهُون بسبب الجهل والتقليد الأعمى للآباء والكُبَراء.

في مُقدِّمات البقرة جاء التصنيف بطريقة أخرى، والذين تناولوا هذا التصنيف حصَرُوه في ثلاثة: (المؤمنين، والكافرين، والمنافقين)، والذي رأيتُه أنّه تصنيفٌ رباعيٌّ أيضًا، ذَكَرَ الله فيه المؤمنين، فالكافرين، فالمنافقين، ثم رجع إلى ما بدأت به الفاتحة، فهناك قال: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وهنا قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾.

إن التصنيف الأقرب للعدل وللواقع هو التصنيف الرباعي؛ ذاك لأنَّ عامة الناس ممَّن لم تبلغهم الدعوة، أو بلَغَتهم بصورة ناقصة ومشوَّهة وغير مقنعة لا يمكن حشرهم في خانة الكافرين، خاصَّة بالأوصاف التي حدَّدَتها الآيتان السادسة والسابعة في وصف الكافرين.

إنَّ القرآن حينما يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون: ١]، أو ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [التحريم: ٧]، إنما يعني أولئك الذين سمعوا القرآن ووَعَوه، وقامت عليهم الحجة به لكنَّهم رفضوه واتخذوا منه موقفَ الحربِ والعداوة.

أما سائرُ الناس فلا زال القرآن يُخاطِبُهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ يُخاطِبُهم بالقواسم المشتركة بينهم وبين المؤمنين، ومثل هذا خطاب الأنبياء: ﴿وَيَٰقَوۡمِ﴾.

إنَّ هذا التصنيف ليس تصنيفًا اعتباريًّا أو أدبيًّا مجردًا، بل هو تصنيفٌ تُبنَى عليه أحكام شرعيّة دقيقة كما في قوله تعالى: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٨، ٩].

أما التصنيف الثلاثي إلى مؤمنين وكافرين ومنافقين فهو تصنيفٌ بحسب المواقف الحادّة من القرآن الكريم، والقسمة العقلية لا تحتمل غير ذلك؛ فالمرء إما مؤمن به، وإما كافر، وإما مظهر للإيمان مبطِن للكفر، لكن لماذا اعتمد القرآن هذا التصنيف المختلف نوعًا ما عن سورة الفاتحة؟

الأقرب - والله أعلم -: أن تصنيف الفاتحة اعتمد التصنيف بحسب الأسباب والدوافع الرئيسة؛ فالهدايةُ للمؤمنين، والجهل للضالين، والعناد للمغضوب عليهم.

بينما في سورة البقرة اعتمد المواقف الكليّة (الإيمان، والكفر، والنفاق)، وهذا الفارق يتناسب مع خصوصيَّة السورتَين، فالفاتحة - وهي سورة مكيَّة - كانت أقربَ لتقرير الحقائق وليست لبيان الأحكام، بخلاف البقرة والتي هي سورة مدنيّة؛ حيث إن حقيقة المنافقين لا تختلف عند الله عن حقيقة الكافرين، بينما التفريق بينهما ضروريٌّ في التعامل اليوميِّ، وفي الأحكام الفقهيَّة المتعلقة به، وهذا هو الذي بدأت بتفصيله سورة البقرة.

وأخيرًا: فإن المنافقين لم يَظهروا إلا في المدينة؛ وبما أن الفاتحة نزلت في مكّة فقد اكتفى القرآن ببيان أسباب الانحراف إلى الكفر، وهي الأسباب التي تشمل كل الكافرين إلى قيام الساعة.

تجدر الإشارة هنا أن هذا التصنيف إنما جاء بحسب المواقف الكليّة من الإيمان، ولكنّ القرآن له تصنيفات أخرى للمجتمعات الإنسانية وباعتبارات أخرى كثيرة، كقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، و قوله تعالى:﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢] وهناك أيضًا المهاجرون والأنصار، والأعراب والمعاهدون، والمحاربون والمسالمون وغيرهم.

ثانيًا: بيان معالم الهدى:

في سورة الفاتحة اكتَفَى القرآن بقوله: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، وهنا شرع بتوصيف طريق الهدى وبيان معالمه:

١ - التقوى:

وهي القلق الإيجابي، والخوف من الوقوع في الخطأ أو الخطيئة هي الدافع الأول للنظر والتفكير الجاد للتمييز بين الحق والباطل والبحث عن طريق الخلاص، وهذه صفة ذاتيّة لا تقود صاحبها إلا للخير؛ ولذلك قدَّمها القرآن.

٢- الإيمان بالغيب:

وهي أولى ثمار التقوى الذاتيَّة وما تسْتَتْبِعُهُ من صدقٍ في البحث، وشعور بجديّة الأمر، فالكون الذي يحيط بهذا الإنسان لا يمثِّل الحقيقة كلَّها، فالفطرة الصافية والتفكير الجاد يقودان بالضرورة إلى الإيمان بالغيب، الغيب الذي هو مصدر هذا الخلق، والغيب الذي هو مآل هذا الخلق.

فأثر القصد والحكمة ظاهر في كلِّ جزئية من جزئيَّات هذا الكون، بين الذكر والأنثى، وبين الناظر والمنظور، والسامع والمسموع، وبين الإنسان والحيوان والنبات والماء والهواء والضوء والطاقة.

حتى قيل إن حاجة الإنسان للشيء دليل على وجوده، وكذا حاجة سائر الكائنات، فمن الذي لبّى هذه الحاجات؟ ومن الذي نسَّق كل هذا التنسيق بين هذه الموجودات؟

وهذا ما سنرى تفصيلَه في كثيرٍ من سور القرآن.

٣- إقامة الصلاة:

وهي الدلالة الأولى على أن الإيمان بالغيب هو إيمانٌ عمليٌّ ودود وليس مجرّد فلسفة أنتجها النظر العقلي المجرّد، فالله الذي أنزل علينا نعمه لا بدّ أن يصعد إليه منا الشكر والدعاء والثناء الحسن، وتلك هي حقيقة الصلاة في بُعدِها الأول.

٤- إيتاء الزكاة:

وهي ثمرة الإيمان الأولى في البُعد الإنساني، وعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان، لسدِّ حاجة الفقير والمسكين، وهي العلامة على أن الإيمان بالغيب ما جاء ليعزل الإنسان عن محيطه في عالم الشهادة، فالأخذ والعطاء والرزق والنفقة ستستمرُّ بأبهى صورها ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

٥- وحدة الرسالات:

وهي البُعد التاريخي للإيمان ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ فالآخِرُ لا يكفُر بالأول، والحاضر لا ينفصل عن الماضي، والرسلُ جميعًا إنما يؤدُّون رسالة واحدة، ومن مصدر واحد، وإن كانت بفصول متعددة وآماد مختلفة.

ومن اللطيف هنا أنك تجِد في القرآن أسماء النبيين السابقين من آدم ونوح إلى موسى وعيسى أكثر مما تجِد اسم محمد عليه وعليهم أزكى الصلوات والتسليمات.

٦- الإيمان باليوم الآخر:

وهو البُعد المستقبلي الغائي، فحياة الإنسان مديدة أكثر بكثير من عمره المحدود على هذه الأرض، بل إن عمره هنا ليس إلا مقدِّمة اختبارية لنوعية الحياة الباقية التي سيعيشها في ذلك العالم الآخر.

٧- الفلاح:

وهو النجاح الملازم لمن تمسَّك بالصفات الستِّ واستقام عليها، إنه طمأنينة الدنيا وسعادة الآخرة.

ثالثًا: بيان أسباب الكفر:

الكفرُ غطاءٌ يضربه الإنسان بنفسه على عقله وفطرته، ليجحد به ما هو من ضرورات العقل ولوازم الفطرة، فينكر آيات الله في خلقه، ومعجزاته لأنبيائه، والنور المنبثق من وحيه ورسالاته، ولشدَّة وضوح هذا الصنف بصَلَفه وعنادِه لم يَشَأ القرآن أن يطيل في وصف حالهم، وإنما اكتفى بذكر الأسباب الرئيسة لهذا الضلال الظاهر والمكشوف:

١ - العناد:

﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ إنه الموقف المسبق الذي يتخذه المرء لأسباب ليس لها صلة بالفكرة المطروحة، فالكِبر والحسد والحقد والتعصُّب ونحوها كلها دافعات لتبنِّي الحُكم المسبق والذي لا يدع مجالًا للحوار أو الجدال، ولا حتى للتفكُّر والتأمل.

٢- تعطيل الفكر:

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ وهو من لوازِم التكبُّر والمكابرة، ونسبة الخَتم إلى الله إنما كان بحكم إرادة الله المطلقة التي لا تنفصل عن عدله وحكمته، والله لا يظلم أحدًا، لكنها الأسباب والسنن التي وضعها الله في هذا الكون؛ فمن طلب الهدى هداه الله، ومن تكبَّر أضلَّه الله، تمامًا كالذي يأخذ الدواء فيشفى، ويأخذ السمَّ فيَردَى.

٣- تعطيل السمع:

﴿وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ﴾ وقد ورد تأكيد هذا في مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]؛ ولذلك يهربون من مجالسِ الذكر وحِلَقِ العلم، ويملَؤون آذانهم باللهو والعبث.

٤- تعطيل البصر:

﴿وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ﴾ وليست الغشاوة سوى غَبَش الكِبر والعناد، فالعين ترى الظواهر لكنّها لا ترى الحقائق الكامنة فيها، وترى النّور لكنّها تُعرض عنه، إنها محجوبة بالهوى والأنانيَّة والمصالح الآنِيَّة، إنها باختصار لا تريد أن ترى الحق، ولا تريد أن ترى الواقع، وإنما تريد أن ترى ما تشتَهِي.

وقد قيل لأحد الصالحين: كيف رأَت قريشٌ رسولَ الله ثم لم يؤمنوا به؟ قال: إنهم لم يَرَوا رسولَ الله، وإنَّما رَأَوا يتيمَ أبي طالب!

إن ثلاثيَّة القلب والسمع والبصر أكَّدَها القرآن في غير هذا الموضع في مثل قوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: ٣٦]؛ تنبيهًا لمسؤولية الإنسان في فتح كل منافذ المعرفة عنده ليصل إلى الحقيقة، هذا هو واجبه الأول وتلك هي مسؤوليته.

رابعًا: بيان صفات المنافقين:

النفَق هو الطريق الخفيُّ الباطنيُّ المظلم، ومنه النفاق؛ لأنَّ المنافق يبطن الكفر ويتظاهر بالإيمان، فإن بدا شيءٌ من كفره بزلّة لسان وغيبة جَنان عاد ليحلف الأيمان ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [المنافقون: ٢].

ولقابلية هذا الصنف للتخفّي والتلوّن راح القرآن يتلو أوصافهم ويُجلّيها ويضرب لها الأمثال:

١ - إبطان الكفر وإظهار الإيمان:

ولذلك فهم داخلون في مسمّى الكفر حقيقة، وإظهارهم للإيمان لا يُغيّر من حقيقتهم عند الله، ولكنَّه يُؤثِّر في أحكامهم الدنيويّة، وهذا ما سنتوسَّعُ فيه عند تدبُّر سورة (المنافقون).

٢- المخادعة:

وهي صفةٌ مناسبة للنفاق وملازمة له، وهي ليست بعيدة عن معنى النفاق في إخفاء الحقيقة، وتزيد عليه في المكر والكيد.

٣- ضعف الشخصيَّة:

والذي عبّر القرآن عنه بقوله: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ والظاهر هنا أنه غير الحسد والكبر ونحوهما لأنها صفات الكافرين أيضًا، لكنّ الذي يفرق هؤلاء عن بقيّة الكافرين؛ أنّهم ضعاف خائفون متردِّدون، يلهثون خلف شهواتهم القريبة، ولا تليق بهم صفات القوّة والرجولة وإن كانت باطلة كالعناد والتكبّر والشجاعة والاستعداد للتضحية.

٤ - الكذب:

وهو من لوازم ضعف الشخصيّة بخلاف القويّ ولو كان كافرًا، وهي هنا وإن جاءت بمعنى الكذب في ادعائهم الإيمان، إلا أن من استساغ الكذب في معتقده هان عليه الكذب فيما سواه؛ ولذلك ورد في الحديث عن علامات المنافق: «وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ»[1].

---

(١) جزء من حديث متفق عليه عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ، وتمامه: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»، مع اختلافٍ بسيطٍ بين الشيخين، وما أثبَتناه لفظ البخاري، ينظر: صحيح البخاري (١/ ٢١/ دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧- ١٩٨٧م)، وصحيح مسلم (١/ ٧٨/ دار الجيل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).

٥- الفساد بدعوى الصلاح:

فالمنافق مفسدٌ في الأرض، ولا يمكن إلا أن يكون مفسدًا، لكنّه يقرن الإفساد بالتبرير على خلاف الكافر الذي لا يحتاج إلى هذا التبرير، وأوّل ما يفسده المنافق هو بيته، فالمنافق لا يتأتّى له أن يُعلِّم أولاده الصدق والكرامة والمروءة، بل سيزيّن لهم الباطل لتحسين موقفه وتلميع صورته.

وقد رأينا من مُنافِقِي (التقيَّة) ما يُثبت ذلك، حيث يُشجّعون أتباعهم على الكذب والخداع تحقيقا لمصلحة الدين أو المذهب بزعمهم.

٦- ازدراء المؤمنين والاستهزاء بهم:

وهذه الصفة وإن كانت تبدو كأنها مشتركة مع الكافرين غير أن الظاهر أن رمي هؤلاء للمؤمنين مختلف، فأولئك يطعنون في الدين وأهله، وهؤلاء يعظّمون الدين وينتقصون من أهله، كما تعظّم بعض الفرق محمَّدًا ﷺ وتشتم صحابته، ومثلهم من يعظّم القرآن ويطعن في القرّاء والمفسّرين، ويمجّد الحديث النبويّ ويطعن في المحدّثين، ويُقرّ الصلاة والزكاة ثم ينتقص من المصلِّين والمزكِّين، ومقصودهم تجريد الدين من أهله، وتحويله إلى شعارات وعبارات تضمُّها الأوراق والجدران لا القلوب والوجدان.

٧- موالاة الكافرين:

﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ﴾ وهو مثل قوله تعالى في سورة الحشر: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الحشر: ١١] وهو ما يثبت كفرهم وعداءهم للمؤمنين.

٨- غلق منافذ المعرفة عندهم:

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ وهذه صفات الكافرين أيضًا، غير أن الدافع لها مختلف، فذلك يغلقها عنادا وتكبُّرا، وهذا يغلقها بمعنى: أنه يخفي الحقائقَ التي وصلته ويكتُمها ويحرِّفها،

فهو يحرص على السمع والنظر تجسُّسًا ومراقبة، لكنه لا ينتفع بذلك.

وحين يُستشهد لا يشهد بما رأى وسمع، ولذلك فهو (أبكم) مع نطقه؛ لأنه أبكم عن قول الحق.

وهو أيضًا يسمع صواعق الحق لكنه لا يطيقها، فيضع أصابعه في آذانه خوفا من أن تصل كلمة الحق إلى قلبه، وذلك هو صمَمُهم.

٩ - التردد:

﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ ۚ﴾ والتردد هنا لا يعني التردد بين الإيمان والكفر، ولا بين المؤمنين والكافرين، فالقرآن نفى عنهم الإيمان جملة وأثبت لهم الكفر جملة.

وإنما المقصود التملُّق لهؤلاء أو لهؤلاء بحسب المكاسب والمغانم بلا ثوابت من دين ولا مروءة من خُلق، وهم يَعدُّون كل ذلك من السياسة والكياسة.

خامسًا: دعوة الآخرين ومحاجحتهم:

الآخرون هنا هم الناس غير المصنَّفِين، ممَّن لم تبلغهم الدعوة ولم تقم عليهم الحجَّة، ولم يتخذوا موقفًا واضحًا من الإسلام، وهؤلاء هم الذين يوجِّه القرآن إليهم خطابه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾.

وفي الآيات المتبقية من هذا المقطع توجيهات لدعوتهم ومناقشتهم نلخِّصها في الآتي:

١ - الخطاب بالاسم الجامع المشترك:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ ﴿وَيَـٰقَوْمِ﴾، وأما مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [الكافرون: ١] فإنَّما يوجَّه لمن بلغتهم الدعوة فرفضوها واتخذوا منها موقفا عدائيًّا واضحًا.

٢- التذكير بوحدة الخلق والنشأة:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ فلا مفاضلة ولا تمييز في أصل الخلق.

٣- التذكير بنعم الله العامَّة والشاملة لكل النَّاس:

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ﴾، ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾.

٤ - تقديم الدليل البيِّن الواضح:

﴿وَإِن كُنتُمۡ فِى رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ وأنه لا حياء في العلم، واستخدام الوسائل المناسبة لإيصال الفكرة الصحيحة ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ﴾.

٥ - التحذير من عاقبة الكفر ومعاندة الحق:

﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾ والتحذير كذلك من النكوص عن الحق بعد معرفته ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِى ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾.

٦ - البشارة بالخير لكل من اختار طريق الحق وتمسَّك به:

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

دقائق التفسير

﴿الٓمٓ﴾ دَأَبَ كثيرٌ من المفسِّرين عند وصولهم إلى هذه الأحرف أن يقولوا: (الله أعلمُ بمُرادِه) وهو إدخال لها في مسمَّى المتشابه الذي لا يَعلَمُ تأويلَه إلا الله على نظرهم.

ويَرِد على هذا إشكال يصعب دفعه، يتلخص في قبول العرب لهذه الأحرف وسكوتهم عنها دون نكير من كافر أو منافق ولا سؤال من صحابيٍّ أو أعرابيٍّ، وإذا كان الصحابيُّ

يسكت تأدُّبًا، فما الذي جعل الأعراب يسكتون وهم يسمعون كلامًا لا يفهمونه؟ ثمَّ ما الذي جعل المشركين أيضًا يسكتون، والقرآن يُعجزهم ببلاغته وبيانه؟

الذي يترجَّح - والله أعلم - : أنَّ العربَ بمؤمنهم وكافرهم كانوا يفهمون شيئًا ما من هذه الأحرف، وإنما نحن الذين قصرنا عن الفهم بسبب فُشوِّ اللحن.

وأذكر منذ سنين زرتُ بادية عربيّة لا زال الناس يعيشون فيها ببيوت الشعَر والوَبر، وقد اختصموا عندي في مسألة ماليّة، فلمّا كثر اللَّجَاج قام أحدهم وجَثَا أمام خصمه وصار يُبطِّئ بنطق الكلمات كلمةً كلمةً، وحرفًا حرفًا، ويقول: (ألف، باء، تاء ....، فهمت؟!)، والذي عرفتُه آنذاك أنَّه أرادَ أن يقول لخَصمه: لقد فصّلتُ لك ما فيه الكفاية، فلماذا لا تفهَم؟

لقد كان هذا المعنى واضحًا وبسيطًا أدرَكتُه أنا وأدركه الحضور بلا تكلُّف، وكنت تلك الأيام أبحَث في دلالة الحروف المقطّعة وشعرتُ كأنَّ الله ساقني إلى هؤلاء لأتعلَّم منهم هذا الدرس.

ومن القرائن القرآنيَّة على هذا المعنى: أن القرآن قد ذكر التفصيل فعلًا في أكثر من موضع عقب هذه الحروف، مثل: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ١ - ٣]، و﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

أما نعتُ القرآن بالبيان ونحوه عقب هذه الحروف فهو الأكثر والأظهر، وهناك أيضًا قرينة من اللسان العربي؛ حيث تشيع بعض الحروف والكلمات التي لا معنى لها سوى التنبيه على ما بعدها مثل (ألا، و ها) كقولهم: (ألا كل شيء ما خلا الله باطل)، وقولهم: (ها أنا ذا) وقد اتصل بعضها بما بعدها حتى صارا كالكلمة الواحدة، مثل: (هذا، وهذان، وهاتان، وهؤلاء)، فـ (ها) هنا زائدة وليست من أصل الكلمة، بدليل جواز حذفها دون أن ينقص المعنى.

إن هذا المعنى العام للحروف المقطّعة والذي أخذ به عدد من المفسِّرين قديمًا وحديثًا هو الأنسب لفهم الخطاب القرآني، وتقديم القرآن للعالمين رسالة واضحة ليس فيها طلاسم خفيّة كما هو الشأن في الكتب الباطنيَّة.

وإذا اتَّفَقنا على هذا المعنى فلا بأس بعد هذا بمحاولة التقاط الفوارق الدقيقة واللطيفة بين كل حرف وحرف بما يناسب السورةَ وموضوعَها وصياغتها، والله أعلم.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ الإشارة للبعيد هنا للتنويه بعظمة القرآن ورفعة منزلته، مع أنه قريب من الناس تلاوةً وسماعًا وفهمًا وتدبُّرًا، ولولا ذلك التنويه لكانت الإشارة بالقريب كما نقول: هذا الكتاب.

﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ الإيمان: هو ليس التصديق بوجود الشيء فحسب، وإنما التصديق بوجوده وبما يميّزه عن غيره، فالتصديق بوجود الماء وبوجود السمِّ من دون تمييز بينهما لا ينفع شيئا؛ ولذا فإن من آمن بوجود الخالق لتفسير حدوث الخلق فقط لا يُعدّ مؤمنا بالله، وكذا من يؤمن بوجود الحياة الثانية لتلبية الرغبة الذاتيّة في الخلود لا غير، مع أنّ هذا التفكير العقلي أو العاطفي قد يكون سببا لتحقق الإيمان المطلوب، فينبغي تشجيعه عند الآخرين ثم البناء عليه، أما الغيب فهو عالم الغيب الذي ليس للبشر سبيل إليه بوسائلهم المادّية الدنيويّة، أما ما غاب عن الإنسان بحائل أو ببُعْد مسافة فهذا غيب نسبي وهو جزء من عالم الشهادة، والذي يفرق المؤمن عن غيره إنما هو الإيمان بعالم الغيب.

﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ قال: يقيمون، ولم يقل: يصلُّون؛ لما في الإقامة من معنى الاستمرار والثبات والمحافظة، ونسبها للجمع إشارة لفضيلة الجماعة.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ربط الرزق بالإنفاق لما فيه من طمأنة المنفق على رزقه الذي هو من الله ومن خزائنه التي لا تنقطع.

﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ هذه النتيجة جاءت بعد مقدّمتين؛ طلب الهداية ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ والتمسك بدليل الهداية ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ المنافقون لا يؤمنون بالله، والمخادعة منهم إنما هي للمؤمنين، وتقديم اسم الله هنا إنما جاء لمؤانسة المؤمنين بالمعيّة الربّانيّة، فالمؤمنون ليسوا وحدهم في مواجهة عداء الكافرين أو مكر المنافقين.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ وقد استحقُّوا هذا الوصف لتعطيلهم العقل والفكر، وبعدهم عن النظر فيما يصلح حالهم ومآلهم، وإذا كان المبذّر لماله قد استحقّ وصف السفه، فإن العابث بنفسه وعقله ومستقبله أَولَى بذلك.

﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ﴾ والشياطين هنا هم اليهود ونحوهم الذين كان يرجع إليهم هؤلاء المنافقون، وفي هذا دلالة على أنَّ (الشيطان) اسم جامع للخبث والشرّ سواء كان من الإنس أو الجن وحتى الحيوان الذي لا يعقل، كما ورد في الحديث من وصف الكلب الأسود بأنه شيطان[1]، مع أنه لم يخرج من جنس الكلاب بدليل أننا نغسل الإناء من ولوغه بالماء والتراب.

﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ هو واقع حالهم، فمن يخادع الله يُرجع الخداع على نفسه، ومن يستهزئ بدين الله يرجع استهزاؤه عليه حينما يكتشف أن ثقته الزائدة بنفسه والتي دفعته

---

(١) حديث: «الكَلْبُ الأَسْوَدُ شَيْطَانٌ»؛ رواه مسلم في «صحيحه» (١/ ٣٦٥) عن أبي ذر الغفاري ﷺ.

للاستهزاء لم تكن سوى غرور باطل وزائل، وإنما نسب الله هذا الفعل لنفسه؛ لأن إرادة الله حاكمة على كل فعل.

فلك أن تقول لمن أحرَقَ نفسَه: لقد أحرَقَه الله، فسنن الله في هذا الكون هي من أمر الله، ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٠]، ثم قوله في آية أخرى: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٣]، ومثل هذا قوله على لسان إبراهيم ﷺ: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾ [الشعراء: ٧٩]، مع أن إبراهيم هو من يطعم نفسه ويسقيها.

وهذه النسبة تختلف عن نسبة الصفات الإلهيّة له سبحانه كالعلم والقدرة والرحمة بدليل صحّة اشتقاق الأسماء الحسنى من هذه بخلاف تلك، والله أعلم.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فيه معنيان:

الأول: أن كثرة العبادة تورث التقوى، وهي مطلب جميع السائرين إلى الله، وهي شرط من شروط الولاية الربّانيّة.

والثاني: أن العبادة تقيكم ما تحذرون من الشقاء والعذاب، وهذا هو الأقرب للسياق، والله أعلم.

﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ وهذا غايةُ الإعجاز، ومع تعدُّد وجوه الإعجاز، فإنَّ الإعجاز البياني هو المقصود بهذا التحدِّي، وذلك لسببين اثنين:

الأول: أن وجوه الإعجاز الأخرى لا تتوفَّر في كل سور القرآن.

والثاني: وهو الأهم؛ أنَّ تحدِّي الناس إنما يكون بمعجزة حاضرة وقت التحدِّي، أما الإحالة إلى ما سيكتشفه الناس مستقبلًا فهذا يسمَّى: (دلائل الصدق)، وهي تشترك مع الإعجاز في إثبات صدق الرسول والرسالة، وتفترق عنه في تحقق التحدِّي.

﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ فيه إشارة إلى أن اسم (الكافرين) لا يطلق إلا على من رفض الدعوة بعد أن بلغته بصورتها الصحيحة فهم وحدهم الذين يستحقون العقاب؛ لأن العقوبة لا تلحق غير المكلَّف بالشرع، ومن لم تبلغه الدعوة فقد سقط عنه التكليف أصلًا، والله أعلم.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ عطْفُ العمل على الإيمان يقتضي المغايرة في الماهيّة، وإن كان العمل ثمرة الإيمان ولازمًا من لوازمه، وإطلاق اسم الإيمان على بعض الأعمال إنما هو من باب إطلاق اللازم وإرادة الملزوم، وهذا شائع في اللغة، ولو كان العمل داخلا في ماهيَّة الإيمان لانتفى الإيمان بانتفائه، بينما نرى الإيمان ينتفي فعلًا بانتفاء شيء من ماهيته كالإيمان بالرسول أو الرسالة أو اليوم الآخر، ويظهر هذا في صورة من أنكر تحريم الربا فهو كافر إجماعًا لتكذيبه النص، بخلاف من اعتاد أكل الربا دون إنكار حرمته.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا﴾ الآية، والحياء صفة محمودة لما فيها من معنى التنزّه عن المعايب والنقائص؛ ولذلك ورد في الحديث: «**إِنَّ اللهَ حَيِيٌّ كَرِيْمٌ**»[1].

﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ أي: فوقها في الصغر، بمعنى: أصغر منها، وهو كقولك: هذا أكثر فقرًا، وأشدُّ ضعفًا، فالفقر منافٍ للكثرة، والضعف منافٍ للشدَّة، لكنهما باجتماعهما أعطيا معنى أدنى من الفقر وأوهن من الضعف، وقد ذكر بعض علماء الأحياء المعاصرين أن هناك حشرة تمتطي ظهر البعوضة وهي أصغر منها، والله أعلم.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ دليلٌ على الإباحة الأصلية لكل ما تنتجه الأرض، وما هو كائن على ظهرها، أو في باطنها، وهذا هو معنى القاعدة المعروفة (الأصل في الأشياء الإباحة ما لم يثبت دليل التحريم).

---

(١) رواه الترمذي وحسّنه عن سلمان الفارسي ﷺ، ينظر «جامع الترمذي» (٥/ ٥٥٦/ دار إحياء التراث العربي، تح أحمد شاكر).

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾

استخلاف الناس على هذه الأرض

بعد أن تناولت فواتح هذه السورة المجتمع المسلم وهويته وخصائصه المميزة له عن غيره جاءت هذه الآيات لبيان أن هذا المجتمع المسلم هو النموذج العملي والواقعي المعبِّر عن رسالة الإنسان في هذه الأرض؛ حيث خلقه الله واستخلفه على هذه الأرض لغاية عظيمة وحكمة جليلة أكبر من تصورات الغافلين، واهتماماتهم المنحصرة في اللهو والعبث والتمتع الطائش.

ويمكن اختصار هذه المعاني في النقاط الآتية:

أولًا: خلق آدم ﷺ والإيذان باستخلافه:

الاستخلاف إنما هو تكليف لآدم وذريته بإدارة هذه الأرض، وإعمارها وتنظيمها بالمنهج

الذي يرضاه الخالق الكريم ﷻ، والآية التي قبل هذا المقطع مباشرة تقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾.

فالأرض خُلِقَت لآدم، وآدمُ خُلِق ليكون خليفة لله على هذه الأرض، وليس في هذا الاستخلاف ما يوحي بضعف المستخلِف وعجزه عن إدارة ملكه - حاشا لله - وإنما هو الاختبار ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾(١).

وهذا المعنى أكَّده القرآن في أكثر من موضع، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد: ٧]، وصرفه إلى معنى الخلافة عن خلق آخر كان قبل آدم كما يخلف اللاحق السابق فيه تكلف واستبعاد للغاية الجليلة التي بسطها القرآن في أكثر من موضِع، والله أعلم.

ثانيًا: العلم شرط الاستخلاف الأول:

حينما قدَّم الملائكة أنفسهم تقربًا إلى بارئهم بما عندهم من حسن التعبُّد: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، ردّ الله تعالى عليهم: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾؛ فالعلم الذي ميَّز الله به آدم هو الذي يؤهّله لهذا الاستخلاف، وهي إشارةٌ إلى أن هذه الأرض لن تُدار أو تُعمر بغير العلم.

ثالثًا: تكريمُ الله تعالى لآدم:

وقد تجسّد هنا بسجود الملائكة له بأمر من الله تعالى، فهذه هي القيمة الكبرى التي تُستنبط من ذلك السجود، أما الخوض في هيئة السجود وما ينبني عليه من تساؤلات وإشكالات فهو قول في الغيب بلا دليل، وقياس الغيب على عالم الشهادة لا يصح، واستنباط حكم فقهي من تلك الحادثة غير وارد، فالتكليف صدر للملائكة، وهذا لا يصح عليه قياس في

---

(١) تكرّرت هذه الآية الكريمة مرتين في القرآن الكريم: فذُكِرَت في سورة هود/ ٧، وفي سورة الملك/ ٢.

تكليف البشر، والله أعلم.

رابعًا: المرأة شريكة الرجل:

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فمهمة الخلافة لا يقوم بها الرجل لوحده، ولا المرأة لوحدها؛ لما بينهما من تنوّع وفوارق في الخلقة تتناسب مع تنوُّع المهمّة، والفوارق الموجودة في طرائق إدارتها عقلًا وعاطفة وشدَّة ورقَّة وهكذا، والسعي لتقليص الفوارق بين النوعين يضر بهما وبالمهمة الملقاة على عاتقهما.

خامسًا: العبادة شرط السعادة:

﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ أي: أزلَّهما الشيطان عن طاعة ربهما، فأخرجهما الله من جنته، وهذا من أجل الدرس لا غير؛ لأن الله قال في آدم قبل أن يدخله وزوجه الجنّة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وليس في الجنة، فمرورهما في الجنّة إنما كان للتدريب على طبيعة المهمّة ونوعية الصراع الذي سيدور على هذه الأرض مع الشيطان وحزبه.

سادسًا: التوبة طريق النجاة:

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فالخطأ والخطيئة ملازمان للإنسان بحكم طبيعته وتركيبته الخَلقية، والله لا يريد لهذا الإنسان أن يخرج عن طبعه، يكفيه الاعتراف والاعتذار وإرجاع الحقوق لأصحابها.

سابعًا: التكبُّر طريق الكفر والهلاك:

﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فإبليسُ لم يكن ملحدًا ولا جاهلًا، وإنما منعه الكِبر عن سلوك طريق الخير والحق، وهي إشارة لكل بني آدم أن التكبّر طريق الغِواية والهلاك؛ لأنه يصمّ الآذان عن سماع النصح والمعلومة الصادقة، ويُعمي العيون عن رؤية

العواقب والمآلات، ويُشوّش على الفكر فلا يحلل ولا يستنتج.

وإنما التكبُّر هو أن تعطي لنفسك أكبر مما تستحق، وتعطي لرأيك مقامًا فوق الآراء؛ لأنه صادر عنك وليس بما يستند إليه من حجة ودليل، أما حفظ المقامات وتمييز العالم عن الجاهل فهذا من صميم العدل الذي لا تستقيم الأرض بغيره ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

ثامنًا: فريق في الجنَّة وفريق في السعير:

هذه هي نتيجة (الاستخلاف)، فمن عمل في هذه الأرض بما أراده خالقها ومالكها الحق فهو من الناجين والفائزين، ومن تنكّب الصراط المستقيم وتكبّر على هَدْي رب العالمين فهو من الخاسرين ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

وفي قوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم﴾ إشارة إلى أن من لم يأته الهدى ولم تبلغه الدعوة فإنه بريء من هذا الخسران، والله أعلم بحاله.

دقائق التفسير

﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ الآية، هذا الحوار بين الله وملائكته يفيدنا في قبول الحوار والسؤال مهما كان الفارق بين السائل والمسؤول، فالعالم لا يُغلق بابه بوجه السائلين والمعترضين والمجادلين، وعليه أن يقدِّم حجته.

هذا هو جوهر القصد من تدوين هذه المحاورة، أما الخوض في نوايا الملائكة من السؤال فهذا من عالم الغيب الذي لا يصح القول فيه بلا وحي.

﴿يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ فيها اقتِرانُ الفساد بسفك الدماء، وهذا محسوس ومشاهد، والفساد هنا الخراب والدمار وضياع القانون والنظام، وليس المعصية المجردة

والخطأ اللذين لا يتبرأ منهما إنسان ولا يخلو منهما مجتمع، وفيه أيضًا الإشارة إلى خُلُق من أخلاق الملائكة وهو الرحمة بالأرض وما عليها، وكراهيتهم للفساد وسفك الدماء.

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ﴾ حين عرض الملائكةُ صورةً محتمَلة لهذا المخلوق الجديد (الفساد وسفك الدماء) قدم الله له الصورة المقابلة (العلم)، والإشارة هنا؛ أن الجهل طريق الفساد وسفك الدماء، وأن العلم طريق العمار والاطمئنان، وأن الإنسان إنما يَسعَد بالعلم ويَشقى بالجهل.

﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ وهو استثناء منقطع، لأن إبليس ليس من جنس الملائكة بدليل قوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾ [الكهف: ٥٠]، ولكنَّه كان مشمولا بأمر السجود مع الملائكة، وإنما ذكر الملائكة وحدهم بالأمر لتغليب شأنهم، والله أعلم.

﴿وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ فيه أن الإنسان يسعى إلى الممنوع بطبعه ولا يكتفي بالمسموح، وهذا وصف المبتلى بخلاف الطبع الملائكي ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ﴾ [التحريم: ٦]، وفيه أن الله لم يحظر علينا شيئا إلا وهو ضررٌ وشرٌّ لنا في دنيانا وأُخرانا.

﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ﴾ وهذه هي طبيعة الصراع بين الحق والباطل، بين من يلتزم بخط آدم في الرجوع والإنابة، وبين من يتمسك بخط الشيطان عنادًا واستكبارًا.

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ﴾ الظاهر أن هذه الكلمات هي كلمات التوبة والندم، وهذا من تعليم الله له، والظاهر أيضًا أن هذه الكلمات تلقاها آدم بعد هبوطه على الأرض إيذانًا ببدء النبوّة، والله أعلم.

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠) وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١) وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٤٤) وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦) يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٤٨) وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩) وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٠)﴾

العهد الإلهي لبني إسرائيل

بعد ذكر الاستخلاف في قصة الخلق الأولى، عرّج القرآن على أبرز تجربة استخلافية خاضها المؤمنون بالله حتى مكّن الله لهم، وقد بدا الاستخلاف باختيار الله لقوم هم من ذرية يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ﷺ، ويعقوب هو إسرائيل، وإليه نسب القوم الذين اصطفاهم الله لهذه التجربة الكبيرة، وتكاد تكون هذه التجربة هي المحور الأساس لهذه السورة (سورة البقرة)، وكأن ما قبلها لم يكن سوى تمهيد لها، وما بعدها استنتاج ودروس.

ينصّ القرآن على هذا العهد بقوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ أما فحوى هذا العهد فتشريف الله لهؤلاء القوم بحمل رسالته، وتفضيله لهم بذلك على العالمين، يقابل هذا التفضيل والتشريف تكليف ثقيل ومسؤولية كبيرة، نقتبس منها ما ورد في هذا المقطع في النقاط الآتية:

أولًا: الإيمان بالرسالة الخاتمة، ومناصرة الرسول الخاتمﷺ: ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾، وقد ورد هذا الميثاق في آية أخرى أصرح وأوضح: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

ثانيًا: قول الحق وبيانه للناس: ﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

ثالثًا: العمل بالحق: ﴿۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾.

رابعًا: حُسن التعبد: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، ﴿إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾.

خامسًا: الثبات والصبر: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ﴾.

سادسًا: موالاة المؤمنين ومُفاصلةُ الكافرين: ﴿وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾، ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾.

سابعًا: استِحضارُ عقيدة الحساب والجزاء: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾.

ثامنًا: الحذر من المساومة على متطلبات هذا الميثاق: ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ﴾.

هذه البنود الواضحة تؤكد أن هذا الاصطفاء ليس اصطفاءً عنصريًّا بالمعنى الذي فهمه بعضُ بني إسرائيل فيما بعد، فحوَّلُوه من تكليفٍ بنشر الرحمة والعدل بين الناس، ومسؤولية في تمثيل الحق والدعوة إليه إلى تشريف مجرَّد يدعو للتعالي على الآخرين وأكل حقوقهم على قاعدة: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران: ٧٥].

﴿نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ من غير تحديد؛ لأن اصطفاء الله لهم نعمة ما بعدها نعمة. فكأنها معلومة من دون تخصيص، وهذا مثل قوله في سورة الفاتحة: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: بالإيمان.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ تأكيد أن القرآن يصدِّق الكتبَ السماوية السابقة، فكلها تنبعث من مشكاة واحدة؛ ولذلك اشترط في طريق الهداية ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾.

﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ هذا أشد من الدعوة للباطل الظاهر المجرّد؛ لأن لبس الحق به يُعطيه رونقًا وغطاءً شرعيًا، وهو دَيْدَنُ الكَهَنة ورجال الدين؛ حيث لا يحتاجهم أهل الباطل في التنظير لباطلهم، وإنما يحتاجونهم لتغرير الجماهير المتدينة بالفتاوى التي تزيّن الباطل وتقدّمه بثوب الحق ولباسه، وذلك قوله: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟﴾.

﴿۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ أمر الناس بالبر هو من البر، وإنما الإنكار على نسيان النفس وهي أولَى بهذا الأمر، وقد عكس بعضهم فظنوا أنّ في الآية تحذيرًا للدعاة والعاملين للإسلام من الاستمرار في الدعوة إن هم وقعوا في المعصية، ومثلُ هذا من يقول: إن لم تصُمْ رمضان فلا تُزكِّ.

إن الدعوة واجبة وتركها إثم، فمن تركها وهو مقيم على معصية أخرى فقد ارتكب معصيتين، ولا تصح الثانية مبررًا للأولى، أو سببًا في إسقاط ذلك الواجب.

ولتقريب الصورة فمن واجب الطبيب أن ينصح المرضى، ومن واجبه أيضًا أن يلتزم بما نصح، ولا يصح تركه للالتزام أن يترك واجبه في نصح الآخرين وإلا كان غاشًّا لهم ووقع في الإثمَين، والله أعلم.

﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ تأكيد للربط الوثيق بين الوحي والعقل، فالوحي

لا يفهمه المجانين والأغبياء من الناس، وهذا متأكّد في القرآن في كثير من الآيات ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1]، و﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وإنما جرى تصوُّر الخلاف بينهما على أصلٍ فاسدٍ، وهو التفريقُ بين المعرفة الدينيَّة والمعرفة العلميَّة.

وحقيقة هذا الأصل إنما هي الإلحاد وإنكار الخالق، أو تكذيب الوحي؛ لأن المؤمن بالوحي وأنه من الله الخالق لهذا الكون لا يستطيع توهُّم الخلاف بين حقيقة وحي الله وحقيقة خلق الله، وهما من مصدر واحد.

﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ فيه الإشارة إلى صلة الصبر بالصلاة، فالمصلّي أقدر على الصبر من غيره؛ وما ذاك إلا لتذكاره المتواصل بحقيقة هذه الحياة وعاقبتها، وحين تجد مُصلّيًا قليلَ الصبر سريع الغضب والجزع فاعلم أنه لم يفقه من الصلاة ما أودعه الله فيها من حكمة وعظة.

﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾ لأن الشفاعة إنما هي دعاء بالمغفرة للغير، وهو مَنْهيٌّ عنه في حق المشرك في الدنيا قبل الآخرة؛ ولأنه تعالى حسم أمر المشركين بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾[2].

أما الشفاعة للمؤمنين فهذا ثابت في الدنيا بدعاء المسلم لأخيه، وفي الآخرة بالشفاعة العظمى لسيدنا محمد ﷺ ثم للأنبياء والشهداء والصالحين، وهذه الشفاعة هي من الثواب المناسب لما كان بين الشفيع والمشفَّع له من صلةٍ وبرٍّ ومودَّةٍ.

﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ وهو الفداء؛ وذلك لأنه لا يملكه أصلًا، ولو ملكه فرضًا فهو من العمل وقد انتهى عمل الإنسان كلُّه في دار العمل ولم يبق له إلا انتظار الجزاء.

---

(١) تكرَّرت هذه الآية ثلاث مرات في سورة الرعد/ ٤، والنحل/ ١٢، والروم/ ٢٤.

(٢) تكرَّرت هذه الآية مرتين في سورة النساء/ ٤٨، ١١٦.

﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ لأنه لم تعُد لمخلوق قوَّة لا على الحقيقة ولا على المجاز، تلك القوَّة التي كان الناس يتنَاصَرُون بها بالحق والباطل، والقرآن هنا يُؤكِّد أنكم أيها البشر لم تعودوا تملكون شيئًا مما كنتم تملكونه في الدنيا ممَّا تدفَعُون به الأخطار؛ كالجاه والقرابة والمال والقوَّة، لقد انتهى كلُّ ذلك وتغيَّرَ كل شيء.

﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ﴾ وهو تَقتِيلُ الأبناء واستحياء النساء، وهذه جرائم منكرة وبشعة كان يقوم بها فرعون بحقٍّ بني إسرائيل، وليس في قوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ تزكية لهذه الجرائم، وإنها هي صورة من صور الصراع والابتلاء التي تدور على هذه الأرض بعلم الله وسمعه وبصره؛ لأنّ هذه هي متطلّبات الامتحان والاختبار لهذا الكائن المستخلَف على هذه الأرض، وليس لأن الله يرضى بذلك، حاشا لله.

﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾

يعرِض القرآن الكريم في هذا المقطع مداخلات متنوعة ومتراكمة من التجربة الإسرائيلية بعد العهد الذي أعطاه الله لهم وفق البنود التي مرَّت معنا:

أولًا: حاجة الداعية إلى الخلوة والانقطاع للعبادة والمناجاة:

حيث تبدأ التجربة باصطفاء الله لنبيه وكليمه موسى ﵇ ليقود بني إسرائيل في هذه التجربة الطويلة والثقيلة، وقد بدأ الآيات بـ ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ ومعنى المواعدة هنا الانقطاع التام لله تبتُّلًا وعبادةً ومناجاةً.

ويبدو أنَّ هذا دأب الأنبياء؛ تهيئةً وإعدادًا لهم قبل النزول إلى ميدان الدعوة وإصلاح المجتمع، فقد قال الله لنبيّه محمدٍ ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ١ - ٥]، فالأمانة الثقيلة تحتاج إلى هذا العمق الروحي والاتصال الوثيق بالله تعالى.

ومعلوم أنه ﷺ كان قد حُبِّب إليه الاعتزال في غار حراء لشهور عدَّة قبل البعثة، وقد أخذ من هذا بعض المربِّين والموجهين ضرورة أن يمرَّ الطالبُ أو السالك في هذه المرحلة، وليس في هذا حرج إذا كان مضمون الخلوة لا يخرج عن إطار الشريعة وأحكامها.

إنَّ موسى ﵇ لم يكن له أن يصبر على تعقيدات قومه وتقلباتهم ونزقهم لولا هذا الإعداد الربّاني الفريد.

ثانيًا: تأييد الله لنبيِّه بالمعجزات:

لقد حوَى هذا المقطع عددًا من المعجزات تأييدًا لمسيرة سيدنا موسى ﵇ مع قومه؛ منها: ﴿۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ﴾ وكأنَّ الله جعل لكل سبط أو قبيلة منهم عينًا.

ومنها: رفع الطور فوقهم؛ تخويفًا وإلزامًا وإشعارًا بجديَّة الأمر: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾.

ومنها: إحياء القتيل ليشهد على قاتله: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ ويقرب منه قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

وهذه المعجزات وإن جاءت كل واحدة منها لغرض محدد، ولكنَّها يجمعها أصل واحد، وهو إظهار صدق النبيِّ وتعزيز دوره في قيادة قومه.

والمعجزة: أمر خارق لما اعتاده الناس من نواميس الكون وقوانين الحياة الطبيعية يظهره الله على يد النبيِّ تأييدًا له، مع تضمُّنه لمعنى التحدِّي بحيث يعجز الآخرون عن الإتيان بمثله.

وينبغي التأكيد هنا أن المعجزة لا تخرق القوانين العقلية؛ إذ العقل لا يمنع تغيير هذه النواميس في ظروف أخرى، كقانون الجاذبية الذي يختلف من كوكب لآخر.

ثالثًا: نعم الله الماديَّة على بني إسرائيل:

في هذا المقطع امتنّ الله على بني إسرائيل بكثير من النعم المادّية ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ و﴿فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ و﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾.

رابعًا: السلوك الشائن لبني إسرائيل:

مع كل هذه النعم وكل تلك المعجزات فقد سجَّلَ القرآن في هذا المقطع عددًا من المواقف والتصرفات الشائنة، والتي سنختصرها في النقاط الآتية:

أ - عبادة العجل:

وهو تمثال من ذهب على هيئة عجل صنعه لهم السامري فتعلقتْ به قلوب مجموعة ظاهرة منهم، بحيث لم يستطع الآخرون مقاومتهم في ظل غياب موسى ﷺ، وهذه ظاهرة تعلّق

الناس بالمحسوس الذي يقع تحت مدركات الإنسان، ومن ثَمَّ كانت عبادة الأصنام والأوثان والكواكب وغيرها.

وقد تسلَّلتْ هذه الظاهرة على بعض المتنسبين للديانات السماويَّة، فمالوا إلى تقديس أنبيائهم أو أوليائهم إلى درجة العبادة، ثمّ بالغوا حتى عبدوا القبور كما يحصل الآن حول القبور المزعومة لأهل البيت من سجودٍ وطوافٍ ونذور.

ب - سوء الأدب مع الله:

وهذا سلوك شائع عند بني إسرائيل، وفي هذا المقطع يعرض القرآن نموذجا لهذا السلوك ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْـرَةً﴾.

فرغم كثرة المعجزات التي رأوها بأعينهم، ورعاية الله لهم، إلا أنهم لا زالوا يضعون الشروط على نبيّهم، فهم يريدون منه أن يريَهم الله، ليس هذا فقط بل ينبغي أن تكون الرؤية بالطريقة التي يريدون ﴿جَهْـرَةً﴾، وصدَّرُوا طلبهم هذا بقولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ بمعنى: أنّهم ليسوا مصدِّقِين له، أو أنهم غير ملتزمين بالتسليم له؛ ولذلك عاقبهم الله ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ﴾.

وهذا العقاب لم يأت لمجرد طلبهم الرؤية، فموسى ﷺ كان قد طلب ذلك: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وهذا يبطل استدلال المعتزلة بهذه العقوبة على استحالة الرؤية، والله أعلم.

جـ - تبديل القول:

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ وهذا نوع من التلاعب والاستخفاف بالدين، وربَّما يكون هذا السلوك الشائن هو الذي جرّ إلى الجرأة على تحريف الكتاب، كما سيأتي.

د - هـ - الكفر بآيات الله وقتل النبيين:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾.

و- قسوة القلب:

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ وربما تكون هذه الصفة هي مبعث كل ذلك السلوك وتلك الخطايا.

والذي ينبغي التنبُّه له هنا أن هذه الخطايا أو الجرائم خاصة تلك التي تصل إلى حد الكفر لم تكن صفة المجتمع الإسرائيلي بشكل عام، وإنما جزء من حالة الصراع الداخلي بين قيم الخير وقيم الشر في المجتمع ذاته.

وقد ذكر القرآن في هذا المقطع نفسه التزامهم بذبح البقرة رغم ما شدَّدوا على أنفسهم فيه، ويشهد لهذا أيضًا ورودُ عدد ليس بالقليل من أخبار صالحيهم في الأحاديث الصحيحة، والله أعلم.

خامسًا: العفو الإلهي المتكرر:

فرغم كثرة جرائمهم وخطاياهم إلا أن عفو الله يتكرر معهم بعد كل خطيئة مهما كانت، ويكفي لهذا تدبّر هذه الآيات ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ثمّ أكَّد هذا العفوَ بقوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

ورغم ما اعتمده بعض المفسرين من روايات تفسيريّة أو أخبار (إسرائيليّة) في حصول مقتلة عامة وعظيمة بين بني إسرائيل بسبب حادثة العجل تنفيذا لقوله تعالى: ﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ إلا أن سياق الآيات لا يؤيّد هذا التوجّه، فالله قد امتنّ عليهم بهذا العفو وهذه التوبة، وهذا لا يتناسب مع تلك الروايات.

كما أنَّ الذي صنع العجل - وهو السامريُّ - اكتفى موسى ﷺ بعزله عن المجتمع ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ [طه: ٩٧]، وقد اكتفى موسى ﷺ بتحريق التمثال ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ [طه: ٩٧].

وأما قوله: ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ فهو بيان حكم الله الأصلي في من ارتكب مثل هذه الجريمة قبل ورود العفو الإلهي، والله أعلم.

ثم تكرر العفو الإلهي الضمني عنهم بعد جرأتهم والإعراب عن استعدادهم للتمرد على موسى ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

ومثل هذا قوله فيهم: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ إنَّ هذه الرحمة الإلهيَّة التي شملت هؤلاء القُساةَ العُصاةَ لَتُلقي في نفس القارئ قدْرًا كبيرًا من الطمأنينة والأُنس الودود بعظيم كرم الله، مع قدْر مماثل من الحياء والخشوع الدافع للطاعات واجتناب الموبقات والمخالفات.

سادسًا: قانون العدل الذي يحكم الجميع:

وقد نص هذا القانون على معيار الحكم العادل بلا محاباة ولا مداراة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

وذِكرُ هذا القانون في وسط المقطع المخصّص للحديث عن تجربة بني إسرائيل، إنما هو للتذكير أن هذه التجربة لا تختلف عن التجارب السابقة أو التجارب اللاحقة من حيث خضوعها لقانون العدل الإلهي.

﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ فيه إشارة إلى أن غياب القائد الموجّه يدَعُ الناس عُرضة للضلال والانحراف.

﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ فيه لوم على تفضيلهم لعبادة العجل على عبادة الله الذي برَأَهم وخلقهم من العدم.

﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٥ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ ثُمَّ للعطف المؤخَّر، والأقرب هنا التنبيه إلى عظيم المنّة وليس التأخير الزماني، فهم لم يتعرّضوا للموت المؤدي إلى تفسّخ الأجساد وتحللها، بل هو الموت الخاطف الذي يكون بتوقّف القلب الطارئ لهول الصدمة والصعقة، ثم أعاد الله إليهم حياتهم الطبيعيّة، أما ذلك الموت الذي تنفصل فيه الروح عن الجسد بحيث يَبلَى فلا يكون إلا مرة واحدة في الدنيا ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الدخان: ٥٦].

وقد ذكر الأطباء المعاصرون كثيرًا من حالات توقف القلب وشعور الشخص كأنه قد انفصل عن جسده، وهو ما يمكن تسميته بالموت المؤقت الذي يزول بزوال أسبابه، والله أعلم.

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ الغمام هو الغيم الذي كان يقيهم حرّ الشمس، والمنُّ هو طعام يأتيهم بلا زراعة ولا صناعة، وقد ورد في الحديث الصحيح «**الكَمْأَةُ مِنَ المَنِّ**»(١) لهذا المعنى.

أما تحديد المنِّ الذي كان ينزل عليهم بالصَّمْغ الحُلو وما شابَهَ فلا أعلم فيه دليلًا ثابتًا، والسلوى نوع من الطيور.

---

(١) متفق عليه من حديث سعيد بن زيد ﷺ، ينظر: صحيح البخاري (٤/ ١٦٢٧)، وصحيح مسلم (٣/ ١٦١٩).

﴿فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ إشارة إلى الجمع بين العبادة لله والرغادة في العيش، لا كما يظنه من توهّم معنى للزهادة بترك الدنيا ومتاعها وزينتها.

﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ إشارة إلى أن الرغادة مع الإيمان والعدل، وأن العذاب والضَّنْك مع الكفر والظلم.

﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ﴾ إشارة إلى أن نعم الله كلها خير، إلا أنها تتفاوت بخواصِّها وبمناسبتها للناس تبَعًا لأحوالهم وحاجاتهم، فالبقل والقثاء والفوم والعدس والبصل من نعم الله التي لا يصح الاستهانة بها، لكنها ليست خيرًا من المنِّ والسلوَى والطيبات الأخرى من الطعام، وربما تكون هذه الطيّبات أنسب لأجسادهم المرهقة في التيه لما فيها من طاقة أعلى من تلك التي طلبوها، وليست هذه نصًّا في تفضيل هذه على تلك في كل الأحوال، فهناك من يضرُّه الحلو وهناك من يضرُّه اللحم، فتكون تلك بالنسبة له أفضل، والله أعلم.

﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ فيه إشارة لحاجة الحق إلى القوّة لتحمله وتحميه، وحاجة القوة إلى الحق ليوجهها ويهذِّبها.

وقد وردت هذه الإشارة في أكثر من موضع مثل: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ﴾ [مريم: ١٢]، و﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥].

﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ عقوبة لقوم يعيشون في قرية على البحر، حرَّم الله عليهم الصيد يوم السبت فاعتدوا وعصوا وأكلوا الحرام، فعاقبهم الله بالمسخ الجسدي أو المعنوي، والجسدي أقرب لظاهر الآية، والمعنوي أقرب للسياق العام؛ حيث إنَّ الله لم يُعاقِب الذين عبدوا العجل وقتلوا النبيين بهذه العقوبة.

ومعنى المسخ المعنوي: أن نفوسهم أصبحت حقيرة ذليلة، وهممهم باتت وضيعة دنيئة؛ بحيث إنهم آثروا صيد السمك على الوفاء بميثاقهم وعهدهم مع الله.

وهذا الفهم أقرب للتاريخ أيضًا؛ إذ لو حصل مسخ جسدي لتناقله المؤرخون، ولذكروه ولو من باب الخلاف في وقوعه، وأيًا كان المسخ فلا يجوز تعميمه على كل بني إسرائيل، ولا يجوز القول لليهود مهما بلغوا من الكفر والظلم: يا أولاد القردة والخنازير، فهذا حكم بلا دليل وهو مناف للحق والعدل.

﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾، ثم ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾، ثم عادوا فقالوا: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ فيه إشارة لنمط مختلف عن النمط السابق، النمط المتشدد المتنطّع، الذي ينظر للدين من ثقب إبرة، ويدفعه ورَعُه الجاهل إلى الوسواس المفضي إلى تعطيل العقل وتضييق مساحة التدبُّر والاجتهاد، فهؤلاء أمرهم الله بذبح بقرة، وكان بإمكانهم ذبح أية بقرة، لكنّهم راحوا يسألون نبيّهم عن أوصافها وأحوالها تورعا واحتياطا بزعمهم، فشدّدوا فشدّد الله عليهم، وهذه ظاهرة في المجتمعات الدينيَّة.

وقد رأيت من الشباب المتديّن من يقضي وقتًا طويلًا للمُباحَثة والمجادلة في هيئةٍ من هيئات الصلاة، حتى يوالي فيها ويعادي فيها، ثم يُقصِّر عن البحث في مقاصد الشريعة، ومنظومة القيم الكبرى التي جاء بها الإسلام لصقل النفوس وبناء الأمم.

إن هذا المعنى يتناسب مع النهج القرآني في تقديم الصورة المتكاملة عن التجربة، فحين قدّم هناك صورة الفاسقين المتهاونين في الأمر والنهي، عرَّج هنا على الطرف الآخر.

وأما مَن ذهب ليستوحي من القصَّة هذه معالمَ الشخصيَّة اليهوديَّة في المراوغة والمماطلة، فهي وإن كانت حقًّا من حيث الواقع، إلا أنَّ الاستشهاد بهذه القصّة مُستبعَد؛ فسَمتُ التديّن والتشدّد واضح عند هؤلاء؛ بحيث إنهم فعلوا ما أمرهم الله به حرفيًّا رغم أنّ ذلك كلّفهم الكثير ممّا يملكونه من مال، حتى قال بعض المفسّرين بأنَّ صاحبها اشترط عليهم حشو جلدها ذهبًا! لأنَّ بقرته هي البقرة الوحيدة التي تنطبق عليها الصفة.

﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الآية، هذه المقارنة بين القلوب القاسية وبين الحجارة فيها دقائق لطيفة؛ منها: أن الإنسان قاسي القلب يتحوّل إلى شرٍّ محض، بخلاف الحجارة التي قد تنفع في شأن من شؤون الحياة.

ومنها: أن النصيحة التي تخرج من إنسان لا يعمل بها قد تنفع الآخرين كالماء الذي يخرج من الحجارة فتنتفع الأرض به إلا تلك الحجارة.

ومنها: أن المؤمن عليه أن لا ييأس من هداية الناس مهما بلغوا من الغلظة والجفاء، فإن الحجارة قد يتفجر منها الماء وقد تهبط من خشية الله.

﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ فيه أكثر من وجه:

منها: أن الكون كله خاضع لإرادة الله في حركاته وسكناته، وعبّر هنا عن الخضوع بالخشية، كما عبّر عنه بالتسبيح في مواضع أخرى.

ومنها: أن هبوطها يسبب الخشية من الله في قلوب الناس خوفًا من عذابه.

ومنها: أن كل ذلك تشبيه لقلوب البشر؛ فمنها من يتفجّر بالخير والعطاء، ومنها من يتشقق باليسير منه، ومنها من يتواضع ويستشعر مقام الذِلّة والعبوديّة لله الكبير المتعال ﷻ، ولا تعارض أبدًا بين هذه الوجوه، والله أعلم.

﴿ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ۖ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۚ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ۖ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

محاكمة و مُحاجة

بعد عرض القرآن لمواقف مَفْصلية في تجربة بني إسرائيل، بدأ في هذا المقطع يحاكم هذه التجربة ويضعها في الميزان، ويردِّد الخطاب بين مناقشة أصحاب التجربة الأولى (بني إسرائيل) وبين تقديم الموعظة والعبرة لأصحاب التجربة الجديدة (المسلمين):

أولًا: العدل في المحاكمة:

يظهر هذا في نسبة الخطأ لفاعله دون تعميمه على الجميع، وإن كان هذا الخطأُ قد نشأ ونما في ظل هذه الحاضنة الاجتماعية الكبيرة، فتراه يقول: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾، ويقول: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، ويقول: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ﴾، ويقول: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾.

وعليه فالآيات التي تأتي بصيغة التعميم ينبغي صرفها بمقتضى السياق، مثل: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾، و﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾، و﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ فهذه الأفعالُ لم تقع من جميع بني إسرائيل، بل منهم من أنكرها وتبرَّأَ منها؛ ولذلك حينما يُصدر القرآن أحكامه يُؤكِّد هذه الحقيقة ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، و﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ﴾.

ثانيًا: التنبُّؤ بسلوك الأجيال اللاحقة:

الحُكم يلحقُ الفاعلَ دون مَن يعلق به من أصوله أو فروعه ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]، ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩]، بَيْدَ أن هذا لا يلغي التأثير

والتأثُّر المتبادل؛ ولذلك يمكن تصنيف المجتمعات البشرية وفق موروثها الثقافي الطويل، بحيث يمكن تسجيل العلامات الفارقة لكل مجتمع وكأنه يمتلك بمجموعه شخصيّة متميّزة، ومن هنا تأتي دقّة التشخيص القرآني في قوله تعالى: ﴿ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ وهذا ما حصل بالفعل، فأقلُّ نسبة استجابة لهذا الدين كانت ولا زالت في المجتمعات اليهوديَّة.

ثالثًا: تحريف الكتاب:

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ وهذه الآية نصّ في تحريفهم لنصّ الكتاب وليس في تفسيره أو تأويله، وواقع الكتاب (التوراة) فضلًا عن بقيّة الأسفار الملحقة بها يشهد لهذا التحريف النصّي؛ لما فيه من تناقض ومخالفات صريحة لقوانين العقل ولعقيدة التوحيد ومبادئ الدين الأصيلة.

رابعًا: تنكُّرهم للميثاق الإلهي القاضي باتباع خاتم النبيين ومناصرته:

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۚ ﴾ وقد عزا القرآن هذا النكث إلى البغي ﴿بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ ﴾ وإلى ما عرف في تأريخهم من قتل للنبيين وكفر بهم ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ بل لقد ربط القرآن بين هذا النكث وانقلابهم على عقيدة التوحيد في غيبة موسى المؤقتة؛ حيث اتخذوا العجل إلهًا ﴿ ۞ وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴾.

خامسًا: محاكمتهم وفق بنود الميثاق التفصيليَّة:

وهي موضَّحة كما في الآيات (٨٣، ٨٤، ٨٥):

١- عبادة الله وحده.

٢- برُّ الوالدين والإحسان إليهما.

٣- صلة الرحم (ذي القربى).

٤- الإحسان إلى اليتامى.

٥- الإحسان إلى المساكين.

٦- التعامل الحسن مع كل الناس.

٧- إقامة الصلاة.

٨- إيتاء الزكاة.

٩- تحريم سفك الدماء.

١٠- تحريم اغتصاب المساكن وإخراج أهلها منها.

وهذه البنود قريبة مما ورد في (الوصايا العشر) المعروفة في الشريعة اليهوديّة، لكنّ القرآن يسجّل مخالفة بني إسرائيل لهذه البنود، ولا يستثني إلا القليل منهم ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ﴾ والملاحظ أن هذه البنود مثَّلَت القيم الدينيَّة الكبرى في توحيد الله وعبادته والإحسان إلى خلقه ونشر معالم الفضيلة والأخلاق الحسنة.

ويَقرُب من هذا ما ورد في سورة الأنعام (١٥١، ١٥٢، ١٥٣)، والتي جعلها القرآن تحت عنوان: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾[1]، بإشارةٍ لمصطلح (الوصايا)، وليس في هذا غضاضة، بل هو ما يُثبِت أن الرسالة الخاتمة جاءت مصدِّقةً ومكمِّلةً للرسالات السابقة، والله أعلم.

---

(١) تكرّرت هذه الآية الكريمة في سورة الأنعام ثلاث مرات: ١٥١، ١٥٢، ١٥٣.

سادسًا: منهج الانتقائية مرفوض:

حينما يحاول الإنسان أن يجمع بين معتقداته ومبادئه من ناحية، وبين نزواته وشهواته من ناحية أخرى فإنه يلجأ إلى طريقة الانتِقاء، فهو مُتديِّنٌ في مكان، وغير مُتديِّنٍ في مكان آخر.

وقد سجَّل القرآن هذا السلوك في التجربة الأولى للاستخلاف ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

وهذا السلوك نراه اليومَ ظاهرًا في محاولات التلفِيق بين الإسلام وبين المناهج الوافدة والغازية، وكذلك نَلحَظه في السلوك الفردي لكثير من المتديّنين؛ حيث إنهم يحرصون على الشعائر كالصلاة والصيام والحج والعمرة، ثُمَّ يستَهِينُون بحقوق الناس والضعفاء منهم خاصّة، وقد ترى الشخص نفسه يحتكم في المسجد للشريعة، ويحتكم في السياسة للمقولات الوطنيَّة أو القوميَّة حتى لو كانت مخالفة للشريعة، وهذا قد يكون معذورًا إن كان بحكم إدارة الواقع، لكن الذي لا يشمله العذر هو تحويل هذه الازدواجيَّة إلى ثقافة يُروِّج لها ويدافع عنها.

سابعًا: حبُّ الدنيا وكراهية الموت دليل فساد التديُّن:

فالمؤمن يعمل في الدنيا وقلبه معلَّق بالآخرة لما فيها من القربى والكرامة والنعيم الأبدي، فإذا رأيته متشبِّثًا بالدنيا زاهدًا بالآخرة فهو لنقص في إيمانه وفساد في نيّته وعمله، وهذا ما حاجج به القرآن بني إسرائيل ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

وقد تأكَّد الإلزام القرآني لهم لأنّهم تجاوزوا التعلُّق الشرعي والعملي بالآخرة إلى الادِّعاء أنهم أبناء الله وأحباؤه وأنَّ الله لن يُعذِّبهم، بل سيجعل لهم الجنة خالصة لهم من دون الناس،

وقد ورد هذا الحِجَاج في آية أخرى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ﴾ [المائدة: ١٨]، فإن أنكروا استحقاقهم للعذاب على معاصيهم كان الردُّ بآية البقرة هذه.

ثامنًا: اللجوء إلى السحر والشعوذة دليل الكفر والإفلاس:

السحر نوع من الدجَل لا يجتمع مع الإيمان في قلبٍ واحد ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ﴾ ويحمل دلائل بطلانه في ذاته، فالساحر يقلب الحجارة ذهبا ليعطيه الناس بضعة دراهم، ولو كان صادقًا لاستغنى بذهبه، ويدّعي علم الغيب، ولو كان كذلك لكان أمهر الساسة وأنجح المستثمرين، ولكنّ مجتمعات السحر يُعشعِشُ فيها الجهل والفقر والتخلُّف.

وقد صرَّحَ القرآن في سحرة فرعون أنّ سحرهم خيال وإيهام، فقال: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦]، و﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الأعراف: ١١٦].

فالسحر يتسلط على أعين الناس وليس على الأشياء، ومن السحر ما هو علم يُتعلَّم كالمشي على الجمر بوجود واقٍ أسفل القدمين لا يتأثر بالنار، وهكذا.

والسحر لا يقارن بمعارف الوحي عقيدة وشريعة، فالوحي تُثبت صِدْقَهُ الأيام، والسحر ينهار بأوّل امتحان، وبين الوحي والسحر تنافر، فكلما اقترب الإنسان من الوحي ابتعد عن السحر؛ ولذلك قرن القرآن بين نبذ بني إسرائيل لكتاب الله وبين اتِّباعهم لما تتلوه الشياطين من سحر وكفر.

دقائق التفسير

﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ إشارة إلى أن المسلمين كانوا يرجون قبول اليهود بالإسلام ما لا يرجونه للمشركين؛ وذاك لكثرة المشتركات معهم كالإيمان بالله وملائكته وأنبيائه واليوم الآخر، ولما كان يكرره القرآن من مدح لإبراهيم ويعقوب ويوسف وموسى وهارون

وغيرهم من الأنبياء الذين يعظمهم اليهود وينتسبون إليهم، بينما كان القرآن يندّد بأصنام العرب وأوثانهم، فكان هذا داعيًا ومرجِّحًا لذلك الرجاء، لكنّ واقع اليهود كان الأبعد عن كل رجاء بسبب حسدهم وكبرهم.

﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ هذا فعل المنافقين، ونسبته لليهود هنا تأكيد لصلتهم بالنفاق، ولوجود منافقين يهود أيضًا، ولا يبعد أيضًا أنهم يقولونها سخرية بالمسلمين، والسياق يؤيّد هذا المعنى لحسم الرجاء بإيمانهم، والنفاق أمر خفيّ لا يحسم ذلك الرجاء، والله أعلم.

﴿وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ إشارة إلى أن الخطيئة التي تورد صاحبها الجحيم إنما هي الخطيئة المتلبسة به والملازمة له والمحيطة به من كل جانب فتحجبه عن كل خير، وهذا بخلاف الخطيئة العارضة التي تعقبها توبة أو تختلط بالصالحات، كما هو حال غالب المؤمنين، وهذه نسمة من رحمة الله، والله أعلم.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ أنزل الآخر منزلة النفس، وذاك بتحريم العدوان عليه، ووجوب السعي للحفاظ على حياته وماله، وذلك لاعتبارات عديدة؛ فضياع العدل وغياب القانون وشيوع الجريمة إنما تغرق السفينة كلها، فمن يعتدي اليوم سيُعتدَى عليه غدًا، مع ما في هذا الاعتداء من تهديم لمعاني الإيمان والصلاح، وضياعها أشدُّ خسارة من ضياع الأنفس والأموال.

﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾ بمعنى: تَشَرَّبتْ قلوبُهم حبَّ العجل، وإلا فالعجل لا يدخل القلوب بذاته، وهذا تقدير مجازي شائع في لغة العرب، والقرآن إنما جاء بهذه اللغة، بل لقد ورد مثله في آيات الأحكام، ولولا التقدير لما استقام الحكم، انظر إلى قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣]، وقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]، فهو إنما حرَّم الأكل في الأولى والنكاح في الثانية، وكلاهما مقدَّران.

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ جاءت مُنكَّرة على معنى أنَّهم يحرِصُون على أيّة حياةٍ ولو كانت ذليلة ومهينة، وهذا شأن اليائِسِين والقانِطِين من رحمةِ الله في الآخرة.

﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ ليس هناك من مناسبة لإعلان العداوة لجبريل أو لأيّ من الملائكة سوى العداوة للدين نفسه، وإعلان التمرّد على كل ما لَه صلة بهذا الدين، والعداوة هذه تنُمّ عن احتجاج على البعثة وضياع الرسالة منهم، وهو كما يشيع عند بعض غلاة الروافض من (خيانة الأمين) ويقصدون به جبريل؛ لأنه حوّل الرسالة - بزَعمِهم - من عليٍّ إلى محمدٍ! حتى قال شاعرهم:

غلِطَ الأمينُ فجازَها عن حَيدَرٍ والله ما كان الأمينُ أمِينَا

﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ بابِل مدينة في سواد العراق، والآية تصرّح بوجودها من القدم، وتُشير إلى اشتهارها بالسحر في ذلك الوقت.

أما الحديث عن هاروت وماروت فإن الروايات الصحيحة لا تسعفنا في إدراك حقيقتيهما، ودورهما في تلك المرحلة، وغاية ما صرَّح به القرآن أنَّهما فتنة للناس، والفتنة هنا بمعنى اختبار عقيدة الناس وتمييز الصادق منهم عن الكاذب، والله أعلم.

﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ إشارة للنهج القرآني في التعلم، وهو ربط التعلم ووزنه بالغاية منه، فالتعلم للعلم شعار مرفوض، بل التعلّم لأداء الوظائف النافعة في خدمة الإنسان وبناء المجتمع، وانحراف البشريَّة عن هذا النهج أودى بها في مهاوي أسلحة التدمير الشامل، والخداع السياسي، والتطوُّر المريع في وسائل الجريمة وأدواتها، وإشارة أخرى أن السحر ليس بخارق للعادة؛ لأن كل شيء يأتي بالتعلُّم فهو معتاد وليس بخارق، والله أعلم.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا ۗ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ۞ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ ۗ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ۖ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ۚ أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۗ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

أولًا: الحذر من لبس الحق بالباطل:

من الآيات الأولى في تجربة بني إسرائيل جاء قوله تعالى محذِّرًا لهم: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾، وفي هذا المقطع يخاطب الله الذين آمنوا: ﴿لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا﴾.

وكلمة (رَاعِنَا) تحتمل حقًّا وباطلًا، الحق بمعناها اللغوي: أن اسمع لنا وتأنّ بنا، والباطل في استخدام اليهود لها شتما وانتقاصا من المخاطب، ويعنون بها الرعونة والحماقة، ولحصول هذا الالتباس بين الاستعمالين جاء النهي الصريح عن توجيه الخطاب بها لنبيِّه ﷺ، وهذا نموذجٌ عمليٌّ لا غير، والأصل فيه النهي عن كلِّ قول أو فعل يؤدّي إلى التباس الحق بالباطل عند المتلقي، والنية الحسنة لا تكفي هنا، لأن العبرة بما يفهمه السامعون لا بما يقصده المتكلمون.

ثانيًا: الحسد طريق الضلال:

يؤكّد القرآن الكريم في هذا المقطع على خطورة الحسد، ودور هذه الصفة الذميمة في صدّ الناس عن الصراط المستقيم، فيقول أولًا: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ﴾.

ثم يؤكِّد ويصرِّح أكثر: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ﴾.

ثالثًا: الحكم للرسالة الخاتمة:

في قوله تعالى: ﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ﴾ ذهب أغلب المفسرين إلى أن المقصود بالنسخ هنا النسخ في آيات القرآن الكريم نفسها، فالآية اللاحقة قد تنسخ السابقة لحكمة يقتَضِيها التدرُّج في التشريع.

لكنَّ السياق القرآني يوحي بمعنى آخر قد يكون هو الأقرب والأنسب؛ فالآيات تتحدث عن تجربة استخلافية سابقة وتجربة استخلافية لاحِقة، ورسالة الأولى (التوراة)، ورسالة الثانية (القرآن)، وقد تنكّر أصحاب التجربة السابقة لهذا القرآن حسدًا من عند أنفسهم مع أنه جاء مصدِّقًا لكتابهم التوراة.

وقد أثار اليهود تساؤلات كثيرة حول صلة القرآن بالتوراة، وكأنَّهم يقولون: إذا كان القرآن مصدِّقا تماما للتوراة فلا حاجة لنا به، وإذا كان مخالفا له فتركه من باب أولى، وقد تقدّم قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾.

وقد جاء ردّ القرآن أن الله جعل القرآن مُصدِّقا للتوراة، وهذا التصديق ليس معناه أن يكون القرآن نسخة من التوراة، فقد يكون النص التوراتي موجودا فينسخه الله بنص القرآن لحكمة يقتضيها التدرج التشريعي المناسب للتطور البشري، وقد يكون النص التوراتي قد فُقد أو (نُسي) بسبب التحريف الذي تقدمت الإشارة إليه، فيأتي النص القرآني معوِّضا هذا النقص، وفي كلتا الحالتين سيكون النص القرآني مثل النص التوراتي في تحقيق غاية التشريع أو أفضل منه من حيث مناسبته لحياة الناس ومصالحهم.

إضافة إلى خصوصيّة القرآن في الإعجاز والبيان، والآية التي قبل آية النسخ مباشرة كانت تناقش بني إسرائيل في سبب رفضهم لرسالة محمد ﷺ، وبعد آية النسخ تكررت المناقشة ذاتها، وتقرير حال بني إسرائيل، ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ والبحث الأصولي المعروف لآية النسخ لا يتأتى إلا بقطعها من هذا السياق كله.

أما المعنى الذي يتّسِق مع السياق فخلاصتُه: أن آيات القرآن قد نسخت ما خالفها من أحكام شرعية وردت في التوراة، وأنَّها أتمّت النقص والنسيان الذي حصل في التوراة بسبب طول الزمن والتدخّل البشري في التحريف والتبديل.

وعليه فإن القرآن هو كلام الله الذي ختم به الرسالات، وجعله الله حاكمًا ومهيمنًا عليها، فالآية تتحدث عن محور جوهري في العلاقة بين التجربتين الاستخلافيّتين (تجربة بني إسرائيل)، و(تجربة المسلمين)، والله أعلم.

رابعًا: العبرة بالدليل لا بالأمانيِّ:

﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، وهذه قاعدة قرآنية في الحوار والمجادلة.

﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ أي: قدِّموا دليلكم وحجّتكم، فهذا هو الفيصل بين الوهم والحقيقة، وكذاك هي قاعدة في البحث العلمي؛ فالباحث الحق يطلب الحقيقة ويسعى لها سواء كانت كما يتمنى أو لا.

وأهل الأرض يستخدمون هذه القاعدة في العلوم الطبيعية والتجريبية، فتوصّلوا بالفعل إلى نتائج مبهرة في الطب والفلك والصناعات المختلفة، بينما قصّروا في تطبيق هذه القاعدة على البحوث الدينيّة واعتمدوا طريقة التقليد باعتبار أن الدين يمثِّل تراثًا شعبيًّا للأمم، وهو ركن في هويّة كل أمّة؛ كالجنس، واللون، واللغة، والتاريخ، ولا مجال لتغييره؛ ولذلك ترى بقاء ما كان على مكان دون الشعور بالحاجة إلى التغيير.

خامسًا: الإحسان قرين الإسلام:

﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ فالإسلام الحق هو الذي يثمر إحسانًا إلى الناس وإتقانًا في العمل، وتلك هي شروط النجاة.

سادسًا: البرهان منهج الصادقين، والعدوان منهج الظالمين:

بعد ما حكاه القرآن عن قول اليهود في النصارى وقول النصارى في اليهود، وكان قبل ذلك كان قد حكى موقف الفريقين من المسلمين، لفت الأنظار إلى سلوك مشين قد تقوم به الأطراف المتخاصمة ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي

خَرَابِهَآ﴾، وهذا السلوك يقابل السلوك الذي اختاره القرآن ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

وقد اختلف المفسّرون في تحديد الطرف المقصود بهذه الإدانة، لكنّ السياق يرجّح أن القرآن بصدد وضع قواعد التعامل بين الفُرَقاء المختلفين، وليس للحكم على حدث معيّن، بقرينة تناوله في الآية السابقة للتخاصم بين اليهود والنصارى ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾.

وليس هناك مناسبة للحديث عن مساجد المسلمين خاصة؛ إذ لم يكن لهم مساجد في ذلك الوقت قد اعتُدي عليها بالفعل، وأما قريش فقد كانت تفاخر بعمارة المسجد الحرام، حتى ردّهم الله بقوله: ﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [التوبة: ١٩]، والله أعلم.

سابعًا: التمايز بين الحق والباطل:

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ وهو تأكيد لما جاء في سورة الفاتحة ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

وهنا إضافة معنى: أن الباطل لا يمكن أن يرضى بشيء من الحق، وهذه حقيقة قرآنية لا تتخلف، والواقع يشهد لها، فمحاولات التقريب بين الديانات والطوائف المختلفة كلها باءت بالفشل، والحل إنما يكون بالوضوح في التمايز بحيث يعرف كل طرف هويته التي تميّزه، ثم بعد هذا نسلك مسلكين:

الأول: التحاور بالدليل والبرهان والمجادلة بالتي هي أحسن، وهذا هو ما تقتضيه الأمانة العلمية واحترام الحقيقة بلا تلبيس ولا تدليس.

والثاني: البحث في القضايا الحياتيّة سياسيّة واقتصاديّة وخدميّة لوضع الصيغ الكفيلة بالتعاون وتحقيق التعايش السلمي، خاصَّةً لَمن كانوا يعيشون في بلد واحد وعلى أرضٍ واحدةٍ.

وهذان المَسلَكَان مَسلَكَان شرعيَّان أقرَّهما القرآن في آيتَين صريحَتَين: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، و﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

دقائق التفسير

﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ الرحمة هنا: القرآن نفسه، وقد كان اليهود يتمنونه فيهم، فلما نزل في غيرهم كفروا به، وهذا المعنى هو المتَّسِق مع السياق.

﴿أَوۡ نُنسِهَا﴾ إشارة إلى الكتب السابقة التي نُسيت الكثير من أحكامها ونصوصها بالتحريف والإهمال، وإنما نسب الفعل لذاته العَلِيَّة على معنى إرادته المطلقة، ففعل العباد لا يخرج عن دائرة الإرادة الإلهيَّة، ولو شاء الله أن يحفَظَها لحُفِظَت كما حُفِظَ القرآن الكريم؛ حيث تعهَّد الله بحفظه.

﴿أَمۡ تُرِيدُونَ أَن تَسۡـَٔلُواْ رَسُولَكُمۡ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۗ﴾ فيه تحذير للمسلمين أن يقلِّدوا بني إسرائيل في نمط الأسئلة التي كانوا يوجهونها لنبيِّهم موسى عليه وعلى نبيِّنا الصلاة والسلام، وهي ذات طابع امتحاني كأنَّهم يمتحنون نبيَّهم كقولهم: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةً﴾ بخلاف الأسئلة العملية للتفقُّه في الدين، والبحث عن الحلول للمشكلات، فهذه محمودة ومطلوبة، كما في قوله تعالى: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: ١].

﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ﴾ هذا الأمر موجَّه للمسلمين بعد بيان حال بعض أهل الكتاب من الدعوة الإسلامية، ورغبتهم في إنهائها وإرجاع المسلمين إلى عهد الشرك والوثنيّة، وفي هذا الأمر بيان لسماحة الإسلام وطريقته في التعامل مع المخالفين.

والعفو: ترك العقاب عن مستحقِّه، والصفح: ترك الخوض فيه أخذًا وردًّا ولومًا وعتبًا وما إلى ذلك، وهو أبلغ وأوسع من العفو.

﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم﴾ تأكيد أنَّ ما يُقدِّمه المسلم من خير وإحسان ونفقة إنما يقدِّمه لنفسه؛ لأنه ينتظر ثوابه من مولاه الكريم، وهذا جمع بين الصفة الجيدة والدافع الذاتي إليها.

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ﴾ أصل الوعيد للمنع المرتبط بالعدوان وقصد الخراب؛ أما ما يحصل اليوم من غلق المساجد وتحديد أوقات الدخول والخروج ومضايقة المصلِّين في المساجد بذرائع أمنية أو إداريَّة فهؤلاء يصيبهم نصيب من هذا الوعيد لاشتراكهم في مسمَّى المنع، وإن اختلفت أسبابه ودوافعه، ما لم يكن هناك ضرورة قاهرة، والله أعلم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ﴾ الأقربُ أنَّ هؤلاء الظالمين المعتدين كان عليهم أن يستشعروا هَيبةَ بيوت الله، وأنّهم لو كانوا مؤمنين حقًّا لارتعبوا فرَقًا وخوفا وهم يدخلونها من أجل التخريب.

وأما القول بأنَّ الشأن أنَّ الكافر لا يدخل المسجد إلا وهو خائف من سيوف المسلمين، فهذا تفسير مستغرَبٌ؛ فالمساجد لم تُبن لإثارة الرعب والخوف في قلوب الناس، بل هي منارات للعلم، وواحات للدعوة والإحسان.

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ﴾ الأقربُ للسياق: أن هذا خطاب للمختلفين والمتخاصمين في الدين؛ إذ لا زال الكلام فيهم أن الله هو مالك الملك، فله المشرق وله المغرب وما بينهما، وأنتم – أيها البشر – أينما توجَّهتم في معتقداتكم وعباداتكم وتصوّراتكم، فالله هو الذي يراقبكم ومطَّلِعٌ على نواياكم وخفاياكم؛ ولذلك عقَّب بقوله:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ بمعنى: أن الله واسع فلا تخرجون عن ملكه، وعليم فلا تغيبون عن سمعه وبصره.

وهناك قرينة أخرى: أنَّ الآية التالية مباشرة جاءت لتنقد توجُّهًا من هذه التوجُّهات ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ وإقحام موضوع تغيير القبلة لا يناسب السياق، والله أعلم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ﴾ هو من نمط أسئلة بني إسرائيل لموسى، والتي نهانا الله عنها: ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ﴾ ولذلك قال بعدها: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾.

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ﴾ البشارة والنذارة مرتبطة بالحق فقط، فمن أخذ به فله البشارة، ومن حاد عنه استحقَّ النذارة.

﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ إشارة إلى أن الدعاة إلى الله إذا أدَّوا ما عليهم وقاموا بواجبهم على الوجه الذي أمر الله فليس عليهم إن أصرّ أهل الباطل على باطلهم، فمسؤولية الداعية التبليغ، وأما الاستجابة فهي مسؤولية المبلَّغ.

﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ إشارة إلى أن كل حكم أو منهج يخالف هدى الله فإنَّما هو هوًى لا غير، سواء كان هذا الهوى لمصلحة شخص حاكمٍ أو حزب أو قبيلة أو عصابة وما إلى ذلك.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ﴾ إشارة إلى أن التلاوة الصحيحة والواعية للكتاب ستقود حتمًا للإيمان، والتلاوة الصحيحة ليست في الوقوف على مخارج الحروف وصفاتها وتجويد القراءة بأحكامها المعروفة، بل هو قبل هذا الصدق في البحث عن مراد المتكلم بهذا الكلام؛ إذ إن الكلام وعاء المعنى، وتجويد النطق بالكلام من غير الحرص على فهم معناه إهمالٌ لمقصود الكلام أصلًا، وهذا لا يقود للإيمان.

﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ ﴾

بعد بيان التجربة السابقة (تجربة بني إسرائيل) ومناقشتها في مختلف الجوانب العقدية والسلوكية، شرع القرآن في بيان معالم هويّة الأمّة الجديدة، بعد أن قدّم لها في سورة الفاتحة وفواتح هذه السورة، فهناك كان التركيز على الإيمان بالغيب، بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهنا شرع بالحديث عن جوانب أخرى لهذه الهويّة:

الجانب الأول: الرمز التاريخي:

فإبراهيم هو الرمز البشري الأول، كما أنَّ محمّدًا ﷺ هو الرمز الخاتم، والذي هو دعوة إبراهيم أيضًا: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ وكأنَّ الأنبياء الذين جاءوا قبل إبراهيم ما جاءوا إلا ممهدين لإبراهيم، والأنبياء الذين جاءوا بعده كانوا مؤكدين لدعوته ومبشّرين بحفيده الخاتم ﷺ.

إن الرسالات السماوية الكبرى (القرآن، والتوراة، والإنجيل) تتصل بدعوة إبراهيم اتصالًا وثيقا، ولكنّ الإسلام أضاف بُعدًا آخر وهو بُعد الهويّة، فجعل من مقام إبراهيم مصلّى، وجعل من البيت الذي رفع قواعده بيده قِبْلة؛ فالأمة كلها تتذكر إبراهيم في صلاتها وفي مناسك حجّها، وتذكره حتى حينما تصلّي على نبيّها، فتقول: «**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيْمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيْمَ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيْمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيْمَ، إِنَّكَ حَمِيْدٌ مَجِيْدٌ**»[1]، وهذه هي الصلوات التامّة.

ومعنى هذا: أنّ الإسلام لا يتعامل مع سيدنا إبراهيم باعتباره نبيًّا ورسولًا فحسب، بل هو حاضر في مناسكنا وصلواتنا وأذكارنا، والحضور المتكرّر هو البُعد الأهم في كل هويّة.

---

(١) حديث الصلاة الإبراهيمية ورد بصيغ متعددة، وهذا اللفظ في حديثٍ متفقٍ عليه عن كعب بن عُجرة ﵁، ينظر: صحيح البخاري (٣/ ١٢٣٣/ دار ابن كثير)، وصحيح مسلم (١/ ٣٠٥/ دار إحياء التراث العربي).

الجانب الثاني: الرمز المكاني:

حيث اختارَ الله الكعبة لتكون الرمز المكانيَّ لهذه الهويَّة، وربط بها ركنين عظيمين من أركان الإسلام: (الصلاة والحج)، وجعل ما حولها حرمًا آمنًا للناس، وهما الركنان الظاهران من الأركان، بخلاف الأركان الأخرى، التي يغلب فيها عمل الباطن.

وهذا يؤكِّد أن الكعبة ليست مكانًا للتعبد فحسب، بل هي رمزٌ ظاهرٌ وحاضرٌ في السلوك الفردي والجماعي لهذه الأمَّة.

الجانب الثالث: الصبغة الربَّانيَّة:

ولأن صِبغة الشيء هي ظاهره المرئي للناس، فإنَّ صبغة هذه الأمة هي هويَّتها، وقد حدد الله مصدر هذه الهويَّة بقوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾، فهي هويَّة ربانيَّة.

ومن هنا ندرك خطورة ما يقوم به بعض المنتسبين لهذا الدين من صناعة رموز بشرية ومكانيّة لم يأذن بها الله، فجعلوا من اسم الحسين ﷺ رمزًا فوق رمزيَّة محمد وإبراهيم ﷺ، وجعلوا من كربلاء رمزًا مكانيًّا فوق الكعبة، إن هذا مع أنه بدعة في الدين فهو سبب لتفريق الأمة وضياعها، لأن كل أمة إنما تجتمع حول هويتها، والهويّة ليست مسائل اجتهادية تحتمل الصواب والخطأ، إنها الصبغة التي ينبغي أن تطغى على كل رأي أو عاطفة أو اجتهاد.

دقائق التفسير

﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ اختلف المفسِّرون في هذه الكلمات، والأظهر أنّها متعلقة بالإمامة ﴿قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ وهي الشروط والصفات والأعمال التي تستلزمها هذه الوظيفة العظيمة، وقوله: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ أي: جاء بهنَّ على أتمِّ وجه.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ المثابة: المكان الذي يرجع إليه الناس ويجتمعون فيه، وهذا تأكيد لدور البيت في حفظ هويَّة الأمَّة، فهو المكان الذي يجتمعون فيه على

اختلاف أجناسهم وألوانهم، ولكي يصلح لهذه الغاية كان لا بد أن يكون آمنًا، والجعل هنا يحمل معنى التكليف؛ إذ يقضي على كل قادر أن يقصده ويعمِّره ويوفِّر فيه الأمن.

﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ فيه وجوب تطهير البيت وما حوله ماديًّا ومعنويًّا، ليكون المكان الأنسب لاجتماع الناس وهم يطوفون به ويركعون فيه ويسجدون، فالتطهير واجب، وإيذاء البيت وما حوله بالقذر ونحوه محرَّم. وقد غفل عن هذا كثيرٌ من الحجَّاج في زماننا والمعتمرين، وظنوا هذا مسؤولية الدولة فقط.

﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ وفي آية أخرى قال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ [إبراهيم: ٣٥]، إشارة للفارق الزمني، فزيارة إبراهيم الأولى للبيت دعا أن يكون حوله بلد آمن؛ لأنه لم يكن هنالك بلد فقال: ﴿ٱجْعَلْ هَٰذَا﴾ أي: اجعل هذا المكان بلدًا، وفي الزيارة الثانية بعدما أسكن ذريته وآنسهم الله ببعض الناس دعا أن يجعل الله هذا البلد الموجود آمنًا.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ إشارة إلى أن أساس البيت كان موجودًا فرفعاه بالبناء عليه.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ تأكيد التكامل بين التعليم والتزكية، بين ما يغذِّي العقول والأفكار وبين ما يهذِّب القلوب والأخلاق.

وقد أخذ بعضهم أن الله استجاب لهما هذا الدعاء، لكنّه أعاد الترتيب فقدّم التزكية على التعليم ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢]، ومثلها في البقرة: ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾. وهذا معنى لطيف ومحتمل، لكنَّ الأقرب منه: أنهما مُتداخلان، فهناك علمٌ أوَّليٌّ ينبغي أن يسبِقَ التزكية، وهناك علمٌ تفصيلي ينبغي أن يأتي بعد التزكية.

ولذلك كان رسول الله ﷺ يقول للناس: «**قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تُفْلِحُوا**»(١). وهذا تعليمٌ، وإشارة هذا التداخل واردة في آية الجمعة نفسها إذا قرأتها من أوّلها: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ والله أعلم.

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ تأكيدٌ لاتصال الرسالات السماوية المعروفة بإبراهيم ﵇، وتأكيدٌ أيضًا لرمزيّته الكبيرة في هذه الهويّة.

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ﴾ تكرّر في هذه المجموعة لفظُ (الإسلام) واشتقاقاته دعاءً أو إخبارًا عن إبراهيم وبَنِيه ﵈؛ لتأكيد صِلة الإسلام بهذه السلالة، وذلك التاريخ.

﴿قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ إشارة إلى أن إسماعيل هو الابنُ الأكبر لإبراهيم ﵇، وهو ما تؤيّده آيات أُخر ستأتي في سياقها القرآنيّ.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ للتفريق بين الاشتراك في الهويّة والافتراق في المسؤولية، فكل إنسان مسؤول عن عمله خيرًا أو شرًّا، والاعتزاز بالأجداد الصالحين واجب لكنّه لا يعفي الأحفاد من مسؤوليتهم.

﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ لأنَّ دعوتهم للدخول في اليهود والنصارى المعاصرين للبعثة المحمّدية، وليس للدخول في ملّة موسى وعيسى، فدعاهم القرآن للدخول في ملّة إبراهيم والتي هي الأصل لرسالة موسى ورسالة عيسى ﵇، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ تعريضٌ بالبِدَع التي تصِلُ إلى مُستوى الشرك والتي ابتدَعَها اليهودُ والنصارى.

---

(١) حديث صحيح؛ رواه أحمد، ينظر: «مسند أحمد» (٣/ ٤٩٢/ المطبعة الميمنية، ط. ١٣١٣هـ، تصحيح محمد الزهري الغمراوي).

﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ تأكيد للسند التاريخي لهويَّتنا الإسلامية، وأنها تجمع كل الرسالات السماويَّة، وترتبط بكل الأنبياء.

وأما الأسباط فهم أنبياء لا شك في نبوَّتهم، وإنما الخلاف في أعيانهم؛ إذ السبط وصف، بخلاف اسم العلَم الذي لا يقع فيه خلاف؛ كإبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، وموسى، وعيسى؛ والأظهر أنهم أنبياء كثر، بعثهم الله في قبائل مختلفة؛ لصحة إطلاق السبط على القبيلة، والأظهر أنَّها قبائل بني إسرائيل؛ لورود قوله تعالى فيهم: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ﴾ [الأعراف: ١٦٠]، وإن كان هذا الإطلاق لا يمنع إطلاقه على غيرهم.

قلتُ: والخلاف في هذا لا يضر؛ لأن المطلوب هو الإيمان المجمل بنبوّتهم، إذ ليس هناك رسالة أو شرع عنهم، مع استبعاد أن يكون المقصود إخوة يوسف ﷺ؛ لشناعة الجرم الذي ارتكبوه بحق أبيهم وأخيهم، ولقول يوسف فيهم: ﴿قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ﴾ [يوسف: ٧٧]، ولأنّ الله قال في الأنبياء: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وهؤلاء لم يذكر القرآن عنهم ما يصح به الاقتداء، والله أعلم.

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ﴾ الأظهر أنَّ هذا التشنيع كان بسبب علمهم بكِبَر التحريف الذي اقترفوه في كُتب الله السابقة، مما ينفي صلتهم بإبراهيم فضلًا عن كذبهم بنسبة إبراهيم لهم.

أما ما أنزله الله على موسى وعيسى فلا شك أنّه وما جاء به محمد وإبراهيم ﷺ من مِشكاةٍ واحدةٍ؛ ولذلك قال الله في سورة الأعلى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ١٨ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨، ١٩].

﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا
ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا
كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً
تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ
أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ
بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾
ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ
جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا
ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ
لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾
كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا
لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ
ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ
رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ
فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ ﴾

تمييز الهويَّة

القضيَّة المحوريَّة في هذه الحلقة هي تمييز الهويَّة الإسلاميَّة، وهي هويَّة الأمَّة الجديدة والمستخلفة بعد خسارة الأمَّة السابقة لهذا الدور الكبير.

وتظهر هنا أهميَّة تمييز هذه الهويَّة لتتميَّز الأمّة نفسها؛ بحيث سفَّه القرآن تلك العقول التي لا تدرك قيمة هذا التمييز ﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ ﴾

في مقابل هؤلاء كان رسول الله ﷺ مُدرِكًا لخطورة الأمر، ومتعجِّلًا في حسمه ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ ﴾ إن اختيار المسجد الحرام قبلة للمسلمين هو أبعَد من تفضيل مكانٍ على مكانٍ ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ ﴾، وإنما لتمييز الأمّة: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾.

وقد أشار القرآن إلى إدراك أهل الكتاب لهذا الأمر وأهميَّته وتبِعاته على خلاف السفهاء الذين لا يعلمون ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ ﴾ إن الأمم على اختلاف ثقافاتها لتسعى إلى هذا التمايز الذي يحفظ لها هُويَّتها ووجودها، سواء أكانت على الحقِّ أم كانت على الباطل، وهذا ما يؤكِّده القرآن في هذه الآيات، وإنَّ الأمم الضائعة والتائهة والآيلة إلى الزوال هي تلك التي لا تعتزُّ بهويتها، ولا بما يميِّزها عن غيرها.

ثم تناول القرآن قانونًا لا يتغيَّر في حراك الأمم والمجتمعات الإنسانيَّة، ألا وهو الصراع الحتمي، والذي يتخذ أكثر من طابع وأكثر من مبرِّر، لكن (صراع الهويَّة) هو السِّمة الغالبة على هذا الحراك؛ ومن هنا بدأ القرآن يُعِدُّ هذه الأمة لمواجهة هذا التحدِّي الحتمي، فبدأ بقوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي ﴾، ثم

أضاف: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾.

إن مجيء هذه الآيات مباشرة بعد الحديث عن القِبْلة وما تمثّله للأمّة الوسط ليحمل دلالة قاطعة على حتميّة المواجهة مع الباطل، فوجود راية الحقّ الواضحة في مكان ما على هذه الأرض يستفزُّ الباطل لا محالة.

دقائق التفسير

﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ الأقرب أن السفاهة هنا الجهل، والظاهر أنه أراد مُشركي العرب ومنافقيهم، وقد اعترضوا على تغيير القبلة؛ لأنّهم لم يفهموا الغاية والحكمة منه، بخلاف أهل الكتاب الذين يعلمون الحق، ويعلمون جِدِّيّة الأمر وخطورته، وإن كان فيهم من سَفَهٍ فهو سفهُ القصد والنيّة، لا سفه الجهل والغفلة.

﴿أُمَّةً وَسَطًا ﴾ الوسطيّة هي الاعتدال والتوازن، ومَن فسّرها بالأفضليّة والشرف الأعلى فهو مُحقٌّ للتلازم الذي بينهما، كما قيل: خير الأمور أوسطُها.

والوسطيّة غير التوسُّط، والذي يطلق في الغالب على موقف بين موقفين متقابلين، وهذا لا يكون حقًّا وعدلًا بالضرورة، فالتوحيد يقابله الشرك، والتوحيد هو الحقُّ، وليس الحق بأن تتوسَّط بينهما.

ومن لطائف القدر أن تكون الجزيرة العربية - وهي مهبط الوحي - في وسط الكرة الأرضيّة العامرة، وبُعدها عن أقصى الشرق كبعدها عن أقصى الغرب، وليست هذه لازمة لمعنى الوسطيّة القرآنيّة، مع ما فيها من حكمةٍ ربّانيّةٍ لا تخفى.

﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ الشهادة عِلَّة للوسطيَّة، فخيريَّة الأمة وعدالتها سبب في استحقاقها لتكون شاهدة على الأمم الأخرى، والشهادة هنا الحُكم، بمعنى: أنّها ملكت المعيار الصحيح الذي تحكم به على سلوك الأمم الأخرى استقامةً أو انحرافًا، ثباتًا أو تبديلًا، والظاهر أن من يملك هذه الشهادة إنما هم العلماء العُدول، والأمة تَبَعٌ لهم في ذلك، والله أعلم.

﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ إشارة إلى أن هذه الأمة محكومة بالمعيار نفسه الذي تحكم به على الآخرين، فالرسول ﷺ يحكم بنفسه على من كان معه من المؤمنين، ثم يحكم بهديه وسنَّته على الآخرين.

﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ﴾ الاختبار في اتباع الرسول ﷺ وارد هنا في الحالتَين:

التوجُّهُ أولًا إلى بيت المقدس كان اختبارًا للمؤمنين من العرب، والذين كانوا يعتزُّون بالكعبة.

والتوجُّهُ الثاني للكعبة كان اختبارًا للمؤمنين من أهل الكتاب، الذين كانوا يعتزُّون ببيت المقدس، ويُنكِرون استدباره في الصلاة.

وقوله تعالى: ﴿لِنَعۡلَمَ﴾ محمولٌ على الكناية؛ أي: لتعلموا، وهو شائع في اللغة، ولأن المقطوع به أنّ الله يعلم الحوادث قبل وقوعها، ولا يستجدّ له علم بحدوثها.

﴿شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ﴾ أطلق المسجد وأراد الكعبة، فمن كان في المسجد أو خارجه، القريب والبعيد، المقيم والمسافر عليهم قصد الكعبة في الصلاة.

فإن قيل: هذا متعذِّر على البعيد.

قلنا: إن الواجب تحقيق القصد، بأن ينوي المصلي التوجُّهَ إلى عين الكعبة، فإن لم يُصِبها فهو معذور وصلاته صحيحة، وهذا يفرق عن قول من قال: إن قصد العين فرض القريب،

وقصد الجهة فرض البعيد، فقِبلة المسلمين واحدة، واستحضارها في الصلاة على اختلاف بقاعهم يُعزِّز في النفس الانتماء للهويَّة الواحدة، والله أعلم.

﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ بمعنى: أن كل جماعة متمسِّكة بوِجْهتِها عن إيمان وصدق، أو عن تكبُّر وعصبيَّة، والمطلوب هو البحث عن الخيرِ والحقِّ، وليس العيب أن يغيّر المرءُ وَلاءَه إن تبيّن له الحق في الجهة المقابلة، وإنما العيب هو التعصب للجماعة أو القبيلة بلا بيِّنة ولا دليل.

وهنا إشارة إلى أنَّ الأمم حتى لو بقيت متمسّكة بما عندها عليها أن تتنافس في تقديم الخير لهذه الحياة، فأبواب الخير واسعةٌ، وكلّما زادت مساحة الخير نقصت مساحة الشر، وتقارب الناس في قيم العدل والتعاون والتكافل والرحمة العامّة، فهذه -بلا شك- تخفّف من الآثار المؤذية للخلافات الدينيّة والفكرية.

﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ إشارة إلى أن المسلم ينبغي أن يبقى على ذكر الله في كل أحواله، يشكر على النعمة، ويصبر على المصيبة، ويستغفر عند الذنب، ويقرأ القرآن، ويصلِّي على رسول الله ﷺ، ويذكر الموت والبِلَى، فالذكر إنما هو إيقاظ لمعاني الإيمان كلها، ولذلك كان أفضل الأعمال عند الله.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ الصلاةُ من الله: الرحمة، وجمَعها لإفادة التنوُّع والكثرة والتكرار؛ إذ الرحمة تشمل العفوَ والمغفرةَ، ومضاعفةَ الحسنات، واستجابة الدعوات، ثمّ عطف عليها لفظ الرحمة؛ تأكيدًا وترسيخًا وبيانًا، والله أعلم.

﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ من شعائر الله أي: من العلامات الإيمانيَّة الظاهرة، فهما إذَنْ من معالم الهويَّة الإسلاميَّة، وقد أشكَلَ على بعض المسلمين التطواف بينهما لمحل الشَّبَهِ بالمشركين في

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿١٧٦﴾﴾

أسباب الضلال

القضية الكبرى التي يعرضها القرآن في هذا المقطع هي أسباب الضلال والانحراف عن الصراط المستقيم، ومناسبتها أن القرآن كان قد عرض في المقطع السابق اختلاف التوجهات وتمسك كلّ أمةٍ أو جماعةٍ بما عندها ولو كان باطلًا.

وهنا شرع القرآن بأسباب هذا التمسُّك أو التعصُّب:

أولًا: كتمان العلم:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ وقد استحقَّ هؤلاء كلَّ هذا الوعيد الشديد؛ لأنَّ جريمتهم متعدِّيةٌ إلى جمهور الناس، فهم المؤتمنون على الوحي بعد الأنبياء، وقد خانوا هذه الأمانة بكتمانها عن عمدٍ وقصدٍ، والآية عامة تشمل كل كاتم للهدي الرباني، ولكنَّها تشمل أهل الكتاب الذين حرَّفوا الكتاب من باب أَولَى، فالتحريف زيادة في الكتمان وقطْعٌ لسبيل الوصول إلى منبع الهَدْي.

وإذا كان الله قد تعهَّد بحفظ القرآن فلا سبيل لتحريفه، فإن هناك من يرتكب تحريفًا آخر وهو التحريف الاستنباطي، وهذا واقع في أمّة الإسلام؛ حيث يعمد بعض من أعطاهم الله العلم إلى ليِّ النصوص وصرفها عمدًا عن معانيها لاستنباط معنًى آخر، يتقرَّب به إلى ذي سلطان أو ذي جاه ومصلحة، وهؤلاء داخِلُون في هذا الوعيد.

ثانيًا: تعطيل الفكر:

وهذه خطيئة العامَّة، فهم لا يفكرون، ويُسلِمون عقولهم وقلوبهم لغيرهم بلا وعيٍ ولا تمييزٍ، وقد أشار القرآن إلى هذا السبب عند عرضه لآيات الله الواضحات في هذا الكون الفسيح، ثم عقَّب بقوله: ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾، وقد أكَّد هذا المعنى بقوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾.

وبقدر ما يعطِّل الإنسان مَدَاركَه المعرفيَّة فإنَّه سيضطر للتقليد الأعمى لا محالة.

ثالثًا: غلبة العاطفة على العقل:

وهذا دافع آخر للتقليد الأعمى، فالتعلُّق العاطفي بالأسماء والصور والهيئات المتلبسة بلبوس الدين يُعمي القلب عن ملاحظة الأخطاء والخطايا التي كثيرًا ما تُرتكب باسم الدين نفسِه، وقد ربط القرآن بين هذه العاطفة الغافلة وبين اتّباع دعاة الضلال ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾.

رابعًا:التقليد الأعمى:

وهذه نتيجة متوقَّعة للمقدمتين السابقتين؛ تعطيل الفكر وغلبة العاطفة، والتقليد قد يكون للمتبوعين من أصحاب النفوذ والسلطان - كما مرَّ -، وقد يكون تعصُّبًا لما كان عليه الآباء والأجداد ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ وغالبًا ما يكون الأول في الدول والمجتمعات المنظَّمَة سياسيًّا واقتصاديًّا، بينما يكون الثاني في المجتمعات البِدائيَّة.

خامسًا: الخصومة والعداوة:

وهي التي تحصل بين الأفراد والأحزاب والجماعات فتمنعهم من الاستماع لبعضهم، وتُغلق فيهم منافذ المعرفة، فيرفضون الحقَّ لا لذاته، بل لأنه جاء على لسان من يخاصمونه ويعادونه ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾.

والشقاق هنا هو النزاع والخصومة كقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا ﴾ [النساء: ٣٥]، وهذا ليس الاختلافَ الاجتهاديَ الذي مَبْعثُه عميق النظر في النصِّ ودلالته، فهذا الاجتهاد يؤدّي إلى الاختلاف لا محالة ، لكنَّه اختلاف تنوُّعٍ وسعةٍ ورحمةٍ ومودّةٍ، ويستحق كلاهما الأجر أو الأجرين، كما هو معلوم.

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ ﴾ دليل أنّ توبة العالم الكاتم لعلمه والمحرِّف لحكم ربه لا تصح دون تبيين ما كتم وإصلاح ما أفسد، وهي مهمَّة ثقيلة لا تحتملها الجبال لو فطن لها أولئك المبتلَون بهذا المرض، والعياذ بالله.

﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ تفسير لقوله: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ﴾ فالسماء هو العلوّ ومنه السحاب، وليس المقصود به هنا الفَلك الذي يقابل الأرض والذي هو سبع سماوات كما يخبر القرآن.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْۖ ﴾ هذا التلاوم بين الأتباع والمتبوعين حينما تنكشف الحقيقة الكاملة للطرفين في ذلك اليوم، فيتحوَّل التقليد إلى ملامةٍ وندم، ويتحوَّل الحبُّ إلى حسراتٍ، والجزاء من جنس العمل.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾، و﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ لها مناسبة دقيقة هنا وهي: أنَّ الله لا يريد العنَتَ والمشقَّة لهذا الإنسان، فمن كان يتنكَّر لدين الله طمعًا في مصلحته العاجلة، وإيثارًا للدنيا على الآخرة فقد باءَ بشقاء الدارَين، فخطوات الشيطان ستُبعِده عن طيِّبات الدنيا قبل طيِّبات الآخرة، كما قال في موضع آخر: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه: ١٢٤].

وفي هذا السياق يأتي تحديد ما حرَّمه الله من الطعام؛ الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهِلَّ به لغير الله أي ما يُتقرَّب به للأصنام، فهذه لا تُشكِّل شيئًا بالنسبة لما خلقه الله من أنواع الرزق،

ومع هذا رخَّص للضرورة أكل هذه المحرَّمات بما تندفع به الضرورة ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ أي: غير راغبٍ بأكل الحرام، ولا متجاوزًا لحدِّ الضرورة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ هذه الآية أضافت معنًى جديدًا للآية الأولى، وهو بيان الدافع لهذا الكتمان، وهو إيثارهم المصالح الدنيوية على ما عندهم من الحق.

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ هذه عقوبةٌ من جنس عملهم، فهم قد كتَمُوا كلام الله في الدنيا بعد أن خصَّهم الله به، فحجب عنهم كلامه يوم القيامة.

﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾

بناء المجتمع

قضية هذا المقطع الجوهريَّة هي بناء المجتمع وفق هوية متميِّزة ومنظومة قِيمِيَّة واضحة، وهي أيضًا قضية المقاطع الآتية بشيءٍ من التفصيل:

أولًا: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهي تفصيل لما بدأت به السورة ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ وهذه هي أركان الإيمان إلا القدر فإنَّه مضمَّن في الإيمان بالله؛ إذ هو إيمان بعلمه تعالى وإرادته وقدرته، والإيمان بالغيب بهذه الأركان هو أساس الهويَّة الإسلاميَّة، وأساس التمايز بين المجتمع المسلم وغيره.

ثانيًا: التكافل الاجتماعي: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ فالإيمان بالغيب يُنتِجُ هذا التكافلَ والتراحمَ، وعكسه

صحيح أيضًا، قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الماعون: ١ - ٣].

ثالثًا: عبادة الله وحده: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وقَرَنَ الزكاة هنا بالصلاة إشارة لمعناها التعبُّدي، إضافةً لمعناها التكافلي الذي مرَّ في النقطة الأولى، أما الصوم والحج فستأتي أحكامهما مفصلة بعد هذا المقطع.

رابعًا: الأخلاق، وقد ذكر منها ثلاثة: الوفاء، والصبر، والصدق: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ﴾.

وقد تضمَّن النص خُلُقًا رابعًا، وهو الشجاعة، وذلك في قوله: ﴿وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ﴾ والبأس هو القتال والحرب، ولا شك أنّ هذه الأخلاق الأربعة هي أمّهات الأخلاق، والله أعلم.

خامسًا: العدل في الدماء: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ والقصاص أشمل من القتل وأدقُّ: أشملُ لأنه يتناول القتل والجراح والضرب، وأدقُّ لأن القصاص مضمَّن معنى العدل ومقابلة العدوان، وهذا بخلاف قولهم: (الحكم بقتل القاتل)، أو (القتل أنفى للقتل)؛ لأن القتلَ الأول قد يكون مشروعًا، كما في حالة الدفاع عن النفس ونحوه.

سادسًا: العدل في الأموال: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ البرُّ هو الإحسان، وهو مقياس الخيريَّة في الأمم والمجتمعات والأفراد، وإنما يتحقق بالسلوك والعمل الصالح وما يُقدِّمُه المرءُ لإخوانه، وهذا ما فصَّلَه القرآن في المقطع وفي غيره، أما المجادلة في التوجّه جهة الشرق أو الغرب فهي لا تُثمِر نتيجةً في تقديم هذا المجتمع وتأخير ذاك.

وهي إشارة أيضًا للمسلمين أنَّ مقياس البرِّ إنما هو الأسس الإيمانيَّة والعمليَّة والأخلاقيَّة، أما المنافسة في الشعائر الظاهرة؛ كإطالة اللحى، وتقصير الثياب، والإكثار من العمرة، فهذه لوحدها لا تصلح مقياسًا للتفاضل، والله أعلم.

﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ إشارة إلى أنَّ حبَّ المالِ ليس مُنكرًا، فهو مغروس في فطرة الخَلْق، إنّما العبرة في الإنفاق منه مع حبّه فهذا أقرب لتحقيق التقوى وقصد القربى، وذلك بخلاف من اعتاد تبذير ماله بوجه ومن غير وجه.

﴿ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ من دون اشتراط فقرهم إشارة أنّ صلة الرحم ومواساة اليتامى مقصودة ومحبوبة بالصِلة والهديَّة ونحوها، أما الزكاة فلا تصح لهما إلا مع الفقر والحاجة.

﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ هو المنقطع عن ماله وأهله لسفرٍ ونحوه؛ كمن انقطع بسبب حَبْس وحصار، فلا مانع من قياسه على من انقطع به السبيل، والله أعلم.

﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾ إشارة إلى أنَّ السائل لا يُردُّ ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى: ١٠]، لكنّه إن عُرِف غناه حُرِم من الزكاة قطعًا، من غير توبيخٍ أو إهانة، ولا بأس بالنصح الشخصي دون إعلانٍ أو غيبةٍ.

﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ إعتاق العبيد بإعانة المُكاتَب الذي يطلب حريّته بفداء، وكذلك فكاك الأسرى، والله أعلم.

﴿ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ﴾ صريحة في القصاص من الحُرِّ إذا قَتل حُرًّا، وفي القصاص من العبد إذا قَتل عبدًا، وفي القصاص من الأنثى إذا قَتلت أنثى، وهذا غاية العدل مهما كان الفارق بين القاتل والمقتول في كل هذه الصور، أما إذا اختلف الصِّنفُ بأن قتل الرجلُ امرأةً، أو الحرُّ عبدًا فالنصُّ لا يتناوله صراحة لا بإيجابٍ ولا بسلبٍ، لكنَّ لفظ القصاص الوارد في مقدِّمة النصِّ وفي خاتمته يُوحي بشمول القصاص لكل هذه الحالات أيضًا.

يعضد هذا قوله تعالى في موضع آخر: ﴿ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ﴾ [المائدة: ٤٥]، فيكون ذكر الحرِّ بالحرِّ، والعبد بالعبد، والأنثى بالأنثى تأكيدًا للقصاص، وتفصيلًا له، وردًّا للمغالاة والتعدِّي بمجاوزة القاتل إلى أهله وعشيرته طلبًا للأُبَّهة والتعالي المحرَّم، والله أعلم.

﴿فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ﴾ دلالة على أن خصومة القتل لا تنفي أُخُوَّة الإيمان، والتذكير بها هنا نافع للتشجيع على العفو، والله أعلم.

﴿فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾ أي: عند الرجوع إلى الدِّية أو العِوَض المادّي بالتنازل عن القصاص، فعلى وليّ المقتول أن يطلب حقَّه بالمعروف والحُسنى فلا يَتَعَسّف في تحصيل حقّه، وعلى القاتل أن يؤدِّي ما ثبت عليه ديةً أو عوضًا بإحسانٍ بلا مماطلةٍ ولا نقصان.

﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ توزيع مال المتوفّى على الوالدين والأقربين فصَّلته آيات المواريث، وهذه الآية ينبغي فهمُها في ضوء تلك الآيات، ودعوى النسخ لا تُقبل طالما أمكن الجَمْع، والجَمْعُ واردٌ هنا، فمن فَرَض الله له فريضة فلا يُوصَى له بشيء، وغيره داخل في الوصيَّة؛ مثل الوالد المختلف دينه عن ابنه المتوفى، ومثل الأقرِباء والرَّحِم الذين لا يَرِثُون.

وهناك الوصيّة للوالدين والأقربين بالحقوق التي هي ليست إرْثًا؛ إذ يكثر بين هؤلاء التداخل المالي في العقارات الموروثة سابقًا، والشراكات والذمم المختلفة من مَهْر، ونفقة،

وأجرة، وضمان تالف، ونحو هذا كثير، والله أعلم.

﴿فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾ دلالة على رفع الإثم عن الميت إذا وصّى، وتحميله على من بدَّل الوصيَّة، وإشارة إلى أن الفرد لا يقدر على تبديل الوصيَّة من دون توافق مع الكاتب والشهود؛ ولذا جاء بصيغة الجمع، والله أعلم.

﴿فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ﴾ خَافَ معناها هنا: الخوف المحقق أو الراجح من وجود الظلم في الوصيَّة؛ إما بالجَنَف، وهو الخطأ والنسيان ونحوهما، وإما بالإثم، وهو تعمُّد الظلم.

فالواجب على الحاضر أن يُذكِّرَ المُوصِي بالحقِّ، ويحذِّرَه من الظلم، وعلى القاضي أو وليِّ الأمر إذا حصل نزاعٌ بين الورثة وأصحاب الحقوق أن يحكُمَ بالحقِّ، وأن يُعطِي لكل ذي حقٍّ حقَّه، وإن كان ذاك على خلاف الوصيَّة، وقال: ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ﴾ لرفع توهُّم الإثم بمخالفته الوصيَّة، وليس فيه دلالة على التخيير؛ إذ الظلم محرَّم، ورفعه واجب على كل قادر.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَخۡتَانُونَ أَنفُسَكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ وَعَفَا عَنكُمۡۖ فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ ﴾

رسالة الصوم

بعد بيان دَور العبادة في صناعة البرِّ والإحسانِ شَرَعَ القرآنُ في تفصيل رسالة الصوم، كونه ركنًا من أركان الإسلام، وعبادةً من أهمِّ العبادات:

أولًا: غاية الصوم الكبرى، وهي تحقيق الولاية لله؛ ذاك لأن القرآن جمع في آية الصوم الإيمان والتقوى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ وجعل الصوم جسرًا واصِلًا بين الإيمان والتقوى، وهذان هما شرطا الولاية

﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣].

ثانيًا: ربط الصوم بمصدر الإسلام الأول عقيدة وشريعة، ألا وهو القرآن ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ﴾ وهذا التذكير مقصود؛ ليكون رمضان هو شهر القرآن تلاوةً وتدبُّرًا وتعمُّقًا.

وهذا جانبٌ تربويٌّ عظيمٌ يستشعِرُه المسلمون عامة في هذا الشهر الكريم، فتُملأ بيوتُهم ومساجدهم بدويّ القرآن ليلًا ونهارًا، مما يصبغ هذا الشهر بصبغة خاصة، مع أن القرآن جاء لكلِّ الأيام ولكلِّ الشهور والدهور، ومن ناحية أخرى فالقرآن يمدُّ رمضان بأدوات تحقيق رسالته الكليّة وهي تَحقُّق الولاية الربَّانيَّة، إذ لا يمكن للمسلم أن يحقق رسالة الصوم ما لم تتحقق فيه رسالة الإسلام الكليَّة.

ثالثًا: الصوم يحفظ حقوق الناس وأموالهم، وهذا أثرٌ من آثار التقوى، فقد جاءت آيات الصيام بين آيات المال، فقبلها كان الكلام عن الوصيَّة وتدخّل المجتمع لرفع الخطأ والظلم فيها، وبعدها جاء قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ﴾.

وعلاقة الصوم بهذا أنَّ الصوم يُقوِّي في نفس المسلم العزيمة على ترك الأكل الحلال الذي اعتاده في باقي الأيَّام فصبره عن أكل الحرام من باب أَولَى.

رابعًا: الصوم مظنَّة استجابة الدعاء، وهذا أثرٌ من آثار الولاية، فقد جعل الله آية الدعاء وسط آيات الصوم ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ إشارة إلى أنّ الصوم يجعل العبد قريبًا من ربِّه، وهو من عاجل جزائه على حسن تعبّده.

خامسًا: الصوم فرصة للتزوّد من العبادات الأخرى ﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ﴾ إشارة إلى أن الاعتكاف يكون مع الصوم، وهو ما

أكَّدته السنَّة؛ حيث كان ﷺ يعتكِفُ في رمضان، وفي العشرِ الأواخر منه خاصَّة[1].

سادسًا: اليُسر مع الصوم، فالمشقَّة مرفوعة ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ وإنما أكَّد هذا في آيات الصوم مع أنه قاعدة تشريعيَّة عامَّة؛ لمظنَّة حصول المشقَّة مع الصوم كما في حالَتَي المرض والسفر، وقد اقترن هذا أيضًا بإباحة المعاشرة الزوجيَّة في ليلة الصيام وكل ليالي رمضان؛ لحاجة الناس إلى ذلك، مع أنَّ رمضان موسم للتبتُّل والانقِطاع للعبادة.

سابعًا: الشكر على أداء الصوم: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ دلالة على أن التوفيق لإتمام العبادة نعمة، وهي تستحقُّ الشكر، وفي هذا تربية للنفوس المؤمنة على استشعار الافتقار الدائم لرحمة الله ومدده حتى في حال العبادة، فلا يغترَّنَّ عابِدٌ بعبادته.

ثامنًا: التكبير: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ هذا الشعار العظيم الذي يميِّز هذه الأمَّة عن غيرها تمييزًا يعلن عن هويّتها وقوّتها، وعنوان طريقها، إنه مع كونه ذِكرًا لا يختلف عن التسبيح والتحميد والاستغفار والصلاة على رسول الله من حيث قصد القربى والتعبُّد، واستحصال الخير والبركة، إلا أنه مع كل هذا هو شعار هذه الأمة في مجالات حياتها المختلفة، فهو الكلمة الأولى في الصلاة، وهو الصوت المسموع في الأذان، وهو هتاف المسلمين في مواجهة الخطوب والتحدِّيات.

---

(١) حديث اعتِكاف النبيِّ ﷺ في العشر الأواخر من رمضان متفق عليه، ينظر: صحيح البخاري (٢/ ٧١٥/ دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧- ١٩٨٧م)، وصحيح مسلم (٢/ ٨٣٠/ دار الجيل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).

﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: أهل الكتاب، والشَّبَه حاصل في أصل الصوم ولا يشترط لتحققه التشابه في كل أحكامه وهيئاته، والله أعلم.

وفي الآية دلالة أيضًا على وحدة المصدر لكل الرسالات السماوية.

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ وهي تسعة وعشرون أو ثلاثون يومًا بحسب الأهلَّة، وقد فَسَّرت الآية التالية المقصودَ بهذه الأيام ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾، وإنما قدَّم الأيَّام المعدودات؛ لما فيها من التهوين والتخفيف.

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ هذه في أصحاب الأعذار، وقد قسَّمتهم الآيةُ إلى قسمَين:

- أصحاب العُذر الطارئ الذي يُتوقَّع زواله؛ كالسفر وبعض المرض، فهؤلاء عليهم القضاء بعد رمضان في أيام أخر.

- وأصحاب العُذر الدائم، وهم: ﴿ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ بمعنى: الاستطاعة مع الجهد وتوقُّع الضرر؛ كالشيخ الطاعن في السنِّ، والمريض الذي لا يُرجى بُرؤه، فهؤلاء ليس عليهم قضاء، وإنما عليهم إطعامُ مِسكين واحد عن كل يوم، وفي هذا إشارةٌ لارتباط الصوم بالإحسان، والله أعلم.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ إشارة لحكمة اختيار رمضان محلًّا للصوم، وإشارة أيضًا لصلة الصوم بالقرآن وترغيب الصائمين بتلاوة القرآن وتدبُّره واستنباط الهدى والفرقان من آياته.

﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ أمر بالصوم تأكيدًا لما ورد أولًا: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ وقال: شهد الشهر، ولم يقل: الهلال؛ إشارةً إلى أنَّ المقصود إدراك الشهر نفسه،

وأما الهلال فهو علامة الشهر، ولا مانع من أن تجِدَّ علامة أخرى أكثر دقَّة من الرؤية البصريّة للهلال، وهذا ليس فيه مخالفة لنصوص السنَّة الواردة في الرؤية؛ لأنَّ الرؤية كانت الطريقة الوحيدة لإدراك الشهر.

ونظير هذا: ذكر القرآن لرباط الخيل في الجهاد، وما هو إلا وسيلة لتحقيق المقصود، وهذه الوسيلة تغيَّرت اليوم بوسائل أسرع وأشد وأمضى في العدوِّ، وأقرب لتحقيق المقصود، والله أعلم.

﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ أي: الأيَّام المعدودات وهي أيَّام رمضان كاملة تسعة وعشرون أو ثلاثون لا فرق بينهما أداءً أو قضاءً.

﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ إشارة إلى أنَّ التكبير شكر، وفيه أن الشكر يتأتى بالعبادات؛ من ذكر، ونافلة صلاة وصوم، والله أعلم.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ﴾ توجيه السائل إلى ما ينفعه، فالسؤال عن الله فيه جوانب كثيرة، واتجاه القرآن للجانب العملي مقصود في التربية بما ينفع، وترك المسائل النظرية والفلسفية التي لا تنتج عملًا.

﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى﴾ الإيمان مقدَّم على الاستجابة، والاستجابة لا تصح من دون إيمان، ولكنه قدّمها هنا إيذانا بشرطيَّتها المباشرة في استجابة الدعاء، شرطيَّة الاستحقاق، فالذي يستجيب لنداء ربّه كلما ناداه في كل أمر وفريضة فإنه يستحق استجابة الله له، وأما من قصَّرَ في ذلك فهو موكول إلى رحمة الله وعفوه وكرمه.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ﴾ أي: مباشرتهنَّ، وهذا من التيسير بعد أن شقَّ على المسلمين التنزُّه عنه كلَّ رمضان ﴿أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ وهذا من التدرُّج في التشريع، ومراعاة حال الناس، والتدرُّج له صورتان:

تدرُّجٌ من الأشدِّ إلى الأخف؛ لتعريف الناس برحمة الله، وأنه لا يريد العَنَتَ بهم، كما في هذه الآية.

وتدرُّجٌ من الأخف نحو الأشد، كما في قصَّة تحريم الخمر؛ وهذا لأن منع الخمر مقصود أساسًا، وجرى التلطُّف والتدرُّج لتمكُّن الخمر من نفوس الناس، بحيث يشقُّ عليهم تركه جملةً واحدةً.

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ تعليل لذلك التخفيف؛ فإن شدة الاحتكاك والتلبُّس بينهما طيلة الليل توقعهما في حَرَج التنزُّه عن المباشرة، وفيه إشارة أن الرجل يستر المرأة ويُغنِيها عن الحرام وهي كذلك، وفيه تذكير وترغيب بخُلُق الستر، وكتم ما بينهما من أمور خاصّة، والله أعلم.

﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ تأكيد أن الإمساك يبدأ بتبيُّن الفجر بيانًا لا شكَّ فيه تحرُّزا من الوسواس والاختلاف، فالتقوى امتثال للأمر، والاحتياط في المشتبهات فقط، وليس هنا أمر مشتبه، فإذا انشقَّ الفجر وحان وقت الصلاة وجب الإمساك، ولا حاجة للاحتياط، والله أعلم.

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾ إشارة إلى أن قضاء الحاكم بما تيسّر عنده من أدلَّةٍ وبيِّناتٍ لا يُحِلُّ حرامًا ولا يحرِّمُ حلالًا، ولا تَبْرَأ به الذمَّة أمام الله، وإن وجب الالتزام به فهو التِزامٌ لحَسمِ الخُصُومة واحترام النظام العام، والقاضي معذور إن لم يتعمَّد الإثم والمُحاباة لقرابة أو رشوة، وإلا فإن إثمَه أكبر من الطرف الآكل لمال غيره.

﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ فالهلال علامة دخول الشهر، والتوقيتات الشرعيّة مستندة إلى ذلك في الصوم والحج والعِدّة ونحوها، وقد اتخذه المسلمون شعارًا لهم، وهو من التعبير السائغ عن اعتزاز الأمّة بهويتها، كما تواطَؤُوا على ستارة الكعبة بألوانها وزخرفتها، حتى غَدَت صورة الكعبة في ضمير المسلمين هي هذه، وليس في هذا حرج؛ إذ هو ليس تشريعًا مُضافًا، ولا بدعة بقصد القُربى، والله أعلم.

﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ﴾ إشارة لاتِّباع الحكمة، والأخذ بالأسباب، ووضع كل شيء في مكانه، وإنزال الناس منازلهم، وتقدير الأمور ومعرفة مداخلها ومخارجها، وفيه أمر بدخول البيوت من أبوابها استئناسًا واستئذانًا، والله أعلم.

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾

رسالة الجهاد

القتال أحد أخطر وجوه العلاقة بين المجتمعات البشرية من فجر التاريخ وإلى اليوم، فهو وسيلةٌ لفرض الهيمنة والحصول على المغانم والمكاسب، أو لردِّ العدوان والحفاظ على النفس والأهل والأرض والمال.

والمجتمع في حالة العدوان أو في حالة الرد بحاجة إلى القوّة، ومن ثَمَّ كان تشكيل الجيوش سمة مقترنة بوجود المجتمعات البشريّة، ترعاه قيادة المجتمع المتمثلة بالدولة، أو بشيخ القبيلة، ويُنفَق عليه أكثر مما ينفق على المؤسسات والضرورات أو الحاجات الأخرى، إلا أن هذه القوّة في الإسلام تختلف عنها في المجتمعات الأخرى البعيدة عن شريعة الله نظريةً أو تطبيقًا.

وفي هذا المقطع بيان لهذه السمات المميِّزة :

أولًا: أنه قتالٌ في سبيل الله، ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فهو ليس كالقتال الذي يعرفه البشر نزاعًا على الملك، وطلبًا للماء والكَلَأ والنفط، إنه قتال موصول بالله مصدرًا وغايةً وسلوكًا،

ومنبثقٌ من رسالة الرحمة العالميَّة، لتقوية جانب الحقِّ والعدل والأخلاق، ومحاصرة الظلم والباطل والرذيلة.

إنّ القتال في الإسلام ينبغي أن يُفهم في ضوء الغاية الكليّة للإسلام ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وطالما أن هناك مجالًا لتحقيق هذه الرحمة بالدعوة والحوار والتوافق فإنَّ القتال سيبقى حالة استثنائية، وهذا ما تؤكده هذه الآيات.

ثانيًا: أنه قتالٌ بلا عدوان ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ لا تعتدوا ابتداء، ولا تعتدوا في مجاوزة الحق في الردِّ ﴿فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ وهذا تأكيد صريح أن القتال ليس أصلا في العلاقة مع الآخرين، وإنما هو استثناء، يؤكِّده أيضًا قوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

ثالثًا: أنه قتالٌ لدفع الفتنة ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ والفتنة هنا هي الرِدَّة عن الدين، حيث كان المشركون يستخدمون القوَّة لإجبار المسلمين والضعفاء منهم خاصَّة على ترك دينهم، ويُلحق بالفتنة كل اضطراب عام يصيب المجتمع بسبب استخدام السلاح بطريقةٍ ظالمةٍ وغير مشروعة، مما يُعرِّض حياة الناس وأمنهم واستقرارهم للخطر، فهذه الفتنة بمعناها الأول والثاني هي أشدُّ من القتل نفسه ﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ﴾.

رابعًا: أنه قتالٌ لا يتجاوز الحرمات ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ﴾ ويُقاس عليه كل مكان يأوي إليه الناس للعبادة أو طلب الأمان، وكذا المدارس والمستشفيات وملاجئ الأيتام والأحياء السكنيَّة ونحوها، والله أعلم.

وهناك حرمات الأزمنة، وهنَّ الأشهر الحرم، ثلاثة هنَّ أشهرُ الحج، والرابع منفرد عنهنَّ، وهو شهر رجب، ويقال: إن العرب كانت تخصُّه بالعمرة، وقد أقرَّ القرآن حرمةَ هذه الأشهر؛ لما فيها من حقن للدماء، وصناعة هدنة أو فرصة للسلام.

هذه الضوابط والموجِّهات تتعاضد وتتكامل مع آيات الجهاد الأخرى، وينبغي فهمها بهذه المنهجية البنائية المترابطة، والجنوح إلى فكرة النسخ لا تقتضيه ضرورة ولا تدفع إليه حاجة، وسيأتي كل هذا مفصَّلًا في مظانِّه.

دقائق التفسير

﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ ﴾ أصلٌ في فقه القتال، وحصر لمسوِّغه وهو وصف المقابِل بأنّه مقاتِل، فإن لم يكن كذلك فلا تجوز مُقاتَلته، فعامَّة الناس لا يدخلون في القتال وإن كانوا يشتركون مع المقاتلين في الدين والرأي والقرابة ونحوها، وكذا الإعلاميُّون والأطبَّاء والذين يقدِّمون الخدمات الإنسانيَّة إلا إذا كانوا جزءًا من الجيش المقاتِل وصنفًا من صنوفه؛ لأنَّ المنتَسِب للجيش هو مقاتلٌ حمل السلاح أو لم يحمل.

وأما ما يفعله بعضُ أدعياء الجهاد من استهداف عامَّة النصارى في كنائسهم أو أسواقهم لأنهم يشتركون مع الغزاة بمسمَّى الدين، فهذا باطل، ومن المعلوم أنَّ رسول الله ﷺ فرَّق بين بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة ولم يُعامِلهم معاملةً واحدةً مع انتسابهم لدينٍ واحد، وكذا تعامله مع مشركي العرب.

﴿كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ الألف واللام هنا للعهد وليست للاستغراق، بمعنى: هذا هو جزاء الكافرين المعتدين الذين تقدَّم ذكرهم.

﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ ﴾ ليس معناه إكراه الناس على الدخول في دين الله، فهذا منتقضٌ بقوله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ ثمَّ إن الإكراه ينافي الإيمان بالضرورة؛ إذ الإيمان لا يكون إلا عن عقيدة ذاتيَّة وتصديق جازم، وإنما المقصود دفع الظلم ﴿فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فإذا رُفع الظلم وتحقَّق العدل تُرِك الناس وما يختارون، وهذا ما فعله الصحابة الفاتحون في مصر والشام والعراق وغيرها.

﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ﴾ فسَّره ما بعده: ﴿وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ﴾، وهذا مثل قوله في حرمة المكان: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ﴾ والحكمةُ في هذا ظاهرة؛ فالحرمات مكانيَّة أو زمانيَّة إنما جُعلت لحفظ الأمن، وصناعة فرصة وواحة للسلام، فإن قصدها العدوُّ بالاعتداء صار ردُّه من تمام صَونها، وتحقيق مقصدها.

﴿فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ﴾ سمَّى القصاص والمعاملة بالمثل اعتداء من باب المشاكلة والمقابلة، وإلا فأصل الاعتداء هو في البادئ وليس في المدافع عن نفسه، ثم إنه جاء بصيغة الأمر والمقصود الإباحة، فلوليّ الأمر أن يختار بالشورى مع المسلمين الطريقة الأنسب للردِّ، ولا يَلزَمه القتال إلَّا إذا تعيَّن طريقًا لدفع العدوان، ودَرْء الفتنة، واسترداد الحقوق، والله أعلم.

﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الإنفاق هنا جهاد المال، لمناسبة السياق؛ فالقتال بحاجةٍ إلى نفقة ولا تكفيه الشجاعة، يؤكِّدُه قوله تعالى في موضع آخر: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١].

﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِۛ﴾ التهلكة هنا كل عملٍ يؤدِّي إلى الهلاك وخسارة الحرب، مثل التهوُّر في الإقدام وترك الاحتياط والحذر، وكذا البخل عن تقديم المال لسدِّ حاجة المقاتلين، أو تبذيره في غير حاجته، والله أعلم.

﴿وَأَحۡسِنُوٓاْۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ بهذا التوجيه ختم الله آيات القتال، ليُعلم أنَّ القتال في الإسلام مرتبط بالإحسان قولًا وعملًا وخُلُقًا، والإحسان هو قصد الخير على وجه الإتقان، والله أعلم.

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ۚ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۚ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ ۚ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ۚ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا ۚ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ۞ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ ۚ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ اتَّقَىٰ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾

رسالة الحج

الحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام بعد الشهادتين والصلاة والزكاة والصوم، وقد تنقلت الآيات وهي ترسم منهجها في بناء المجتمع الجديد من العدل في الدماء فالعدل في الأموال ثم الصيام والجهاد، والآن شرع في الحديث عن الحج، وكل هذا تحت عنوان (البِرّ) الذي هو عنوان المجتمع المسلم.

وهذه الانتقالات تؤكِّدُ أن هذه العبادات والتوجيهات ليست أحكامًا مقطَّعة، بل هي منظومةٌ آخِذٌ بعضها بأعناق بعض، وكما وضع القرآن سماته المميّزة في التوجيهات السابقة

يأتي هنا ليضع سمات الحج التي تميّزه عما عرفه الآخرون في زياراتهم ومناسباتهم الدينيّة:

أولًا: الحج لله وحده ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ وهكذا هي كلُّ العبادات، وفي هذا دفْع لشبهة الشرك بعبادة الرموز البشرية أو المكانيّة والتي تنتشر في الديانات الأخرى، وهذا ما تؤكّده مناسك الحج العمليَّة، فليس هناك في الطواف أو السعي أو الوقوف بعرفات دعاء لغير الله، فاسم الله وحده هو الذي يُقصد بالعبادة صلاةً وطوافًا وذكرًا ودعاءً، والحاجُّ يقدم بالتلبية: «**لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيْكَ لَكَ لَبَّيْكَ** ...»[1]، ويختم بتكبير الأضحى: (اللهُ أكبر، اللهُ أكبر)، وهما وكلُّ ما بينهما من أذكار ليس فيها سوى التوحيد الخالص.

ثانيًا: للتكافل مكانه في الحج ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ والهَدْيُ هو ما يُقدَّم للحجِّ من نَعَمٍ لتنحر هناك ويأكل منها الناس، وكذا النُّسُك، والصدقة إطعام من غير الذبح، وجعلها في الحج دليل على العبادة الخالصة لله ﷻ لا تنفصل عن البرِّ والإحسان إلى الآخرين.

ثالثًا: الحج مدرسة الأخلاق ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ أصل الرفث الكلام الفاحش والغزل الماجن، وقد استعمل هنا بمعنى: مباشرة الجماع، إشارة للنهي عن الجماع ومقدِّماته، وكل ما يثير الشهوة من نظر وكلام وفكر.

والفُسوقُ: اسمٌ جامعٌ لكلِّ خروجٍ عن الدين والشرع، وأما الجدالُ فهو جدال الخصومة وليس حوارات العلم وسؤالاته، والنهي عن كلِّ ذلك إنما كان لتنقية الحجِّ من كدورات الفسق والخصومة وسوء الخلق، وتعويد على ضبط النفس وإلزامها حدود الأدب والشرع، والله أعلم.

رابعًا: الحجُّ دعوةٌ للوحدة ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ فالناس جميعهم يقفون جميعًا في وقتٍ واحد، وفي مكانٍ واحد، وبلباسٍ واحد، ونداءٍ واحد، ثم يتحركون

---

(١) متفق عليه من حديث عبد الله بن عُمر رضي الله عنهما، ينظر: صحيح البخاري (٢/ ٥٦١)، وصحيح مسلم (٢/ ٨٤١).

سويَّة إلى مناسكهم من غير تقدُّمٍ ولا تأخر، ومن غير تمييزٍ لأمير، أو خفير، أو غنيٍّ، أو فقير، أو ذكرٍ، أو أنثى، فالكل أمام خالقهم سواء.

خامسًا: الحجُّ تعميقٌ لصلة العبد بربّه ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ﴾ وقد تكرر الترغيب الصريح بالذكر في هذا المقطع خمس مرَّات، وكأنَّ الحجَّ لم يشرع إلا لذكر الله ﷻ.

سادسًا: وفي الحجِّ تخفيف ورحمة، وهذا منهج الإسلام في كلِّ العبادات، كما قال في الصوم: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾، قال هنا: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ﴾، وقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ﴾، وقال: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ﴾.

وقد ورد عن النبي ﷺ في الحديث الصحيح أنه: «**مَا سُئِلَ عَنْ شَيْءٍ قُدِّمَ وَلَا أُخِّرَ إِلَّا قَالَ: افْعَلْ وَلَا حَرَجَ**»(1).

دقائق التفسير

﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ﴾ دفْعًا لتوهّم التخيير بين الثلاثة في الحجِّ والسبعة بعده؛ إذ المطلوب الجمع بينهما لا التخيير.

﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ﴾ هو غاية الحجِّ كما هو غاية الصومِ، فهذه العبادات إنما يُقصد منها تحقيق التقوى، وهي منزلةٌ إيمانيَّةٌ وتربويَّةٌ رفيعةٌ تمنح صاحبها محبَّة الخير والصلاح والطاعة، وكراهية الشر والفساد والمعصية مع طول صبرٍ وثباتٍ وتسليمٍ لكلِّ ما يقدّره المولى الجليل.

---

(1) متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﭬ، ينظر: صحيح البخاري (١/ ٤٣)، وصحيح مسلم (٢/ ٩٤٨).

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْۚ ﴾ ليس عليكم حرج أن تطلبوا التجارة بيعًا وشراءً وشراكةً وحسابًا، وما إلى ذلك، وفي هذا مصلحةٌ للحجيج ومصلحةٌ لأهل مكة، ودفعٌ لتوهُّم النفرة بين مصلحة الدين ومصلحة الدنيا.

وقد جاءت هذه الآية بعد النهي عن الفسوق والجدال؛ لأن التجارة مظِنة المجادلة، فقد يتطرق إليها النهي تبعًا، فجاء البيان برفع الحرج، والله أعلم.

﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ ﴾ دلالة على أن وقت الإفاضة وقت استغفار، فهو الذكر المستحب هنا، وفيه إشارة أنّ العبد ينبغي أن يتهم نفسه بالذنب والتقصير حتى لو كان في وسط الطاعة، فليس هناك من يومٍ أرجى للعفو ومغفرة الذنوب من يوم عرفة، ومع هذا يُستحبّ للحاج بعد إفاضته من عرفات إلى المشعر الحرام ثمّ إلى منى أن يكثر من الاستغفار.

﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ حَسَنَةً ﴾ دلالة على أنَّ الإسلام يجمع بين خيري الدنيا والآخرة، ويدعو لهما، ويحثُّ العبد على تحقيق السعادة فيهما.

وفي هذا ردٌّ على من جعل هدْم الدنيا شرطًا لعمران الآخرة، فالدنيا دار خلقها الله وكذا الآخرة، وابن آدم ينتقل من بيت الله إلى بيت الله، ويتقلب بين نعمه هنا ونعمه هناك، بيد أن نعم الأخرى تُنال بأسباب غير هذه الأسباب التي ننال بها نعم الدنيا.

﴿ ۞ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍۚ ﴾ الأيام المعدودات هي أيام منى، والذكر المستحبّ فيها هو التكبير عند رمي الجمار وعقب الصلوات، والأخيرة مندوبة لغير الحاجّ أيضًا، وهذا شبه بالصوم، فإتمام الصوم عيد وتكبير، وإتمام الحج كذلك.

﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ ﴾ أيّام التشريق ثلاثة بعد يوم النحر، والآية أباحت التعجّل، بمعنى الاقتصار على يومين فقط بعد النحر، والتأخُّر وهو البقاء إلى اليوم الثالث، والتأخُّر أفضل؛ لما فيه من زيادة في النسك والذكر، والله أعلم.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾

جبهة النفاق

ضمن تصنيف القرآن للمجتمعات البشريَّة عرض القرآن في أوائل هذه السورة لصنف المنافقين، وحدَّد كثيرًا من صفاتهم وأساليبهم وعلاقاتهم، وفي هذا المقطع تأكيدٌ لما مرَّ، وكما يأتي:

أولًا: القدرة على الخداع والتضليل: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ والإعجاب هو الاستحسان، وهذا يعني: أنَّ المنافقين كانوا يقولون للمسلمين كلامًا يحظى

باستحسانهم، وهذا الكلام لا شك أنَّه متعلِّق بقضايا الإيمان والتقرُّب من المؤمنين ومدحهم وموالاتهم، والتبرِّي من خصومهم، فهذا هو الكلام الذي يُعجب رسول الله ﷺ ومن معه من المهاجرين والأنصار.

ثانيًا: أنَّهم الأشد خصومة مع المسلمين: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ وهذا كشف من الله لحقيقتهم المختلفة تمامًا مع أقوالهم.

ثالثًا: أنَّهم أهلُ فسادٍ وخرابٍ: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾ وهذه كناية عن الفساد الشامل، وإن كان اللفظ يتناول الزرع وما في بطون الأنعام خاصَّة.

ووجه الكناية: أن الإنسان السوِيَّ يسعى للحفاظ على الثمار والزروع وصغار النَعم بفطرته وسجيَّته، فإن رأيتَه يسعَى في إتلافها فإنه على إتلاف غيرها أسرع وأجرأ، والله أعلم.

رابعًا: أنَّهم يرفضون النصح ويأنفون التذكير: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ مع أن هذه الكلمة أو النصيحة تُوجّه للمؤمن الصالح فلا يُنكرها، فكل مؤمن مهما بلغ فهو بحاجة إلى التذكير والنصح، لكنّ المنافق ينكرها لمرضٍ في قلبه، وكفر بأصلها ومُؤدّاها.

خامسًا: أنَّهم يتَّبِعُون خطوات الشيطان: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ وهذه الجملة وإن جاءت في سياق توجيه المؤمنين وتحذيرهم، إلا أن التعريض بالمنافقين فيها ظاهر، والشيطان هنا قد يكون شيطان الجنِّ، وقد يكون شيطان اليهود، كما جاء في أوائل هذه السورة: ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾.

وهنا قرينتان: ذكر بني إسرائيل في هذا السياق: ﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وذكر الاستهزاء بالمؤمنين ﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

سادسًا: أنّ هذه الظاهرة ليست جديدة: ﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ فالنعمة هي آيات الله التي تنزّلت عليهم،

وقد كفر بها واستهزأ بها كثير من بني إسرائيل مع ادّعائهم الإيمان، وهو ما يفعله المنافقون في هذه الأمة.

سابعًا: أنَّ أصل هذا الفساد حبّ الدنيا والتحاسد والتباغض بسببها ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾.

دقائق التفسير

﴿وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ ﴾ بمعنى: يُكثِر الحلف بالله على أنه صادق في دعواه إمعانًا في التضليل، وقد أكّد هذا قوله تعالى في موضع آخر: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً ﴾(1).

﴿أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ اللَّدُود هو المُخاصِم، وقد قرَنَ القرآن بين اللفظتين تأكيدًا لشدَّة الخصومة، كما في قوله: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٤]، ولا تعثَوا معناها: لا تُفسِدوا، فأكّدَ هذا المعنى بلفظ الفساد، والله أعلم.

﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا ﴾ إشارة أنهم لا يفسدون علانية بل حينما يدبرون ويختفون عنك، أما معك فهم يقولون ما تستَحسِنُه من القول.

﴿مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ﴾ أي: يبيعُ نفسَه في سبيل الله طلبًا لمرضاته تعالى، ومثله قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم ﴾ [التوبة: ١١١]، وإيراد هذا في خضم الحديث عن المنافقين جاء للتعريض بهم أنّهم آثَروا هوى النفوس على مرضات الله، فكان هذا سببًا في ضلالهم.

---

(١) تكرّرت هذه الآية مرتين في القرآن الكريم: إحداهما في سورة المجادلة/ ١٦، والثانية في سورة المنافقون/ ٢.

﴿ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ ﴾ السِّلمُ هنا هو الإسلام كاملًا شاملًا، وهي دعوة شاملة لكافة المسلمين أن يلتزموا بكل أحكام الشرع، على خلاف المنافقين الذين يأتون ببعض الشرع من صلاة ونسك على سبيل الرياء والخداع وليس على سبيل الاستسلام والخضوع.

وهنا قرينة أخرى على هذا المعنى، وهي قوله بعد هذه الآية مباشرة: ﴿ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ ﴾ فالزلَلُ هنا إنما يكون عن حكم الشرع، واختيار كلمة: ﴿ٱلسِّلۡمِ﴾ للتعبير بها عن الإسلام إشارة إلى أنّ التمسك بالإسلام يُفضِي إلى صناعة السلام بين المؤمنين كافَّة، وهذا من باب إطلاق المشترَك على معنَيَيه جملة واحدة؛ إذ السلم مشترك بين الإسلام والمسالمة واشتقاقهما من جذر واحد ظاهر، والله أعلم.

﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ﴾ بمعنى: أنَّ كلَّ الآيات القاطعة على صدق الدعوة قد جاءت ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ وهم مُصِرُّون على كفرهم ونفاقهم، فلم يَبْقَ إلا أن يحِلّ عليهم يومُ القيامة بما فيه من رهبةٍ وهَولٍ، وهذا كناية عن شدَّةِ عنادِهم وصدُوفِهم عن الحقِّ.

وأما إتيان الله والملائكة فهو صورة من صور اليوم الآخر لا مجال لإدراك كُنْهه، والإيمان به واجب لأنه خبر الوحي، وتحصيل الخشية والرهبة في القلب واستشعار عظمة الله كل ذلك مقصود أصالة، فإذا تحصَّل المقصود مع الإيمان بأصل الخبر فإنّ البحث عن الكيْف بدعة وتكلّف وتغرير بالعقل، والله أعلم.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ ﴾ إشارة إلى أن المفاضلة إنَّما تكون بالتقوى، واقتران الإيمان بالعمل، أما ادِّعاء الإيمان بلا عمل فهو سِمةُ النفاق، والله أعلم.

﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ ﴾ أي: على التوحيد وملّة آدم ﷺ، ثم اختلفوا فبعث الله النبيين لتبيان الحق في هذا الخلاف ﴿لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ ﴾ ثم تتابع نزول الأنبياء،

وتتابع اختلاف الناس أيضًا، ثم ختَمَ الله تلك الرسالات برسالة الإسلام التي هدى الله بها الذين آمنوا، وبيَّن لهم ما اختَلَف فيه الناس على أنبيائهم، والله أعلم.

وأما قول من قال: إنَّ الناس كانوا أمّة واحدة على الباطل ثم تفرَّقوا ببعثة النبيين، فهو مستبعد؛ إذ الكفر أدعَى للخلاف، وقد ذكر الله في هذه الآية أنَّ بعثة الأنبياء إنما كانت للحكم فيما اختلف فيه الناس، فالخلاف سابق على البعثة لا محالة.

﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ تأكيدٌ لآخر سورة الفاتحة: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧] فهؤلاء هم الذين اختلفوا على الحق وحادوا عن الصراط، وأولئك المؤمنون هم الذين استجاب الله لهم فهداهم إلى الصراط المستقيم.

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ دلالة على أنَّ هذه الخصومة بين أهل الحق وأهل الباطل لها تبِعَاتها الثقيلة من البأساء والضراء، فالخلاف لن يبقى محصورًا في الفكر والنظر؛ لأن الصراع بين الحقِّ والباطل صراع وجود لا صراع حدود، وأن أهل الإيمان يتعرضون في كل مرّة إلى ما يشبه أثر الزلزال في قلوبهم وأجسادهم حتى يطول الظلم والظلام فيقول الرسول والذين معه : متى نصر الله؟ كناية عن استبطاء النصر مع الحاجة إليه، كالصائم الظمآن يسأل: متى تغيب الشمس؟ وليس فيه اعتراض على قدر الله أو شك في وعده، والله أعلم.

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ۞ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۗ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۖ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ ﴾

يسألونك

في هذا المقطع تكرَّرت كلمة ﴿ يَسْأَلُونَكَ ﴾ ستَّ مرات، وهذا يعني أننا في درس (فقه السؤال)، والذي نُلخِّصه في النقاط الآتية:

أولًا: الاهتمام بالعلم والتعلُّم، والتفاعل مع مصدر التلقِّي فهمًا وتدبُّرًا واستزادةً من العلم؛ إذ السؤال هو علامةٌ ونتيجةٌ لكل ذلك.

ثانيًا: جاء السؤال مسندًا إلى الجمع، وفي هذا إشارة إلى التفاعل الجماعي، فكأنّ الصحابة رضي الله عنهم كانوا يتدارسون القرآن، فتنبثق من هذه المدارسة الجماعية أسئلة، فلا يتجرؤون على الإجابة عنها بغير علم، فيتوجَّهون بالسؤال إلى مصدر الوحي نفسه.

ثالثًا: توجيه السؤال إلى مصدر المعرفة، فيه دلالات وإشارات كثيرة، ففيه تأكيد التسليم المطلق لله والإيمان بما أنزل، وفيه التصديق الجازم بصدق الرسول ﷺ وهو المبلِّغ عن الله، وفيه تحرّي السند الأعلى للخبر، وفيه الصلة والانفتاح بين الداعية المصلح وبين عامّة الخلق، والله أعلم.

رابعًا: تنوُّع الأسئلة الواردة يؤكِّد شموليّة الإسلام ومرجعيَّته في توجيه المجتمع وحلِّ مشكلاته؛ حيث شملت الأسئلة: مسائل المال، والقتال، والمشروبات، والألعاب، وحقوق الأيتام، والمعاشرة الزوجيَّة.

فالصحابة رضي الله عنهم لم يكونوا يسألون رسولَ الله ﷺ عن الأمور التعبُّدية ثم يتجهون في أمور حياتهم الأخرى لمصدر آخر، بل كان الإسلام عندهم يعني: الاستِسلام الكامل لأمر الله في الدين والدنيا.

خامسًا: طبيعة الأسئلة الواردة في هذا المقطع كلها ذات طابع عملي، وهذا هو النهج الذي تربّى عليه المسلمون الأوائل، فالعلم للعمل، وليس للفلسفة المجرَّدة، أو المتعة العقليّة والمماحكة اللفظيَّة، إنه مجتمع يبني نفسه ويصنع حياته، وهو بحاجة إلى العلم الذي يعينه في ذلك ويُجنِّبه الشَّطَط والزَّلَل.

﴿مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ﴾، ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ﴾ تكرار كلمة (الخير) في آية الإنفاق إشارة إلى تحرير قصد المنفِق، وصيغة أدائه لهذه العبادة؛ بحيث تكون النفقة خيرًا من كلِّ وجه، ليس فيها أذى للفقير، ولا امتهان لكرامته أو تسخيره في شؤون المنفق ومصالحه الخاصَّة.

وفيه جواب لسؤالهم: ﴿مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ وكأن الجواب: أنفِقُوا الخيرَ، وهذا تأكيد آخر لضرورة توخِّي كل معاني الخير في النفقة، والله أعلم.

﴿فَلِلْوَالِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ هذا جوابٌ ليس له سؤال، وهو أسلوب في التربيّة القرآنيّة مقتضاه إرشاد السائل إلى ما ينفعه وإن لم يَرِدْ في سؤاله، وهذه من صدقة المسؤول على السائل، وقد نبَّهَ القرآن إلى صنفَين من أقرباء المتصدِّق؛ ليرسِّخ بهذا صلة الرحم والتواصل الاجتماعي المطلوب، والمحتاجين من عامَّة المسلمين لتأكيد وحدة الأمَّة، وتحقيق التكافل بين المجتمعات الغنيَّة، والمجتمعات الفقيرة.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ إشارة بتقديم العذر للمكلَّفين ليُعينَهم على تحمُّل مسؤولية التكليف، ثمَّ ثنَّى بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ليعطي آفاقًا رحبةً ومريحةً، وهذا بُعْدٌ آخر ودافع للإقدام رغم ما في القتال من ثِقَل وكراهة.

﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ هذا جوابٌ ليس له سؤال؛ إذ السؤال كان عن القتال في الأشهر الحرم، ولكنّ القرآن استطرد لبيان أحكام أخرى لِحِكم كثيرة؛ منها: توجيه السائل إلى ما ينفعه ولو لم يَرِد في سؤاله كما تقدَّم في آية النفقة.

ومنها: مجادلة الآخرين، وبيان الحقِّ كاملًا، وعدم الوقوع في فخِّ الدفاع السلبي، فقد ورد أنَّ المشركين قد عابوا على المسلمين قتلهم لمشرك في الأول من رجب؛ ظنًّا منهم أنه آخر جمادى، فلم يَشَأ القرآن أن يعطيهم ما يريدون فبيَّن جرائمهم الواضحة والمتكررة في الصدِّ

عن التوحيد وإخراج المهاجرين من ديارهم، وهذه أكبر إثمًا من ذلك الخطأ الذي وقع فيه المسلمون لا عن علمٍ ولا عن قصدٍ.

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْ﴾ تقرير لطبيعة الصراع بين الحق والباطل، وأنه صراع هويَّة ووجود، لا صراع مصالح وحدود.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ﴾ تقرير لتاريخ الدعوة ومراحلها الأساس: الإيمان ثم الهجرة ثم الجهاد، وفيه إشارة أن الجهاد لا يكون قبل التمكين والاستقرار في أرضٍ ودولة وراية وإمام، والله أعلم.

﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ الآية تفيد تحريم الخمر والميسر، وذكر المنافع لا يقلل من هذا التحريم، إذ المنافع خبر لا يمكن نسخه، وقد قرنه القرآن بالتحريم، بمعنى: أنّه مع وجود هذه المنافع فهُما إثمٌ كبير، وهو ما يسمّيه الأصوليّون بالمصالح الملغاة، وعليه فالآية صيغة من صيغ التحريم تأكّدت بآية المائدة: ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠].

وفي ذكر المنافع إشارة للأدب القرآني بذكر الحقيقة كاملة، وهو ما يطلق عليه اليوم بالموضوعيَّة، وإطلاق المنافع وتنكيرها إشارة إلى أنها منافع ثابتة وليست مُتوهَّمة، وقد تكون جسديَّة أو نفسيَّة أو ماليَّة، لكنَّها لا ترتقي لنفي التحريم.

ولهذا نظائرُ كثيرةٌ في الشرع، فلحم الخنزير قد يكون فيه من المواد النافعة للجسم كالبروتينات والدهنيَّات وغيرها، وكذلك لبس الحرير المحرَّم على الرجال؛ إذ لا يستبعد وجود بعض المنافع فيه، لكنها منافع مغمورة في الإثم الأكبر، والذي لم يكن إلا بعلم الله العليم الحكيم الرحيم.

﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ إشارة لسبب التحريم، وكأنّه ذكر الإثم وأراد الضرر من باب ذكر الملزُوم وإرادة اللازم، ولا مانع من إرادة المعنيَين معًا، والله أعلم.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ﴾ تكرار السؤال دليلٌ على عِظَم الاهتمام بالموضوع من قبل ذلك الجيل الربَّانيِّ، بَيْدَ أن الجواب جاء مختلِفًا ليُضِيف معنًى جديدًا، فالإنفاق يكون من المال الزائد عن الحاجة الذاتيَّة ﴿ٱلْعَفْوَ﴾.

والظاهر أنّ السؤال كان عن صدقة التطوّع، إذ الفريضة قد حددتها أنْصِبة الزكاة ومقاديرها، وكذا النفقات الواجبة الأخرى كالنفقة على الزوجة ومن تلزمه إعالتهم، وعليه فالآية لا تنهض دليلًا على وجوب إنفاق الزائد، إذ التطوّع ينافي الإلزام أصلًا، والله أعلم.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ لم يحدد نوع السؤال ليمهِّد للجواب العام الذي يريده وهو (الإصلاح)، فمسؤولية المجتمع تجاه اليتامى هو تحرِّي الإصلاح لهم في كلِّ شأن من شؤونهم المادية والمعنويَّة والتربويَّة وكلُّ ما يدخل في مسمَّى الإصلاح.

﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ مخالطة اليتامى بالاهتمام والزيارة والكفالة والتعاون والنصح والتربيّة لسدّ نقص اليُتم واجب، وهو من مقتضيات الإصلاح؛ إذ لا إصلاح بلا مخالطة، والتذكير بحقِّ الإخوّة هنا فيه معانٍ جميلة، فالأخُ يأنَسُ بأخيه ويَستَنصِر به ويبوح له بما عنده، ويعطيه بلا مِنَّةٍ ولا تكبُّرٍ أو تعالٍ، فالأخوَّة من مُقتضيَاتها المساواة، وهي هنا تَحْمِلُ دلالة نفسيَّة ومعنويَّة أكبر من سدِّ النقص الماديِّ بالكفالة أو الصدقة.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ تحذير لمن يخالطهم ابتغاء الفساد، والفساد اسم جامع لكل ما هو بخلاف الإصلاح ماديًّا ومعنويًّا، وترغيب للمصلح وتنويه بثوابه الكبير الذي أعدَّه له الله.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ أي: لَمنَعكم من مخالطة اليتامى تورُّعًا واحترازًا عن إصابة شيء من مالهم بقصدٍ أو بغير قصدٍ، وفي المنع مشقَّة على الطرفين، فالأيتام بحاجة إلى التواصل مع المجتمع، وفي المجتمع من الأقرباء من تدعوه شفقته إلى التواصل أيضًا، وقد يكون اليتيم غنيًّا، والمال الذي بين يديه له وظيفة اجتماعية أيضًا عملًا ونماءً وزكاةً، والله أعلم.

﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ أي: الأمة المملوكة خير من المشركة ولو كانت حرَّة، فالتفاضل ليس بموازين الدنيا والجاه والحسب والمال، إنما التفاضل بالإيمان والتقوى، وأكّد هذا المعنى بقوله في الآية نفسها: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ ثمّ علَّل هذه الخيريّة بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ﴾.

ولا مانع من حمل الأمة على مطلق المرأة، وحملُ العبد على مطلق الرجل، فالناس كلهم عبيد لله، إلا أنّ السياق جاء لبيان خيريّة الإيمان وتفضيله على كل المعايير الدنيويّة، كأنّه يقول: إن الإنسان المؤمن الذي لا يملك من معايير الدنيا شيئًا هو أفضل من المشرك الذي يملك كل شيء، والله أعلم.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾ أي: عن الأحكام المتعلِّقة به، وذلك بدلالة الاقتِضاء، إذ يبعد السؤال عن الماهيَّة، والسؤال عن الأحكام أَولَى من الاقتصار على الوقاع؛ لأنَّ السائل لا علم له قبل نزول الوحي بالذي يحْرُم والذي لا يحْرُم، خاصَّة أن اليهود كانوا يبالغون في عزل المرأة عن كثير من شؤون حياتها فترة الحيض، وربما كان المسلمون يسمعون هذا منهم، والله أعلم.

﴿قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾ قدَّم علَّة الحكم تمهيدًا له، والأذى هو نوع من الضرر وأطلقه ليشمل الزوجين ويشمل الجانب النفسي والجسدي، واعتزال النساء معناه الابتعاد عن مباشرة الجماع وما يؤدّي إليه، أما المخالطة في شؤون الحياة الأخرى فتبقى على أصل الإباحة والاستحباب.

﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ يطهرن، أي: الطهر الطبيعي الذي يحصل بانقطاع الدم، وتطهَّرن فعل يقتضي القيام بالتطهر وهو الغسل، وقد جاء الفعل بهذه الصيغة تأكيدًا للتنقية وإشارة للتَّطيُّب والتَّزيُّن.

﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ الأمر هنا للإباحة؛ لأنَّه مسبوق بنهي، و﴿حَيْثُ﴾ ظرف مكانيٌّ، والمقصود به قُبُلُ المرأة، وهو محلُّ الحَرث الذي ذكره القرآن في الآية التالية: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ تشبيهًا لمحل النسل بغراس الأرض، فالإباحة تتَّجِه لهذا المحل دون غيره.

وقولُ مَن قال مِن الشيعة ونحوِهم بجواز إتيان الدُّبُر مخالفٌ للشرع والعُرف والطبيعة البشريَّة والحيوانيَّة أيضًا، وهو نوعٌ من الشذوذ في الفكر والسلوك، ولو صحَّ قولهم هذا، لما طُلِبَ اعتزال النساء فترة الحيض؛ إذ الحيض لا يكون إلا في محل الحرث.

﴿وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ دلالة على أنَّ الامتثال لأمره سبحانه فيه مصلحة المكلَّف، فهو يدَّخِرُ هذا الخيرَ لنفسه.

وإشارة إلى أن المعاشرة الزوجيَّة وابتِغاء النسل فيه خيرٌ قادم إذا اقترن بالتقوى وحسن التربية للأولاد.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ۗ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا ۚ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ۞ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ ۚ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ ۚ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾

الطلاق هو محور هذا المقطع، والمقصود به فسخ عقد الزوجيَّة، وقد شرَّعَه الإسلام؛ استجابةً لحاجة مُجتمعيَّة لا يُنكرها إلا مكابر، فالزواج عقدٌ بين رجلٍ وامرأةٍ لتأسيس حياة مشتركة، وهذه الحياة قوامُها المودَّة والرحمة، فإن فشل الزوجان في تحصيلها فإنَّ إكراههما على الاستمرار لا يحقق الغاية من الزواج أصلًا، ثم هو ينافي حريَّة الفرد في اختيار حياته وعلاقاته.

ومن الغريب أن ترى الغرب يُعلي من شأن الحريَّة حتى جعلها محور منظومته القيميَّة، ثم يستنكر الطلاق ويُلزم الزوجين بالحفاظ على علاقتهما الزوجيَّة مع الكراهة، وقلَّة الانسِجام.

ونحن مع تأكيدنا أنَّ في الطلاق ضررًا يلحق الطرفين ويلحق الأولاد أيضًا، والدائرة الاجتماعية للطرفين، وأنَّ هناك توسُّعًا لا مبرّر له في استعمال هذا الحق، والذي هو استثناء وليس أصلًا، والاستثناء يدور مع سببه وجودًا وعدَمًا؛ بَيْدَ أن تنكُّر الاستثناء تعسّف آخر، فإكراه الزوجين على علاقة لا يريدانها قد يكون فيه من الضرر ما يفوق الضرر المترتِّب على الطلاق.

وقد قدّم القرآن في هذا المقطع صورة لهذه الحالة الاستثنائية وملابساتها وما يترتَّب عليها من حقوق والتزامات وأحكام، مع التنبيه إلى أنَّ هذا المقطع ليس فيه كل الأحكام أو الحالات المتفرعة عن الطلاق:

أولًا: الدعوة للإصلاح وإزالة كل العقبات التي تحول دون ذلك حتى لو كانت ذات طابع ديني وتعبُّدي، وهذا هو المقصود العملي من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ بمعنى: لا تجعلوا تعظيمَكم للحلف بالله عارضًا بينكم وبين البِرِّ والإصلاح، وإذا كان هذا بحقِّ الله، فتجاوز الالتزامات والعهود الأخرى إذا كانت تصدُّ عن الإصلاح من باب أولى، كمَن أعلن أنَّه سيطلِّقُ زوجته

إن هي فعلت كذا أو كذا، فلما فعلت أصبح مُلزَمًا نفسيًّا ومجتمعيًّا بالطلاق، لكنَّ هذا الإلزام لا عبرة بهِ إن كان هناك طريق للإصلاح.

وفي الآية إشارة أخرى تقضي بتجنُّب هذه الأيمان والتي غالبا ما تكون في حالة الغضب والانفعال النفسي، وإذا كان هذا في الأيمان المقصودة والمؤكّدة، فإنّ تجاوز الأيمان التي تجري على اللسان من غير قصد أولى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾.

وقد جاءت هذه التوجيهات القرآنيّة ممهِّدة لأحكام الطلاق وقد بدأها بحكم الإيلاء وهو الطلاق المقترن باليمين، بأن يحلِف بالله أن لا يقرب زوجته، ونحن نقصد بالطلاق هنا معناه العام الذي هو فسخ العقد بأية صيغة جاء.

ثانيًا: تشريع التوقيتات المناسبة للمراجعة والبحث عن الحلول، ففي الإيلاء أعطى القرآن للرجل مهلة أربعة أشهر ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فالذي حلف بالله لأي سبب كان أن لا يقرب امرأته، فإن له حق التراجع خلال أربعة أشهر، فإن تراجع فليس عليه سوى كفَّارة اليمين، وإن أصرَّ كان ذاك دليلًا على أن الإيلاء لم يكن زلّةً غاضبةً، أو حالةً انفعاليّةً طارئةً.

وفي الطلاق أعطى القرآن للمرأة أن تتربّص ثلاثة قروء ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ﴾ أي: ثلاث دورات شهريّة، وهي فترة كافية كذلك للتأكد من وجود قرار مدروس بالطلاق.

ثالثًا: التنفير من الطلاق أصلًا، ودفعه ما كان إلى ذلك سبيل، وهو مظنَّة الإثم والحرج لما يترتّب عليه من ضرر بحقِّ الزوجة وأولادها، بل وبحقِّ الزوج أيضًا ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ﴾ إشارة إلى مظنة الجناح، وهو هنا الإثم في حالة تأكيد العقد بتسمية المهر أو بالجماع.

ولذا قال الإمام الغزالي رحمه الله في معنى نفيس له في هذا المقام: (وإنما يكون مباحًا إذا لم يكن فيه إيذاء بالباطل، ومهما طلَّقَها فقد آذاها، ولا يُباحُ إيذاء الغير إلا بجنايةٍ من جانبها، أو بضرورةٍ من جانبه)[1].

رابعًا: تقسيم الطلاق على مراحل ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ وكلُّ مرَّة لها شروطها وعدَّتها الزمنيَّة الكاملة: ﴿ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ أما جمعُهما في لفظة واحدة فلا شك أنَّه بدعة مخالفة لنهج القرآن؛ كمن يقول لامرأته: أنتِ طالق، أنتِ طالق، أو أنتِ طالق بالثلاث، وخلاف الفقهاء في إمضائه معروف.

بَيْدَ أنَّ تعبير القرآن: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ فيه متنفَّس لمن يرى عدم إمضائه؛ إذ العبرة بالمرّة وليس بالعدد المجرّد، والله أعلم.

ولا شكَّ أنَّ هذه المراحل تصنع فرصةً للمراجعة واستمرار العلاقة الزوجيَّة، وهو ما يؤكّد حرص القرآن على صون الأسرة من التفكك طالما بقي في القوس مَنزَع.

خامسًا: الطلاق حقٌّ للرجل وهو حقٌّ للمرأة أيضًا، لكنَّ الرجل إذا طلَّق تنازل عن المهر الذي ألزم به نفسه في العقد، وعليه نفقة الزوجة خلال العدَّة، أما المرأة فهي تطلب الطلاق لرفع الضرر عنها أمام القضاء وهو ما يسمَّى بالتطليق القضائي، وإذا لم يكن هناك ضرر بل هو عدم الرغبة الذاتيَّة بالاستمرار فعليها أن تعوِّض الرجل ما دفعه إليها وهذه الحالة هي حالة الخلع ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾.

سادسًا: ضمان الحقوق الكاملة للطرفين وللأولاد أيضًا، ومنها:

- ضمان حماية النسب: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾.

- ضمان حقّ المطلقة في كامل مهرها: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا﴾ إلا في حالة الخُلع، أو في حالة طلاقها قبل الدخول، فلها نصف المهر.

---

(١) «إحياء علوم الدين» كتاب آداب النكاح، الباب الثالث، (٢/ ٥٥/ دار المعرفة، ٢٠٠٤م).

- تحريم التعسُّف المُضر بالمرأة: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ وهذا تشنيع على كل من يُسخِّر أحكام الله في الطلاق والعدّة والمراجعة للإضرار بامرأته، كأن يراجعها في اليوم الأخير من العدّة ثم يطلقها مرة ثانية ليزيد فترة انتظارها لا بقصد الإصلاح بل لإيذائها وإبقائها كالمعلَّقة.

- النهي عن منع الزوجة من العودة إلى زوجها بعد انقضاء العدّة بعد الطلاق الأول والثاني ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ والخطاب موجّه لوليّ المرأة ثمّ للمجتمع الذي قد يمارس هذا العضل من خلال العادات والتقاليد، والعودة هنا لا تكون إلا بعقدٍ جديدٍ واتفاقٍ بينهما ليتجاوزا مشكلات التجربة السابقة، والعودة تكون بالتراضي بينهما وهو حقٌّ آخر للزوجة، وفحواه أن لا يجوز إكراهها على العودة كما لا يجوز منعها إذا رأت ذلك.

- حقُّ الولد في الرضاعة من أمه المطلَّقة حولين كاملين: ﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ وهو حقٌّ للوالدة أيضًا إلا أن تتنازل عنه، فيجب على الوالد البحث عن مرضعة أخرى، وفترة العامين أصل إلا إذا رأى الوالدان الفصال - أي: الفطام - قبل ذلك بالتشاور والتراضي ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾

- حقُّ الوالدة المطلقة التي اختارت إرضاع ولدها في النفقة: ﴿رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ﴾، وذلك واجبٌ في مال الوالد.

- حقُّ النسب للوالد، فالولد يُدعى لأبيه: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ﴾ أي: الأب.

- النهي عن جعل الولد سببًا في الضرر للأب أو للأمّ: ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ وهذا له صور كثيرة؛ منها: ترك الوالد للولد ليُلزمها بحضانته وإرضاعه، أو قبولها أولًا ثمَّ لَمَّا تعلَّق بها دفعته إليه بقصد إضراره، وقصد الإضرار من الطرفين يكون الولد فيه هو الضحيَّة.

- كلُّ حقٍّ للولد على والده يكون على ﴿ٱلْوَارِثِ﴾ أيضًا في حالة غياب الأب بموت ونحوه ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ والوارث هنا عصبة الولد الذي يرثه في حال وفاته، والتذكير بمسؤوليته هنا لخطورة الأمر، والله أعلم.

سابعًا: الطلاق قد يكون قبل الدخول، وهذا له أحكامه الخاصَّة ومنها: أنها تستحق نصف المهر المتفق عليه: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

ثامنًا: وانتهاء العلاقة قد يكون بسبب الموت، وهذا له أحكامه أيضًا؛ ومنها: وجوب العدّة على الزوجة ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ وفي هذه العدّة تبرئةٌ للرحم وتسكين لها بعد صدمة الموت لتكون أقدر على اتخاذ القرار الصحيح في مستقبل أمرها؛ إذ إنّ المرأة أكثر عاطفةً وقلقًا في مثل هذه الحالات ولا ينكر ذلك إلا مُكابِر.

ومنها: حقّها في البقاء في بيت الزوج حولًا كاملًا مهما كان مصير البيت بالنسبة للورثة، أي: تعتدّ أربعة أشهرٍ وعشرًا ثم تمكث في بيت زوجها حتى إتمام الحول، ولا تلازم بين انتهاء العدّة وإخراجها من سكنها الذي كانت فيه، فالجمع بين الحُكمَين وارد، وهو أَولَى من القول بالنسخ، سيَّما أن مدَّة العدة هي مدة حزنٍ وحدادٍ لا يصح فيها بحثُ الزواج قبولًا أو رفضًا؛ وعليه فهي بحاجةٍ إلى مدَّةٍ أخرى لتتخذ قرارها، فقد يكتب الله لها الزواج فتنتقل إلى بيتٍ آخر، والله أعلم.

تاسعًا: أن العفوَ والتسامُحَ والتراضِي من أخلاق الأسرة الكريمة حتى لو حصل الطلاق، وقد كرَّر القرآن هذه المعاني في هذا المقطع كثيرًا تنبيها إلى أنَّ الأحكام الفقهيَّة والقضائية لا تكفي وحدها لحلِّ كلِّ المشاكل من دون وجود هذا البُعد الأخلاقي اللطيف.

فقد ورد: ﴿أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾، و﴿إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا﴾، و﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾، و﴿إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، و﴿عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا

وَتَشَاوُرٍ﴾، و﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾.

ويكفي أن نعلم هنا أن الوصية بالمعروف لوحدها قد تكررت في هذا المقطع أكثر من عشر مرّات.

عاشرًا: أن المحافظة على الصلاة وذكر الله على كلِّ حال من شأنه أن يعين المسلم على الالتزام بتلك الأحكام والآداب؛ ولذلك أدخل القرآن آيتين اثنتين في الصلاة والذكر في هذا المقطع: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾.

فالله هو الذي علّمنا تلك الأحكام والآداب وإنما نقترب منها بذكر الله والخشية منه، وهذا تأكيدٌ لِما تكرّر في المقطع كلّه من التذكير بالتقوى والخوف من الله السميع العليم سبحانه.

وهذه هي طريقة القرآن في الدمْج بين معاني الإيمان ومعاني الأخلاق والأحكام التشريعيّة، وهي طريقةٌ تربويَّة عمليَّة، على خلاف الفصل الذي تلتزم به مناهج التربية المعاصرة والذي أفقد الفقه روحه وجاذبيّته وقدرته الذاتيّة على الإلزام.

دقائق التفسير

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ سمّاه لغوًا؛ ترغيبًا في تجنُّبه، فتكرار الحلف بغير قصد هو من اللغو، وهو منافٍ لتعظيم اسم الله في قلب المؤمن، والله أعلم.

﴿فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ إشارة إلى أن العودة إلى الوفاق بين الزوجين والتراجع عن الإيلاء يقربهما من رحمة الله ومغفرته، بينما عقّب على الخيار الثاني ﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وفيه إشارة لا تخفى من التحذير والتخويف.

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ هذه قاعدة في الجمع بين قيمة

(المساواة)، وقيمة (العدل)، فكلّ مختلفين في الجنس أو الطبع أو الجهد يشتركان في أصل جامع ويختلفان فيما فوقه، فما اجتمعا فيه كان أهلًا للمساواة، وما اختلفا فيه كان أهلًا للتمايز وتحقيق العدل، فالمرأة تجتمع مع الرجل في كل معاني الإنسانيّة، وهي هنا تستحق ما يستحقّه الرجل تمامًا، ثم تفترق عنه في معانٍ أخرى في بنيتها الجسديّة والنفسيّة والعقليّة والعاطفيّة، وهذا من التنوّع الذي هو أصل الحياة وقوامُها، والمساواة في هذا الجانب ظلم للطرفين، وإنّما المطلوب توزيع الوظائف والأدوار وإعطاء كلٍّ ذي حقٍّ حقَّه.

فلمّا كانت المرأة أقدر على رعاية الولد وتحقيق السكينة في البيت أعطيت هذا الدور، في مقابل أن الرجل يعملُ ويكدُّ من أجل النفقة عليها وعلى ولدها، وتوفير متطلَّبات استقرار الأسرة وهيبتها وحمايتها، وهذه هي الدرجة التي يستحقها الرجل وهي مسؤولية كبيرة تتناسب مع ما ميَّزه الله به من قوّةٍ وجَلَد، والله أعلم.

﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ ﴾ الطلاق هنا هو الطلاق الثالث، وهو الذي يُسمّى البائن بينونة كبرى، والذي يقطع عليهما طريق المراجعة إلا أن تتزوّج من آخر، فإن طلّقت منه جاز لها العودة إلى زوجها الأوّل.

وقد وهم بعض المحدَثين ممّن لم يتفقّهوا في الدين أنّ الزوج الثاني جِيء به بقصد التحليل، وهذا وهْمٌ وباطلٌ، فالإسلام لمَّا منح الزوجين فرصًا كثيرة للمراجعة في الإيلاء والخلع والطلاق الأوّل ثمّ الثاني، كان لا بدّ أن تكون لهذه التجارب نهاية، فكان الطلاق البائن هذا وبه تنقَطِعُ المراجعة.

وعلى المرأة أن تبحث عن زوج آخر إن رغبت بالزواج، وهذا الزواج دائم وفيه كل غايات الزواج وأحكامه التي تهدف إلى الاستقرار والسكينة والمودّة والرحمة ونحو ذلك.

فإن حصل الفراق بسبب الموت، أو بطلاق بائن، جاز لها أن تتزوَّج مرَّة ثالثة من أي رجل يَحِلُّ لها بمن فيهم زوجها الأوَّل، فإن اختارته كان لها تجربة سابقة معه وتجربة لاحقة، ولمّا اختارته بعد تجربتها الثانية كان هذا الخيار بعد مقارنة محسوبة وهو أقرب للوفاق.

ولذلك عقّب القرآن على هذا الخيار بقوله: ﴿إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ بمعنى أنه قد غلب على ظنّهما أنهما قد استفادا من التجربة، ويتأكّد هذا الخيار على غيره في حال وجود الولد، والله أعلم.

﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ تثبيت وتأكيد لحق الولد في الرضاعة لحولين كاملين، ولحق المرضِعة أيضًا في النفقة، وأنّ النقص عن الحولين لا يكون إلا بتشاورٍ واتفاقٍ للتأكُّد من مصلحة الولد، وقد قال: ﴿حَوْلَيْنِ﴾ ولم يقل: (سنتين)، أو (عامين)؛ دفعًا للخطأ في حساب بداية المدّة ونهايتها؛ فالسنة والعام لهما بداية ثابتة وهي اليوم الأول من الشهر الأول، بينما الحول بدايته مختلفة باختلاف الأشخاص والأحوال، فقد يبدأ الحول في منتصف السنة لينتهي في منتصف السنة الأخرى، وهكذا.

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ دلالة أن المرأة المتوفّى عنها زوجها هي صاحبة القرار بعد انقضاء عدّتها فيما تختاره لنفسها.

﴿فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾ التعريض عكس التصريح، والمقصود هنا: أن الذي يَرغبُ بالزواج من المرأة المتوفّى عنها زوجها، لا يجوز له التصريح لها بما في نفسه؛ إذ هذا جرح لمشاعرها، واستعجال قد تضطر المرأة لردِّه إظهارًا لوفائها وإن كانت راغبة فيه.

أما التعريض فقد أجازه الشارع؛ لأنَّه يوصل المعلومة دون حرج ودون انتظار للردّ؛ وهذا من الآداب الإسلاميَّة في إدارة شؤون المجتمع ومراعاة الجوانب النفسيَّة والعاطفية فيه.

﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ تعفو المرأة عن حقِّها وهو نصف المهر إن رغبت هي في ذلك، أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح وهو الزوج، وليس ولي المرأة؛ لأنّ الولي لا يملك التنازل عن حقها.

وأمّا تنازل الزوج فصورته أن يكون الزوج قد دفع إليها كامل المهر قبل حصول الطلاق،

وقد تكون قد تصرّفت به، فالقرآن يرغّب الزوج بالعفو عن حقّه في استرجاع نصف المهر، والعفو خُلق حميد للطرفين، وهذا من آداب القرآن الاجتماعية.

﴿حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ عطف للخاص على العام؛ تنبيهًا لشرف الصلاة الوسطى، وتحذيرًا من تفويتها أو التفريط فيها، وقد اختُلف في تحديدها؛ فقال الجمهور: إنّها صلاة العصر؛ لورود أحاديث في هذا، مِنها: حديثُ: «**شَغَلُونَا عَنِ الصَّلَاةِ الوُسطَى صَلَاةِ العَصْرِ**»[1].

وقال آخرون: إنها الفجر؛ وذلك لقرائن كثيرة، مِنها:

أنَّ اليوم الشرعي يبدأ بمغيب الشمس، وعليه فالصلاة الأولى هي المغرب، والثانية هي العشاء، والثالثة هي الفجر، والرابعة الظهر، والخامسة العصر، فالفجر هي الوسطى من حيث وقتها، وإذا كانت الوسطى بمعنى الشرف والمكانة، فلا شك أنّ الفجر هي الأَولَى بذلك: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].

وهناك قرينة ثانية: وهي أنّ مظنّة تفويت صلاة الفجر أقوى من مظنّتها في غيرها من الصلوات، وهذا هو واقع الناس إلى اليوم، فكان ذلك أدعَى لتأكيد المحافظة عليها وعدم التفريط بها.

وقرينة ثالثة: أنَّ القرآن عقَّب بعد الصلاة الوسطى بقوله: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾، والصلاة التي يُرغّبُ فيها بالقيام الطويل والقنوت بمعنَيَيه اللغوي والاصطلاحي إنما هي صلاة الفجر، أما الحديثُ المُتقدِّم فهو ليس الحديثَ الوحيدَ في هذه المسألة؛ إذ أوردَ المُفسِّرون أحاديثَ ورواياتٍ عن الصحابة ﷺ تُعارِضُ هذا الحديثَ، وليس هنا محلَّ مُناقشَة هذه الروايات، والله أعلم.

---

(١) حديثٌ صحيحٌ من حديث عليّ بن أبي طالب ﷺ، ينظر: صحيح مسلم (٢/ ١١٢/ دار الجيل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ بعد ذكر القيام والقنوت في الصلاة وما يقتضيانه من سكينة وخشوع، استثنى القرآن حالة الفزع والخوف بملاحقة عدوّ أو خطر داهم مما يقتضي الحركة والاضطراب، فهنا تكون الأولويّة للمحافظة على النفس، وتكون الصلاة بالطريقة التي تنسجم مع الحركة والحذر.

﴿فَرِجَالًا﴾ أي: مشيًا على الأقدام، أو ﴿رُكْبَانًا﴾ أي: ركوبًا على وسائط النقل، وبهذا يعفى المصلّي عن الأركان العملية؛ كالقيام، والركوع، والسجود، واستقبال القبلة بقدر معارضتها للحفاظ على النفس هيئة وحركة، والله أعلم.

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم﴾ المقصود به: مَن حضَرَته الوفاة؛ لأن المتوفَّى ليس أهلًا للوصية، وهذا من مجاز اعتبار ما يكون، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧]، فالمولود لا يكون فاجرًا كفارًا عند ولادته بل يقتضي بلوغه سنّ التكليف، والله أعلم.

﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِالْمَعْرُوفِ﴾ متاع المطلّقة ما يعينها على العيش الكريم ويعوّضها عن النقص الذي حصل بسبب الفراق، وهذا حكم عام يشمل كلّ مطلّقة من دون تفصيل، وقد جاء بصيغة الخبر إشارة إلى أنّ المجتمع الكريم من شأنه أن يسدّ هذه الحاجة وفق أحكام الشريعة، ثم بمراعاة حال المطلّقة وقدرة الزوج.

فمن المتاع ما يحصل بالصداق مسمًّى أو مقدّرًا، ومنه ما يحصل بالنفقة التي تستحقّها المطلقة طلاقًا رجعيًا، وكذا التي تستحقّها الوالدة بإرضاع ولدها، فإن لم يكن لها من ذلك شيء كان لها على الزوج ما يطيّب خاطرها بحسب قدرته، فعدم التحديد في الآية مقصود لمراعاة كلّ هذه الحالات المختلفة، والله أعلم.

۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾

يخاطب القرآن الجيش كما يخاطب مؤسسات الدولة و المجتمع الأخرى كالقضاء والتعليم والاقتصاد والصناعة والزراعة والصحَّة، ولكلِّ جهةٍ خطابُها الذي يناسبها، وربما وقع بعض الناس في وهمٍ بسبب الخلط ووضع الخطاب في غير موضعه وتوجيهه غيرَ الوجهة التي نزل فيها، فتراهم يأخذون آيات التربية العسكريّة ويضعونها في مجالات الدعوة والسياسة والعلاقات المجتمعية أو التنظيميَّة.

في هذا المقطع تركيز على جوانب رئيسة في الإعداد العسكري وصياغة العلاقة بين الجندي والقائد، وبناء المنظومة العسكرية:

أولًا: الإعداد المعنوي وبناء المقاتل الشجاع القادر على مواجهة الخطر وتحمُّل تبِعاته، وقد جاء هذا في النموذج الذي طرحه القرآن عن قوم تركوا بلادهم هَلَعًا وخوفًا من الموت وقد كانوا أُلُوفًا، فكتب الله عليهم الموت من حيث أرادوا النجاة، ليُرسِّخ بهذا النموذج عقيدة القدَر في الموت والحياة، وأن النفس لا تُقبض قبل انتهاء أجلها، وهذا هو فحوى قوله تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ ﴾.

ثانيًا: أن القتال أمرٌ حتميٌّ قدرًا وشرعًا؛ أمّا القدر فبحكم الطبيعة البشريّة وقوانين التدافع وحقائق التاريخ ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ وَلَـٰكِنِ ٱخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾.

وقد جاء الأمر منسجمًا مع هذه الحقيقة: ﴿ وَقَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾، ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ ﴾ وأما الذين يحلُمُون بسلام من دون قوَّة فأولئك يُصادِمُون حقائق التاريخ والجغرافيا والطبيعة البشريَّة.

ولذا تجِد الدول مهما اختلفت دياناتها وثقافاتها تتسلّح بالقوة، وتستعدّ للمواجهة وتُطوِّر من قدراتها القتاليّة حتّى لو كانت ترغب بالسلام، وليست الأمّة المسلمة استثناء من هذا، وتقرير هذه الحقيقة من شأنه أن يرفع الجانب المعنوي أيضًا.

ثالثًا: أن القتال في الإسلام مرتبطٌ برسالة سامية ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فهو ليس للمناصب والمكاسب الدنيويّة، وليس ليعلو عنصر على عنصر، أو تطغى دولة على أخرى، ومن متطلبات ذلك منع الظلم والفساد: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾

رابعًا: أن ثواب المقاتل أُخرويٌّ؛ فهو لا يسعى لَمغنَم أو هروبًا من مَغرَم ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ﴾ فكلُّ ما يقدمه المقاتل في سبيل الله من جهدٍ ومالٍ ودمٍ فإنما هو أشبَه بالقرض الذي ينتظره مضاعفًا في وقت الحاجة التي ما بعدها حاجة.

خامسًا: السمع والطاعة أساسٌ في الجنديَّة: ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى﴾ ومحل النهي حلال في أصله، فكيف بالمحرَّم؟

سادسًا: الإنفاق المادي ركنٌ في المعركة وجزءٌ من الإعداد، وقد مهَّد له القرآن في مقدّمة هذا المقطع بقوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ ثم خَتَمَ به فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾، وهنا إشارة إلى أن هذا الإنفاق يقصد به دفع كفر الكافرين وظلم الظالمين، والسياق كله يؤكِّد ذلك.

سابعًا: العلم والقوَّة أساسٌ في القيادة: ﴿قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ﴾.

ثامنًا: الكثرة ليست شرطًا في النصر: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

دقائق التفسير

﴿وَهُمۡ أُلُوفٌ﴾ إشارة إلى أنّه ما كان لهم أن يتركوا بلادهم وهم بهذه الكثرة، لكنّه الهلع والجبن والخوف من الموت الذي يشلُّ حركةَ الشعوب.

﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ﴾ إشارة إلى أنَّ الدفاع عن النفس والأهل والمال هو في سبيل الله أيضًا، فكلُّ قتال حقٍّ فهو في سبيل الله، وكلّ قتال باطل هو في غير سبيل الله، مهما كانت الشعارات والرايات.

﴿وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ﴾ دلالة على اضطراب المعايير، فما علاقة المال بالقيادة! سوى أنّ صاحب المال قد يستعمل ماله لكسب التأييد، وهو مظهر من مظاهر فساد المجتمعات؛ حيث تتقدّم الرشوة، وتتراجع الكفاءة.

﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ إشارة لأهميّة تعزيز ثقة الجنود بقائدهم.

﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ إشارة إلى أن الذي يحقق التوازن مع كثرة العدوِّ إنما هو الثبات والصبر.

﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ اختفى اسم طالوت مؤسس الجيش وقائده الأول، ولكنَّ المعركة بقيت مستمرّة بقيادة جديدة، وهذا شرط في النصر أن لا يرتبط مصير الجيش بشخص ما ولو كان القائد، فالجيش الذي يعجز عن تهيئة القادة وإعدادهم دفعة بعد دفعة فإنّه سيفشل وينتهي.

﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥) لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦) اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥٧) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨) أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانْظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ ۖ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠)﴾

مجادلات في مسائل الإيمان

يعرِض القرآن في هذا المقطع جانبًا آخرَ من جوانب الصراع بين الحق والباطل، وهو الجانب الفكري الذي يعتمد الحجّة والبرهان بديلًا عن السَّيف والسِّنان، وهذه أهم النقاط التي عرضها القرآن في هذا الجانب:

أولًا: عرض الحقائق الإيمانيّة كما هي من غير لَبْس أو مُداراة لطرف أو جهة مَا، وهذا الوضوح هو أساس لكل حِوارٍ أو مجادَلة، وهذه هي منهجية الإسلام، وقد جاءت آية

الكرسي لبيان هذه الحقائق الكليّة عن الإيمان، ومن ثَمَّ كان لهذه الآية المكانة الأسمى من بين آيات القرآن الكريم، وقد صح في صحيح مسلم[1] عن النبيِّ ﷺ أنها أعظم آية.

والحقائِق التي عرضها القرآن في هذا المقطع هي:

- لا إله إلا الله ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ وهذه كلمة التوحيد التي هي أساس الإسلام، وقاعدته الكبرى، ومدخل السائرين إليه، وكلّ فكرٍ أو عملٍ من دونها مهما كان مردود.

- أنّ الله متصفٌ بصفات الكمال ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ ﴾، ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ ﴾، ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾، ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.

- أنّ الله مالكُ المُلك وهو يفعل في ملكه ما يشاء ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ ﴾، ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ ﴾، ﴿ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ ﴾، ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ ﴾، ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ ﴾.

- أنَّ الآخرة حقٌّ، وأنَّ الله سيُحيِي الموتى، وأنَّ الناس هناك سيفترِقُون إلى مؤمن وكافر، فالمؤمن في نور الله وهو على العروة الوثقى، والكافر عبْدٌ للطاغوت وهو يعيش في الظلمات ومأواه النار: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾.

- أنَّ الشفاعة لا تكون في ذلك اليوم إلا بإذن الله ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ ﴾.

ثانيًا: حريَّة الاختيار مكفولة للجميع ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ ﴾، وليس معنى هذا المساواة بين التوحيد والشرك، والحقِّ والباطل، والعدل والجور، كيف والله قد عقَّب مباشرة: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ ﴾؟ فهناك رشد وهناك غيٌّ، والمرء مختارٌ بينهما، وهو يتحمّل نتائج اختياره.

---

(١) ينظر: صحيح مسلم (١/ ٥٥٦) دار الجيل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).

ثالثًا: الحوار مع المخالف في الدين مفتوح بلا حدود، فله أن يقول كلّ ما عنده، إذ هذا هو طريق الهداية ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ ومع شناعة هذه المقولة إلا أنّ إبراهيم ﷺ لم يُشنِّعها عليه، ولم يُقفل بابَ الحوار بعدها.

رابعًا: البحث الذاتي عن الحقيقة مطلوب ومشروع مهما كان محلّ البحث ﴿قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾.

دقائق التفسير

﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ صفتان من صفات الله تعالى واسمان من أسمائه الحسنى، وفي ذكر صفة الحيّ إشارة وتنبيه على بطلان عبادة الأصنام، وهي أصنام جامدة لا حياة فيها، ثم ذكر صفة القيّوم أي الذي يقوم وحده بتدبير شؤون الخلق، وهذه الصفة لا تكون لغير الحيِّ.

﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ نفيٌ لصفتين من صفات النقص، والصحيح أنّهما مثالان يصح القياس عليهما، فكلّ صفةٍ مُشعِرةٍ بالنقص الواضح فهي منفيّة عن الله كالمرض والجوع والعطش، فالنفي ليس توقيفيًّا بخلاف الإثبات، والله أعلم.

﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ إثبات للشفاعة المشروطة بإذن الله، وهي تجلٍّ من تجليات الرحمة والمغفرة في ذلك اليوم العصيب، وإنّما تميَّزت بتكريم الشفيع نبيًّا وصدِّيقًا وشهيدًا، وهذا التكريم وجه من وجوه الثواب، وليس في الشفاعة ما يشغب على مبدأ العدل الإلهي؛ وهنا إشارة لبطلان شفاعة الأصنام التي يتشبث بها المشركون، وكذا بطلان شفاعة الأنبياء لمن أشركهم مع الله واستحالتها أصلًا؛ لأنّهم ﷺ لا يشفعون لمن توعَّده الله

بعدم المغفرة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾(1).

﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ الكرسيُّ خَلْقٌ عظيمٌ وردت صفته في الأحاديث الصحيحة، وتأويلُه بالعلم حَمْل له على خلاف الظاهر والمتبادر عند الإطلاق، وذكره يفتح الآفاق الواسعة في تصوُّر سعة الكون وعظمة الخالق، وإن كنا لا نستطيع التوصُّل إلى كنهه وحقيقته، مع مُلاحظة أنَّ معنى الكُرسيِّ في اللغة لا يبعُد عن معنَى العرش، والله أعلم.

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ نهيٌ بصيغة الخبر، ولا مانع من إرادة المعنيين، فالدين هو الخضوع الذاتي عن إيمان وتسليم، والإكراه ينافي هذا، فمن آمن تحت السيف كيف يكون مؤمنا، وهل الإيمان سوى التصديق الجازم وما ينبني عليه من تسليم وعمل؟

﴿يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ استعمالٌ مجازيٌّ، فالظلمات جمع ظلمة، والظُّلْمة إنما تكون بانعدام الضوء، بيد أنّها هنا استعملت اسمًا جامعًا لكلِّ شرٍّ، مع أن الظلمة لا تستلزم الشرّ بل قد تكون مطلوبة للسكن والراحة، ومثل هذا القول في النور، إذ استعمله القرآن اسمًا جامعًا لكلِّ خيرٍ عقيدةً وعبادةً وخلقًا، والله أعلم.

﴿إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾ قول إبراهيم ﷺ: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ كأنّه وقع جوابًا لسؤالٍ محذوف تقديره: من ربُّك؟

وقد ترك إبراهيم ﷺ الاستدلال الأول لسببَين:

الأول: أنّ خصمه قد نحا به إلى مجال تخرج به المحاجحة عن جوهر الموضوع، وهذا أسلوبٌ من أساليب الباطل، ولو استجاب له إبراهيم ﷺ لصار الجدال يدور حول التفريق

الثاني: أنَّ خصمه قد قام بإحضار اثنين من السجن، فأبقى الأوّل وقتل الثاني، كما ورد في بعض الروايات، وقد كان من الحكمة حَرْف مجرى الحوار بعيدًا عن ملابسات الواقع؛ تجنُّبًا

(1) تكرّر هذا المقطع من الآية مرتين في سورة النساء/ ٤٨، ١١٦.

لهذا الضرر والسلوك المشين، والذي قد يصدر عنه بصورة أو طريقة أخرى.

نعم، ولقد كان لإبراهيم أن يحرجه أكثر فيقول له: أَعِدِ الحياة لهذا الذي قتَلتَه إن كنت تُحيِي وتُميت، لكنَّه اختار دليلًا لا يحتمل تلك المُماحكات، ولا تلك السلوكيات، والله أعلم.

﴿لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ﴾ أي: لم يتغيَّر، وهذه معجزة لا شكَّ؛ لأن الطعام لا يبقى في العادة كل هذه السنين، والقصَّة كلها معجزة لنبيٍّ من الأنبياء السابقين، وهي مثالٌ على قدرة الله في إحياء الموتى؛ حيث جعله الله ينظر إلى رفات حماره الميت كيف دبَّت فيها الحياة مبتدئة بظهور العظام وتكاملها ثم ببناء اللحم عليها، ومثلها الآية التالية في إبراهيم ﷺ والله أعلم.

﴿رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ﴾ سؤال إبراهيم ﷺ كان عن الكيفيّة وليس عن أصل الإحياء، بدلالة قوله: ﴿قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ﴾ والعلم بالكيفيَّة وتصوُّرها ينقل المعرفة من معرفةٍ استدلاليّة إلى معرفةٍ حسيّة، وهذه آكَدُ في اليقين والطمأنينة.

﴿فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ﴾ دلالة على استعمال الطير في الجمع كما يستعمل في المفرد.

﴿فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ﴾ اجمعهنَّ عندك.

﴿ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا﴾ فيه مقدَّر وهو: فاذبحهنَّ، ثم اجعل على كلِّ جبلٍ منهنَّ جزءًا أي: اذبحهنَّ ثمّ قطِّعهنَّ، والله أعلم.

﴿ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ﴾ ربط الإتيان بدعوتهن من قبل إبراهيم؛ تأكيدًا لحقيقة الإحياء وحضور إبراهيم فيه، بخلاف ما لو أحياها الله في وقتٍ آخر، والله أعلم.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾

التكافلُ الاجتماعي أساسٌ من أسسِ الحياة الكريمة وبناء المجتمع المتماسك والأمَّة القويَّة، والحاجة إلى التكافل حاجة مجتمعيَّة عامَّة بسبب طبيعة الحياة البشريَّة وعوارض المرض والعوز وفقدان المعيل وقلَّة الموارد، والإنفاق الذي أكَّده القرآن في هذا المقطع وفي آيات أخرى كثيرة إنما يقصد به الوصول إلى تحقيق هذا التكافُل.

بَيْدَ أن القرآن له منهجه الخاص في تحقيق هذه الغاية، وفي هذا المقطع عرض لمعالم هذا المنهج:

أولًا: الإنفاق في سبيل الله؛ فالله هو مالِكُ المُلك، وهو الذي ابتلى الغنيَّ بالفقير، والفقيرَ بالغنيِّ، والغنيُّ مأمورٌ أمرًا بأن يؤدِّي للفقير ما أوجبه الله في ماله من حقٍّ، وهذا من لوازم ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ و﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ وبالتالي فالغنيُّ لا يُنفِقُ مالَه مُتفضِّلًا على الفقراء، بل مؤدِّيًا لحقهم.

وفي هذا من معاني الأُخوَّة والتكافل المعنوي ما فيه، إضافةً إلى المحافظة على حياء الفقراء وكرامتهم وهيبتهم في المُجتمع.

وفيه أيضًا: حمايتهم من استغلال المتصدِّقين وامتهانهم لهم في العمل والخدمة، أو المنِّ والتسلُّط والتعالِي.

ثانيًا: تأكيد الثواب الأخروي الذي لا حدود له ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾، ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْۗ﴾، ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾، ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

وهذا الثواب متضمِّن - لا شكَّ - للثوابِ الدنيويِّ؛ من تحقيق الأمن، والسمعة الطيّبة، وفتح أبواب الرزق، وكل هذه المعاني يحشدها القرآن ليحفّز أصحاب الأموال، ويُحرِّرهم من أغلال الشحِّ والبخل؛ لعلمِه تعالى أن المالَ شقيقُ الروح، وأنَّ الإنسان بطَبعه يحبُّ مالَه ويعزُّ عليه مُفارقته إلا لما هو أعزُّ منه وأطيَب.

ثالثًا: اقتِران الإنفاق بالأخلاق؛ فلا منَّة ولا تكبُّر ولا أذى، وقد نوَّع القرآن أساليبه لتأكيد هذه المعاني وترسيخها في الوجدان بما يعكس خطورتها وأهمّيتها في السلوك الاجتماعي، فتراه يشترط في الثواب الكبير الذي يرجوه المتصدّق أن لا تقترن صدقته بالمنِّ والأذى ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

ثمّ ينذر ببطلان الصدقة من أصلها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾؛ لأنَّ هذا ليس بخلق المؤمن: ﴿كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾، ثمَّ بيَّن أنَّ الكلمة الطيِّبة أَولَى من الصدقة المؤذية: ﴿۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾.

ثم ذكر القرآن مَثَلين للصدقات المؤذيات، مثل الصفوان الذي عليه شيء من التراب، فإذا جاء موسم الخير وسقط الغيث انزاح التراب عن الصفوان وتركه صلدًا لا يصلح للإنبات؛ لأن التراب لم يرسخ ولم يثبت، وهو مثل الصدقة التي تزول بسبب المنّ والأذى الذي يُلحقه المتصدّق بالفقراء.

والمثال الثاني: رجل بَنَى حديقة كبيرة ووارفة فيها نخل وعنب وأنهار تجري، فلما كبر وأصبح محتاجا إلى ثمرها له ولعياله القاصرين ﴿فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ﴾، وهكذا تخترق الصدقة بالمنِّ والأذى في الوقت الذي يكون المتصدِّق بأشدّ الحاجة إلى ريعها

وثوابها، يقابل هذين المثَلَين مثالٌ ثالث: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾.

رابعًا: اختيار المال الطيِّب للنفقة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ واختيار المال الطيِّب ينمُّ عن محبَّة للطاعة، ومحبَّة للفقراء وإيثار لهم، وهو من النبل والكرم إضافة إلى حسن التديُّن، وهو علامة أنَّ النفقة لم تخرج عن كُره وحسرة بل عن رضا ومحبَّة وطيب خاطر.

خامسًا: قطع الطريق المؤدِّية إلى الشح وهي الخوف من الفقر ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ ﴾ و﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ ﴾ ولا شك أن الخائف من الفقر والحاجة عند تقلّب الأيَّام يكون الأبعد عن النفقة والأقرب إلى مسك اليد.

سادسًا: فتح باب التنوُّع في الصدقة والتنوُّع في الأداء بما تقتضيه المصلحة وحال المنفِق والمنفَق عليه ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ ﴾.

والنفقة أداء الحقّ وجوبًا أو تطوّعًا، والنذر تعليق النفقة بخيرٍ قادمٍ من شفاء عليلٍ أو قدوم حبيبٍ أو نجاح طالبٍ أو ربح تجارةٍ ونحو ذلك، وهذا كلّه تحبيب للصدقة وتنويع أسبابها ومحفِّزاتها.

ثمَّ نوَّع في طريقة الأداء ووقته فقال: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ ﴾، وقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾.

ولا شك أن صدقة السرِّ أولى من حيث المبدأ فهي أصلح للفقير وأبعد عن الرياء، لكنّ الإنفاق في المشاريع العامّة قد يقتضي المنافسة وتشجيع الضعيف المتردِّد، بتقديم النموذج

الواضح والقدوة الراقية، كما فعل سيدنا الصدِّيقُ ﷺ: (أَبْقَيتُ لهم اللهَ ورسولَهُ)[1]، وكما فعل سيدنا عثمان ﷺ، حتى أعلَنَ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ اليَوْمِ**»[2].

سابعًا: تحرِّي الجهات الأَوْلَى بالصدقة: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ ﴾.

وقد جمع القرآن هنا ثلاث صفات: الفقر، ووجود الحاجة، وهذه أصل في استحقاق الصدقة، ثمَّ أضاف صفةً تشرح سبب الفقر، وهي الإحصار في سبيل الله، فهؤلاء قوم تعرّضوا للأذى بسبب ثباتهم على دينهم وقد كان بإمكانهم أن يكسبوا وينافسوا أقرانهم في جمع المال لو تخلَّوا عن رسالتهم.

ويلحق بهذا كلُّ عامل للإسلام تفقُّهًا أو دعوة أو جهادًا إن كان من أهل الفقر والحاجة.

ثمّ أضاف صفةً ثالثةً تنمُّ عن نبلهم، وطيب أصلهم، وورعهم، وتعفُّفهم عن السؤال، وهؤلاء أجدر بالتنبُّه لحالهم لصعوبة التعرّف على حاجتهم، وكذاك لمحل الأمانة فيهم؛ لأنهم لن يأخذوا ما يزيد عن حاجتهم، بخلاف الذين يجُوبون الطُّرُقات، ويطُوفون على الناس، والله أعلم.

---

(١) جزء من حديث، وتمامه: عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: أمَرَنا رسولُ الله ﷺ يومًا أن نتصدَّقَ، فوافَقَ ذلك مالًا عندي، فقُلتُ: اليوم أسبِقُ أبا بكرٍ إن سبقتُه يومًا، فجِئتُ بنصف مالِي، فقال رسولُ الله ﷺ: «**مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟**». قُلتُ: مِثلَه، قال: وأتى أبو بكر ﷺ بكلّ ما عنده، فقال له رسولُ الله ﷺ: «**مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟**». قال: أَبقَيتُ لهم اللهَ ورسولَه. قُلتُ: لا أُسابِقُكَ إلى شيءٍ أبدًا)، رواه أبو داود (٢/ ٥٤/ دار الفكر، تح محمد محيي الدين عبد الحميد)، والترمذي في «جامع الترمذي» (٥/ ٦١٤/ دار إحياء التراث العربي، تح أحمد شاكر)، وقال: حسنٌ صحيحٌ.

(٢) جزء من حديث، وتمامه: عن عبد الرحمن بن سَمُرة قال: جاء عثمانُ إلى النبي ﷺ بألف دينارٍ، قال الحسن بن واقع: وكان في موضع آخر من كتابي: في كُمِّه حين جهَّز جيشَ العُسْرَة، فينثُرُها في حجره. قال عبد الرحمن: فرأيتُ النبيَّ ﷺ يُقلِّبُها في حجره ويقول: «**مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ اليَوْمِ**» مَرَّتَين)، رواه الترمذي وحسَّنه (٥/ ٦٢٦/ دار إحياء التراث العربي، تح أحمد شاكر)، والحاكم وصحَّحَه، ووافقه الذهبي، في «المستدرك» (٣/ ١١٠/ دار المعرفة، بإشراف د. يوسف المرعشلي، مصوّرة عن الطبعة الهندية).

﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ﴾ دلالة على كثرة الثواب ومضاعفته، وإشارة النماء والرخاء في كلِّ مجتمعٍ مُتكافِلٍ مُتراحِم.

﴿ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى﴾ هو من عطف العام على الخاص؛ إذ المنّ من الأذى، لكنّه أقرب أنواع الأذى وأكثره ممارسة ولذلك بدأ به.

﴿لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ﴾ هذه نتيجة الإنفاق المقترِن بالرياء والمنِّ والأذى، دلالته بطلان الأجر، وإشارته بطلان ما يرجوه من السمعة والموقع الاجتماعي؛ فالناس لا يحبّون المنّان ولو أعطاهم ما يريدون، ولو جاؤوه حاجةً واضطرارًا فسينفضُّون عنه بتغير الحال عنده أو عندهم.

﴿وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ﴾ فيه توبيخ لمن يقصد الخبيث من ماله فيدفعه زكاة أو صدقة، والمعنى: أنّك لا ترضاه لنفسك لو أدّاه أحدٌ لك من حقّك الذي في ذمته، إلا أن تتغافل عنه كراهية له، فكيف تُقدِّمُه لله وأنت ترجو ثوابه ومغفرته؟!

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ هو إتمام لتوبيخ من قصد الخبيث في صدقته، والمعنى: كيف تقدِّمُون أخبث ما عندكم لله، وهو الغنيُّ المُستحقُّ للحمد والثناء، وهو الذي رزقكم ومكّنكم في ما عندكم؟!

﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾ إشارة لصِلَة الفقر بالفحشاء، فإذا كان الخوف من الفقر مدعاة للشُّحِّ والقَطيعَة، فكيف به إذا كان واقعًا؟ وهذا مظهرٌ مرئيٌّ ومحسوسٌ من مظاهر المجتمعات البشريَّة، فالمجتمع الأكثر فقرًا هو الأكثر جريمة والأجرأ على الرشوة والفساد والقتل والسرقة وأنواع الموبقات والدناءات.

﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ﴾ إشارة إلى أن المجتمع المتعلّم والواعي يكون أهلًا للنهوض وتجاوُز حالات الإخفاق والفقر والتخلُّف؛

فالخيرُ الكثير مرتبط بالحكمة، ومفهوم المخالفة أنّ الجهل سبب للفقر والشر، ومجيء هذه الآية وسط الحديث عن الإنفاق يؤكّد هذه الإشارة، والله أعلم.

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ إشارة إلى أنَّ الذي لا يتصدَّق ولا يُنفِق هو من الظالمين، وفي الآية تهديد لا يخفى لهؤلاء، والله أعلم.

﴿ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾ الهداية هنا هداية التوفيق، وليست هداية الإرشاد والتوجيه، فالأولى لله وحده، والثانية من وظائف الرسُل وأتباعهم إلى يوم الدين، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ إشارة لاستمرار عمل الخير وسعة أبواب الصدقة، فهي لا تنقطع بأداء الزكاة، بل هناك حقوق أخرى، وأبواب من النوافل لا تحصى، والسعيد من فهم هذا ووفّقه الله لاغتنامه ومنافسة الصالحين فيه.

﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ إشارة إلى أن المُكثِر من الصدقة والمستمر على فعلها هو في مقام الولاية لله؛ لأنَّ الله قال في أوليائه: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ
مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ
فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ
مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ
إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ
مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ
كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ
وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ
وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ
إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ
ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ
عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ
وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ
مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا
فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾

يعرض القرآن الكريم في هذا المقطع جانبًا من فقه العلاقات الماليَّة التي تشيع في المجتمعات البشريَّة، والتي يكثر فيها الظلم والسُّحت وأكل حقوق الآخرين، وهي الصفات المقابلة للصفات التي قرَّرها القرآن في المجتمع المسلم القائم على التكافل والتعاون والمحبَّة.

وإذا كان القرآن قد نهى بشدّة عن المنّ والأذى في الصدقة، فإنّ نَهيَه عن غَمط الحقوق وأكل الحرام سيكون آكَد وأشدّ، كما أنَّه سيعمد إلى وضع الأحكام والضوابط القادرة على منع هذا الظلم وحماية حقوق الناس، وكما يأتي:

أولًا: تحريم الربا، وقد ورد هذا التحريم بطريقةٍ قاطعة وحاسمة لا تحتمل التأويل أو الاجتهاد، قال: ﴿وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ﴾، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾، وقد شنَّعَ على آكِلي الرِّبا تشنيعًا عظيمًا: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ﴾، ثمّ جمع له من الوعيد ما لم يجمعه في غيره فقال: ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾، وقال: ﴿فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾.

وقبل كل ذلك وأشدُّ منه قوله: ﴿وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ وهذا الوعيد لا يناسب إلا الكافرين المشركين، وكأنّه جعل الربا علامة للكفر والشرك، وقد أكَّد تعالى هذا بقوله: ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ وبقوله: ﴿وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ فأصبح ترك الربا علامة الإيمان، والعودة إليه علامة الكفر والعياذ بالله، وليس فوق هذا الوعيد من وعيد.

ثانيًا: الربا ينافي العدل، وهو صورة من صور الظلم: ﴿وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ﴾.

ثالثًا: في ثنايا الحديث عن الربا أخذ القرآنُ يُذكِّر بالإيمان والعمل الصالح وأداء الزكاة والصدقات، وهو هنا يضع الربا في مقابلة هذا كله، وهذا يعني أنَّ القرآن يَعدّ الربا مِعول هدم لكلِّ تلك المعاني، فما يَبنِيه الإيمان والعمل الصالح والتكافل الاجتماعي من معاني الخير، والرحمة، والمحبَّة في المجتمع يهدمه الربا.

وهذه حقيقة ينبغي الوقوف عندها طويلًا؛ فالقرآن لا ينظر إلى الربا من خلال حلقته الأخيرة، وهي أنَّ طرفًا ما قد استطاع في ظرف ما أن يأكل مالًا لا يستحقُّه وإن كان برضا صاحب المال نفسه، فهذا لوحده قد لا يستحق كلّ هذا التشنيع وذلك الوعيد، فهو لا يتعدَّى حالة الاختلاس أو السرقة من مالٍ شخصيٍّ غير مُحرز، أو حالة من حالات النصب والاحتيال، بل القرآن يتعامل مع الربا كنظام متكامل له فلسفته وعمقه المنافيان لمنهج الإسلام كلّه، ونظرته للحياة والمال والعلاقات الإنسانيّة العامة والأصول التي ينبغي أن تقوم عليها المجتمعات.

إنَّ (النظام الربوي) ليس جريمة فرديَّة، ولا نَزْوة أو شهوة طارئة، بل هو نظام متكامل، وهذا النظام لا يمكن له أن يلتقي مع الإسلام لا في منطلقاته ومبادئه ولا في آثاره وتداعياته.

أمّا الحالات الجزئية والمستجدّات المالية، والتي قد يختلف في تقديرها المجتهدون المعاصرون، فينبغي أن تُخرج من دائرة (التحريم القطعي للربا) وما ينبَنِي عليه من تشنيع ووعيد إلى دائرة (الاجتهاد الفقهي) القابل لتعدد الآراء والفتاوى بالضوابط الأصوليّة المعروفة، والله أعلم.

رابعًا: إباحة البيع: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ﴾ والبيع وإن جاء هنا في الصورة التي يزعم المرابون أنّها شبيهة بالربا، لكنّ الظاهر إباحة البيع في كلِّ صوره المعروفة في التبادلات الماليّة: بيعًا، وإجارةً، وشركةً، ومضاربةً، وما إلى ذلك، فكل تبادل تجاري الأصل فيه الإباحة، والتحريم استثناء يحتاج إلى دليل.

خامسًا: إباحة الدَّين بكلِّ صوره وأشكاله، سواء أكان لسد فاقة كدَيْن الفقير الذي يستدين لقضاء حاجاته في الأكل والملبس ونحوهما، أم كان دَينًا للاستثمار والعمل التجاري، وهو عادة ما يكون بين الأغنياء، أو مع المؤسسات الماليَّة والشركات والبنوك، فالأصل في كل هذا الإباحة.

وفَرْقُه عن البيع: أنّ البيع تبادلٌ بعِوَض بقصد الزيادة والنماء ويحتمل الغُنْم والغُرْم، والدَّينُ قرضٌ واستيفاء بلا زيادة مشروطة ولا نقصان، ويلحق به: (دَينُ الأعيان)، وهو المسمّى بالعارية، والله أعلم.

سادسًا: وضع الضوابط الكفيلة بحماية الحقوق، ومن ذلك:

- الأمر بكتابة الدين وتوثيقه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ﴾ الآية، فهذه أوامرُ صريحةٌ ومكرّرةٌ تؤكِّد إلزام الطرفَين بالكتابة، وإذا كانت الروايات عن السلف تفيد تساهلهم في الكتابة، فهذا يعود لفهمهم أنّ الكتابة ليست أمرًا تعبُّديًا، بل هي وسيلةٌ لحفظ الحقوق، فإن تيسَّرَت وسيلة أخرى تتناسَب مع عُرف المجتمع وحالته العامّة ومنظومته القيميَّة فلا بأس.

أمّا الاستدلال بتلك الروايات على نفي الإلزام مطلقًا حتى في حالة عدم القدرة على حفظ الحقوق نتيجة لتغيّر العُرف واضطراب المنظومة القيميَّة وفساد الذِّمم، فهذا بعيدٌ عن روح التشريع وفحوَى هذه الآيات المشدِّدة على ضمان الحقوق وحمايتها، والله أعلم.

- أنّ الشهادة مطلوبة في التوثيق: ﴿وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾، وهذا تأكيدٌ آخر على إلزاميَّة الكتابة.

- أنَّ الكتابة أقرب لتحقيق العدل وترسيخ الثقة: ﴿وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ﴾.

- أنَّ الاستثناء من الكتابة إنما هو في التجارة الحاضرة التي لا تتعلّق بالذمم: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ ودلالة هذا على وجوب التوثيق في غير التجارة الحاضرة لا تخفى.

- تحريم كلِّ تصرُّفٍ يُؤدِّي إلى تغيير الوثائق وتحريفها: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمْ﴾ ومثاله: الضغط على الكاتب أو الشهود ترغيبًا أو ترهيبًا، أو مبادرة الكاتب والشهود مُحاباةً لطرف دون آخر.

- تحريم كتمان الشهادة: ﴿وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ فالشاهد يتحمل مسؤوليته كاملة في أداء شهادته مهما كانت الضغوط.

- في حالة عدم القدرة على الكتابة يوجِّهُنا القرآن لصيغة أخرى، وهي: ﴿۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ والرهان معمولٌ بها اليوم في كثيرٍ من البنوك التي تتعامل بالقرض؛ حيث تقوم برهن عقار ثابت للمدين وتمنعه من بيعه حتى تستوفي منه الدين.

وهذه التفريعات والاستثناءات والتفصيلات كلها تؤكِّد خطورة الدَّين وحرص الإسلام على حماية حقوق الناس، والعبرة إنما هي في تحقيق هذه الغاية وليست في تحديد الوسيلة التي قد تتغيّر صورتها وكيفيّتها بحسب تطوُّر المجتمعات وأدواتهم التوثيقيّة والتحصيليّة، والله أعلم.

دقائق التفسير

﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ تشبيهٌ يُقصد منه التنفير وليس القياس على صورة المشبَّه به، وهو مثل قوله: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الصافات: ٦٥]، فرؤوس الشياطين لا نعلمها، وكذا حالة المسّ.

وأما ما يتناقله الناس من أحوالٍ للمَمْسُوس فهي أخبارٌ بشريَّة لا صلة لها بأمور الدين، فلك أن تصدِّقها وأن تكذِّبها كأيِّ خبرٍ دُنيويٍّ، فعالم الغيب لا يصح الجزم فيه بلا دليلٍ من الوحي، والناس الذين يعالجون الممسوس أو يخالطونه لا يطّلعون على الغيب، وإنّما يرون ظواهر مادية دنيويَّة، وربط هذه الظواهر بالجن وعالم الغيب لا دليل عليه، والله أعلم.

وفي قوله: ﴿يَتَخَبَّطُهُ﴾ إشارة لحالة المرابي النفسيَّة وتأثّره بتخويف الشيطان له من الفقر وزوال الملك، فهو قلقٌ مضطربٌ متطلعٌ إلى ما في أيدي الناس بجشع وطمع وأنانيّة مفرطة، والله أعلم.

﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾ وعيدٌ ووعد، والأصلُ فيهما يوم الجزاء، فالمتصدِّق يرى صدقاته مُضاعَفة فيَسعَد بها، والمُرابِي يرى ماله قد زال عنه ولم يبقَ منه سوى الإثم والحسرة وذلك هو المحْق المتيقَّن.

أما في الدنيا فإنَّ الله يبارك في مال المتصدّق ويجعل له القبول بين الناس، بينما يعيش المرابي منبوذًا قلِقًا شقيًّا زاد ماله أو قلّ، وليست الآية نصًّا في زوال الأموال الربويَّة ومحق أعيانها كما توهّم بعضهم.

والواقع: أن اليهود المرابين لا زالوا يمتلكون رؤوس الأموال ويحرِّكون السياسات الخفيَّة بنفوذهم المالي، والله أعلم.

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍۚ﴾ هذا أصلٌ في استيفاء الأموال المتعلقة بالذمّة، سواء كانت بدين أو نفقة واجبة أو مهر مؤخَّر أو استرجاعا لزيادة ربويَّة استحقها المدين بعد توبة الدائن، وهذا الأخير هو الأَوْلَى بالسياق، والله أعلم.

﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾ أي: المَدِين، فالمَدِين هو الذي عليه أن يُملي صيغة التوثيق فهذا أتقَى لله وأطيب لخاطر الدائن وأدعى لطمأنته وتعزيز الثقة معه.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾ تعليمُ الله هنا ليس متعلقًا بحصول التقوى كما يظنُّ

بعض الوُعَّاظ؛ إذ الجملة الثانية لم تأت جوابًا للطلب، ولو كانت لاقتَضَى تغيير العبارة وجزم الفعل المضارع (يُعلمْكم)، والصوابُ أنها جملةٌ خبريَّةٌ جديدةٌ؛ فالله قد أوصانا بسلسلة من الوصايا والأوامر افتتحها بكتابة الدين واختتمها بفعل التقوى.

ثم عقَّب على ذلك بأن هذا التعليم الذي سبق والذي يلحق كلُّه وحيٌ من الله؛ تذكيرًا بالعهد، ودعوةً للخضوع والاستسلام.

أما علاقة العلم بالتقوى فلا تَخفَى على أحد والاستدلال عليها بغير هذه الآية كثير مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، والله أعلم.

﴿فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾ اختار بعض المفسّرين أن هذه الآية ناسخة لآية الدين، والظاهر لا يساعدهم، فالنسخ لا يكون إلا عند تعذّر الجمع بين النّصين، والجمع هنا أظهر وأقرب، فإنّ كتابة الدين أو الرهان في حال تعذّر الكتابة من شأنه أن يورث الطمأنينة.

فكأنَّ القرآن يقول لنا: بعد حصول هذا التوثيق والاطمئنان لم يبق إلا الوفاء ﴿فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾ ولذا عقَّب بعد هذا النص مكرِّرًا ومؤكِّدًا: ﴿وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ﴾ وليست الشهادة إلا على التوثيق، فكيف تكون الآية ناسخة لما قبلها وناسخة لخاتمتها؟ ثمّ أين المعنى الذي يستحيل أو يصعب جمعه مع آية الكتابة؟

﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾

موجِّهات ختاميَّة

في خاتمة السورة الأطول في القرآن الكريم لخّص القرآن ما ينبغي على المسلم استذكاره وحفظه وجعله نصب عينيه أينما توجَّه، وكل هذا متَّصِل بموضوع السورة ومستوحى من آياتها:

أولًا: أنَّ الله هو مالِكُ المُلك: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾ وهذا تذكير بأن استخلاف الأمَّة البديلة هو كاستخلاف من قبلهم، استخلاف لا ينقل الملك عن مالكه؛ فالملك لله وحده وإنما الناس مُستخلَفون فيه ابتلاءً وامتحانًا، وقد غلَّبَ القرآن المبهَمَ في خلقه: ﴿مَا﴾ ولم يقُل: (مَنْ)؛ تأكيدًا للتعميم، ودخول كلِّ مخلوق مهما كان في مُلكِه تعالى.

ثانيًا: تحرير القصد، وإحضار النيَّة الصالحة، وتنظيف القلب من الآثام الباطنة، فهذا كلُّه أساس السلوك والعمل الظاهر ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾.

ومن قال بنسخ هذه الآية إنَّما قاله ظنًّا منه أنَّ ما نُخفِيه في أنفسنا إنما هي الوساوس، وأنَّ هذا لا يتنزَّه عنه أحد، ومن ثَمَّ فالله قد نسخه بآيات أخرْ.

والحقيقة أنَّ الإثم الباطن لا يقتصر على الوسواس، فالنفاق والرياء والحقد والحسد وسوء الظن والحبُّ والكره كلها أعمال باطنة، وقد يستطيع الناس كتمانها وإظهار ما يخالفها، وهؤلاء لا شك أنَّهم محاسبون عليها أظهَرُوها أو كتَمُوها، والله أعلم.

ثالثًا: التذكير بأركان الإيمان ومعانيه الكلِّيَّة: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾.

رابعًا: اقتران الإيمان بالعمل: ﴿وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ﴾

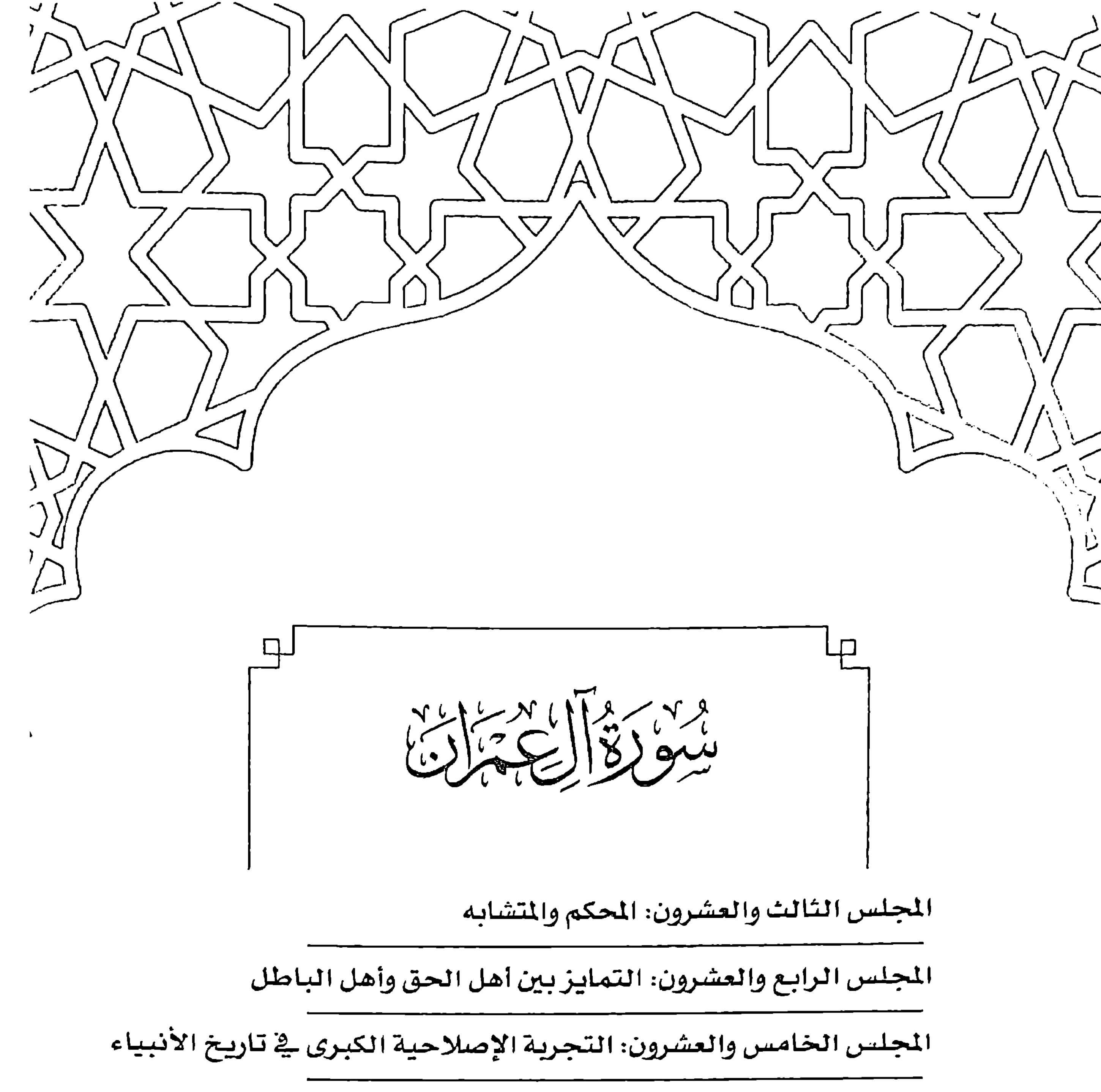
خامسًا: استشعار التقصير، وطلب العفو والمغفرة والرحمة: ﴿غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا﴾، ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ﴾، ﴿وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ﴾.

وأمّا قوله تعالى: ﴿فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ﴾ فالصحيح حمله على ما ينسجم مع عدل الله وحكمته، فالله يغفر لمن يطلب المغفرة إيمانًا وعبوديَّةً ورِقًّا، ويعذِّب من يتكبَّر على الاعتراف، ويصرُّ على المعصية عنادًا واستخفافًا، والله أعلم.

سادسًا: التكليف بقدر الاستطاعة: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾، ﴿وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ﴾ وهذا دعاء يُعلِّمُه الله للمؤمنين، فهو دعاء مطلوب ومشروع، وقد قدَّم الله الاستجابة عليه، وفي هذا من دقائق اللطف ما لا يُدرِكه إلا المُتدبِّرون.

سابعًا: تحمُّل المسؤولية، فكل مكلَّفٍ مسؤولٌ عن سلوكه وتصرُّفاته ﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ﴾.

ثامنًا: التمكين وتحقيق معاني الاستخلاف بدحْر الباطل، وظهور الحقِّ: ﴿أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.



سورة آل عمران

المجلس الثالث والعشرون: المحكم والمتشابه

المجلس الرابع والعشرون: التمايز بين أهل الحق وأهل الباطل

المجلس الخامس والعشرون: التجربة الإصلاحية الكبرى في تاريخ الأنبياء

المجلس السادس والعشرون: حوارات مع أهل الكتاب

المجلس السابع والعشرون: حقيقة العلاقة بين الرسالات السماوية

المجلس الثامن والعشرون: مقوِّمات بناء الأمة الإسلامية

المجلس التاسع والعشرون: في الطريق إلى أُحُد

المجلس الثلاثون: بيان المعركة

المجلس الحادي والثلاثون: دروس المعركة

المجلس الثاني والثلاثون: الرد السريع

المجلس الثالث والثلاثون: العلاقة بأهل الكتاب

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَىٰةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾ هُوَ الَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ابْتِغَآءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّٰسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُولُوا الْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٩﴾﴾

المحكم والمتشابه

القرآن الكريم كلُّه مُحكَم؛ لقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: ١]، وهو أيضًا كلُّه مُتشابِه؛ لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر: ٢٣].

والإحكام والتشابه وصفان متعاضدان؛ إذ المحكم هو المتقَن، والمتشابه هو الذي ليس فيه اختلاف، فآيات القرآن كلُّها محكمة؛ ولذلك فهي متشابهة وليست متناقضة أو مختلفة.

في هذه السورة جاء وصف القرآن بالإحكام والتشابه بطريقةٍ مختلفة؛ حيث وُصِفت بعض الآيات بالإحكام وبعضها الآخر بالتشابه ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾.

وهذا استعمالٌ مغايرٌ لما ورد في الآيتين السابقتين بإضافة معنًى دقيقٍ للمُحكَم وآخر للمتشابِه، فالمحكم في هذه الآية هو المتقَن مع إضافة كونه أصولًا للآيات الأخرى.

وأما المتشابه فهو المتماثل الذي ليس فيه اختلاف وتناقض مع إضافة كونه فروعًا للآيات الأولى (المحكمات).

إن الكلمة المفتاحيَّة لإدراك معنى هذه الآية هي: (أمُّ الكتاب) فأُمُّ الشيء أصله؛ وعلى هذا فالقرآن فيه أصول، وفيه فروع، وكلُّ فرعٍ متصل بأصل، وهذه المنظومة المتكاملة التي تضمُّ كلَّ آيات القرآن الكريم هي في غاية الإحكام والإتقان، وفي غاية التشابه والتماثل، فليس في القرآن آية واحدة تستَعصِي على الفهم، كيف؟ والله يقول: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ ﴾(١)، ويقول: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١٧٤]، ويقول: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [النساء: ٨٢].

فالقرآن كلُّه ميسَّر للذكر، وكلُّه نور مبين، وكلُّه واجب التدبُّر من غير استثناء، كلُّ هذا لمن أراد الوصول إلى الحقِّ، وكان صادقًا مع نفسه في سلوك المنهج السليم لمعرفة مراد الله في بيانه للمحكمات والمتشابهات، فيبدأ بفهم أصول القرآن ومبادئه وأحكامه الكلِّية، ثمّ يأتي بعد ذلك إلى الفروع فيربطها بأصولها ويفهمها بما يتّسق مع تلك المبادئ والقواعد.

أما المكابر المعاند فإنّه سيقطّع الآيات ويَفْصل الفروع منها عن أصولها ليتاح له حرف اللفظ عن سياقه إلى معنى قد تحتمله اللغة في أصلها لكنّ السياق لا يحتمله، وهذا إنما يكون في كلِّ لفظٍ يحتمل أكثر من معنى، وهؤلاء هم المقصودون بقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ﴾ فهم يهتمُّون بالفروع دون الأصول، وهذا الفصل ليس عن جهل وغفلة بل بقصد الفتنة وحرف المعنى عن سياقه.

إنَّه لو كان في القرآن آيات تستَعصِي على الفهم أو لا يجوز تتبُّعها وتفسيرها - كما يظنُّ بعضهم - لكان من اللازم بيان الشارع لهذه الآيات، حتى لا يقع الناس في الإثم، ولكان الاستثناء مطلوبًا من عموم التدبُّر، ومن عموم وصف القرآن أنه هدى وبيان، وفرقان ونور مبين.

ومن الغريب قولُ من يقول: إن المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله هو أحد وجوه الإعجاز، كأنَّه يُسمِّي عجز الناس عن فهم القول إعجازًا، ولو كان كذلك لكان قول العاجز عن

(١) تكرَّرت هذه الآية الكريمة في سورة القمر أربع مرات: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠.

البيان معجزًا، وهو أمر متيسِّر للجميع، فباستطاعة كلِّ واحدٍ أن يُركِّب من الحروف والكلمات ما يتعذَّر فهمُه.

أما قولُ بعض السلف في التحذير من المتشابه، فإنما المقصود غير التدبُّر الذي هو واجب المكلَّف، كأن يتكلَّف في البحث عن الكيفيَّات والهيئات التي لا يمكن إدراكها باللفظ المجرَّد؛ إذ اللفظ يستدعي الصورة الموجودة أصلًا في الذهن بحسٍّ أو مشاهدة.

فحين تسمع مثلًا كلمة (رجل)، أو (امرأة)، أو (شمس)، أو (قمر)، فإنَّك تستدعي المعنى المخزون في ذاكرتك، أما حينما تسمع لفظًا ليس له صورة مسبقة في الذهن، فإنه يستحيل عليك تصوُّر المعنى بالحقيقة التي أرادها المتكلم، ليس لنقص في فصاحته، بل لنقص في سابق معرفتك.

ومثل هذا في القرآن قوله تعالى: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ﴾ [الصافات: ٦٥]، فشبّه المجهول بالنسبة لنا وهو الطلع بمجهولٍ آخر وهو رؤوس الشياطين، ولا ريب أن الوصول إلى كُنْه الطلع أو الرؤوس متعذِّر.

بَيْدَ أنَّ مقصود النصِّ ليس في تمييز هذا الطلع عن غيره ولا تحصيل صورة الشياطين كما هي، بل المقصود التنفير من جهنّم وما فيها من أهوال، وهذا المقصود حاصل، والعبارة الحاملة له عبارة فصيحة بليغة بيِّنة.

ولا شك أن السلف كانوا يدركون هذا المقصود، وإنما توقفوا عن بحث الصورة والكيفيَّة، وهذا هو الحقُّ الذي لا غُبار عليه، ومن هنا نفهم أيضًا أنَّ من اختارَ الوقف على ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ كان مغزاه أنَّ هذه الغيبيَّات لا يُدرِكُها على حقيقتها ومآلها إلا الله وحده.

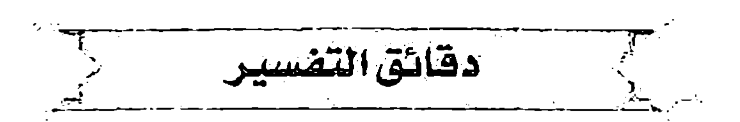
وأما الراسِخُون فلهم مقام آخر في المعرفة يُدنِيهم من الإيمان والهدى ومعرفة المقصود العملي من الخبر، وإن قصروا بطبعهم البشري عن إدراك الكُنْه والهيئة والكيفيَّة على ما هي عليه في عالم الغيب، وهذا نهجُ الراسخين بحكم رسوخهم في العلم ومعرفتهم بمحدوديَّة الأدوات المعرفيَّة عندهم، أما الزائِغُون فهم الذين يبحثون في كلِّ ما يؤدِّي إلى الضلال

والجدل الباطل المفضي إلى تعطيل المحكمات.

وربما يتَّضِح المقال بالمثال، فهذا قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف: ٤٤]، فإن وصلتها بقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ [سبأ: ٢٨]، دخل القوم في مسمَّى الناس بالضرورة، فقوم النبي ﷺ - وهم العرب - جزءٌ من الناس، والرسالة تشملهم مع الناس ولا تخصُّهم، وإن قطعتها كانت الرسالة للنبيِّ وقومه خاصة، وهذا من الفتنة والزيغ بلا ريب.

ومثل هذا قوله تعالى: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ [الكافرون: ٦] فإن وصلتها بقوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥]، كان المعنى: إعلان التمايز في العقيدة والهويَّة مع وجوب الدعوة والإصلاح، وإن قطعتها كان المعنى: الانعزال عن الناس وتكريس السلبيَّة عند المسلمين.

إنَّ التوحيد والنبوَّة والعدل وحسن الخلق والعمل الصالح والدعوة إلى الله والرحمة بالخلق ونحو هذا هي أصول الإسلام، وهي أمَّهات القرآن ومحكماته، وكلُّ حكمٍ فرعي لابد أن يأتي متَّسِقًا مع هذه الأصول، فإن خالَفَها فاعلم أن هناك مشكلة في الفهم والاستنباط وليس في أصل الحكم، وهذا هو معنى قول العلماء: إنما يُعرفُ المتشابه بردِّه إلى المُحكَم، والله أعلم.



دقائق التفسير

﴿ الٓمٓ ﴾ تقدَّم تفسيرُه في سورة البقرة.

﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ تأكيد وحدة الرسالات السماوية، وأنها جميعًا من الله وحده، وأن الإيمان بها كلها واجب ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ [البقرة: ٤].

﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ﴾ تمهيدٌ احترازيٌّ لما قد يرد من فهمٍ خاطئ عند الحديث عن المتشابهات.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ﴾ تمهيدٌ آخر فيه تحذير ووعيد خفيٌّ للذين في قلوبهم زَيغ، الذين يُخفُون مآربهم الأخرى ويتظاهرون بالتدقيق العلمي والعمق الفكري، لكنَّه تدقيق في كلِّ ما يحتَمِله اللفظ بعيدًا عن السياق، وعمق في البحث عن التأويلات الفاسدة المخالفة لأصول الإسلام ومبادئه القاطعات الواضحات.

﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ﴾ أما الفتنةُ فهي الكفر بآيات الله وما يقرِّبُ إليه من لبس الحقِّ بالباطل، وإثارة الفَوضَى الفكرية بالعدول عن المنهج العلميِّ الصحيح، وأما التأويل فالمقصود به هنا صرف اللفظ القرآني عن سياقه العام وفهمه فهمًا ينحَرِف به عن مُحكَمات القرآن وأصوله الثابتات.

﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ﴾ التأويل هنا ممدوحٌ، بخلاف الأول؛ إذ معناه هنا: العلم بالمعنى الحق الذي أراده الله في آياته، فلا شك أنَّ الله أعلم بها يريد، وهذا العلم المتعلِّق بالآيات لم يستأثر الله به، بل بيَّنه غايةَ البيان فجعل القرآن كلَّه نورًا وهدًى للناس. وهذه المشاكلة واردة في القرآن وفي السنَّة كقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وقوله ﷺ في الحديث القدسي فيما يرويه عن ربِّه: «**لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ؛ فَإِنِّي أَنَا الدَّهْرُ**»[١]، فالاعتداء الثاني غير الاعتداء الأول.

ومعنى الدهر الذي وصَفَ الله به نفسه غير معناه عند أولئك الذين يسبُّون الدهر؛ وعلى هذا يكون معنى الآية: إن هؤلاء الزائغين يدَّعُون تأويل القرآن، وهم إنما يَبغُون الفتنة

(١) رواه بهذا اللفظ: مسلم في «صحيحه» (٤/ ١٧٦٢/ دار الجيل) عن أبي هريرة ﷺ، وروي بألفاظ أخرى.

والزيغ والانحراف، أما التأويل الحق فهو الذي يعلمه الله في كتابه، وقد بيَّنَه للناس غاية البيان، وهو بخلاف ما أراده أولئك الزائِغُون.

﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ الرسوخ هو التمكُّن والثبات وعمق البصيرة، وهذا هو طريق الفهم ومعرفة الحقِّ، وقد جاء الاشتراك في مسمَّى العلم بين علم الله ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾ وعلم الراسخين؛ إيذانًا بأنَّ علم الله الذي أودعه في كتابه هو متيسِّر لمن طلبه من أهل العلم، وإشارة إلى أن الزائغين لم يسلكوا طريق العلم ولم يرسخوا فيه؛ ولذلك ضلُّوا وأضلُّوا.

﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ إشارة أن العلم الراسخ يقود للإيمان بخلاف الجهل، وأنَّ العلماء أَولَى بالإيمان من غيرهم وبقيَّة الناس لهم تَبَع، كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: ٢٨]، فالعالم أَولَى بالخشية وإن كانت الخشية مطلوبة من العالم وغيره.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا﴾ الهداية هي العلم النافع، وهي عكس الزَّيغ، وهنا تعريض لا يخفى بأولئك الزائغين الذين يتَّبِعون ما تشابه من القرآن بعيدًا عن محكماته ابتغاء الفتنة وابتغاء التأويل الباطل.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ﴾ وعيدٌ آخر للزائِغِين ختم به كما مهَّد به، والله أعلم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿١٣﴾ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَـٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَـٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَـٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾

التمايز بين أهل الحق وأهل الباطل

إن القضيَّة المحوريَّة التي يتناولها هذا المقطع إنما هي الصراع المستمر بين أهل الحقِّ وأهل الباطل، وقد عرض القرآن الكريم في هذا المقطع معالم واضحة لهذا الصراع وطبيعته ومآلاته مما لا غنى عنه لكلِّ جيلٍ من أجيال المؤمنين، وفي كلِّ حلقةٍ من حلقات هذا الصراع.

أولًا: فيصل التفرقة بين الفريقَين إنَّما هو الإسلام ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾.

ثانيًا: يتميَّز المؤمنون بكل عمل صالح ونافع للبشريَّة ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾.

ثالثًا: يُقابل أولئك المؤمنين الكافرون ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

رابعًا: ينتمي المؤمنون إلى عمقٍ تاريخي يضم خيرة البشر في كلِّ جيل ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وهذا الانتماء إنما هو انتماء للحق أينما كان زمانًا ومكانًا وحالًا، بغض النظر عن الانتماءات الثانويَّة والجانبيَّة، كالانتماء للنسب والأرض واللون والطبقة الاجتماعية.

خامسًا: والكافرون أيضًا لهم سندهم التاريخي، ولهم أسلافهم في الكفر والظلم والضلال ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ﴾.

سادسًا: وبين الفريقَين تمايُز في الفكر وصراع حتمي على الأرض ﴿فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾، ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾.

سابعًا: وأن الدافع للتمسك بالباطل والتقاعس عن نصرة الحقِّ إنما هو شهوة الدنيا ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾، أما دافع المؤمنين وحادِيهم إلى البذل والتضحية فإنما هو الرضوان من الله والجنة ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾.

دقائق التفسير

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ﴾ ليس هذا قانونًا لازمًا لكلِّ كافرٍ، وإنما هو خبرٌ مخصوصٌ بزمانه ومكانه وأشخاصه بعد توفُّر مستلزمات النصر والتمكين للأمة المسلمة، أما بفقدها فإنَّ سُنن الله في انتصار القوي الآخذ بالأسباب وإن كان كافرًا لن تتخلف، ومثاله: ضياع الأندلس وخروج المسلمين منها، وكذا ضياع فلسطين والكثير من بلاد المسلمين مع أن الطرف المتغلِّب لا شك في كفره.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ﴾ أسند الفعل لمجهول؛ لتتَّسِع العبارة لأكثر من فاعل، ولأكثر من غرض، فالله ركَّب في الناس هذه الشهوة وجعلها أصلًا في جوهر الإنسان وخِلقَته؛ امتحانًا لهم، ودفعًا لإعمار الأرض والمنافسة فيها، والشيطان يُزيِّن هذه الشهوات بطريقة أخرى ليدفعهم نحو الفساد وارتكاب المحرَّمات، وأهل الباطل يقدِّمون هذه الشهوات إغراءً للناس، وطلبًا لودِّهم وتأييدهم.

ولأن هذه الشهوات ليست شرًّا محضًا، بل هي بحسب التزيين والمُزيِّنَة له، جاء تعقيب القرآن: ﴿۞ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ﴾ فالخير موجودٌ في هذه الشهوات، وهو مُمتزِجٌ بالشر، أما خيرُ الآخرة فهو خيرٌ خالصٌ ليس فيه مِن دَخَن الباطل شيء.

﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ إشارة إلى أن العدل لا يكون بغير العلم، فمن وَلِيَ من أمور

الناس شيئًا وهو جاهل فقد وقع في الظلم لا محالة.

﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ﴾ وهذا نوعٌ آخرٌ من الظلم لا يكون بسبب الجهل، وإنما بسبب البغي، وهو الشهوة الداخلية للتجاوز على حقوق الآخرين مع سابق علمه وتقصُّده.

﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ إشارة إلى أن الداعية لا يُكلَّف بتغيير قلوب الناس، ولا يُحاسب على النتائج، فمهمته البلاغ لا غير، وهنا زلَّت الأقدام في تصوُّرَين خاطئين:

مَن جعل هذا ذريعةً للغلظة في البلاغ، وهذا مُنافٍ لقوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥].

وهناك من ظنَّ أن المسلم لا يُحاسب على نتائج تصرفاته في السياسات والإدارات قياسًا على مسألة التبليغ، وهذا مُنافٍ لكلِّ مبادئ العدل وقواعد الشرع، فالجاهل في الصنعة ضامن ومحاسب حتى في الطبخ والخياطة ودقائق الأعمال والوظائف، فكيف بمصير الأمم والجماعات وما يتعلق بها من دماء وأموال وجهود؟

وقد صحّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**»[1]، والمسؤولية لا تنحصر في حسن النيَّة، بل هي أوسعُ وأكبرُ من ذلك.

﴿تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ﴾ نسب كل ذلك لمشيئته المطلقة سبحانه من غير تحديدٍ للجهة التي تقع عليها هذه المشيئة؛ لكي لا يظنَّ ظانٌّ أنه بانتسابه لهذا الدين قد ضَمِنَ الملك والعزة، فسُنن الله غلَّابة، وهي لا تُحابِي ولا تُجاري أحدًا، وإطلاق المشيئة ليس معناه الفوضى - حاشَا لله -، وإنما هي السنن الإلهية

---

(١) متفق عليه من حديث ابن عمر ﷺ، ينظر: صحيح البخاري (٥ / ١٩٩٦/ دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧ - ١٩٨٧م)، وصحيح مسلم (٣ / ١٤٥٩/ دار الجيل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).

والنظام الكوني الذي أودَعَه الله في هذا الكون، والذي لا يتخلّف أبدًا إلا ما شاء الله تعالى.

﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ هذا استثناء من وجوب التمايُز عن أهل الباطل، أباحَ الله فيه مُوافقتهم ظاهرًا اتقاءَ لشرِّهم، ولهذا الاستثناء ضوابط معروفة في مظانِّها، فليس كلُّ إكراهٍ يسوِّغ الحرام، فالإكراه على القتل، أو انتِهاك العرض، أو معاونة العدو بكشف عورات المسلمين ونقل أخبارهم، كلُّ هذا ونحوُه لا يدخل في الاستثناء؛ إذ الاستثناء جاء لدفع الضرر، والضرر المتوقع هنا أشد، فيعود الحكمُ إلى الأصل، والله أعلم.

﴿قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ هذه تتمَّة للاستثناء، فالاستثناء الوارد لا يُعفي المسلم من مراقبة نفسه وتنقية نيَّته، ومقتضى التتمَّة هذه أن موافقة الباطل ينبغي أن لا تكون برغبةٍ ورضا نفسٍ، ولا تكون ذريعةً للتقرب من أهل الباطل طمعًا بما عندهم من مالٍ وجاهٍ، بل هي ضرورة، والضرورة إنما تُقدَّر بقدرها.

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ دلالةٌ أن العلاقة بين العبد وربه ليست علاقة الطاعة المجرَّدة، والعبوديَّة النابعة من خضوع الضعيف للقوي، كما يخضع العبيد لأسيادهم، والجنود لقادتهم، بل هي علاقةٌ قائمةٌ على المحبَّة، وما العبادة إلا وسيلة للربط بين المحبَّين: محبة العبد لربه، ومحبة الرب لعبده، فالعبد يحبُّ الله فيهرع للصلاة؛ لأنَّها صِلتُه بمحبوبه، والله يُقبِلُ على عبده في الصلاة فيسمع له، ويستجيب دُعاءَه، وهذه العبادة لا تصح إلا باتِّباع رسول الله ﷺ؛ إذ هو المبلِّغُ عن الله، فطاعتُه إنما هي طاعة لله، وهكذا يكون اتباع النبي ﷺ واسِطة العقد بين المحبَّين.

﴿ إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ (٣٧) هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ (٣٨) فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٣٩) قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ (٤٠) قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ (٤١) وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٤٢) يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ (٤٣) ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ (٤٤) إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٤٦) قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (٤٧) وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ (٤٨) وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ (٤٩) وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠) إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ (٥١) ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ (٥٢) رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ (٥٣) وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ (٥٤) إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ (٥٥) فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ (٥٦) وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ (٥٧) ذَٰلِكَ نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ (٥٨) ﴾

دعوة الأنبياء ﷺ كلُّها إصلاحيَّة بالمعنى العام للإصلاح ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨]، بيد أن رسالة نبيِّ الله عيسى ﷺ كانت تهدف للإصلاح بمعناه الخاص، وهو: إعادة صياغة الرسالة الموسويّة بما يتناسب مع تطوّر الحياة ومستجداتها، ثم معالجة الأخطاء المتراكمة في سلوك بني إسرائيل وهم المؤتمنون على حمل الرسالة وتحقيق معنى الاستخلاف على هذه الأرض، وقد ضم هذا المقطع قواعد الإصلاح ومعالمه الكلية، وهي:

أولًا: التربية الأسريَّة؛ حيث استهل القرآن قصَّة الإصلاح هذه بقوله: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ﴾ فالإصلاح إنما يبدأ من رحم الأمهات، فأم مريم لم تنتظر وليدها لكي تبحث في مصيره وما يصلح له، بل عقَدَت العزم والنيَّة الصادقة على اختيار الطريق الأقوم لوليدها قبل أن يُولد، وهذا العزم المبكِّر لا شك أنه اقترن بمستوى عالٍ من الورع؛ بحيث لا يمكن معه أن تُدخِل في جوفها شيئًا من الحرام؛ ولذلك كافأها الله تعالى بقوله: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾.

وفي الإنبات الحسن من معاني الرعاية والحماية ما لا يخفى، وكان من ذلك أن سخَّر لها نبيًّا من الأنبياء ليقوم بكفالتها والعناية بها، ولم يغفل القرآن هنا الجانب الجسدي في التربية ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ وفي هذا إشارة إلى اهتمام القرآن بتوفير الغذاء المناسب للجسد خاصةً في مرحلة النمو.

وهكذا تكون التربية القرآنية تربية شاملة ومتوازنة لا يطغى فيها جانب على جانب، وقد كان هذا النموذج الصالح المكلل بالرعاية الإلهية مشجعًا لتكرار التجربة، وهكذا ينتقل الخير وينتشر ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾.

فكان الجواب: ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾.

ثانيًا: التراحم والتكافل الاجتماعي والذي وصل إلى حد المنافسة الحادّة والمخاصمة! ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾.

ثالثًا: في تلك البيئة الصالحة ولد النبيّ الصالح المصلح ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ وهذه إشارة بأهمية البيئة في التنشئة والتربية، ودور الأسرة ثم المجتمع في تكوين المخرجات الصالحة، مع التنبيه على أن النبوّة اصطفاء ربّاني خالص، ولكن هذا الاصطفاء يأتي متناغمًا دائمًا مع الإنبات الحسن، والإعداد السليم، فكلُّ نبيٍّ إنما كان من أوسط قومه وخيارهم.

رابعًا: العلم شرط الإصلاح ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ وعبثًا تحاول الجماعات الإصلاحيّة أن تستند في اختيار قياداتها إلى آليّة التصويت والانتخاب دون اشتراط المؤهلات المعرفيّة والعلميّة في المرشَّح، فالقيادة علم، والشورى علم، وتحجيم دور العلم لصالح حرية الاختيار المجردة أضرّ كثيرًا بالتجارب الإصلاحيّة المعاصرة.

خامسًا: التوازن الديني الدنيوي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ والوجاهة إنما تكون بالعمل الناجح والمثمر والمراعاة الدقيقة لشروط الحياة السليمة والعلاقات المتوازنة مع مفرداتها الواسعة والمتنوعة في الذات والأسرة والمجتمع، في السياسة والاقتصاد والقوة والمنعة .. الخ.

سادسًا: الرحمة بالخلق والتيسير على الناس ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾. ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ ﴾.

سابعًا: البناء التراكمي والاعتراف بحلقات الدعوة والإصلاح السابقة ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾ فدعوة الأنبياء واحدة، ومصدرهم واحد، وهكذا كلّ داعية

للحقِّ إلى يوم الدين فهو متصل بتلك الحلقات المضيئة من بعثة آدم إلى آخر من يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله على هذه الأرض.

ثامنًا: التمايز عن أهل الباطل وإعلان الهوية الواضحة ﴿ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾.

تاسعًا: التمكين لأهل الحقِّ بعد استيفائهم شروط التمكين ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ﴾.

دقائق التفسير

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا ﴾ إشارة إلى يتم مريم؛ حيث كانت أمها تتولاها وتقرر مصيرها لوحدها دون استئذان الأب أو استشارته، وفيه صدق العزم وحسن التوكل والتعبُّد من قِبَلِ الأم؛ لأنها مع ترمُّلها تكون أحوجَ لوليدها، لكنها نذَرَته لله ﴿مُحَرَّرًا﴾ أي: خالصًا ليس لها فيه نصيب.

﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ﴾ يحتمل أنه من كلام امرأة عمران، كأنها تتحسَّر أن لم يكن المولود ذكرًا؛ ليكون أقدر على خدمة الدين، ويحتمل أن يكون من كلام الله المكمل لقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ جوابًا لقولها: ﴿رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ فيكون المعنى: أن الله أعلم بما وضعت، وأنه تعالى يعلمُ أن الذكر الذي تتمنَّاه ليس بأفضل من هذه الأنثى التي اختارها الله.

ويحتمل أن يكون ذلك تقريرًا لواقع التفاوت بين جنس الذكور وجنس الإناث عامة، فتكون اللام فيهما للجنس وليس للعهد، والتفاوت بين الجنسَين حقيقة لا ينكرها إلا مُكابِر،

وهو تفاوت وظيفي؛ فللذكر دوره في هذه الحياة، وللأنثى دورها، والتفاوت سمة في هذا الخلق وأحد مقوِّمات وجوده واستمرار الحياة فيه، والله أعلم.

﴿أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا﴾ تأكيدٌ لحرص الأم الصالحة ليس على أولادها فقط؛ بل وذرياتهم بإطلاق ومن دون تحديد؛ ليشمل كلَّ جيلٍ آتٍ إلى يوم الدين، وهذه رغبة تعبِّر عن قلب موصول بالله واليوم الآخر، ومملوء بمحبة الخير لكلِّ الناس.

﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ وهذا من تداخُل القدر الإلهي بالفعل البشري؛ حيث ذكر القرآن فيما بعد أنهم تخاصموا واقترعوا في كفالتها حتى خرج سهم زكريا، فتتحصَّل هنا صورتان: صورة الخلق وهم يتنافسون ويقترعون، وصورة القدر المحتوم باختيار زكريا، والصورتان ممزوجتان لا تنفكُّ إحداهما عن الأخرى، وهذا كثيرٌ في القرآن، ومثله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]، والله أعلم.

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ إشارة لصلاحها وكثرة تعبُّدها، فوجودها المتكرر في المحراب لا يَحمِل إلا هذا، وأما الرزق فهو من الله سواء كان بواسطة أو بغير واسطة.

وسؤال زكريا لها فيه استغراب، وهو ما يشير إلى ما نقله بعض أهل التفسير من وجود الطعام عندها في غير أوانه المعهود، ولا يمنع أيضًا أن يكون بعض هذا الطعام من النفر الذين كانوا حريصين على كفالتها، ويكون سؤال زكريا عن المصدر احتفاظًا بفضله، واطمئنانًا على مكفولته، وكل ذلك يَصدُقُ فيه قولها: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، والله أعلم.

﴿وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ﴾ شهادة للكفيل، كما شهد للمكفولة بحسن التبتل وطول التعبد، وفيه إشارةٌ أن ذلك التبتُّل والتعبُّد مظنَّة استجابة الدعاء، كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي﴾ [البقرة: ١٨٦].

﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ أما الكلمة فهي إشارة لمجيء عيسى ﷺ، وهما من عائلة واحدة؛ فيحيى ابن الكفيل، وعيسى ابن المكفولة، والسيِّد: الشريف في قومه المتقدِّم عليهم بكلِّ خصالِ الخيرِ والريادةِ.

وأما الحَصُور فالسياق للمدح، وما ذكره بعض المفسِّرين من منعه خِلقةً عن مقاربة النساء ليس فيه مدح، والأظهر أنه محفوظ من الوقوع بما يخالف مقام النبوة والسيادة، فليس في اللفظة دلالة على غير الحفظ والصيانة، والله أعلم.

﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا ﴾ لقد طلب زكريا آية من ربه على قرب تحقق ما وعده الله به من رزقه بيحيى بعد أن شاخَ وكبِرَ، فكانت العلامة بانقطاعه عن كلام الناس وتفرغه لذكر الله ثلاثة أيَّام تامة ومتوالية، والانقطاع لا يكون علامة إلا بسلب قدرته على الكلام، وهي خارقة أيضًا.

وفيها إشارة أن التوجُّه إلى الله وحده والتوكل عليه والثقة به مظنة استجابة الدعاء، ولا بأس بالتفرغ لذلك لبعض الوقت، كما هي سنَّة النبيين في الاعتكاف، والله أعلم.

﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ ﴾ الظاهر أن الملائكة كلَّموها شِفاهًا، وهذا هو الأصل، وتأويله بالإلهام أو المنام تحرُّزًا عن القول بنبوَّة النساء لا يخلو من التكلُّف، ولا أعلم نصًّا صريحًا في المنع يقتضي هذا التأويل خاصَّة عند من يفرِّق بين معنى النبي ومعنى الرسول، فيرى التبليغ لازمًا للرسالة دون النبوة، فهذا التفريق متنفَّسٌ قويٌّ لمن يقول بنبوة المرأة؛ إذ لم يَرِد اختصاص الرجال إلا بالرسالة ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا ﴾ [يوسف: ١٠٩]، والله أعلم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ الكلمة هي الأمر الإلهي بخلق عيسى من دون مباشرة الأسباب المعهودة، فعيسى هو كلمة الله، أيْ: أنه كان بكلمة الله وليس هو الكلمة، وقدَّم الكلمةَ على الاسم؛ لما فيها من تنزيهِ مريم وتقديم براءتها على

بشارتها، وهذا هو الأَولَى بكلِّ امرأةٍ صالحةٍ، فكيف بمريم؟ والبشارة لها تقتضي أنه ابنها، ثم نسبه إليها صراحة تشريفًا وتكريمًا لها.

﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ التكليم في المهد على غير المعهود معجزة له وكرامة لأُمِّه؛ لأنه الدليل على براءتها، وتكليمه كهلًا هو التبليغ برسالة الله، وخصَّهما بالذكر لأهميتهما وعِظَم قدرهما، وإلا فهو قادرٌ على الكلام في كل أيَّامه ومراحل عمره كسائر الناس.

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ عطف التوراة والإنجيل على الكتاب والحكمة يحتمل أنه من إضافة الخاص على العام، فالله قد أعطى عيسى ﷺ العلمَ بما هو مكتوب من علوم الأولين، ثم أعطاه القدرة على الاختيار، وتمييز الصحيح من السقيم، ثم علَّمَه التوراةَ، وأوحى إليه بالإنجيل.

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ دلالة على خصوصية الرسالة المسيحية في بني إسرائيل، وما طرأ من تعميم الرسالة إنما أحدَثَه بعض المنتسبين إليه، وفي رسائل بولص تصريح بهذا، وهو من جملة التحريفات التي تعرَّضَت لها الرسالة.

﴿أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ الخالق هو الله، ونسبة الفعل إلى عيسى ﷺ من باب نسبة الحدث إلى سببه، كما تقول: هذا الدواء يشفي، وهذا القارب ينجي، واختصاصه بهذا السبب على خلاف العادة هو المعجزات الخاصّة بالنبيين وقد تقدَّم مثله في سورة البقرة عن إبراهيم ﷺ: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، وقوله: ﴿بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، و﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فيه تأكيد لجانب التوحيد وتبرئة السيد المسيح من صفات الألوهية التي يلصقها به النصارى ظلمًا وكفرًا.

﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ دليل أن دين الله واحد، فحواريُّو عيسى وأصحاب محمد وكل متّبع لنبي هم أمة واحدة، وينتسبون إلى دين واحد مهما اختلفت أجناسهم وأزمانهم.

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ الأصل في التوفِّي عند إطلاقه الموت، وهو الشائع عند العرب والمعروف في لغتهم بحيث لا تنصرف الأفهام إلا إليه بادي الأمر، وإنما تأوَّلَه هنا من تأوَّلَه بالنوم والوفاء وغيرهما من التأويلات؛ لورود الأخبار الصحيحة بنزوله ﷺ في آخر الزمان، فصار الناس إلى واحدٍ من التأويلَين؛ إما تأويل الوفاة، وإما تأويل النزول، والأَولَى الجمع بينهما من غير تأويل، فالله ذكر أنه يتوفَّاه ويرفعه ويطهره، فهذه أفعال عُطِفَت بالواو، والواو يقتضي العطف ولا يقتضي الترتيب.

وربما قدَّم التوفِّي دفعًا لتوهُّم الاستثناء بالخلود، وتقريرًا للحقيقة التي يخضع لها الخلق كافة، فبدأ بها ثم عرَّج على ما خصَّه الله به من رفعِهِ إلى السماء وهو حيٌّ، وبقائِهِ فيها إلى يوم أن يبعَثَه الله إلى الأرض، كما أخبر رسولنا الصادقُ المصدوقُ عليه وعلى سائر النبيين الصلاة والتسليم[1].

﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ ذكَرَهم بوصف الاتباع وليس بالجنس واللون والانتساب المجرَّد، فالأنبياء ليسوا أبطالًا قوميين أو وطنيين، بل هم حَمَلَة رسالة، من اتَّبَعها كان معهم، ومن حادَ عنها كان في الخندق الآخر، والمسلمون إن صدقوا الاتباع كانوا أَولَى بهذا الوعد؛ لأنهم الأقرب إليه ممن يُؤلِّهه اليوم ويعبده من دون الله.

---

(١) حديث نُزول عيسى ابن مريم ﷺ في آخر الزمان متفق عليه؛ ينظر: صحيح البخاري (٥/ ٤٧١/ دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧- ١٩٨٧م)، وصحيح مسلم (١/ ١٣٥/ دار الجيل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾

المسألة الأولى: القول في عيسى ﷺ:

اختلف أهل الكتاب في عيسى عليه السلام على قولين ضدّين؛ فقالت اليهود بتكذيبه والطعن في نبوته ونسبه، وقالت النصارى بألوهيَّته وأنه ثالث ثلاثة وأنه ابن الله، ومنشأ الخلاف بينهما إنما هو في قصَّة خلقه ﷺ؛ لأنه وُلد من غير أبٍ، كما هو متفق عليه بين الديانات الثلاث، فكان هذا مدخلًا للطعن فيه وفي أمه عند اليهود، وهو بذاته مدخلٌ لرفعه إلى مقام الألوهيَّة، وادِّعاء أنه ابن لله عند النصارى؛ حيث إن الوليد لا بُدَّ له من والِدَين (أب وأم)، هكذا جرَت سنَّة الله في خلقه، وغيابُ الأب في قصَّة عيسى ﷺ بحاجةٍ إلى تفسير، ولم يهتَدِ أهل الكتاب إلا إلى هذَين التفسيرَين الضِّدَّين.

جاء القرآن لينبِّه الطرفين إلى تفسير ثالث ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ فآدم خُلِقَ من دون أبٍ ولا أمٍ، وهذا محلُّ اتفاق الديانات الثلاث، وهو مثال يصحُّ القياس عليه من حيث التصوُّر العقلي وليس من حيث السنَّة المعتادة؛ إذ إن خَلق آدم كان استثناءً، وهذا الاستثناء وارد في النص ومتصوَّر في العقل، وهو التفسير الأقرب للعقل من كلِّ التفسيرات والنظريات الأخرى التي تُحاول الوصول إلى نقطة البداية في هذا الخلق.

إن وجود ولد من دون أب من شأنه أن يثير الريبة - بلا شك -، والإسلام لا يدعو إلى نقض هذه الحقيقة؛ لأنه يُقرُّ النواميسَ الكونيةَ، ويدعو إلى احترامها، وتفسير الأحداث على ضوئها، لكنه في الوقت ذاته يفتح بابًا ضيِّقًا للاستثناء وباحتياطات مشدَّدة، وهو بابُ المعجزات وخوارق العادات، فما ثبت منها بالدليل القاطع فهو حقٌّ، وما كان بخلافه فهو مرفوض ولا يُقام عليه حكم، وإلا وقع الخَلَلُ في حياة الناس ونظامهم، والتَبَسَ الحق بالباطل.

ومن هنا لو ادَّعَت امرأةٌ أنها حمَلَت من غير زوجٍ، واحتَجَّت بقصة آدم أو بقصة عيسى ﷺ، فادِّعاؤها مرفوض واحتجاجُها باطل، أما في قصة عيسى ﷺ فقد تضافَرَت الأدلة

القاطعة على صدق مريم فيما ادَّعَته، ويكفيها شهادةُ وليدها ونطقُه بالحق في أيامه الأولى، وهي معجزة وبرهان إلهي لا يتكرَّر لغيرها في مثل دعواها، إضافةً إلى الأجواء العامة التي أُحيطَت بها مريم ﵍ من ولادتها وكفالتها إلى حملها ولجوئها إلى الجذع، وكذا ولادة ابن كفيلها يحيى بن زكريا ﵉، وهذا كلُّه استثناءٌ قدريٌّ من أصل السُّنَّة المعتادة.

وهذه المُحاجَجَة موجَّهة في الظاهر إلى اليهود الذين غلَّبُوا هنا جانب السنَّة المعتادة، فاقتَضَى تنبيههم بقصة آدم أن الاستثناء وارد حتى في عقيدتهم، والاستثناء في خَلْق آدم أقوى؛ لأنه خُلِق من غير أبٍ ولا أمٍّ.

أما محاججة النصارى فهي تعتمد على تنبيههم أن وجود الوليد من دون والد لا تعني أنه ابن للإله، ولو كان كذلك لكان آدم أحقَّ بالألوهية أو بالبنوَّة لله من عيسى؛ لأن عيسى فاقد الأب فقط، وآدم فاقد الأب والأم.

المسألة الثانية: التوحيد:

وقد اقتَضَى التطرُّق لهذه المسألة في هذا المقطع استرسالًا في محاورة النصارى بعد قولهم في عيسى ﵇، ورفعهم له إلى مقام الألوهية، وهذا شركٌ أكبر، وهو شرٌّ مما وقعت فيه اليهود من الطعن والقذف.

وقد ربط القرآن بين المسألتين بقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ﴾، ثم وجَّه لهم الدعوة للتراجع عما وقعوا فيه: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ﴾، ثمَّ نزَّهَ القرآن عيسى ﵇ عن هذه المقولة الكافرة الظالمة: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

والقرآن هنا يتعرَّض لعقيدة النصارى بشيءٍ من التفصيل؛ حيث ندَّد باتخاذ الملائكة أربابًا، وليس النبيين فقط، وهو ما عليه (التثليث المسيحي) الأب والابن وروح القدس.

إن عجز النصارى عن تفسير معجزة ولادة السيد المسيح قد أوقعهم في المستحيلات العقليَّة والدينيَّة، وجاءوا بعقيدة مركَّبة تركيبًا عبثيًّا؛ ليحلُّوا بها سرَّ تلك الولادة، ثم ذهبوا ليُقيمُوا عليها أصل تصورهم للدين والحياة، وعالَمَيْ الغيب والشهادة، وقد كان الأمر أهون من ذلك بكثير.

المسألة الثالثة: تحريف الكتاب:

وهو اتهامٌ يوجهه القرآن صراحة لأهل الكتاب في هذا الموضع وفي غيره ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، ويقول: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

وتحريف الكتاب الذي بين أيدينا اليوم بعهدَيْه (القديم والجديد) وبملحقاته وشروحاته حقيقة واقعة لا ينكرها إلا مكابر، ليس لما تحويه من شركٍ ظاهر، ومخالفات لثوابت التوحيد والإيمان فحسب، بل لما تحويه أيضًا من تناقضات صارخة بين سِفرٍ وسِفرٍ، ونسخةٍ ونسخةٍ، وقد تابَعتُ الكثيرَ من هذا بنفسي، وليس هنا محلُّ التفصيل.

المسألة الرابعة: حقيقة الإبراهيمية:

الرسالات السماويَّة واحدة، وقد جاءت من مصدر واحد، ولغاية واحدة؛ ولذا نجد القصص النبوي يأخذ المساحة الأوسع من آيات القرآن الكريم، ويصرِّح باتِّباعهم والاقتِداء بهم جميعًا ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

والخلاف بين الديانات السماويَّة ليس مردَّه اختلاف الرسالات، بل التحريف الذي تعرَّضَت له الديانات السابقة (اليهوديَّة والنصرانيَّة) وكتبهم الموجودة بين أيدينا اليوم تؤكِّد هذا التحريف، إلا أن اليهود وكذا النصارى يُصرُّون على صحة انتسابهم للإبراهيميَّة وهي

ديانة إبراهيم ﷺ، بل وانتساب إبراهيم لهم! لمآرب كثيرة، منها: أن سيدنا إبراهيم هو القاسم المشترك الأقرب بين الديانات الثلاث، فإثباتهم ليهوديته أو لنصرانيته يعطيهم دليلًا مضافًا، ومصداقيةً أكثر لصحة ديانتهم، ثم يتَّخِذون هذا قاعدةً لإبطال كلِّ ديانةٍ تُخالفهم؛ لأنها ستخالف بالضرورة القاسم المشترك لهذه الديانات، من هنا يأتي اهتمام القرآن بهذه المسألة.

يبدأُ القرآن مجادلته معهم بقوله: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ وهذه المحاجة ليست على طريقة القرآن المعهودة؛ حيث إن الأصل في القرآن الكريم أنه يتكلَّم عن كلِّ الأنبياء بسياقٍ واحد، فهم كلُّهم يحمِلُون وحيَ الله إلى عباد الله من أولهم إلى آخرهم، فاليهودية حقٌّ، والنصرانية حقٌّ، كما كانت الإبراهيمية حقًّا، وسبق الإبراهيمية لهما لا يستلزم بطلانهما، ولو صحَّ لانجرَّ هذا الحكم إلى الرسالة المحمديَّة أيضًا ومن باب أَولَى لتأخُّرها في الزمن عنهما.

الحقيقةُ: أن القرآن هنا يُحاجِجُ كلَّ قومٍ على وفقِ منهجهم وطريقتهم في التفكير، فاليهود - والنصارى في هذا تَبَعٌ لهم - إنما يتكلَّمُون عن الانتِساب السُّلاليِّ الوراثيِّ، ونصوص العهد القديم التي بين أيدينا لا تذكر إبراهيم إلا أنه جدٌّ لسلسةِ (العهد الإلهي)، وهنا يردُّ القرآنُ عليهم ويؤكِّد الانتساب الديني العقدي، والتشابهَ الواضحَ بين ما كان عليه إبراهيم وكلِّ الأنبياء من بعده وبين ما جاء به النبيُّ الخاتم ﷺ.

إن القرآن يقول لليهود: إن كنتم تنتسبون لإبراهيم فأظهِروا عقيدة إبراهيم؛ لكي تصحَّ أصلًا للحكم والقياس والمحاجَّة، وإن لم يكن عندكم منها شيء ﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ﴾، أما إن كان مُستَنَدكم السند السُّلاليَّ الوراثيَّ المجرَّدَ فهذا لا يصلح دليلًا لانتسابكم له، فكيف بانتسابه لكم؟ ﴿ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا ﴾ وهذا هو الذي استوجب النكير المشدَّد ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾.

ومن هنا نجد القرآن يؤكِّد دعوة إبراهيم للتوحيد، ومحاربة الأصنام، وبناء الكعبة إبرازًا لعناصر الالتقاء بين الدعوة في عنوانها الإبراهيمي وبين الدعوة في عنوانها المحمدي، وفي هذا تأكيدٌ أيضًا لمنهجية القرآن في التقويم على أساس فحوى الرسالة ومضمونها وليس على مقولات النسب والسلالة والوراثة، والقرآن يؤكِّد في موضع آخر أنَّ إبراهيم ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج: ٧٨]، وهذا يفسِّر المقصود بقوله هنا: ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ فأصل التسمية منه ونحن له تَبَع.

وقد صرَّح القرآن بهذه التبعيَّة: ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [النحل: ١٢٣]، و﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الممتحنة: ٤]، والقرآن هنا لا يعزل اليهوديَّة والنصرانيَّة عن هذا السياق، فهو يقول: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٨٤]، ويقول: ﴿ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٥٢]، وفي هذا تتَّضِح الصورة الكاملة، ويتبيَّن موضع الخطأ الدقيق في دعوى اليهود والنصارى، والله أعلم.

المسألة الخامسة: قواعد الحوار:

في ثنايا هذه الحوارات يعرض القرآن لجملةٍ من قواعد الحوار المنتج وآدابه، فهو يجمع بين الأسلوب العلمي والقياس العقلي، وبين الأسلوب العاطفي الوجداني، فتراه مرةً يقول: ﴿تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ ويقول: ﴿تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾، وفي مكان آخر يقول: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ ﴾، ويقول: ﴿لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾، وهو في كلِّ هذا إنما يخاطِبُهم بندائه المتكرر: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ وهو نداء الاحترام والتذكير بالمشتركات.

وحينما ينتقد القرآن سلوكًا ما فإنه لا يُعمِّم، بل يحتاط لكي لا يصِل النقدُ لبريءٍ ولو كان يهوديًا أو نصرانيًا، فتراه يقول: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾، ويقول: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾، ويقول: ﴿۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾، وهذا هو العدل الذي جاء به الإسلام، والإنصاف الذي أمرنا أن نحتكم إليه حتى مع المخالفين.

دقائق التفسير

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ في قصة الخلق ذكر القرآن أربع طرائق، ثلاثًا منها استثنائيَّة لا يقاس عليها، وهي خَلْقُ آدم بلا أبٍ ولا أمٍّ، وخَلْقُ حواءٍ من آدم فقط بلا أم، وخَلْقُ عيسى من أمٍّ بلا أبٍ، والرابعة وهي السنَّة المعتادة المعروفة أن يُولَد المرء من أبٍ وأمٍّ، وهذه هي الطريقة التي تنبَني عليها الأحكام الشرعية؛ إذ الشريعة جاءت لتنظيم شؤون الناس في حياتهم المعهودة، وأما المعجزات وخوارق العادات فلها شأنٌ آخر، ويكفي فيها التصديق وأخذ العبرة، والله أعلم.

﴿فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ وهذه هي آيةُ المُباهَلَة، وهي نوع من أنواع المحاجَّة التي تهدف إلى استخراج ما في النفوس من حقٍّ كامنٍ بعد أن تغلَّف بالعِناد والمكابرة، وتقديم الشهوة على المعرفة، وجمع النساء والأبناء أَدعَى للرهبة ورِقة القلب وكسر تلك الأغلفة الغليظة.

وينبغي التنبُّه هنا أن هذه الطريقة لا تصح إلا في الأمور القطعيَّة وما عُلم من الدين بالضرورة، بخلاف المسائل الاجتهاديَّة؛ فكريَّة أو فقهيَّة أو سياسيَّة ونحو ذلك، كما أنها لا تصح قبل المحاجة العلميَّة بالبراهين والأدلَّة، والتأكُّد من وجود حاجز من الكبر والمكابرة لا تنفع معه المحاجَّة؛ لأن الأصل في الدعوة إرادة الرحمة والخير وليس استنزال العقوبة واللعنة.

﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ ﴾ أسلوب غير معهود في محاربة الحقِّ وأهله، يُسلِمُون أول النهار ثم يرتدُّون عنه، وكأنهم قد كشفوا من داخله عن أدلَّة بطلانه، وهذا من شأنه أن يثير الشكوك ويلبس الأمر على الضعفاء والبسطاء من الناس.

ولا يبعُد أن يكون المقصود إعلان الإسلام في النهار؛ حيث الحركة والمصلحة والرزق، والرجوع إلى الكفر ليلًا؛ لأنه وقت التخفي والسبات، وهذا هو أسلوب المنافقين، ويحتمل بهذا أن يكون من أهل الكتاب من دخلوا في النفاق فعلًا، ويحتمل أنهم اكتفوا بتوجيه غيرهم وهم المنافقون المعروفون.

وقوله: ﴿وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾ استعمال للوجه بمعناه المجازي وهو هنا (أول النهار)، وفي هذا ردٌّ على من اشترط في المجاز اتصاف محله به على الحقيقة أولًا، فاليد عندهم تصح مجازًا في القدرة لصاحب اليد المعروفة دون سواه، وهو تحكُّم لا تشهد له اللغة، والله أعلم.

﴿ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ ﴾ القنطار يستعمل في المال الكثير ويقابله هنا الدينار، وأنصَفَ القرآن أهل الكتاب في ذكر هذَين الصنفَين فيهم: صنف يؤدِّي الأمانة ولو كانت مالًا كثيرًا يُثير الطمعَ في العادة، وصنف يطمع بالمال ولا يؤدِّيه لأصحابه ولو كان قليلًا، وهذا التصنيفُ موجودٌ في غالب المجتمعات البشرية، ومقتضى ذكره هنا أن أهل الدين (الكتاب) ينبغي أن يتميَّزوا بالأمانة والحرص عليها، فلما تساوَوْا مع غيرهم دلَّ ذلك على نقصٍ في الدين، أو ضعف في التديُّن، وهو ما سيبيِّنُه القرآن في آخر الآية.

﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ كناية عن الإلحاح والمواظبة وتكرار المطالبة.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ ﴾ تعليلٌ لسلوك مَن يأكل أموال الناس ويطمع بأمانتهم عنده وهو مُدَّعٍ للتديُّن، وهو تعليلٌ ذو طابعٍ ديني؛ حيث يرى بعض المتدينين أنهم

فوق الآخرين، وأنه لا حرج ﴿سَبِيلٌ﴾ في أخذ أموالهم إذا كانوا من المخالفين أو ﴿ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾.

والحقيقة أن هذا التبرير لم يَعُد حِكْرًا على أهل الكتاب، فبعض المتديِّنين اليوم من المسلمين يستحِلُّون أموال (الكافرين)، ويتهرَّبُون من أداء ما بذمَّتِهم من حقٍّ ودَيْن، ومنهم من يستَسِيغُ الغيبةَ والنميمةَ والكذبَ إذا كانت في غير جماعته وحزبه، وهذا نذكُرُه إنصافًا لأهل الكتاب، ونُصحًا لأهل الإسلام؛ فالعبرةُ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

﴿لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ يعني: أن الذين يبيعُون دينهم وأمانتهم بعَرَض الدنيا الزائِل لا نصيبَ لهم من خير الآخرة ونعيمها.

﴿وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ تقريرٌ عن قُدرة هذا الفريق من أهل الكتاب أن يصُوغوا العبارات الموهمة لفظًا ولحنًا وأداءً لخلط الحقِّ بالباطلِ، والتدليس على الناس حتى يُخيَّل لهم أنها من الدين وما هي كذلك، وهي طريقةٌ معتادةٌ عند أهل البدعة في كلِّ دين.

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾

حقيقة العلاقة بين الرسالات السماوية

يُحدِّدُ القرآن بشكلٍ واضحٍ وحاسمٍ طبيعةَ العلاقة بين الرسالة الخاتمة والرسالات السابقة في هذه النقاط التي جاءت مُركَّزة في هذا المقطع:

أولًا: الميثاق:

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ

﴿لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ هذا الميثاق يؤكِّد وحدة الرسالات، ويؤكِّد أن الرسالة الخاتمة هي الصورة الأكمل لتدرُّج الرسالات بحسب تطوُّر المجتمع البشري؛ ولذا كان الخضوع لها واجبًا، وهو جزء من متطلبات الإيمان بالرسالات السابقة.

ثانيًا: الإيمان لا يتجزَّأ:

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾. ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، وهذا من لوازم الميثاق والإيمان بوحدة الرسالات، فالأنبياء كلهم إنما جاءوا بدينٍ واحدٍ، فمن كَفَرَ بموسى فقد كَفَرَ بمحمد، ومن كَفَرَ بمحمدٍ فقد كَفَرَ بموسى، وهكذا في جميع الأنبياء، والدين الذي جاء به الأنبياء إنما هو الإسلام بمعناه العام والشامل ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾.

وتنزُّل الوحي على مراحل بحسب التطور البشري لا يعني التناقض أو التضاد، ولا يعني أن هناك أكثر من دين، ما دام أنَّ الربَّ واحد فالدين لا بُدَّ أن يكون واحدًا، وقد أكَّد القرآن هذا المفهوم بقوله: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾.

ثالثًا: مكانة الرسالة الإبراهيمية:

﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ من حيث المبدأ لا تختلف الرسالة الإبراهيمية عن بقيَّة الرسالات السماويَّة في مصدرها وأصولها وأهدافها، بَيْدَ أنها من حيث الواقع حظِيَت بخصوصيات ميَّزتْها عن الرسالات السابقة، ومنها:

١- أنها تُشكِّلُ القاسمَ المشتركَ الأبرزَ بين الرسالات الثلاث، والاسم الذي يحظَى بالمقبوليَّة المطلقة لدى المُنتَسِبين لهذه الرسالات إلى اليوم.

٢- أن اسم إبراهيم لم يتعرَّض للغلو كما حصل لعيسى ﷺ، وأن رسالته لم تتعرَّض

للتحريف المُثير للجدل كما حصل للتوراة والإنجيل؛ حيث بقِيَت القيم الكبرى والمبادئ العامة لرسالته تُشكِّل قيم الوحي الكُلِّيَّة، بينما اختفت التفاصيل من دون تغييرٍ أو تحريفٍ، وهذا لا شك ساعد في نزع الخلاف المحتمل أو المتوقع حولها.

٣- التشابه بينها وبين الرسالة الخاتمة ليس في أصل الوحي فقط؛ فهذا حاصِلٌ بين كلِّ الرسالات، لكن من حيث التفاعل والحركة على هذه الأرض، والقرآن يذكر هنا نموذجًا ظاهرًا: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ فبناء الكعبة واتخاذها قبلة للحج والصلاة لم يُعرف إلا في هاتين الرسالتين.

وهناك تشابه آخر يعرضه القرآن في مواضع أخرى، وهو طبيعة التحدي الذي واجهته الرسالتان وهو (عبادة الأصنام)، بينما واجه كلٌّ من موسى وعيسى تحدِّيات أخرى مختلفة.

دقائق التفسير

﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ رُكنا الميثاق: الإيمان ثم النصرة، وفيه إشارة إلى أن الصراع بين الإيمان والكفر صراعٌ حتميٌّ، وأن مستقبل الإيمان على هذه الأرض مرهونٌ بحماية أهله له ودفاعهم عنه.

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ إشارة إلى أن الإسلام يُحقِّق الانسجام بين الإنسان والكون المحيط به؛ ذلك لأن الكون كله خاضع في حركته كلها للنواميس الإلهية خضوعًا قدرِيًّا، فخضوع الإنسان للأحكام الإلهية يُحقِّق هذا الانسجام، ويشعر معه الإنسان أنه أصبح صديقًا لهذا الكون ومفرداته التي سخَّرها الله بالأصل لخدمته وتحقيق سعادته.

وفي قوله: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ اختصار لمجادلة قرآنية أنَّ الناس قد يختلِفُون هنا على هذه الأرض على مناهج ومشارب، فالأَولَى بهذا الإنسان أن يسلك النهج الذي يضمَنُ له

سعادته في حياته الثانية، وعلى هذا ينبغي عليه استبعاد المشارب الأرضيَّة والدنيويَّة البحتة؛ لأنها لو حققت له بعض مصالحه هنا، فكيف بحياته الأبدية هناك؟ مع أن الإسلام هو الأقدر على تحقيق المصلَحتَين.

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ الخلاف في كون المقصود بالإسلام هنا الدين الجامع لكل الرسالات السماويَّة، أو الرسالة المحمديَّة خاصة خلاف لا يُنتِج؛ فالإسلام بمعناه الأول يتحقق في كل عصر بالرسالة التي تمثله، والكفر بالرسالة اللاحقة ينقض الإيمان بالرسالة السابقة، فالذين آمنوا بالتوراة ثمَّ لم يؤمنوا بالإنجيل قد كفروا بالتوراة أيضًا، وإن ادَّعوا الإيمان بها، وهكذا مَن آمَنَ بالإنجيل ثم كفر بالقرآن، أما بمعناه الثاني فهو حكم للمخاطبين الموجودين فعلًا أثناء البعثة المحمديَّة وما بعدها حتى قيام الساعة، وبهذا تكون النتيجة واحدة على المعنيَين، والله أعلم.

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ ﴾ الإصلاح شرط التوبة المقبولة عند الله؛ لأنه الكفيل بتحويل الندم إلى فعلٍ إيجابيٍّ مؤثِّر، أما بدونه فقد تكون مجردَ حالة نفسية تنتَابُ المرءَ بعد ضعف شهوته الدافِعَة له نحو الظلم والخطيئة.

﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ﴾ إشارة أن الطاعة إنما تقبل في وقتها، أما بعد غلق الصحف وانتهاء مرحلة التكليف والاختبار فلا عبرة لها.

وفيه إشارة أن الله غنيٌّ عن العالمين، وهو قادرٌ أن يسدَّ حاجة عياله الفقراء دون صدقةٍ ولا زكاةٍ، وإنما فتَحَ لأهل الخير هذا الباب رحمةً بهم، وابتلاءً لصدق إيمانهم.

﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ لأن المتصدِّق إنما يتصدَّق لله امتثالًا لأمره، وطمعًا برضاه وقُربه، ومصداق هذا القصد إنما هو إيثار ما يُقدِّمه لله على ما يُقدِّمه لنفسه، وهذا يشمل كل ما يُقدِّمه المسلم من مالٍ وجهدٍ ووقتٍ، فمن جعل لله الفَضلةَ من ذلك كله كان أبعد ما يكون عن البرِّ بالله، وهو الاجتهاد في محبَّته ﷻ، والتحبُّب إليه بكلِّ ما يُحبُّ من الصالحات.

﴿ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ﴾ إسرائيل هو نبيُّ الله يعقوب، والتحريم معناه هنا: الامتناع عن المباح، كما حصل لرسولنا الكريم في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم: ١]، وهذا الامتناع ليس تشريعًا؛ إذ ليس لأيِّ نبيٍّ أن يشرِّع من نفسه.

وقد ورد في المأثور(١) أن هذه الآية جاءت في أجواء المنازعة في حقيقة الرسالة الإبراهيميَّة والمنتسبين إليها؛ حيث عابَ اليهودُ على المسلمين أكلَهم للحوم الإبل مع أنها محرمة في الإبراهيميَّة! فبيَّنَت الآية بطلانَ هذه الدعوى، وحاكَمَتهم إلى التوراة نفسها إن كان فيها هذا التحريم.

﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ المقام هو أثر القدَمَين الشريفَتَين على تلك الصخرة المرتفعة والقريبة من الكعبة المشرَّفة، وذكر المقام هنا جاء تأكيدًا للصلة الوثيقة بين دعوة النبي الخاتم ودعوة أبيه وأبي الأنبياء إبراهيم ﷺ؛ ولكي لا يتوهَّم متوهِّم أن هذه الصلة هي في تعظيم ذلك الأثر الإبراهيمي، جاء قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾، فالحجُّ - وهو الركنُ الخامس في الرسالة المحمديَّة - هو أيضًا نسك إبراهيم ودعوته التي وجهها للعالمين.

وفي الآية إشارة إلى أن الإسلام مع حرصه الشديد على صفاء التوحيد وحمايته من كل شائبة، لم يمانع من الاحتفاظ بآثار الأنبياء؛ بل ولَفَتَ الأنظار إليها حُبًّا واحترامًا واعتزازًا، بل لقد اختار الله من هذه الآثار معالمَ للهويَّة الإسلامية تهوي إليها أفئدة المسلمين أينما كانوا في هذه الأرض.

إن الإنسان بطَبعِهِ يميلُ للمحسُوس؛ ولذلك يَشتَطُّ نحو عبادة المجسَّمات والكائنات التي هي أضعف منه، وأقل منه شأنًا، وعلاج هذا الشَّطَط ليس بقمع طبعه بل بتوجيهه

---

(١) يعني: الحديث الذي سألَ فيه اليهودُ رسولَ الله ﷺ عن بعض الأسئلة، ومنها: سُؤالُهم عمَّا حرَّم إسرائيلُ ﷺ على نفسِه، رواه الإمام أحمد، ينظر: مسند أحمد (١/ ٢٧٤/ المطبعة الميمنية، ط. ١٣١٣هـ، تصحيح محمد الزهري الغمراوي).

الوجهة الصحيحة، فتعلُّق القلب بالمسجد والبيت والمقام مشروع لما يُحقِّقه من سدٍّ لحاجة الإنسان الفطريَّة، وهذه الأماكن والآثار تُعزِّز جانب التوحيد كما هو ظاهرٌ ومعروفٌ، ولا تُشوِّش عليه، والله أعلم.

﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾ هو خبرٌ على معنى الهيبة التي منحها الله لهذا البيت؛ بحيث لا يتجرأ أحد على انتهاك حرمته، ويعضِّد هذا المعنى ردُّ الله لجيش أبرهة: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ [الفيل: ١]، وهذا المعنى لا يلغي المعنى التكليفي، وهو أنه يجب عليكم - أيها المسلمون - أن تُوفِّروا الأمن لهذا الحرم، فهو أمرٌ بصيغة الخبر، ومن قصَّر في ذلك مع قدرته فقد ارتكَبَ إثمًا، والله أعلم.

﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تهديدٌ ووعيدٌ شديدٌ لمن استَهانَ بالحج جُحُودًا أو استخفافًا، أما عند عدم القدرة مع وجود النية والرغبة فقد بيَّنته الآية نفسها ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ﴾.

غير أن الاستطاعة التي هي شرط التكليف قد تُعدم بتقصيرٍ من الإنسان نفسه؛ كضيق المكان عن استيعاب الحجيج، وقلَّة الخبرة الإدارية، وضعف الاستعداد، فهذه مسؤوليات يتحمَّلُها المسلمون كلٌّ بحسب صلاحياته وإمكانياته، والتقصير فيها إثمٌ؛ إذ إن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، فالحرم المكي وُضِعَ للناس كافَّة ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ وهذا يتطلب أن يكون من السعة والإعداد بحيث يكفي لأداء النسك، واستقبال الزائرين وفق خطة جادة ومدروسة لا تستثني أحدًا من المكلَّفِين، والله أعلم.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۗ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ۖ وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ۞ لَيْسُوا سَوَاءً ۗ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾

بعد عرض القرآن لنقاط الخلاف والتمايز مع أهل الكتاب، وتثبيته لمعنى الإسلام الحق وصلته بالرسالات السماويّة شرَعَ في بيان المقوِّمات والأسس التي ينبغي أن تتشكَّل عليها هذه الأمة المنوط بها حمل هذه الرسالة لكل العالمين.

أولًا: الإيمان هو الأساس الذي تتكون حوله وتحت ساريته هذه الأمة، فليس الإيمان هنا ذلك التصوُّر الذي يتشكل في العقول والضمائر، ولا تلك الممارسات الشعائريَّة المنبثقة منها، إنه قبل كلِّ هذا هويَّة جامعة تنبثق من رؤيةٍ موحدةٍ لعالَمَيْ الغيب والشهادة، وهو كذلك مشروع تنصهر فيه كلُّ طاقات الأمة وإمكانياتها؛ ولذلك يأتي الخطاب القرآني دائمًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بصيغة الجمع، وهي صيغةٌ مقصودةٌ وكلُّ ما بعدها مبنيٌّ عليها.

ثانيًا: الاعتصام بحبل الله والانصِهار في مفهوم (الأمة) والوحدة الإسلامية الجامعة ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾، ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾، ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾، ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

ثالثًا: حمل الرسالة الإلهيَّة للعالمين، وهي رسالة الرحمة والخير والمحبَّة ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ ﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾، ﴿وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ فالخير سِمَة هذه الأمة ومسؤوليتها، وبه تستحق وصف الخيريَّة، والخيرُ مفهومٌ جامعٌ لكلِّ معاني البرِّ والإحسان؛ ولذلك أطلقه القرآن ليتناول جملة واحدة كلَّ تلك المعاني.

رابعًا: الإصلاح، وهي مسؤوليةٌ مستمرَّةٌ تبدأ بالذات أولًا ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ والتقوى إنما هي محاسبةٌ ومراقبةٌ ذاتيَّةٌ، وحسٌّ مُرهَف، يتتبَّع خلَجَات النفس ونوازعها الداخلية، ويسجِّل السلوكيات المختلفة صغيرها وكبيرها، ويَزِنها جميعا بميزان الشريعة.

ثم بعد هذا تنتقل المسؤولية لمساعدة الآخرين في تصحيح أخطائهم، وتقويم سلوكهم ﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ وهذه الإيجابية مظهر من مظاهر الخير المغروسة في كلِّ

نفسٍ مؤمنةٍ بالله واليوم الآخر ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وهذا الربط بين الخيرات والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يقطع ذلك السلوك الجاف والمؤذي لمشاعر الناس ومكانتهم وكرامتهم باسم النصح، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

خامسًا: التمايُز عن الباطل وأهله، والحذر من مشاريعهم الهدَّامة وأساليبهم الملتوية في التضليل والتلبيس ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾، ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾، ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ وهؤلاء استثناء من عموم العالمين اقتضاه موقفهم المُعادِي للحقِّ وأهله، أما عموم الناس ممن لم يتَّخِذُوا مثل هذا الموقف، فإرادة الخير لهم والتعامل معهم بالحسنى أصلٌ في ديننا.

وهنا تزِلُّ بعض الأقدام، وتخلط بين مقامات الناس؛ ظنًّا منهم أن كلَّ مَن ليس بمسلمٍ فهو عدوٌّ للمسلمين، وهذا خطأٌ فاحشٌ لا يستقيم مع مبادئ الإسلام ونظرته للكون والحياة والإنسان.

دقائق التفسير

﴿وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ أي: التفرق المذموم الناتج عن العصبيات القبليَّة والحزبيَّة، والولاءات القاصرة، أما الخلاف الاجتهادي والتنوُّع في الاختصاصات والاهتمامات فهذا من لوازم المعرفة، والتطور الحضاري، وقد صارَ كثيرٌ من الناس اليوم يخلِط بين التفرُّق المذموم والاجتِهاد المحمود، وإذا كان الاجتهاد مطلوبًا، فالتعدد والخلاف من لوازمه، وأما من

يدعو للاجتهاد ويحذِّر من الخلاف، فقد وقع في التضادِّ والاضطراب.

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ أي: كونوا أمة، فـ(مِنْ) هنا للتكوين والتحويل، كما تقول: جعلتُ مِن العجين خُبزًا، وتدل عليه الآية الآتية: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾.

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ قدَّم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان على غير عادة القرآن في تقديم الإيمان على العمل؛ وذلك لاعتبارَين:

الأول: أن مناط الخيرية على الناس إنما هو بما نقدِّمه من خيرٍ لهم، فقدَّمَ المناط وعلَّة التخيير على الإيمان، مع أن الإيمان أصلٌ لكلِّ خير، ويكون هذا كقولك للسقيم: أتيناك بالطبيب المسلم، فتُقدِّم الطب على الإسلام؛ لارتباطه المباشر بحاجة السقيم.

والثاني: أن الدعوة إلى الله - أمرًا ونهيًا - هي السبب في وصول الإيمان إلى الناس، ولولاها لما عرف الناس الإيمان أصلًا، ولما بقي في قلوب الناس؛ إذ إن مَعَاول الهدم والتجهيل والتنفير كثيرة، وإنما تُردُّ كلها بهذه الفريضة الربانيَّة.

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ المقصود لن يضرُّوكم الضرر الذي يريدونه لكم، كاستئصالكم وذهاب دينكم، أما الأذى فهو ما دون ذلك من الضرر مهما كان كبيرًا، والواقع يؤيِّد هذا المعنى؛ فالمسلمون يتعرَّضُون للقتل والحبس والتشريد والحصار من بدء الدعوة وإلى اليوم، وحتى في المعارك التي انتصر فيها المسلمون حصل لهم من الضرر الشيء الكثير، قتلًا وجرحًا وأسرًا، فكيف بالمعارك التي خسِرُوا فيها؟

﴿وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ﴾ خبرٌ مخصوصٌ لقومٍ مخصُوصِين ومرحلة مخصوصة، وليس قاعدة مطَّردة، يدلُّ عليه قوله تعالى في غير هذا الموضع: ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة: ١١١]، وقوله في يوم أُحُد: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

وواقع المسلمين في ماضيهم وحاضرهم يشهد لهذا السِّجال، وخضوع الجميع لسنن الله الغالبة، والقوانين السببية التي وضعها الله في هذه الحياة، فمَن أَخَذَ بها مع الإيمان كان أَولَى بالنصر، ومن قصَّر فيها لحِقَته الهزيمة مهما كان إيمانه، والله أعلم.

﴿إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ حبل الله هنا: عهد الأمان الذي يمنحه المسلمون لليهود صُلحًا، أو عهدًا، أو ذمَّةً، كما حصل في وثيقة المدينة، وفي اتفاق خيبر، ثم في عقد الذمَّة الذي وفَّر الحمايةَ الكاملةَ لليهود في كل بلدٍ إسلامي يتواجدون فيه.

وحبلٌ من الناس: هو التحالفات التي يبنيها اليهودُ مع الدول الأخرى، وفحوَى الآية: أن اليهود سيبقون أقلية غير قادرة على حماية نفسها أو تحقيق أهدافها إلا بهذه العقود والتحالفات، وهذا هو حال اليهود منذ البعثة وإلى اليوم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ﴾ نهيٌ عن اتخاذ أحد من الأعداء وليًّا مهما كانت الصلة والقرابة والمصلحة الشخصية، وقال:﴿مِّن دُونِكُمۡ﴾ أي: من خارج الصفِّ المؤمن، ممَّن يُعادُون هذا الصف، ويعملون على تفكيكه واستئصاله ﴿لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا﴾ أي: لا يقصِّرون ولا يتردَّدُون في رميكم بالفساد والشرِّ، وكلِّ أذًى ونقيصةٍ.

و﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ﴾ أي: يودُّون لكم العَنَتَ والمشقَّة، وقوله: ﴿بِطَانَةٗ﴾ إشارة إلى العلاقات الخفيَّة، وهي المتوقَّعة أيام الحروب والصراعات، والآية لا تُحرِّم العلاقات الإنسانيَّة والمجتمعيَّة المعروفة، وإنما الحديث فيها عن الأعداء المحاربين ﴿قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ﴾.

﴿هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ﴾ هذا أصلٌ في خلق المسلم؛ أنه يحبُّ الخير لكل الناس مؤمنهم وكافرهم، وليس في هذا شائبة، إنما الشائبة في محبَّة من لا يحبُّ المسلمين، ويُضمِر لهم الشرَّ، ويعمل على استئصالهم ﴿وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ﴾، ﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ﴾ فتكون المحبة لهم سذاجة أو خيانة.

وكثرة الاحترازات الواردة هنا، وذكر تفاصيل أوصافهم وما يُبطِنون وما يُعلِنون دليل قاطع أن المقصود بالنهي إنما هم هؤلاء بأوصافهم هذه، وليس ذلك عامًّا في كلِّ الكافرين، والله أعلم.

﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ أي: الكتب السماوية جميعها، إجمالًا بالنسبة للكتب السابقة، وتفصيلًا بالنسبة للقرآن؛ إذ الكتب السابقة قد تعرَّضَت للتحريف، فلا يصحُّ الإيمان بها هي عليه اليوم، بخلاف القرآن الذي تعهَّد الله بحفظه إلى يوم القيامة.

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾

في الطريق إلى أُحُد

تناولت سورة آل عمران معركةَ أُحدٍ وما جرى فيها من انتكاسة وأذى للمسلمين بسبب الأخطاء التي ارتكبوها باهتمامٍ وتفصيلٍ أكثر من كلِّ المعارك الأخرى؛ تأكيدًا للنهج القرآني في تشجيع المراجعة والتقويم الذاتي، والاستفادة من الأخطاء رغم مرارتها، ومرارة تذكُّرها، وللمساحة الكبيرة التي أخذَتْها هذه المعركة من هذه السورة ارتأَيتُ أن أقسّمها على أكثر من مجلس، والله المستعان.

في هذا المقطع تطرَّقَت السورةُ لعدد من النقاط قبل الْتِحام الجيشَين، وهي:

أولًا: مهَّدَ القُرآن للحديث عن معركة أُحدٍ ببيان حال اليهود والمنافقين ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا﴾ وقد حصل مصداق هذا في الطريق إلى أُحدٍ بنكوص المنافقين، ثم بعد النكسة بشماتة اليهود وتَشَفِّيهم بمُصاب المسلمين، مع أنهم أهل الوثيقة التي تنصُّ على وجوب الدفاع المشترك عن المدينة.

ثانيًا: إن المعركة كانت معركة دفاعية ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ فمقاعد القتال تشير بوضوح إلى أنهم كانوا ينتظرون الغزاة ليصدُّوهم، كما أن الخروج من الأهل يدلُّ على قُرب المقاعد هذه من مساكِنِ الناس، وهذا هو ما حصل بالفعل؛ حيث إن جبل أُحدٍ هو في ضواحي المدينة، وقد قطع المشركون مسافةً طويلةً من مكة قد تستغرق أيامًا ليصلوا إلى أُحدٍ، بل وقد ذكر أهل السير أن الرسول ﷺ كان من رأيه البقاء في المدينة والدفاع عنها، لكنه تنازَلَ لرأي أغلبية الشباب، خاصة أولئك الذين لم يشهَدوا بَدْرًا.

ثالثًا: استحضار التاريخ القريب، والمواجهة التي حصَلَت بين الفريقين في معركة بدر ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، وهو توجيه ربَّاني بأخذ العبرة من التاريخ، وقد أكَّده في الآية الأخيرة في هذا المقطع: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ وأمرُهُ بالتقوى بعد امتنانه عليهم بالنصر يُوحِي بأنها شرط في تحقيق النصر.

رابعًا: الأمر بالطاعة، وهي من أسس التربية العسكريَّة ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، أما طاعة الله فهي أصل الإسلام، وطاعة الرسول هي طاعة لله؛ لأنه المُبلِّغُ عن الله، وفي الحرب يُضافُ إلى هذا المعنى معنًى آخر، وهو: طاعته باعتباره قائدًا لا يستقيم أمر الجيش بغير طاعته.

خامسًا: التجرُّد لله في النية والعمل، والبُعد عن الأثَرَة والتنافس المادي، والذي غالبًا ما يكون سببًا في إضعاف الصف، وظهور الشحناء والبغضاء بين جنوده؛ ولذا أمر بالإنفاق ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ وهنا الإشارة للإنفاق في الحرب (الضرَّاء)، وحذَّر من الربا، والذي هو مظهر من مظاهر الجشع والطمع الذي يفُتُّ في عضد الأمة، ويُضعِف مقاومتها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ والفلاح مُستلزِمٌ للنصر.

سادسًا: ذكر القرآن حالة من التردُّد وضعف العزيمة اعتَرَت مجموعتين من المؤمنين لكنَّ الله ثبَّتهم ﴿إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ أَن تَفۡشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ﴾ وهنا إشارة أن المؤمن قد يضعُف ولو كان وليًّا لله ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ﴾ فلا ينبغي تنزيهُهم عن النقص لمكان الولاية، ولا التشكيك بولايتهم لوجود النقص.

سابعًا: إن هذا المقطع جاء بمسحة من السماح والعفو والمغفرة، وكأنَّه يمهِّد للموقف المطلوب من أولئك الرماة الذين خالَفُوا أمر رسول الله ﷺ فتركوا مواقعهم؛ فكانت النكسة ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾. ﴿فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾.

دقائق التفسير

﴿وَإِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: خرجت مبكِّرًا مع إشراقة النهار لتختار مواقع الجند، والمكان الأصلح للدفاع عن المدينة، وفيه مسؤولية القائد في المبادرة وإن كان الأمر على خلاف ما يراه؛ حيث كان رأيه ﷺ المكوث في المدينة، ومناجزة المشركين فيها، لكنه استجابَ للشورى كما هو معلوم في كتب السيرة.

﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ﴾ الطائفة مجموعة من الناس يتفقون على شيء، لكنها في عصرنا الحالي تستعمل في معنى أخطر، وهو الانعزال عن الأمة بولاء قاصر وهويَّة مخالفة، والسلوك الطائفي يقصد به اليوم: تغليب مصلحة الطائفة بهذا المعنى على مصلحة الأمة والدولة، وغالبًا ما يؤدِّي هذا السلوك إلى صراعات دمويَّة مريرة وطويلة.

﴿أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ الإيمان بالملائكة هو نوعٌ من الإيمان بالغيب، وهو الأصل في العقائد الدينية، والعقل لا يمنع من وجود كائنات لا تقع تحت الحسِّ البشري، وقد رأينا العقل يكتَشِف بأدواته الماديَّة مخلوقات لم تكن معروفة فيما سبق؛ كأنواع الأشعة، والموجات الصوتية، وكثير من الكائنات الحيَّة؛ كالبكتيريا، والجراثيم، والفيروسات، وربما يكتشف العلم كائنات أخرى هي بالنسبة لنا اليوم غيبٌ محضٌ، فالجهل بالشيء لا يعني عدم وجوده، مع ملاحظة أن المنهج القرآني في الغيبيات أنه لا يذكرها إلا إذا كانت متصلة بحياة الناس، وهنا يذكر القرآن الملائكة؛ لما لهم من دور في مساندة المؤمنين.

﴿لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ الوصف بالأضعاف المضاعفة وصف لزيادة التنفير، وبيان جشع المُرابي وطمعه وأنانيته، وليس وصفًا احترازيًّا، فقليلُ الربا وكثيرُه حرام.

﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ لبيان سعتها وسعة رحمة الله فيها، والخوض في حقيقة الطول والعرض لا طائل من ورائه، وهو من التكلُّف، فنحن نجهل المشبَّه به، فكيف بالمشبَّه، فعرض السموات والأرض نوعٌ من الغيب بالنسبة لنا، والجنة غيبٌ أبعد.

وقد شبَّه القرآن الغيبَ بالغيب ليس للتحقق من الهيئة والمسافة، بل لحصول الاطمئنان على أصل السعة، وكبير عفو الله ورحمته، وهذا هو مقصود النص، وهو كافٍ لمن تدبَّر.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾ ترغيب بمبادرة الذنب بالاستغفار، وترك التسويف، فالمؤمن يُذنِب، والفاجر يُذنِب، والفرق بينهما

الأَوبة والتوبة، فمن استشعر الذنب واستثقله رجع سريعًا، وهذا دليلُ القلب الحي النابض بالإيمان.

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ البحث في عواقب الأمم يقود إلى نتائج كلية؛ أن الله لا يرضى بالكفر، ولا يرضى بالظلم، وأن هؤلاء مُعرَّضون لعقاب الله في الدنيا قبل الآخرة، أما مُجاوزة هذا إلى حالةٍ من التنبؤ بمصير الأمم والدول الظالمة في كلِّ مواجهة فهو نوعٌ من التغرير الباطل، فالقدر بِيَد الله وحده، وآجال الأمم والدول والحضارات كآجال الناس، بل هي أعقد وأبعد في الغيب.

إنَّ هناك من يحلِف على نصر المسلمين في هذه المعركة المعينة مع الكافرين بناءً على أن الله مع الحقِّ، والله لا ينصر الكافرين والظالمين، وهذا الحَلِف مجازفةٌ لا دليل عليها، وسُنن الله تقضي بهلاك الظالمين دون تحديد الآماد والآجال، ثم هناك سُننٌ أخرى قد نُدركها وقد لا نُدركها؛ كسُنن الله في التمكين، وسُننه في تسليط الظالمين على الظالمين، والله أعلم.

﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ۖ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ۗ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾

استهلَّ هذا المقطع بقوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ وكأنه يسترعِي انتباه الناس لأمر عظيم، وهو كذلك؛ حيث كان المسلمون يتطلَّعون إلى تقويمٍ دقيقٍ من الوحي لذلك اليوم العصيب الذي مرَّ عليهم، ولتلك التجربة الاستثنائية وتبعاتها الثقيلة على كواهلهم، ما الذي جرى؟ وكيف ينتصر الكافرون على المؤمنين، والكافرون هم المُعتَدون، والمؤمنون هم المدافِعون؟ كيف ينهَزِم صفٌّ يقودُه نبيٌّ؟ وقد تكفَّل هذا المقطع القرآني بالإجابة عن هذه الأسئلة ونحوها:

أولًا: المعيار الحقُّ:

يُصحِّح القرآن في هذا المقطع المعيار الذي يَزِن فيه الناس مستوى النجاح والفشل؛ حيث يتنافس الناس من أجل تحقيق الغلبة والتفوق وفق معايير تحقيق الرغبات، والوصول إلى الأهداف المرسومة ولو كان بمنهج خاطئ، وسياسة ظالمة.

القرآن هنا يضع المعيار الحقَّ ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وهي حالة ثابتة ومستقرة مع ثبات الإيمان في القلب واستقراره، فالعلوُّ الصحيح هو علوُّ المبدأ والمنهج والخُلُق، أما علوُّ الكافرين والظالمين فهو علوٌّ مغشُوش، وعاقِبَتُه إلى زوالٍ - لا محالة - بزوال الغلبة أو زوال القدرة على الاستمتاع بها.

أما علوُّ المؤمنين فهو علوٌّ ذاتي موصولٌ بالله ولو كانوا فقراء أو ضعفاء، فقد كان جُلُّ الأنبياء على هذه الحال، ولم يُمَكَّن إلا للقليلِ منهم، فالتمكينُ بالحكَم والسلطان مسؤولية كبيرة، ولها شروطها ومتطلباتها، قد تتحقَّق وقد لا تتحقَّق، وقد يكون ذلك بتقصيرٍ من المؤمنين وقد لا يكون، لكنَّ هذا كله ليس هو معيارَ النجاح والفشل، فليس كلُّ غالبٍ ناجحًا، وليس كلُّ مغلوبٍ فاشلًا.

ثانيًا: مداولة النصر والهزيمة:

تفريعًا عن المسألة الأولى يعرِض القرآن حقيقةً ملموسةً ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ

ٱلنَّاسِ﴾ فالغلبة قد تكون لهؤلاء وقد تكون لأولئك، وقد تكون للمؤمنين وقد تكون للكافرين.

وقد صرَّح القرآن بأربعة أوجه للحكمة الإلهية في ذلك ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فاختلاف الأحوال من نصرٍ إلى هزيمةٍ ومن هزيمةٍ إلى نصرٍ من شأنه أن يكشف معادن الناس، ومستوى إيمانهم وإخلاصهم، وفيه أيضًا تكريمٌ بالشهادة لمستحقيها ومحقٌ وهلاكٌ للكافرين والظالمين.

وقد جاء قوله تعالى في وسط هذه الرباعية: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تنبيهًا لمن يتوهَّم أن الغلبة هي معيار الفوز والنجاح، فالظالمون قد يتمكَّنون من المؤمنين، وقد يُسلِّطهم الله على من يشاء من عباده وبلاده، وليس هذا من محبَّة الله لهم.

ثالثًا: النظرية والتطبيق:

يعرِض القرآن في هذا المقطع لمسألة تواجه الكثير من القادة والموجِّهين، تتزامن مع كلِّ نقلة جادة من ميدان النظر إلى ميدان التطبيق، ومن ميدان الأقوال إلى ميدان الأفعال ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ والقرآن هنا يشدُّ انتباهنا إلى متطلبات هذه النقلة؛ لأن التجارب البشريَّة على اختلافها مُثقَلةٌ بحالاتٍ من الفشل؛ بسبب تصدِّي الكفاءات النظرية الحالمة، والتي أعطَتْها منابرُ الخطابة ومحاضرات الدرس دورًا لم تستعدَّ له تمام الاستعداد.

رابعًا: التعلق بالقضية لا بالأشخاص:

ليس هناك في الخَلقِ من هو أَولَى وأزكَى من رسول الله ﷺ، وفي أُحُد أُشيع خبر مقتله ﷺ فاضطرب المؤمنون اضطرابًا شديدًا، وحُقَّ لهم أن يضطربوا وأن يُزلزَلوا، بَيْدَ أن القرآن الكريم أراد لهم أن يَسْموا على عواطفهم ومشاعرهم، وأن يتعلَّموا أن العمل للإسلام قضية لا تتوقف على حياة أحدٍ ولو كان رسول الله، فالعمل عبادة، والعبادة لله وحده ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ

إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ وإذا كان هذا في حق رسول الله، فما بالك بمن دونه؟

خامسًا: وجود النبي لا يمنع الابتلاء:

وهذه حقيقة قرآنية مؤدَّاها أن النبيَّ ﷺ إنما يقود أمته وفق السنن الإلهية والنواميس الكونية، وكما أنه معرَّض للمرض والتعب والضعف والحوادث الأخرى، فإنه في شأنه العام معرَّض لكل ما يمكن أن يتعرَّض له القادة الآخرون إلا ما يُخالِف مُقتَضى سلامة التبليغ وعصمة الوحي ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ وهذه الحقيقة جوابٌ لِمَن استغرب حصول النكسة مع وجود النبي ﷺ، مع الجزم أن النبي ﷺ لا يمكن أن يكون هو سبب النكسة، فقيادة الأنبياء هي أكمل القيادات وأزكاها وأولاها باستحقاق نصر الله وتمكينه، لكن العبرة في التمكين هو حالُ الأمة كلها ووَزنُها بين الأمم الأخرى، والله أعلم.

سادسًا: طمأنينة المؤمن وقلق الكافر:

يتميَّز المؤمن عن غيره بنظرته العابرة لحدود الحياة القصيرة العاجلة، فالموت الذي يهابه الخلق لا يمثِّل سوى قنطرة العبور للحياة المديدة المستقرَّة، من هنا يعمر قلب المؤمن بالسكينة والطمأنينة مهما واجه من المخاطر، بينما رُعْبُ الموت لا يفارق قلب الكافر وإن كان في بيته وبين أهله ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًاۖ﴾.

والقرآن يفتح باب الأمل للمؤمنين حتى وهم في حالة الهزيمة والنكسة، ويستنهِضُ فيهم عناصر القوة الكامنة في نفوسهم ﴿فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

سابعًا: مرحلة النكسة:

يصارح القرآن في بيانه هذا جيش المسلمين أنه قد فشل في وسط المعركة بعد أن حقّق نجاحًا سريعًا في أولها ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ ﴾، ثم يبيّن أسبابَ هذا الفشل ﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم ﴾، ثمَّ عاد ليصوِّر حالةَ الفشل هذه ﴿ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ ﴾.

إن القرآن يرسُمُ في تقريره هذا منهجيَّته في الإصلاح والتصحيح، والتي تبدأ بالتشخيص الدقيق والصريح والمباشر، وجعل هذه المصارحة مقروءة على الملأ، الصالح منهم والطالح، والعدو منهم والصديق، وبهذا يُنهِي القرآن الجدلَ حول أدبيات المراجعة والتقويم، والتي يرى بعض العاملين في مجال العمل الإسلامي المعاصر أنها ينبغي أن لا تكون مباشرة أو علنيَّة؛ حتى لا يستفيدَ منها العدو، ولا تخدِش في وحدة الصَّفِّ ومعنوياته، وما إلى ذلك من المبررات التي تفضِّل إبقاء الورم تحت الجلد، وإحاطة العمل بهالة من الهيبة والتقديس.

ثامنًا: ظنون وتلاوم:

في كلِّ حالات الفشل يكثر التلاوم وتبادل التهم، وهذا هو الوجه المقابل للمراجعة الصادقة والجادَّة، والوجهان قد يختلطان وتتشابه السلوكيات الفرعية المنبثقة منهما، وبعض الذين يتخوَّفون من المراجعة قد يتخوَّفون منها لاختلاطها فعلًا بهذا السلوك المشين والمدمّر ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ ﴾، ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ ﴾ وقصدهم من هذا تزكية النفس وتبرئتها من الخطأ، وإن كان في هذا طعنٌ في الصفِّ كلِّه، بل وسوء ظنٍّ بالله أنه لم يَنصُر المؤمنين وهم أحبابه على الكافرين وهم أعداؤه.

وقد عقّب القرآن على هذا السلوك بقوله: ﴿وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا

﴿فِي قُلُوبِكُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ وهذا من ثمار المداولة وابتلاء المؤمنين ببعض نتائجها الثقيلة.

دقائق التفسير

﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ كلّ الناس، وإن كان فيه ما يثقل على نفوس المؤمنين من بيان أسباب فشلهم ونكستهم، وهو تأكيد لمنهجية القرآن الصريحة والمباشرة في الإصلاح والتصحيح.

﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لام التعليل جاء بها لتعليل المداولة، ومجيئها بعد الواو يُوحِي بوجود تعليلات أخرى لم يشأ الله أن يذكرها، وهي قطعًا ليست مما يخصُّنا نحن البشر، وإنما هي من حكمة الله المطلقة والتي تخضع لها كل حركة وسكنة في هذا الكون.

﴿وَلِيَعۡلَمَ﴾، ﴿وَيَتَّخِذَ﴾، ﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾، ﴿وَيَمۡحَقَ﴾ هذه الأفعال الأربعة هي تعليلات المداولة، بَيْدَ أنه ألْحَقَ اللام بالأول والثالث، وحذفها من الثاني والرابع، والظاهر أنه أثبَتَها في كلِّ فعلٍ مُتحقق بعمومه من غير استثناء، فعِلمُ الله تام وشامل، وكذا تمحيصه وتمييزه للمؤمنين، وهو متَّصِل بعلمه سبحانه أيضًا، أما اتخاذ الشهداء ومحق الكافرين فهما على التبعيض؛ فليس كلُّ المؤمنين شهداء، وليس كلُّ الكافرين سيُمحَقون، وليس كل مداولة تستلزم القتال.

ومعلوم أن إلحاق اللام في الفعل المعطوف جائز، وحذفه جائز، فلما ذكره في فعل وحذفه في آخر دلَّ على قصد التأكيد في الأول بخلاف الثاني، والله أعلم.

﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ عِلْمُ الله متحقِّقٌ وشاملٌ ومستغرِقٌ للموجودات على تنوُّعها واختلاف أحوالها ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾[1]،

---

(١) سورة البقرة/ ٢٩، وتكرَّرت بعدها في القرآن الكريم كثيرًا.

فالذي لا يعلمه الله لا يمكن أن يكون موجودًا، وعليه فنفيُ علم الله بشيء ما معناه نفي الشيء نفسه، فيكون معنى الآية: هل تظنون أنكم تدخلون الجنة من غير جهادٍ ولا صبرٍ؛ إذ لو كنتم جاهدتم وصبرتم لعَلِمَ الله ذلك منكم، والله أعلم.

﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ الشكر مقابل النعمة هو حقُّ المُنعِم على عبده، والمقام ليس فيه نعمة ظاهرة، بل محنة ومصيبة قاهرة.

والظاهر أن القرآن يتكلم عن معنيَين للشكر؛ معنى يقابل النعمة، وآخر مستقر في القلوب المطمئنَّة مهما كانت الأحوال، الأول جزء من تقوى العبد، والثاني غاية التقوى وسقفها الأعلى ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، وهو المعنى الذي لا يرى في أفعال الله إلا الخير وإن كانت ابتلاءً ثقيلًا، فالعبرة بالعواقب والخواتيم.

والقرآن يشير هنا إلى أن موت الرسول ﷺ بحاجة إلى مستوى من الإيمان واليقين والاتصال الوثيق بالله لكي يثبت العبد على الجادَّة ولا يهتزُّ أو يضعف، والله أعلم.

﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ قانون إلهي وميزان عادل، فمن يعمل للدنيا حقَّق الله له ما يريد وفق سنن الله الكونية ونواميسه المودعة في هذا الخلق، ومن يعمل للآخرة حقَّق الله له ما يريد أيضًا.

وفي هذا القانون جوابٌ لمن يسأل عن سرِّ تفوُّق المخلِصين في عملهم ولو كانوا على دينٍ آخر، وتأخُّر المهملين والمقصِّرين ولو كانوا صوَّامين قوَّامين.

وفيه جوابٌ أيضًا لمن يسأل عن مصير المُبدِعين والمُنتِجين ممن لا يؤمنون بالقرآن، ولا بالآخرة، ولا يسعَون لها سعيها، ويشير القرآن إلى صنفٍ متميِّز، وهم الذين يعملون ويجتهدون في العبادة وكلّ أعمال الخير شكرًا لله، وهؤلاء مع طمعهم بسعادة الدنيا وسعادة الآخرة لكنهم حينما يتعبّدون الله لا يستحضرون إلا حقَّه ﷻ عليهم، فالعبادة خالصة

لوجهه، وجزاء الله لهم منَّة وكرم وفضل، هذه هي العلاقة الأرقَى والتي لا تناسب إلا أولئك المقرَّبين.

﴿قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ﴾ وهذه صفات الربانيين الموصولين بالله، والذين يَسمُون عن آلام الجسد وخسارة الدنيا بربانيَّتهم وثقتهم بما عند الله؛ إذ الرِّبِّيون جمع رِبِّيٍّ، وهو اسمٌ منسوبٌ إلى الرب، وهو والربَّانيُّ بمعنًى، وتغيير فتحة الراء إلى الكسرة واردٌ في النسبة كثيرًا.

ومن قال بأن معناه: الجماعات الكثيرة، نسبه إلى الربَّة، وهي الجماعة، وهو وارد في اللغة أيضًا، والأول أنسَبُ لمقام المدح والتأسِّي، والله أعلم.

﴿إِذۡ تَحُسُّونَهُم﴾ تعبيرٌ عن سرعة التقدُّم في الميدان، وإزاحة صفوف العدوِّ، وهذه هي المرحلة الأولى من المعركة.

﴿وَعَصَيۡتُم﴾ أي: عصَيتم أمر قائدكم، وهم الرماة الذين خالفوا أمر رسول الله ﷺ فتركوا مواقعهم، وتقدَّمُوا نحو الغنائم، فكانوا السبب في النكسة، والمعصية هنا ليست ذنبًا كبقية الذنوب التي يتعرَّض لها كلُّ البشر عدا الأنبياء ﷺ، بل هي معصيةٌ لأمر القائد في ميدان المعركة، وهذه هي التي تُسبِّب النكسات لنا ولغيرنا.

وتعميمُ المعصية في هذا السياق على كلِّ مخالفة دينية لا يصحُّ؛ إذ لو صحَّ لما انتصر جيش من جيوش المسلمين، فليس هناك جيشٌ معصومٌ ومبرَّأٌ من المعاصي، وقد نصر الله جيوشًا كثيرة وفتح على أيديهم رغم ما فيهم من الذنوب والمعاصي، وليس معنى هذا التهوينُ مِن خطر الذنوبِ، خاصَّةً تلك التي تفُتُّ في عضُدِ المُقاتلِين كالغِيبة والنَّميمة، والتحاسُد والتباغُض، لكنَّ معصِيةَ أُحُد كانت إخلالًا بالنظام العسكري أكثرَ مِن كونها ذنبًا مثلَ بقيَّة الذنوبِ، والله أعلم.

﴿۞إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ﴾ أي: تهرَبُون في الأرض على غير هدى

ولا خطة مرسومة، هروبًا لا يبقى معه تذكُّر لعزيز أو ضعيف يستحقُّ منكم الإغاثة والرأفة، وهو تعبيرٌ عن شدَّة النكسة، وما صاحَبَها من هلع واضطراب.

﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ﴾ غمٌّ مركَّب؛ لأنها نكسة بعد نصر، فهي أشدُّ وقعًا، وأكثر إيلامًا، وفيها فاتَ النصر المأمول، وضاعَت الغنائم التي كانت سبب النكسة، واستعمل الثواب بدل العقاب؛ لأن الأصل في المجاهد أنه يسعى للثواب، فلما تغيَّرَت النوايا وحصَلَت المعصية كان ثوابهم غمًّا بغم.

وأما قوله: ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟﴾ مع أن الحزن غمٌّ، فهو حاصل بالضرورة، فالأظهر أنه توجيه بصيغة الخبر، بمعنى: أن ما أصابكم من غمٍّ وحزنٍ وأذًى يكفيكم لتتدبَّروا حالكم وأسبابَ ما نالكم فتستفيدوا من أخطائكم؛ فذلك هو طريق الخروج من أحزانكم وآلامكم، وهذا من شأنه أن يفتح باب الأمل والتفاؤل.

وقد اقترن هذا بلطيفةٍ ربَّانيَّةٍ أعقبَت ذلك الغمَّ ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ وهو إيذانٌ بأن الغمَّ مرحلةٌ ينبغي أن تنتهي سريعًا؛ لينطلق الناس في ميدان التصحيح العملي، والله أعلم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾

دروس المعركة

أولًا: التربيّة والتعليم:

يُذكِّرُ القرآن في هذا المقطع بأهميّة التعليم المستمر والمتسق مع الأحداث، وتزكية النفس وحملها على طريق الخير والهدى.

جاء هذا من خلال ربط أحداث أُحُد بأصل الرسالة القائم على التعليم والتزكية ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ

ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ ثم بالدروس التي يُسجِّلُها القرآن من مجريات الحدث نفسه، وهي عمليَّة تربويَّة مركَّبة تجمع بين العلم والعمل، والنظريَّة والتطبيق.

وتظهر الحاجةُ هنا أكثر في صفوف المجاهدين؛ لما يجرُّ عليهم الجهل وقلَّة التفقُّه والتزكية من تصوُّرات وتصرُّفات خطيرة تُودِي بمستقبلهم ومستقبل أمتهم.

ثانيًا: صفات القائد الناجح:

ذكر القرآن جملةً من صفات القائد والتي تجسَّدَت في شخص الرسول ﷺ لتكون مثالًا لكلٍّ من يتولى القيادة من بعده:

١- اللِّينُ والصفح والعفو ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ وهذه الأخلاق جاءت مُغيَّاة بغاية عمليَّة، وليست مجرد سجيَّة ذاتيَّة، وهذه الغايةُ هي الحفاظُ على وحدة الجماعة، وتأليف القلوب، وإشاعة جوٍّ عامٍّ من الثقة والمودَّة والرحمة.

ثمَّ ذهبَ القرآن إلى العمق النفسي لاستشعار هذه المودَّة وإرادة الخير حتى بالعُصاة والمخالفين ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ وهذا الأمر أعمقُ بكثيرٍ من المجاملات اللفظية التي يتبادَلُها الناس فيما بينهم، إنها إرادة الخير لهم بصدق ومحبَّة، فهو لا يكتَفِي بالعفو عنهم، بل ويدعو الله أن يعفو عنهم أيضًا.

٢- الشورى ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ۖ﴾ الشورى: تداوُل المعلومات والأفكار للوصول إلى الرأي الأصوَب، والأظهر أنها مشاركةٌ في صنع القرار وليست تقديمًا للمعلومات، وهذه المشاركة تدفعُهم لتحمُّل المسؤولية في إبداء الرأي وفي التنفيذ، وهي تُعزِّزُ ثقتَهم بالقيادة.

والظاهرُ أن قوله تعالى: ﴿فِي ٱلْأَمْرِ ۖ﴾ أنه الأمر العام الذي يهمُّ الناس، أما الأمور الشخصيَّة والعائليَّة ونحوها فلها فِقهُها الخاص، وكلُّ حالة منها تُقدَّر بقَدرها، والطرح العام فيها غير وارد.

ومن اللافِتِ هنا أن عاقبة الشورى في معركة أُحُد كانت غير مشجِّعة؛ حيث استجابَ الرسول ﷺ لرأي الأغلبية في الخروج لملاقاة العدو خارج المدينة، ومع هذا يأتي تأكيدُ القرآن لهذا الحقِّ ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ وفي هذا دفعٌ لمن يتنكَّر للشورى بذريعةِ النتائج التي قد تأتِي بعض الأحيان بخلاف المطلوب، وهذا مُتوقَّع في كل اجتِهاد، والشورى اجتهادٌ أيضًا لكنها اجتهادٌ جماعيٌّ.

٣- الأمانة ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ﴾ والغلول هنا هو التصرف في المال العام الذي تحت يده بغير وجه حق، ويُقاس عليه كل ما تحت يد القيادة من معلوماتٍ وأسرارٍ وكلّ ما يتعلق بأمن الناس وحياتهم.

ثالثًا: محاسبة النفس:

الإنسانُ خطَّاءٌ بطبعه وأصل تكوينه، وليس مطلوبًا منه أن لا يُخطِئ، بل المطلوب منه أن يعترِف بخطئه، ويؤدِّي ما عليه من استحقاقٍ بسبب هذا الخطأ توبةً لله، وأداءً لحقوق الناس، وأن يستفيدَ من خطئه هذا تجربةً حيَّةً في مستقبل عمله، وهذه هي المحاسبة التي تقود إلى التصحيح الذاتي ﴿أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ ﴾، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ ﴾.

والناس مُتفاوِتُون في هذا المقام بقدر تفاوُتهم في استحضار المعاني الإيمانية، وفي مستويات تربيتهم الروحيَّة ﴿ هُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾.

رابعًا: سنن الله الغالبة:

إن ما يُصيبُ الناسَ من خيرٍ وشرٍّ، ونصرٍ وهزيمةٍ لا يخرج أبدًا عن إرادة الله المطلقة وسننه الكونية التي أقام عليها هذا الوجود: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ ﴾ ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وهذا القَدَر الإلهي

ليس قدرًا عبثيًّا، ولا قدرًا مزاجيًّا - جلَّ الله وتعالى عن ذلك -، بل هو وفق سننه الكونيَّة المنبثقة من مجموع أسمائه الحسنى، وصفاته العُلى؛ كالعلم، والحلم، والحكمة، والرحمة.

خامسًا: عقيدة المسلم في الموت:

الموتُ هو المصيرُ الحتميُّ لكلِّ كائنٍ حيٍّ، ليس في ذلك شكٌّ ولا خلافٌ، وإنما يقع التساؤل عادةً حينما يكون ذلك بأسباب بشريَّة؛ كالقتل، والقتال.

وهنا تتكرَّر الأسئلة عن مدى مسؤولية الإنسان، وعادة ما تمتزج هذه الأسئلة بنوع من التلاوم، والحقيقة أن الندم أو التلاوم قد يكون مشروعًا إذا انصبَّ ذلك على قصد الفاعل ومشروعية فعله، أما الأجَل فهو محسومٌ ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

فموقف المسلم هنا أنه لا يخشى الموت، ولا يتلاوم فيه، لكنه مطلوبٌ منه البحث عن موقفه الشرعي نيَّةً وعملًا، فهو إنما يُحاسَب على ذلك، فالقاتل الظالم بقتله يبوءُ بإثم نيته وفعله، ويتحمل مسؤولية ذلك في الدنيا والآخرة، أما أجَلُ القتيل فهو غيبٌ محضٌ لا يخضع للبحث والنقاش، وهذا الغيب مكتوبٌ لا محالة على كلِّ إنسان.

سادسًا: مكانة الشهداء:

لا تختلف الشهادة عن الموت من حيث إزهاق الروح ومفارقتها للجسد، ومن حيث كونهما بأجلٍ محتومٍ لا يحيد عنه ميت ولا شهيد، وكذا ما ينبَنِي عليهما من أحكام دنيويَّة؛ كالميراث، وعدَّة الزوجة، ونحوهما، وإنما الفارق في ما أعدَّه الله للشهداء من كرامة ومكانة، وما ذاك إلا لوجود النيَّة السليمة وارتباطها بالسلوك الشرعي المقبول عنده سبحانه ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن

فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ وذِكر الشهادة هنا فيه ردٌّ على تلاوم المنافقين وضعفاء الإيمان، وتخفيف عن ذوي الشهداء، وفيه دافعٌ كبيرٌ للتضحية بالنفس كلما حانَ وقتها.

سابعًا: دور المنافقين:

لم يكتف المنافِقُون بإعلان انشقاقهم وانسحابهم في وسط الطريق، وهو موقف لا يمكن تبريره بأي مقياسٍ، خاصَّةً أن جيش أُحدٍ كان بقيادة مباشرة من رسول الله ﷺ، فالانشقاق عنه مُؤذِنٌ بالانشقاق عن الدين نفسه ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْۖ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِۚ ﴾ بل زادوا على ذلك في مباشرتهم للإيذاء النفسي والمعنوي للمؤمنين الذين أصابَهم القرح الشديد في تلك المعركة ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ ﴾.

ولا يبعد أيضًا أن قوله تعالى في هذا المقطع: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّۚ ﴾ جاء ردًّا على إشاعات المنافقين التي مسَّت رسول الله ﷺ في أمانته، وهو الصادق الأمين قبل البعثة وبعدها، بأبي هو وأمي.

وهنا ملحوظة لا بُدَّ من التنبيه عليها، وهي: أن أهل السير يذكرون أن عدد المنافقين كانوا نحو ثلاثمائة وهم ثُلُث الجيش، وهذا رقمٌ كبيرٌ وربما دخَلَته التقديرات الخاطئة؛ حيث لم يكن هناك إحصاء مُعلَن بأسماء المنافقين، وإن صحَّ هذا التقدير فهو لعدد المُنسَحِبين، وهؤلاء قد يكون فيهم من الضعفاء والمُتردِّدين ممن لم تتعمَّق فيهم معاني التضحية، وليس شرطًا أن يكونوا كلهم منافقين، والله أعلم.

﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ۖ﴾ إشارة أن الذنب الثاني من عقوبة الذنب الأول، فمن اقترف ذنبًا ولم يتُب منه كان أقرب لارتكاب الذنب الثاني، وهكذا يكون الانحدار نحو الفسوق، ومن هنا تتأكد أهمية التوبة، ليس في كونها تمحو الذنب الأول فقط، بل لتَقِي من الذنب الثاني.

﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْۗ﴾ فالتلاوم في الآجال المحسومة لا يقود إلا إلى الحسرة، هذا واقع، وهو من سنَّة الله، وهو المقصود بالجَعْل هنا، والله أعلم.

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ﴾ رحمة الله هنا قدريَّة وتشريعيَّة، فرحمته القدريَّة أن اختار لنا هذا النبي الرؤوف الرحيم، ورحمته التشريعيَّة أنه شرَّع ووجَّه بكلِّ معاني الرحمة ومفرداتها، والله أعلم.

﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ إشارة إلى أن المُصلِح إذا كان من القوم يكون أدعَى لتحقيق الإصلاح فيهم؛ لأنه يعرفهم تمام المعرفة، كما أن فيها إشارة حبٍّ وودٍّ تجاه ذلك النبي الكريم ﷺ.

﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِۚ﴾ دلالة أن النفاق ليس شرطًا أن يكون انحيازًا كاملًا للكفر، بل قد يكون نوعًا من الضعف والتردد بسبب اضطراب المصالح والعلاقات، وهو يفتح الباب للدعاة والمصلحين أن لا ييأسوا في دعوتهم من أحد.

وقد يكون المعنى: أن موقفهم هذا أقرب لأهل الكفر، فهو حكم على الظاهر من تصرُّفاتهم، ثم عقَّب مباشرةً ببيان ما في نفوسهم ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْۚ﴾ والله أعلم.

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۢ ﴾ دلالة أن الشهادة إنما تكون لمن يُقتل في سبيل

الله ومات على الإيمان ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أما التوسُّع في إطلاقها لرفع معنويَّات المقاتلين الذي يقاتلون في سبيل الأوطان خاصة والمصالح الدنيويَّة والحزبيَّة، فهو خروجٌ عن الدلالة القرآنية.

وأما إثبات الحياة والرزق للشهداء فهو من حالات الغيب التي لا نعلم كيفيَّتَها، ولا ينبَنِي عليها حكمٌ عمليٌّ بالنسبة لنا، والحياة الأخرويَّة لها صور كثيرة، منها: حياة البرزخ، وحياة الشهداء، وحياة الأنبياء، وهو عالمٌ آخر نُؤمِنُ بما جاء عنه بالدليل، ونكِلُ التكييفَ والتفصيلَ.

﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾

الرد السريع

تَعمد الجيوش المنكسرة عادة إلى ردِّ الاعتبار، وإعادة الثقة بجنودها، وتوجيه رسالة لكل من يَعنِيه الأمر أن الانكِسارَ مرحلةٌ من مراحل الصراع لا أكثر، من هنا جاءت غزوة (حمراء الأسد)، وهي التي دعا لها رسول ﷺ في اليوم التالي من النكسة لتعقُّب جيش المشركين الذي كان يشعر بالزهو، وقد تفاجأ فعلًا بهذا الخروج المفاجئ والمبكر، فالمشركون حينما قرروا ردَّ هزيمتهم في بدر جاءوا بعد ما يزيد على السنة، أما أن يكون الرد في اليوم التالي فهو مفاجأةٌ ثقيلةٌ لا يَقوَى على تحقيقها إلا جيشٌ مرتبطٌ بعقيدةٍ سماويَّةٍ أقوى من كلِّ الحسابات الأرضيَّة.

ويذكر أهل السير أن المشركين كانوا قبل هذه المفاجأة يُفكِّرون جديًّا بالرجوع إلى المدينة واستئصال الوجود الإسلامي فيها.

لقد آثر حُكماءُ قريشٍ الانسِحابَ من المواجهة بعد مُراسلاتٍ غير مُباشرة تأكَّدُوا فيها من عزم المسلمين على ردِّ الاعتبار وحِرمان المشركين من لذَّة الغَلَبة والانتصار، وبهذا تكون

(حمراء الأسد) الغزوة الأسرع إعدادًا وتجهيزًا، والأقل خسائر، والأكبر نتائج.

ويُذكَر أن الرسول ﷺ قد انتدب المسلمين للخروج ممن شارك فعلًا في معركة أمس، وهذا المقطع كله إنما جاء ليوثّق هذه التجربة.

دقائق التفسير

﴿أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾ حيث فقدُوا خيرة الأصحاب، منهم: حمزة عم رسول الله، ومصعب سفيره لأهل يثرب، كما جُرِحَ رسول الله ﷺ وأُشِيعَ خبر مقتله، والخسائر المعنوية والنفسية (الغم) لم تكن بأقل من ذلك.

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ يذكر أن الذي قال لهم ذلك رجل واحد، فيكون هذا من باب إطلاق العام وإرادة الخاص، والصيغة تُوحِي بجهالة الناقل، وكأنها نوع من الإشاعة والحرب النفسية لا أكثر.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾ إشارة إلى النصر المرحلي الذي أحرزه المشركون في أُحُد، وهنا تأكيد للمعيار الكلي في تقويم الأمور والأحداث والأشخاص، فليس كلُّ غالبٍ إلى خير، وليس كلُّ مغلوبٍ إلى شرٍّ.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ فالمال نعمة كما النصر والجاه والصحة والقوة، والعبرة دائمًا ليس في ذات النعمة، بل في سلوك الإنسان قبلها ومعها وبعدها، وكأن القرآن يرى حاجة البشرية لتصويب نظرتها لمعيار الحقِّ والباطل، والحسن والقبح، والفضيلة والرذيلة، فتلك النعم كلها لا تعني الأفضلية على الخلق إن لم تقترن بالإيمان والعمل الصالح، بل قد تكون سببًا للبلاء والشقاء في الدنيا والآخرة، إضافةً إلى ما يمكن أن يُسبِّبُه البخلُ من هزيمة عامة لا ينجو من ضررها البخيل نفسه.

لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ
عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا
نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن
كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ
ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا
مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ
وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ
أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا
تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ
مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى
ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا
بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا
مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا
وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم
مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ
سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن
تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ
أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ
ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

العلاقة بأهل الكتاب

بعد الانتهاء من معركة أُحُدٍ وتداعياتها والدروس المستفادة منها عاد القرآن إلى موضوع السورة الأساس، وهو العلاقات بأهل الكتاب، وربما كانت المناسبة بين الموضوعين هو موقف أهل الكتاب من المسلمين بعد نكسة أُحد ﴿ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ﴾ والتطرق مجددًا إلى أهل الكتاب حمل انتقادات حادَّة لمواقفهم، ونماذج صارخة من سلوكيَّاتهم، كما جاء بتوصياتٍ جامعة ومركَّزة للمسلمين، ويمكن تلخيص هذا في النقاط الآتية:

أولًا: حال أهل الكتاب:

١ – التعالي على الله ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ﴾ وهذه جرأةٌ ووقاحةٌ لا تنم إلا عن سوء في التديُّن، وسوء في الخُلُق، وهي تعبِّر عن تشوُّش واضطراب في مفهوم الإيمان وعلاقة هذا المخلوق بخالقه.

٢– الكذب على الله ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ ﴾ وهذه الكذبة تحمل في ذاتها دلالة ضمنية على انتظارهم لنبيٍّ، فمن هذا النبيُّ؟ وأين ذهبت هذه النبوءة؟

٣– قتل الأنبياء ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ ﴿قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾.

٤– كتمان الحقِّ ونبذ الكتاب ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ﴾.

٥– التحالف مع المشركين ضد المؤمنين ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ﴾.

٦- الرياء الكاذب ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ﴾ وهذا سوءٌ مركَّب، فالناس يراؤون بصالح أعمالهم، فيكون الرياء سببًا في بطلانها وقطعها عن الثواب المرجوِّ منها، وهؤلاء يراؤون بأعمالٍ لم يعملوها، بمعنى أنهم يدَّعُونها ادعاءً، وقد ينسِبُون لأنفسهم أعمال غيرهم، وبهذا جمعوا بين الكذب والظلم والرياء.

٧- إن هذه الخِلال والصفات الذمِيمة لا تَصدُق على عامة أهل الكتاب، فهناك صنفٌ مختلفٌ لم يشَأ أن ينزَلِق إلى هذا المنحدر ﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۗ﴾.

ثانيًا: حال المؤمنين:

١- التفكُّر في هذا الكون والتأمل في نواميسه وسننه ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾، ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا﴾ وهذا التفكُّر هو ما يميِّز الإنسان عن سائر الكائنات، وهو وظيفة العقل المعطَّلة لدى كثير من الناس بسبب دورانهم في فلك الشهوات الجسدية، والمصالح المادية، وحبس اهتمامهم فيها.

إنَّ أُولِي الألباب (العقول) هم الذين يُعمِلُون عقولهم لاكتشاف أسرار هذا الخلق، وهي الخطوة الأولى على طريق الهداية.

٢- الاستجابة لنداء الإيمان ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ﴾ ولكي لا يتوهَّم واهم أن هذا الإيمان جاء تقليدًا للمنادي من غير دليلٍ ولا برهانٍ، جاءت هذه الاستجابة بعد آيات التفكُّر والنظر في ملكوت الله، وإعمال العقول، وهذه الاستجابة تعبِّر في الوقت ذاته عن صدقٍ مع النفس، واستشعار جديَّة الأمر، وإلا فهناك كثيرٌ ممن تقوم عليهم الحجَّة لكنهم يُصِرُّون على الباطل عنادًا وتكبُّرًا، أو رغبةً في اللهو والعبث، وعدم الرغبة في تحمُّل تبعات الإيمان.

٣- الالتزام بتبعات الإيمان عبادةً وتضحيةً وثباتًا وصبرًا ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ ﴾، ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ ﴾، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾.

ثالثًا: ميدان المنافسة وميزان العمل:

مع بيانه لحال الفريقين أخذ القرآن يحدد ميدان المنافسة، ومعيار التقويم في نقاط محددة وواضحة:

١- إنَّ الله لا يظلم أحدًا ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾(١)، فالله هو ربُّ العالمين، خلقهم من العدم، وهو أعلم بهم منهم، وأرحم بهم من أنفسهم، وهو القادر على أن يفعل ما يشاء وكيفما يشاء، ومَن كان كذلك فهو مبرَّأٌ عن الظلم؛ لأن الظلم صفة نقصٍ من كلِّ وجهٍ، فهي صفةٌ مذمومةٌ بذاتها، وقبيحةٌ بصاحبها، وهي علامة عجزٍ؛ حيث إنَّ الظالم يخاف فوت مصلحةٍ أو شهوةٍ، أو يرغب في مضاعفتها، فيُبادر بظلم الآخرين وأكل حقوقهم، أو أنه يظلم سهوًا، فدلَّ ذلك على غفلته وقلَّة علمه، وكلُّ ذلك مُنافٍ لصفات الله العليم القدير سبحانه.

٢- إن كلَّ مكلَّفٍ مسؤول عن سلوكه وعمله خيرًا أو شرًّا ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ﴾ ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم﴾ فهذا هو الميزان الحقُّ، فلا مجال للاعتِذار بالقَدَر، فكلُّ فعلٍ إنما يُنسب لفاعله، فهذا مُصلٍّ، وذاك سارِق، وهذا مؤمنٌ، وذاك كافر، ونسبة هذه الأفعال إلى القدر مغالطة ومحاولة لتشتيت المسؤولية الجزائيَّة، فالله شرَّع أحكامًا دنيويَّة، وثبَّت جزاءات أخرويَّة على هذه الأفعال، وإنما يُؤخذ الفاعل بفعله، أما أن تكون هذه الأفعال خاضعة تحت مظلة القدر الكليَّة، بمعنى: أن الله قد

---

(١) تكرَّرَ هذا الجزء من القرآن في ثلاث مواضِع: آل عمران/ ١٨٢، الأنفال/ ٥١، الحج/ ١٠.

قدَّر على الإنسان أن يُمتَحن في هذه الدار، ويُجازَى على أدائه، فهذا القدر حقٌّ، وهو من كمال ربوبيَّته سبحانه وألوهيَّته، وليس فيه نسبةُ الفعل لغير فاعله، أو أن هناك إكراهًا قدريًّا على الفعل، فإكراه المخلوق للمخلوق مُؤْذِنٌ برفع التكليف عن المكرَه، فكيف بإكراه الخالق للمخلوق؟

٣- إن الغشَّ في هذا الميدان محرَّمٌ ومؤذِنٌ ببطلان العمل حتى لو كان صوابًا في نفسه، فالعمل ينبغي أن ينتج عن نيَّة صادقة، وعن إرادة متجرِّدة لفعل الخير ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾.

٤- إن التقلُّب في هذه الحياة في نِعَم الله أو في ضَنك العيش ليس دليلًا على الفوز والنجاح، ولا الهلاك والخسران؛ فأحوالُ الإنسان في هذه الدنيا من غِنًى وفقرٍ، وصحةٍ ومرضٍ، وما إلى ذلك لا تحمل دلالة معيَّنة على نتيجة المسعَى ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾.

٥- إن ميدان الامتحان يمتدُّ حتى الموت، وهو المصيرُ المحتومُ الذي لا يستثني أحدًا ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ ﴾.

٦- إن الجزاء الحقَّ إنما هو الذي سيكون بعد الموت ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ ﴾، ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ ﴾، ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾.

وأما أولئك الكاذبون المكذبون ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾، ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾.

٧- إن من تمام العبوديَّة الصادقة وعلامة الفوز أن يتضرَّع العبد بين يدي خالقه يطلب منه العفو والمغفرة، ولا يغترَّنَّ بما يُقدِّم، فإنَّ الله له المنَّة والفضل قبل العمل وبعده، فالله هو الذي ميَّزنا بالعقل، وحواس الإدراك، وأدوات العمل، وهو الذي علَّمَنا ما لم نعلم، ثمَّ إن ما قدَّمناه إنما هو لسعادتنا في الدنيا، والله هو الغنيُّ عنَّا وعن عبادتنا، فالثواب على الحقيقة إنما هو كرمٌ وفضلٌ محضٌ، ونحن لا نستحِقُّ الثوابَ إلا بوعده سبحانه؛ ولذا فإن الاغترار بالعمل دليلٌ على قلة الفقه، أو ضعف التديُّن ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾.

دقائق التفسير

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ الله يسمع قول هؤلاء وقول غيرهم، ويسمع كلَّ همسةٍ وحركةٍ في هذا الوجود، والتنصيصُ على السمع هنا قُصِدَ به لازِمُه وهو الغضب الشديد؛ إذ سماع الشتيمة بلا نقلٍ أو واسطةٍ أَدعَى للغضب؛ ولذلك توعَّدَهم مباشرة ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾.

وفي قوله: ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ مقابلة القول بالقول، فلما قالوا كلمة الكفر، كانوا أَولَى بسماع قولة العذاب، و﴿ذُوقُوا۟﴾ خرجت عن ذوق اللسان، وهو المألوف في أصل الاستعمال إلى معنى مباشرة العذاب وتحسُّسه يقينًا مؤكدًا، كما يتذوق اللسان المطعومات.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ إشارة إلى أن قولهم في القربان الذي تأكله النار كذِبٌ مِن كذِبهم، قصَدُوا بها التنصُّل من الاعتراف بالحقِّ المؤيَّد بالبراهين القاطعة، وحَرَفَ مسار الحوار إلى مثل هذه المُماحَكَات، وقد كشف الله نواياهم هذه ﴿قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ

﴿وَبِٱلَّذِى قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ﴾ والقرآن هنا يذكِّر بحادثة قتل اليهود لنبيٍّ لهم بعد أن جاءهم بقربانٍ تأكله النار كما طلبوا.

﴿كُلُّ نَفۡسٍ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾ تقريرُ المصير الواحد الذي ينتظر البشَرَ بمُختَلَف أسمائِهم وانتماءاتِهم، وفيه إشارة لتسلية المؤمنين على ما فَقَدوه من أحباب وأصحاب في معركة أُحُد.

﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ﴾ إشارة إلى صعوبة ذلك بسبب طبيعة البشر، وكثرة ظلمهم لأنفسهم؛ لأن الزحزحة عن الشيء تعني قرب الوقوع فيه، وهي إشارة تحذيريَّة وتربويَّة تجعل المرء أقربَ للطاعة، وأبعدَ عن المعصية.

﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ في الدنيا نِعَم كثيرة وجليلة، وقد امتنَّ الله بها على عباده في أكثر من موضع، والتهوين منها هنا تهوينٌ نسبيٌّ؛ لأن المقام هنا مقام الآخرة، والدنيا بالنسبة للآخرة ليست بشيء؛ لأن الآخرة هي الخلود، وكلُّ عمرٍ يقاس بالخلود فهو ليس بشيء، والله أعلم.

﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ﴾ أي: بما أَتَوا من جرائم ومظالِمَ؛ كتحريفهم للكتاب، وقتلهم للنبيين، وتعدِّيهم على مقام الربِّ الجليل سبحانه، وهذا سلوكٌ معروفٌ ومألوفٌ، فالكثيرُ من الظالمين يشعرون بالزهو ولذَّة الانتصار مع كلِّ جريمة يرتكبونها، فكلُّ أعمالهم المنكرة يعدُّونها إنجازات وانتصارات، وهم مع هذا يريدون من الناس وحتى المظلومين أن يُصفِّقُوا لهم ويشكُرُوهم على ما قدَّمُوه لهم! بعد تزيينِهِ بالكذب والباطل، وهذا هو الرياءُ المُركَّب بالظلم والكذب، والذي استحقُّوا به ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾ ترغيب بالذكر، وتيسير على الذاكرين ليذكروا ربَّهم في كلِّ مكانٍ وزمانٍ، ووضعٍ وحالٍ؛ لما للذكر من دَورٍ في تهذيب النفس وتزكيتها ودفعها للعمل والسلوك الأفضل.

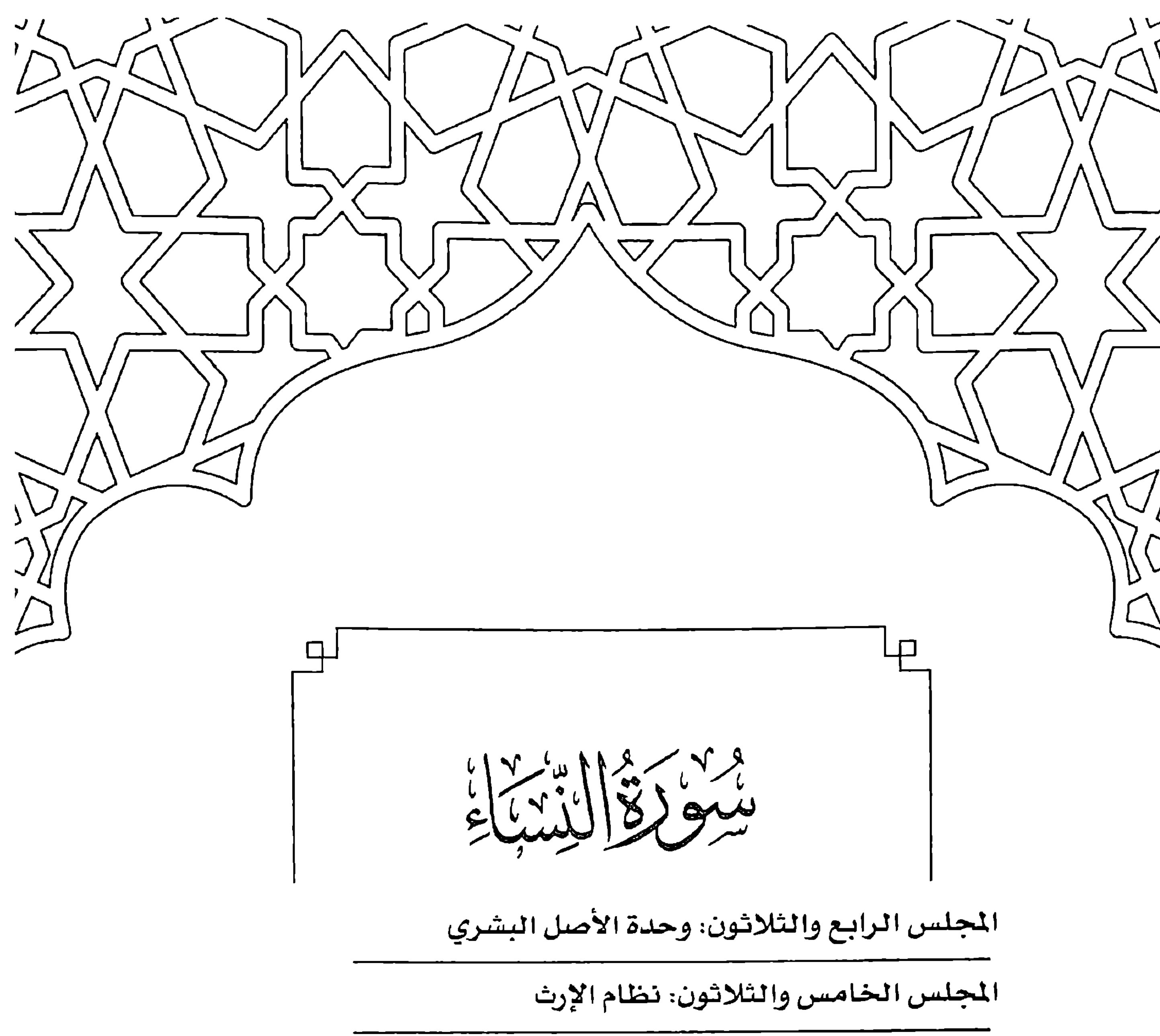
﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ﴾ ترغيب في الدعوة إلى الله، وفي النداء معنى الصراحة والوضوح والشعور بجديَّة الأمر، وكل هذا من شروط نجاح الدعاة في مهمتهم.

﴿إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ وهو الميعاد بالثواب وقبول التوبة واستجابة الدعاء، والله لا يخلف أبدًا ما وَعَدَ به، أما الوعيد فإنه مختلف؛ لأن العفو عن مستحق العقوبة واردٌ، وهو من كمال ربوبيَّته سبحانه، وهي صفةٌ محمودةٌ في الخلق، فكيف بالخالق الذي هو الأرحَمُ بعباده، والأغنى عن معاقبتهم؟

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ إشارة أنهم الكبار الذين يتحكَّمُون في البلاد والعباد، والذين يغترُّ بهم عامة الناس؛ لما يمتازون به من متاعٍ وأبَّهةٍ وسلطانٍ.

﴿ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾ ثلاثة أوامر ربَّانيَّة للعباد المؤمنين تختتم بها السورة، والفرق بين الصبر والُمصابرة: أن الُمصابرةَ لا تكون إلا بوجود خَصمٍ صابرٍ على باطله لتتحقق المشاركة والمغالبة، وهو مُستوى من الصبر أشدُّ من الصبر الأول؛ لأنه يستلزم المطاولة وحبس النفس إلى نهاية المشوار، فإنما الأمور بخواتيمِها.

وأما الُمرابطة فهي المكوث في موضع الحراسة أو ساحة الجهاد، مع الحذر والاستعداد التام، ويُقاسُ عليها الثبات في كل ميادين الحقِّ؛ من دعوةٍ، وتربيةٍ، وعلمٍ، وعملٍ، وهي معاني التقوى، وشروط الفلاح ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾.



سورة النساء

المجلس الرابع والثلاثون: وحدة الأصل البشري

المجلس الخامس والثلاثون: نظام الإرث

المجلس السادس والثلاثون: المجتمع الطاهر

المجلس السابع والثلاثون: تنظيم شؤون المجتمع

المجلس الثامن والثلاثون: اليهود وعداوتهم للمؤمنين

المجلس التاسع والثلاثون: التشريع ومرجعية الحكم

المجلس الأربعون: التربية العسكرية

المجلس الحادي والأربعون: العلاقات العسكرية

المجلس الثاني والأربعون: توجيهات تربوية للمقاتلين

المجلس الثالث والأربعون: العلاقات الأسرية

المجلس الرابع والأربعون: المنافقون

المجلس الخامس والأربعون: أهل الكتاب

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١) وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا (٢) وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا (٣) وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا (٤) وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٥) وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (٦) لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (٧) وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٨) وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٩) إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (١٠)﴾

وحدة الأصل البشري

تستهل سورة النساء ببيان وحدة الأصل البشري ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ وهذه النفس هي نفس آدم ﷺ، ثم أجابت السورة عن سؤالٍ قد يرد بهذا الصدد بشأن حوّاء: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ فهي مخلوقة من جَسَدِ آدم.

وقد ورد في الحديث أنها «خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ»[1]، وبهذا يكون جميع البشر الذكور والإناث

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ينظر: صحيح البخاري (٣/ ١٢١٢/ دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧- ١٩٨٧م)، وصحيح مسلم (٢/ ١٠٩٠/ دار الجيل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).

ومن طرفي الأب والأمّ يرجعون إلى أصلٍ واحد، ونفسٍ واحدةٍ، وهذا مبدأ المساواة في الإسلام، بخلاف الفلسفات والنظريّات الأخرى التي تُؤسِّس للتمييز العنصري ثقافةً وسياسةً.

ومن أسس المساواة في الإسلام: أن جعل دائرة الولاء مفتوحة لكل داخل، بخلاف الولاءات القوميّة والقبليّة والوطنيّة ونحوها مما لا تتسع إلا لقومٍ مخصوصين، قد ورثوا هذا الولاء وراثةً من غير قرارٍ ولا خيار، فالمرء في هذه الولاءات مقيَّد بما ورثه من أبيه جنسًا ولونًا، لا يملك فيه تغييرًا ولا تعديلًا.

أما الولاء الإسلامي فهو ولاء (إيمان)، وبوسع الناس كلِّهم أن يدخلوا فيه مهما كان جنسهم ولونهم، ومن هنا جاء الخطاب القرآني الكريم مصدَّرًا بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾.

وقد حمل بعض المتأخرين خَلْقَ حواء من آدم على أنها خُلِقَت من نوعه، وليس من جسده، وهو تكلُّف لا تحتمله اللغة، ولا حاجةَ إليه؛ فقصة الخلق بالنسبة لنا غيب، ولا سبيل لإدراك الغيب إلا بالوحي، والنصُّ ظاهرٌ في أنَّ الله خلق حوَّاء من نفس آدم، وحمل النص على غير ظاهره بلا قرينةٍ صارفةٍ لا يصحُّ، والله أعلم.

هذا وقد تضمن هذا المقطع مسائل تفصيليَّة تندرج تحت هذا الأصل الكبير، ومنها:

حقوق اليتامَى:

المسألة الثانية التي يتناولها المقطع تتعلق بحقوق اليتامى الذين يفقدون آباءهم وهم في سن الصغر دون البلوغ، وهؤلاء بحاجة إلى رعايةٍ خاصة أمينة وحانية، وقد مهَّدت السورة لهذا الأمر بالتذكير بمكانة الأرحام ومنزلتهم في الدين ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١ وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ فالذي يتولَّى شؤون الأيتام في العادة لا يخرج عن دائرة الأرحام.

ثم نصَّ على الحقوق المالية لليتيم؛ لأنها مظنَّة الطمع، ولأنها قد تتداخل مع مال الوصيِّ، فيكون هناك نوع من التجاوز وإن كان بغير قصد.

ثمَّ عرَّج على أمرٍ في غاية الحساسية متعلق بمصير اليتيمات؛ حيث يكُنَّ عُرضةً لهضم حقوقهن الماديَّة والمعنويَّة والاجتماعيَّة في مرحلةٍ انتقالية من أعمارهنَّ، وهي مرحلة التهيُّؤ للزواج، وهنا قد تتدخل الرغبات من قِبَل الأوصياء لدفعهن للزواج بغير رضا، أو من غير كفء، أو بمهر أدنى من مثيلاتهنَّ، وقد لا يكون الأمر بإكراه، وإنما حياؤهنَّ ووفاؤهنَّ لَمن أحسن إليهنَّ وتكفَّلهنَّ قد يمنعهنَّ من إبداء رأيهنَّ.

ومن هنا جاء التوجيه الربَّاني بأخذ الحيطة ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ كأنَّه يقول: إن النساء غيرهنَّ كثير، فدعوا ما فيه شبهة الإجحاف والجور، ثم نبَّه إلى حقٍّ آخر يشمل الأيتام واليتيمات ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾.

وفي هذا التنبيه أحكام وتوجيهات كثيرة، تبدأ باختبار اليتيم واليتيمة للتأكُّد من قدرتهما على التصرف بأموالهما التصرُّفَ السليم، خاصة وأنهما سينتقلان إلى حياة جديدة بمسؤوليات وواجبات جديدة، ومن ذلك مثلًا: أن اليتيمة التي ستتزوَّج من رجلٍ أجنبيٍّ قد تكون عُرضةً للابتزاز، واستحواذ زوجها على مالها بعدم إدراكها، وضعف خبرتها، وغلبة عاطفتها، وهذه حالةٌ من حالاتٍ كثيرةٍ استوجَبَت ذلك التنبيه الربَّاني ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ﴾.

حقوق الزوجات:

جاء الحديث عن حقوق النساء في هذا الموضع تفريعًا عن حقوق اليتامى، وملاحظة هذا النسق تُعينُنا على فهم بعض المسائل التي قد ترِد هنا؛ ومنها: استهلال الحديث عن حقوق النساء بالتعدد، وهو إنما جاء لترغيب الأوصياء، وبيان سعة الخيارات المتاحة أمامهم بعيدًا عن شبهة الحيف بالزواج من اليتيمات اللواتي تحت أيديهم، وقد ذهب بعيدًا من ظنَّ أن التعدد في الزواج أصل، فإن السياق لا يقتضيه، والله أعلم.

وقد وهِمَ أيضًا مَن عدَّ التعدُّد حقًّا للأزواج، فحاجة المرأة في الزواج ولو كانت ثانية أو

ثالثة أو رابعة أولى من حاجة الرجل؛ ولذلك ترغب فيه، ولو امتنع النساء عن ذلك لما حصل التعدد أصلًا، والخلاف فيه ليس بين الرجال والنساء، وإنما هو خلاف بين الضرائر من النساء، فالأولى تشعر بالضرر من التعدد، وهذا شعور مفهوم ومبرّر لمكان الغيرة ولكثرة ظلم الأزواج، والأخرى تشعر بالحاجة للزواج فهو بكلِّ الأحوال أولى لها من الحياة عازبة أو أرملة أو مطلقة، وأن تعيش شريكة في الزوج أنفع لها من أن تعيش مع زوجة أخيها مثلًا بلا زواج ولا أمومة، أو تعيش منفردة بلا حقٍّ ولا أُنسٍ، وفي كلِّ هذا ألزم الله الزوج بالعدل، بل والتأكُّد من القدرة عليه قبل التعدد ﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾.

وإذا دار الأمرُ بين الوقوع في الحرام بمجافاة العدل وبين ترك المباح وهو التعدد فالعاقل من يتجنّب الحرام، وهذا هو منطوق الآية.

وقد وقع كثير من المعدِّدين في هذا الحرام من حيث إنهم أرادوا الخير، فقدّموا صورة لا تنسجم مع مبادئ الدين ولا مع سنَّة سيِّد المرسلين، ثم نبَّه القرآن إلى حقِّ (الصداق)، وهو مهر الزواج الذي تستحقه المرأة في مال زوجها؛ إكرامًا لها وسدًّا لحاجتها الخاصّة، وفيه تكلفة للزوج بما يبعده عن التفكير بالانفصال لأدنى مشكلة تقع بينه وبينها.

الحفاظ على المال:

في ثنايا الحديث عن مسائل من النظام الاجتماعي المنبثق أساسًا من وحدة الأصل البشري، وقبل ذلك من وحدة الخالق ﷻ، يأتي الحديث عن أهمية المال، ومسؤولية المجتمع في الحفاظ عليه بغض النظر عن المالك المعيَّن؛ حيث إن المال له وظيفة اجتماعيَّة عامة وشاملة وليس مجرَّد متاع بيد مالكه ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾.

ومن ثَمَّ فعلى المجتمع أن يضع حدًّا على تصرُّفات السفيه المبذِّر لماله، ووضع الحد على المبذِّر للمال العام أهم وأَولَى.

﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ يدور الآن في الأوساط العلميَّة البحث في إمكانيَّة (الاستنساخ البشري) بأخذ خليَّة حيَّة من الجسم وتنميتها في محاضن خاصَّة لتكوين إنسان آخر، وإن كان هذا لم يتحقق لحدِّ الآن، وقد يعجز عنه البشر تمامًا، إلا أن أصل البحث يقرِّب إلى الذهن قصَّة الخلق الأولى؛ حيث ينصُّ القرآن على أن حواء قد خلقها الله من آدم، والله أعلم.

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ بضمِّ أموال اليتامى إلى أموالكم، والصيغة مُوحية بالتنفير من الطمع، فالطامع لا يقنع بما عنده، بل يسعى لضم مال الآخرين إلى ماله، ولمّا كان الآخرون هم اليتامى كان التحذير أشد والاحتياط أوجب ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ أي: إثمًا كبيرًا، ثم أكّد وكرّر في نهاية المقطع: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾.

﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ ذِكْر حالات التعدد، والجمع بين هذه الحالات غير وارد لا لغةً ولا شرعًا؛ لأنه سينتج حالات جديدة خارجة عن النص خماس أو سباع أو تساع، وقد وهم من عدّ هذه الصور أو الحالات أرقامًا قابلة للجمع، فجاء بالرأي الشاذّ المخالف للنص والإجماع.

﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ أي: حقًّا ثابتًا لهنَّ ليس على سبيل التفضُّل، ومن ثَمّ لا يجوز التقصير أو التسويف فيه أو الأخذ منه إلا بطيب نفس منهنَّ.

﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ قاعدة عظيمة في التعامل مع المال؛ فكلّ مالٍ له وظيفة اجتماعيّة بغض النظر عن مالكه، وهو في يد المالك ما دام أنه لا يسيء استعماله، فإن كان سفيها مبذّرا ولا يحسن التصرّف فينبغي الحَجْر عليه، ووضع اليد على ماله إلا بالقدر الذي

يسدّ حاجته ﴿وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ﴾ وقد جاءت هذه القاعدة تفريعًا عن حقوق اليتامى والنساء في المال الذي ورثوه أو استحقّوه بأي سبب، فتسليم المال لهم مرهون بالرشد وانتفاء السفه، وفي هذا حفظ لأصل المال وهو - لا شك - في مصلحة النساء واليتامى، وفيه أيضًا حفظ لحقِّ المجتمع بحفظ الوظيفة الاجتماعيّة والاقتصاديّة العامة للمال.

﴿وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ﴾ تنبيه للوصيّ أن لا يسرف في مال اليتيم بأن يأخذ منه أكثر مما يستحق مقابل سهره وتعبه، وأن لا يبادر بصرف المال كما يشتهي متعجِّلًا قبل أن يبلغ اليتيم حيث تنقطع الوصاية ويرجع المال لصاحبه.

﴿وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾ توجيه للوصيِّ بأن يأكل من مال اليتيم بقدر أتعابه ومستلزمات وصايته فقط، هذا إذا كان فقيرًا ولا يستطيع أن يقوم بالوصيَّة من دون ذلك، أما إذا كان مُقتدرًا فليحتسب وصايَتَه لله، وليستعفف عن مال اليتيم، والله أعلم.

﴿فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ تجنُّبًا للشكِّ والنزاع المحتمل، فالوصيُّ إذا رأى أن يدفع لليتيم أمواله بعد البلوغ والرشد فعليه أن يُوثِّق ويُشهِد على ذلك.

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنۡهُ أَوۡ كَثُرَۚ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا﴾ هذه الآية ممهدة لأحكام الميراث الآتية بعد ثلاث آيات، وتقديمها جاء إتمامًا لحقوق اليتامى ورعايتهم والتلطّف بهم، فأثناء توزيع التركة قد يحضر بعض الأيتام ممن ليس لهم حقّ في التركة ونحوهم من الأرحام وكذا الفقراء والمساكين ﴿فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾.

﴿وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا﴾ توجيه لمن يحضر الميت عند وصيّته قبل أن يقضي، بأن يتحرَّوا سداد الرأي، فإن

كان عنده ورثة قاصرون ومحتاجون فليوصوه بالتقليل من الوصيّة في الجهات الأخرى؛ لأن هؤلاء الورثة أَولَى، وإن كان من الحضور أيتام ومساكين من غير الورثة فليوصوه بهم، فهذا هو القول السديد؛ أن يعطي كلّ ذي حقٍّ حقّه، وأن هؤلاء الحضور عليهم أن يتصرَّفوا بالنصح كما لو كان أولئك الورثة القاصرون أو هؤلاء اليتامى الحاضرون هم من ذريَّتهم، هكذا ينبغي أن تكون الرحمة والحكمة، والله أعلم.

﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۗ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ ۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾

نظام الإرث

يأتي هذا المقطع مكمِّلًا للمقطع الذي قبله والذي بدأ بالحديث عن وحدة الأصل البشري، ثم عن حقوق اليتامى والزوجات، وفي أثناء ذلك نبّه إلى أهميّة المال ووظيفته، ثم شرع في هذا المقطع ببيان نظام يربط بتفصيل دقيق بين النظام المالي والنظام الاجتماعي، وهو نظام الإرث الذي جاء مفصّلا في هذه الآيات، وقد حظِيَ باهتمام المفسّرين والفقهاء وعُقِدت له أبواب خاصّة، والذي يَعنينا هنا الوقوف على فلسفة التشريع الكلية من خلال المسائل الآتية:

الإرث وتفتيت الثروة:

يجمع الإسلام بين حقِّ الملكيَّة الفرديَّة ومبدأ تفتيت الثروة وتوزيعها؛ بحيث لا تبقى محتكرة بيدٍ واحدة، ونظام الإرث واحد من أدوات الإسلام في تحقيق هذا المبدأ؛ حيث إن المالك يتصرَّف في ملكه طيلة حياته، فإذا توفِّي أو حضَرَتْه الوفاة حصر الإسلام حقّه في التصرف بثلث ماله فقط والباقي يؤول للورثة بنظام يحدده الشرع، وليس لأحدٍ الحقّ في تغييره أو تعديله، وبهذا يضمن الإسلام توزيع الثورة بعد مالكها الأول، وهذا بخلاف النُّظم الرأسماليّة التي تتيح للمالك حكر ماله من بعده في يدٍ واحدةٍ، كما أن الإسلام يخالف في أصل الملكيَّة النظريَّة الشيوعيَّة التي تستهين بحقِّ الفرد في التملك.

إن حقَّ الفرد في التملك هو جزءٌ من تعبيره عن ذاته وكيانه وفطرته، وهو في الوقت ذاته دافعٌ أساسٌ للعمل والإنتاج والمنافسة في تجويد هذا الإنتاج وتسويقه، أما عند حضور الأجل فقد انقطع هذا الدافع، ومن ثَمَّ تترجح وظيفة المال الاجتماعيَّة ودوره في التنمية العامة بأن يعطى لأكثر من يدٍ وهم الورثة، ويمنع المالك الأول من توريثه على هواه؛ لأن هذا يضرُّ بالوظيفة الماليَّة.

ومستند الحقّ في هذا المنع أن هذا الإنسان إنما استحقَّ هذا المال على جهة الاستخلاف والتوكيل وإلا فإن أصل المال لخالقه ﷻ ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ﴾ [الحديد: ٧]، وهذا الاستخلاف مرتبطٌ بحياته، فحينما أشرَفَ على الموت قُيّدَ هذا الاستخلاف لينتقل المال الذي بين يديه إلى مستَخلَفين آخرين، وهكذا ينتقل المال من يدِ مستخلَفٍ إلى مستَخلفين آخرين في كلِّ جيل، وكما جاء المرء إلى هذه الحياة مُجرَّدًا من كلِّ ملكٍ فسيخرج منها كذلك، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

حقُّ الذكَر وحقُّ الأنثى:

نصَّ القرآن الكريم في هذه الآيات على أن حظَّ الذكر من الإرث هو مثل حظِّ الأنثَيَين ﴿لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾ وهذه قاعدةٌ معروفةٌ في العَصَبَات، أما في ذوي الفروض فقد

يُوافق، مثل: حال الزوج والزوجة، وقد يخالف، كما في قوله: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾ وفي كلِّ هذا حكمة ربَّانيَّة، وحساب دقيق ليس فيه مُحاباة ولا غَبن.

غير أن بعض المتأثرين بالفلسفات الغربيَّة قد أنكروا هذه القِسمة، وزعموا أنها ميل للذكر دون الأنثى، وأغلب الظنِّ أنَّ هؤلاء قد اقتطعوا هذا الحكم من بقيَّة الأحكام المالية التي تنظِّم العلاقة بين الذكر والأنثى، فقبل هذه الآية نصَّ القرآن على أن الصداق حقٌّ خالصٌ للأنثى في مالِ الذكر، ولم نسمع منهم مُعترِضًا أو شاكيًا، وزيادة على الصداق أوجب الله للمرأة في مال الرجل السكن والنفقة، وهذه التكاليف أكثر بكثير من زيادة نصيبه في الإرث، وكأنَّ الزيادة هذه لم تكن سوى رأس مال يُنمِّيه الذكر لينفق منه على أُنثاه التي أمره الله برعايتها وسدِّ حاجتها.

وهنا ينبغي التنويه أن الفلسفة التي ينطلق منها الفكر الغربي قد جنحت نحو المساواة بين الذكر والأنثى في كل شيء، وهي بذلك تتغافل عن التنوّع والتكامل اللذَين هما أصل العلاقة بين مفردات هذا الكون، وهذا التنوع يتطلب العدل وهو إعطاء كلِّ ذي حقٍّ حقّه، وجعل كل شيء في مكانه الأنسب ودوره الأليَق، أما المُساواة التامة بين المختلفين فهي الظلم بعينه، وقد يلحق الضرر بالاثنين معًا، وإنكار الفوارق الجسديّة والنفسيّة بين الرجل والمرأة تعسُّف وتكلُّف ظاهر.



دقائق التفسير

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ تمهيدٌ لأحكام الإرث، وفيه شعور بالحنو والعاطفة، وقال: ﴿يُوصِيكُمُ﴾ مع أنها أحكامٌ جازمةٌ ومحددةٌ، كأنه يقول لهم: إن هذه الأحكام هي لكم، ولصالح أولادكم، وهذا أدعَى للالتِزام بها والحرص عليها.

﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ المقصود اثنتان فما فوق؛ إذ الحكم اللاحق

يتعلق بالواحدة ﴿وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ﴾ وليس بينهما حكم ثالث، وإهمال حكم البنتين ليس بوارد، والآية الأخيرة في هذه السورة تنص على أن الثلثين نصيب الأختين ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ والبنتان أولَى في هذا من الأختَين.

وقد وَهِمَ من قال: إن ﴿فَوْقَ﴾ زائدة؛ لأن زيادتها تعني إهمال حكم الثلاثة فما فوق، فكأنَّه وقع فيما فرَّ منه.

ومن اللطائف العلميَّة هنا: أن حكم البنتَين هنا قد استُفِيد من آية الأختَين، وهي الآية الأخيرة من هذه السورة، وحكم ما فوق الأختَين قد استُفِيد من هذه الآية التي نحن بصددها، وهكذا يفسِّرُ القرآن بعضه بعضًا، والله أعلم.

﴿لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ إشارة أن الوارث يستحقُّ نصيبَه من الإرث ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ بغض النظر عن رأي المورِّث وطبيعة العلاقة بينهما.

﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ إذ المتوفَّى له الحقّ أن يوصي قبل موته بالثلث من تركته فما دون، وللدائنين أن يستردُّوا دَينَهم أيضًا بالتنصيص من المتوفَّى أو بما يقدمونه من بيِّنةٍ، وهكذا كلُّ حقٍّ مالي في ذمَّة المتوفَّى، والله أعلم.

﴿غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾ توجيه للموصي أن يتجنَّب الإضرار بالورثة أو بعضهم من خلال الوصيّة التي يوصي بها، أو بادِّعائه الدين عليه بقصد حرمان الورثة من حقِّهم.

﴿يُورَثُ كَلَٰلَةً﴾ الكلالة في اللغة التعب والضعف، وقد استعمله القرآن هنا في الشخص الذي يتوفى وليس له والد ولا ولد على قيد الحياة، وهنا ستكون التركة بين الحواشي من الأقرباء.

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ دلالةٌ أن أحكام الميراث هذه حدود مُقرَّرة ليس لأحدٍ أن يتجاوزها أو يستهين بها، وفي هذا دفع لشبهة التوجيه المجرد من الإلزام، والذي قد يُفهَم من الوصيَّة في قوله: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾.

﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧﴾ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴿١٩﴾ وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿٢٠﴾ وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٢٣﴾ ۞ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم بِهِۦ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡفَرِيضَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿٢٤﴾ وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖۚ فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡۚ وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ﴿٢٨﴾﴾

حفاظًا على طهارة المجتمع ونقاء الأسرة شرع القرآن في بيان المنهج العملي الذي يحقق هذه الغاية، فحرّم الزنا وسمّاه (الفاحشة)؛ تنفيرًا عنه وتنبيهًا على خطره وكبير ضرره، وبدأ بالنساء ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ﴾ لأنهنّ المتضررات به أكثر من الرجال؛ حيث يفتضح أمرهنَّ بالحمل ونحوه، فتكون الفضيحة والسقوط الاجتماعي، بخلاف الرجل الذي لا يظهر عليه من هذا الأثر شيءٌ، وكذلك لأن سمعة المرأة أرقّ، فهي كالثوب الأبيض الذي لا يحتمل الدنس، ولأن مقدمّات هذا المنكر إنما تكون في العادة من سوء تصرُّف المرأة بالزينة في غير محلِّها، وبِلِين القول مما يُسقِطُ عنها الهَيبَةَ؛ فيتشجَّعُ الرجلُ على طرق بابها.

ثم ثنّى بالرجال: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ﴾ لكي لا يظنّ الرجال أنهم بمنأى عن الملامة والعقوبة، ومن الملاحظ هنا أنه عجّل بعقوبة الرجال ﴿فَـَٔاذُوهُمَاۖ﴾ وأجّل عقوبة النساء إلى مرحلة أخرى في التشريع، واكتفى هنا بحبسهنّ في البيوت حبسًا احترازيًا واحتياطيًّا، والعقوبة أيًا كانت دليلٌ على أن الإسلام لا يكتفي بالنصح والتوجيه، بل هو يحمّل المجتمع والدولة المنبثقة عنه مسؤولية المنع والردع، فليس كلّ النفوس تستقيم بالموعظة والبيان.

ومع هذا الموقف الحازم والرادع لم يقطع الإسلام طريق المراجعة والتصحيح الذاتي ﴿فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا﴾ ولكي لا يُستغل هذا الطريق للتمادي في المنكر جاء الاستثناء الواضح والدقيق ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ﴾.

ولِعِلم الله أن هذه الشهوة مغروسة في الإنسان وهو بحاجة إلى إشباعها شرّع الزواج، وهو الحل الأزكى والأطهر ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ﴾ فالله لم يغلق الباب الحرام إلّا

وفتحَ الباب الحلال الواسع الذي يستوعب هذه الشهوة الغريزيّة ويوجهها باتجاه الخير مودّةً ورحمةً واستقرارًا وسكينةً وحفظًا للصحة والنسل والنسب.

ثمَّ فتح بابًا آخر للعلاقات الاجتماعيَّة البريئة والنافعة بين الرجال والنساء وهي دائرة (المحارم) وعظَّم من شأن هذه الدائرة؛ لأنَّها ضرورة حياتيَّة، ولها أكثر من وظيفة نفسيَّة واجتماعيَّة وثقافيَّة، وهي واحة التواصل وواحة التعاون والتكافل والتشاور، ومن ثَمَّ كانت الشهوة هنا محرَّمة ومرفوضة رفضًا أشدَّ وأخطر منها مع الأجانب ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾.

دقائق التفسير

﴿فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾ وهذا هو طريق إثبات تهمة الزنا، والمتأمِّل فيه يجده صعب التحقق؛ إذ لا يكون الزنا في العادة أمام الناس، ولو حصل في مجتمع الرذيلة مثل هذا فإنَّ الشهادة ستُردُّ في الغالب؛ لأن الذي يكون في ذلك الموقع يكون متهمًا أيضًا ومردود الشهادة، وكأنَّ هذا الحدّ إنما جاء للتخويف والردع، ومنع المجاهرة بالزنا.

أما العلاقات السريَّة التي قد تحوم حولها الشبهات والقرائن بلا بينة قاطعة فغاية ما فيها الحذر والاحتياط ومنع المقدِّمات، وربما التعزير فيما دون الحدِّ، وأما الإقرار فهو حالة من القلق الذاتي وتأنيب الضمير؛ بحيث يرى العقوبة أهون عليه مما هو فيه، وله أن يرجع عن إقراره، وله أن لا يقرَّ أصلًا، فالحدُّ عقوبة قضائيَّة، وليست شرطًا في التوبة الدينيَّة، والستر أولَى من طلب إقامة الحدِّ، ولو طلب هو إقامة الحدِّ تديُّنًا ونَدَمًا فليس للقاضي أن يسأله عن شريكه في الجرم، مع أن هذه الجريمة لا تكون إلا بالاشتراك.

وهذا الفقه يقطع الطريق على من راح يبحث لإقامة الحدِّ عن طريق الفحص الطبِّي ونحوه؛ إذ هذا التوجُّه يختَلِف في الأصل مع الرؤية الشرعية لهذا الموضوع، والله أعلم.

﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ﴾ ليس فيه تنصيص حصري على اللواط، وإن كان متضمنًا له؛ لأن المقصود به كلّ اثنين يمارسان معًا هذه الجريمة، والله أعلم.

﴿لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ﴾ إبطال لعادةٍ جاهليةٍ، كان فيها الوارث يرث عن مورّثه زوجته ما لم تكن أُمًّا له كأن تكون زوجة أبيه مثلًا كما يرث ماله ومتاعه.

﴿وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ﴾ تحذيرٌ من سلوك بعض الأزواج؛ حيث يقومون بتنكيد عيش زوجاتهم ومضايقتهنَّ ليطلبن بذلك الخلاص بالخلع مقابل تنازلهنَّ عن حقهنَّ في المهر ونحوه، ثم استثنَى من ذلك مُرتكبة الفاحشة، وهذا الاستثناء هو مناسبة ذكر عضل الزوجات في هذا السياق.

﴿وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ﴾ والقنطار هو: المال الكثير الذي يدفعه الزوج صداقًا لزوجته، وليس في الآية تشجيع على زيادة المهور، بل هو تبيينٌ لسبب احتيال الزوج عليه بالعَضْل وغيره، فالمال الكثير يثير الحرص والطمع بخلاف القليل، والله أعلم.

﴿وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ﴾ أي: المعاشرة بلا حاجز ولا احتِشام؛ إذ الإفضاء هو الوصول إلى الشيء ومباشرته بلا حائل ولا واسطة.

﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ﴾ ليس في هذا الاستثناء إقرار لهذا النوع من العلاقة وإن كانت بعَقدٍ سابقٍ، بل هو عن العلاقات المنتهية السالفة، وفائدتُه رفعُ الحرج النفسي والاجتماعي عن تلك العلاقات وما نَتَجَ عنها، والله أعلم.

﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ﴾ أي: الأمهات والجدات، وكذا ﴿وَبَنَاتُكُمۡ﴾ أي: البنات والحفيدات.

﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾ ولو بمجرد حصول العقد من غير دخول؛ إذ العقد على البنات يحرّم الأمّهات، ولا ينعكس، فالعقد على الأمهات لا يحرِّم البنات إلا إذا اكتمل بالدخول ﴿فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾.

﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾ الرَّبيبة بنت الزوجة، وهي محرمة على زوج أمها بعد الدخول كما مرَّ، وقوله: ﴿فِي حُجُورِكُم﴾ أي: في بيوتكم، وهذا القَيد ليس احترازيًّا، فالربيبة محرمة سواء كانت في هذا البيت أو غيره، وفائدة ذكر الوصف: إثارة الرحمة والعطف بها في قلب الزوج.

﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ فزوجة الابن محرمة، وكذا زوجة ابن الابن، والقيد ﴿مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ احتراز عن زوجة المُتبَنَّى، لا غير.

﴿۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: النساء المتزوجات، فليس للمتزوجة الزواج من رجلٍ آخر قبل انتهاء عدَّتها من زوجها الأول وانفصالها عنه بالكامل.

ومناسبة الحكم هجرة بعض المؤمنات المتزوجات من مشركين في مكة، وقد وقع الانفصال الفعلي، دون الانفصال القضائي الشرعي، وهذا بخلاف من تقع في السَّبي من المشركات أثناء الحرب، فهذه لها أحكام خاصَّة تتعلق أولًا بسياسة الدولة المسلمة والتزاماتها مع الدول الأخرى، وطريقة تعامل العدو مع أسرانا من رجال ونساء، وملك اليمين هو حالة واحدة من حالات كثيرة واحتمالات متعدِّدة، والأمر أوسع بكثير مما يُظنُّ أو يُتوهَّم.

وقد ترد المحصنات بمعنى: الحرائر متزوجات أو غير متزوجات، ومنه قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾.

﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: مهورهنَّ، والاستمتاع هو الزواج المشروع بضوابطه وأحكامه المعروفة.

وأما المتعة المؤقَّتة فهي تخالف معنى الزواج والسكينة والاستقرار، والتمسك بلفظ الأجور لا حجة فيه، وحمله على ثمن المتعة المؤقتة باطل؛ لأن الله ذكره بالنص في حقِّ أمهات المؤمنين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

﴿طَوْلًا﴾ غنى، والمقصود به هنا القدرة على دفع المهر.

﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ بمعنى: نساء عفيفات ليس عندهنَّ أصحاب وخلَّان من غير أزواجهنَّ.

﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ نزلت في الأَمَة التي ترتكب الزنا بعد إحصانها؛أي: زواجها، فتجلد خمسين جلدة، وهي نصف حدِّ الحرَّة المحصنة.

والظاهر من الآية: أن الأَمَة غير المحصنة ليس عليها حدّ، وما ثبت من جلدها في السنّة محمول على جلد التأديب والتعزير، وخلاف الفقهاء في هذا معروف، والله أعلم.

﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾أي: خشِيَ الوقوع في الفاحشة.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ هذه قاعدة كلِّيَّة في التشريع الإسلامي، فالتخفيف والتيسير ورفع الحرج سمات لهذا التشريع؛ إذ التعبُّد طريق السعادة الدنيويَّة والأخرويَّة، فإذا أدَّى إلى الشقاء فإنما هو بسوء الفهم، أو سوء التطبيق.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّـٰلِحَـٰتُ قَـٰنِتَـٰتٌ حَـٰفِظَـٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّـٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَـٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَـٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ ﴾

بعد صيانة المجتمع من لوثة الفساد والانحراف الأخلاقي تأتي هذه الآيات للرُّقيّ بالمجتمع وتهذيبه وتنظيم شؤونه وتوجيهه نحو التواصل والتكافل وبناء الروابط الداخلية المتينة بحيث يصبح كالبنيان يشدّ بعضه بعضًا، ويحمي بعضه بعضًا، وأوّل ما بدأ به القرآن هنا المال:

العلاقات الماليّة:

حذّر القرآن من الظلم الماليّ وأكل أموال الناس بالباطل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ﴾، ثم أشار إشارةً لطيفةً إلى أحد أهم أسباب هذا التعدّي؛ وهو الحسد وتمنّي ما عند الغير ﴿وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾، ثمّ ذكّر بالحقوق الخاصّة ﴿وَلِكُلّٖ جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡۚ﴾.

وأخيرًا حثّ على الإنفاق العام محذِّرًا من البخل، ومُبشِّرًا المُنفِقين بمضاعفة الثواب وعظيم الأجر ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾.

حق الحياة والمحافظة على النفس:

بعد المال أوصى بالأنفس ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ﴾ والعدوان والظلم قرينتَا إرادة قتل الغير وليس قتل الرجل نفسه، وإنما أنزل نفس المقتول منزلة نفس القاتل لإثارة دواعي الرحمة والتذكير بحالة

الجسد الواحد إيمانًا وأخوَّة، كما أن الاستهانة بالقتل تُشِيعه وتكثره، فيكون المجتمع الذي لا يتورَّع عن القتل ولا يردع القتلة كأنه يقتل نفسه، وقدَّم المال على النفس؛ لأن الخلاف المالي قد يكون مقدِّمة للقتل، والله أعلم.

العلاقات الزوجية:

وبعد المال والنفس شرع ببيان العلاقات البينيَّة داخل المجتمع، وبدأ بالعلاقة الزوجيَّة مُثبِتًا لحقِّ الزوج في القوامة، ومُنطلِقًا منها في تفصيل المسائل الأخرى، والقوامة الحقّ إنما هي للدِّين، فكلاهما يخضعان له ولأحكامه وآدابه، والزوج لا يدير بيته على هواه، بل وفق هذه الأحكام والآداب، وهنا يكون دور الزوج إداريًّا وتنفيذيًّا في حدود الشرع وحكمته ورحمته، وليس حاكمًا فذًّا أو متسلِّطًا.

وقد ذكرَ القرآن سببَين لهذه القوامة: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ﴾ والإنفاق معروف في الصداق ونفقة المعيشة ونحوها، وأما التفضيل فمن المقطوع به أنَّه ليس التفضيل الديني عند الله؛ إذ هذا مرهونٌ بما يقدِّمه المرء من عملٍ وحسن تعبُّدٍ وتديُّنٍ ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، فلم يَبْقَ إلا التفضيل بقدرات خَلقيّة وجسديّة امتاز بها الرجل وأهَّلتهُ أكثر من المرأة لكسب الرزق وإدارة البيت وحمايته وضبط سلوك الأولاد بعد أن يكبروا، ونحو هذا، وبهذه القوامة أعطى القرآن صلاحيَّات للزوج في إدارة بيته ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾.

وهذه وسائل لضبط البيت في حالات النشوز، والذي يظهر أن كل وسيلة منها جاءت لتتناسب مع مستوى النشوز، وعلى الرجل أن يكون حكيمًا ولا يفرط أو يتعسَّف، وقد جاء الضرب آخِرًا للتنبيه أنه لعلاج حالة شاذَّة من النشوز؛ لمنع الاعتداء المباشر أو التصرُّف المُضِر بالبيت والأولاد مثلًا، كما في حالة الغضب الشديد، والذي يتطلب تدخُّلًا سريعًا ولا يحتمل الانتظار، وليس كما يُظنُّ أنه حقٌّ للزوج في كلِّ حالة خلاف، فالخلاف لا يُحلُّ بالضرب

إطلاقًا، وإنما بالحلم والعقل والموعظة الحسنة، ثُمَّ الهجران المؤقَّت لاستثارة العاطفة المحرّكة لإعادة الصلة.

ويجدر التنبُّه هنا أن هذه الوسائل إنما تكون مشروعة في حالة النشوز، وهو خروج المرأة عن الطريق السوي الخروجَ البيِّن، أما الخلاف في وجهات النظر، أو الخلاف في تقدير الحقوق والواجبات، فليس للرجل أن يكون هو الخصم والحكم؛ ولذلك جاء قوله سبحانه: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾.

صلة الرحم والإحسان إلى الآخرين:

بعد العلاقات الزوجيّة جاء الحديث عن العلاقات الاجتماعيَّة الأخرى ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ﴾ والإحسان هو الاسم الجامع لأنواع البر وأعمال الخير مع الإتقان والاستقامة حتى يؤتي ثماره الطيِّبة في بناء الثقة والمحبَّة بين كلِّ أفراد المجتمع.

بناء الفرد الصالح:

وفي ثنايا هذه التوجيهات الاجتماعيَّة تأتي التوجيهات الربَّانيَّة لبناء الفرد الصالح القادر على المحافظة على تلك العلاقات، ومن هذه التوجيهات:

أولًا: توثيق الصلة بالله ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ﴾، ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾، ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ﴾ وهذا تأكيدٌ أن الصلة الوثيقة بالله تنتج صلةً طيِّبةً بالخلق.

ثانيًا: ترسيخ القيم الأخلاقيَّة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾، والمُلاحَظ هنا أن هذا التوجيه جاء مباشرةً عقب الحديث عن حقوق الوالدين والقربى واليتامى والجار

ونحوها من الحقوق الاجتماعيَّة والإنسانيَّة، وكأنه يقول: إن الخيلاء والفخر والتكبر هي التي تؤدِّي إلى التقاطع والتدابر.

ثالثًا: سلامة العقل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ فالحكمة من تحريم الخمر إنما كانت لتحصيل المعرفة والعلم بما يقرأ ويسمع من الآيات.

وقد كان هذا التحريم مقدِّمةً للتحريم العام للخمر وكلِّ ما من شأنه أن يَذهب بالعقل؛ لأن ذهاب العقل ولو مؤقَّتًا من شأنه أن يورث العداوة ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ ﴾ [المائدة: ٩١].

رابعًا: نظافة الجسد ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ ﴾ وهذا التشديد في النظافة حتى مع عدم وجود الماء هو لبيان أهميّة هذه القيمة، وقد جاء ذكرها بعد آيات التواصل الاجتماعي إشارة إلى أهميّة النظافة في بناء هذا التواصل، والله أعلم.

دقائق التفسير

﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ ﴾ دلالة أن التراضي أصل في المبادلات التجارية، وعليه فكلّ تبادل لا ينشأ عن تراضٍ من الفريقين فهو محظور لما فيه من العدوان وأكل أموال الناس بالباطل، ومن ذلك الإكراه واستغلال ضعف الآخر أو حيائه.

﴿ إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ ﴾ الكبيرة ما استوجبت حدًّا أو لعنةً أو وعيدًا شديدًا، والسيئة هنا كلُّ ذنب دون الكبيرة، وهذا وعدٌ ودودٌ ورحيمٌ أن الله يغفر لنا سيئاتنا إذا اجتنبنا الكبائر، اللهم فاغفر لنا كبائرنا وصغائرنا بمنِّك وفضلك.

﴿وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا﴾ فالذي تطهَّر من كبائره وصغائره يستحقُّ الكرامة والمنزلة العظيمة من الله، وهي عامة شاملة في دنياه وأخراه، طمأنينةً وسكينةً ورضًا في الدنيا، وجنَّةً خالدةً وزُلفَى ودودٍ في الآخرة.

﴿وَلِكُلّٖ جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَۚ﴾ أي: لكل تركة جعلنا لها وُرَّاثًا يتقاسَمُونها وفق شرع الله الذي أعطى لكلِّ ذي حقٍّ حقَّه.

﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡۚ﴾ الظاهر أنها عامة في الالتزامات والعقود من غير الوراثة المقدَّرة في الشرع، وهذه الحقوق تخضع لمنهجيَّة التشريع، فما أبطله الشرع من عقود الجاهليَّة وأعرافها فهو باطل، وكذا الحقوق المرحلية التي أقرَّها الشرع ثم أبطلها كالتوارث بين المهاجرين والأنصار بنظام الأخوَّة الخاصَّة، أما العقود المتوافقة مع ما استقرّ عليه التشريع فهي حقٌّ، وينبغي أن يُستخرج من مال المتوفَّى قبل توزيع التركة، والله أعلم.

﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ﴾ جاء هذا في بيان أصل العلاقة الزوجيّة، والمرأة هنا محفوظة كرامتها وحقوقها الماديَّة والمعنويَّة كما صانَت بيتها وحقَّ زوجها، وأمَّا الحالة الثانية: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ فهي حالة استثنائية تتطلَّب حلًّا استثنائيًّا.

﴿حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ فيه تقييد عملي لمعنى القوامة، فهي قوامة مقيَّدة بالعدل ورفع الظلم وإعطاء كلِّ ذي حقٍّ حقَّه؛ ولتحقيق هذا العدل جعل الله التحكيم مناصفة من أهله وأهلها، وأوصى الطرفين بتوخّي الإصلاح، وهو معنى أرفع من العدل المجرّد، فهو عدلٌ وزيادةُ صلحٍ وترميمٍ للعلاقات التي تعكَّرت بسبب الخلاف.

﴿وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ﴾ تفصيل لأنواع الجيران من الناحية الاجتماعيَّة، فهناك من يجمع بين الجوار والقرابة، وهناك من يجمع بين الجوار والصداقة، وهناك الجار الجنب الذي لم يكن قبل الجوار قريبًا ولا صديقًا، وفي هذا اهتمام خاص بحقِّ الجار لا يغفل عنه اللبيب.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ أصل في معاملة الباري لعباده، وهو من الوعد الرحيم الذي لا يتخلّف، وفيه إشارة لما ينبغي أن يكون عليه خلق المسلم مع الآخرين؛ أن يغفر لهم الزلّات، ويُكبر فيهم البرّ والأعمال الصالحات.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ الرسول ﷺ هو الشهيد على هذه الأمّة، وكلُّ رسولٍ أو نبيٍّ شهيدٌ على أمّته، وهذه الشهادة إنما هي بتبليغهم الوحي كما أنزل لإقامة الحجّة عليهم، ومن ثَمَّ تكون حسرة المكذِّبين ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾.

والآية متضمنة لوجوب طاعة الرسول واتخاذه الأسوة الشاملة في كلِّ شأنٍ من شؤوننا، فلم يكن ﷺ شهيدًا على هذه الأمَّة إلا لكونه قائدها وقدوتها والأمين على دينها بقوله وعمله -بأبي هو وأمي-، وقد جاءت الإشارة إلى هذا بتحسُّر المكذِّبين الذين كفروا و﴿وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ﴾.

﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ لم يقُل: لا تُصلُّوا وأنتم سُكارَى، طلبًا للتهيُّؤ المبكِّر للصلاة؛ بحيث يكون المصلِّي واعيًا بما يقرأ أو يسمع، وفيه إشارة لقطع جميع العلائق والشواغل التي تشوّش على عقله وقلبه.

﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ كناية عن الجماع، وهذا هو الأظهر من أقوال الفقهاء بقرينة مقابلته لإتيان الغائط، فيكون اللمس مثالًا للحدث الأكبر وإتيان الغائط مثالًا للحدث الأصغر، وكلاهما يستوجِبَان التيمم بالصعيد الطيِّب عند فقد الماء.

وهذا أيضًا هو الذي يتناسب مع مقاصد الشرع؛ فحذر الزوجين من ملامسة أحدهما للآخر الملامسة الجسديَّة الظاهرة تجنُّبًا لنقض الوضوء من شأنه أن يباعد بينهما لوقتٍ أطول وهما في بيتٍ واحد، بينما مقصد الشرع توطيد الصلة والمودَّة والرحمة، وفي السُّنَّة وفعل السلف ما يؤيِّد هذا مما هو معروف في مظانِّه من كتب السُّنَّة والفقه، والله أعلم.

﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ هو التراب الطاهر، هذا هو الأظهر من أقوال الفقهاء؛ لأنّه بديل الماء، فينبغي أن يكون صالحًا للتطهير، أما الحجارة الصلبة التي ليس فيها تراب أو غبار يمرّ على البشرة فليس فيها من آثار التطهير شيء، والقول به ربما جاء ترجيحًا لمعنى التيمم التعبّدي البحت، ومراعاة التطهير المادي هنا أولى مع ما فيه من معاني التديُّن والتعبُّد، وقد جاء التطهير بالتراب في ولوغ الكلب، وهو قرينةٌ قويّةٌ لإرادة هذا المعنى المادِّي، والله أعلم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ (٤٤) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا (٤٥) مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (٤٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٤٧) إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا (٤٨) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٤٩) انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا (٥٠) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا (٥٢) أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (٥٣) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا (٥٤) فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا (٥٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (٥٦)﴾

اليهود وعداوتهم للمؤمنين

بعد وضع الأسس المتينة لبناء المجتمع المسلم شرع القرآن الكريم في تحذير هذا المجتمع من خطرٍ قريبٍ يتهدَّده من الخارج المتمثِّل بالقبائل والتجمعات اليهوديَّة التي كانت في المدينة وخيبر، والتي كانت تغذِّي حركة النفاق في الداخل، وتتحالف مع قريش وغيرها من القبائل المشركة في الخارج.

وقد تضمَّن هذا التحذير جوانب مختلفة في طبيعة اليهود وما يضمرونه للمسلمين، وكما يأتي:

أولًا: إنَّ اليهود أهل ضلالة وإن انتسبوا لدينٍ سماويٍّ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ ﴾ ومن أعظم ضلالاتهم؛ تحريفهم لكلام الله ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ بالتأويل الباطل أو بالزيادة والنقصان، وكتابهم الموجود بين أيدينا اليوم شاهد على كلِّ هذا.

ثانيًا: إنَّ الضلالة وصلت بهم إلى حدِّ الشرك ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ﴾ وقد مهَّد الله لهذا بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ والسياق كلُّهُ عن اليهود مما يدلل أن اليهود أو قسمًا منهم على الأقل قد وقعوا بالفعل في هذا الشرك.

ثالثًا: إنهم قد كفروا بما أُنزِل على محمدٍ ﷺ وتمادوا في شتمه والنَّيْل منه ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

رابعًا: إنهم أعلنوا عداوتهم للمسلمين ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ ﴾ وهذا في سياق تشخيص موقف اليهود من المسلمين، وقد بلغت بهم العداوة أن فضَّلوا المشركين وتمالَؤُوا معهم على المؤمنين ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴾.

خامسًا: إنهم يعملون على إضلال المسلمين وحرفهم عن صراط الله المستقيم ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴾ وهذه لوحدها بحاجة إلى وقفاتٍ طويلة، ودراسةٍ معمَّقة لتحصين المجتمع المسلم من مخططاتهم وأساليبهم.

سادسًا: إن الدافع الأساس لموقفهم المعادي هذا إنما هو الحسد ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾.

سابعًا: إنهم جمعوا إلى الحسد كلَّ صفةٍ ذميمةٍ كالبخل ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾ والكذب أيضًا ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ ومع هذا فهم أهل غرور ويمدحون أنفسهم بالباطل ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ﴾.

ثامنًا: ولكلّ ذلك فقد استحقُّوا اللعن والطرد من رحمة الله والوعيد الشديد ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ﴾.

دقائق التفسير

﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ يقول اليهود لرسول الله ﷺ: اسمع لما نقوله لك، أما نحن فلا نسمع لك ولا نستجيب ولا نُطيع، وهو تعبير عن عقدة مركَّبة من الغرور والحسد، وقساوة القلب، وغلظة الطبع.

﴿وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ واللَّيُّ هنا أنَّهم يلفظون الكلمة بطريق السخرية لتُعطي معنى الرعونة وليس الرعاية.

﴿أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾ الطمس على الوجوه ذهاب معالم الوجه أو معالم الوجاهة، فيكون الأول عذابًا حسِّيًّا بمسخٍ أو مرضٍ، ويكون الثاني عذابًا معنويًا بإذلالهم وطردهم خزايا من أهلهم وحصونهم، والله قادرٌ على كل ذلك، لكن الذي تحقَّقَ واقِعًا هو الثاني.

والردُّ على الأدبار معناه: الانتكاس من العزِّ إلى الذلِ، ومن الغنى إلى الفقر، وهو قريبٌ من الطَّمس بمعناه الثاني، والله أعلم.

﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ فالشرك افتراءٌ وكذبٌ؛ لأن المشرك كأنه يشهد أن معبوده الوثني أو البشري قد حلَّت فيه الصفات الإلهيَّة؛ ولذلك يدعوه ويرجوه، وهذا ادِّعاءٌ باطلٌ وكذبٌ فاضحٌ.

﴿لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾ النقير هو الأثر الذي لا يكاد يُرى في ظهر نواة التمر، وهو تعبير عن شدّة البخل والحرص على المال وجمعه، وهي صفة معروفة في اليهود إلى اليوم، وهذه الصفات لا تعمّ كلّ اليهود، إذ التعميم ليس من منهج القرآن، كما أن هذه الصفات مذمومة أينما وجدت وفي كلِّ قوم، وتنبيه الأمة الوريثة لتجاوز هذه الصفات أمرٌ مقصودٌ أيضًا.

﴿فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمًا﴾ جوابٌ لموجب الحسد عند اليهود تجاه المسلمين أو العرب الذين بُعث فيهم خاتم الرسل، كأنه يقول لهم: كما أن الله أعطى لآل إبراهيم ومنهم بنو إسرائيل النبوة والملك فقد أعطى الله للعرب ما أعطاه لكم فلماذا الحسد؟ والله يفعل في ملكه ما يشاء.

﴿بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾ دلالة أن استشعار الألم إنما يكون بالجِلْدِ، وهو ما أثبتَه الطبُّ الحديثُ.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾

التشريع ومرجعية الحكم

القوانين الحاكمة في كلِّ مجتمعٍ لا بُدَّ لها من فلسفةٍ كلِّيَّةٍ ورؤيةٍ عامَّة تنبثق منها، وهذه الفلسفة سابقة للتشريع ومهيمنة عليه؛ لأنّها تمثِّل في الغالب هويَّة الأمَّة وثقافتها وخصوصياتها التي تميِّزها عن الأمم الأخرى.

والأمة المسلمة ليست بدعًا ولا استثناءً من هذا السياق والعرف الإنساني العام، فأساس تكوين هذه الأمة وآصرتها الكلّيّة إنما هو الإسلام، والإسلام دينٌ وعقيدةٌ تبدأُ بالإيمان بالله

الواحد الذي خلق الخلق وأبدعه، وتُثنّي بالإيمان بالنبيِّ الرسول المبلِّغ عن الله (أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنَّ محمدًا رسول الله)، وهذه الشهادة هي عقدٌ والتزامٌ بالخضوع والطاعة والتسليم المطلق، ومن هنا جاءت كلمة (الإسلام).

في هذا المقطع من سورة النساء تركيز وبيان لا نظير له في كلِّ آيات القرآن الكريم لتحديد مرجعية الأمّة المسلمة في حكمها ونظامها العام، ومصدريّة التشريع وسنّ القوانين بطريقة مباشرة ومؤكّدة لا تحتمل الخلاف، وهذا يحقق في الأمَّة انسجامًا تامًا بين معتقداتها الكليّة ومفرداتها التشريعيَّة، كما يضمن وحدة الأمة في أخطر جانب من جوانب حياتها.

يبدأ الخطاب بالتذكير بالجانب الغيبي الذي اجتمعت عليه الأمَّة وتشكَّلت في ضوئه ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، ثم جاء الأمر المباشر والصريح: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ﴾، فتلك المقدّمة وهذه النتيجة، فالله الذي آمَنتم به هو الذي يأمُركم، وليس بعد هذا سِوَى الطاعة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ والطاعةُ في الحقيقة واحدةٌ؛ لأنه لا طاعة إلا بأمرٍ، والأمر محسومٌ لله ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ﴾ وعليه فالطاعةُ لله امتثالٌ لأمرِهِ، وطاعةُ الرسول تصديقٌ له في تبليغه لأمرِ الله.

وطاعة وليِّ الأمر (الدولة) خضوعٌ عمليٌّ لسلطة التنفيذ، فهي التي تملك صفة الإلزام القانوني والعملي، وفي حالة حصول الاختلاف مع الجهات التنفيذيَّة يكون الحل بالرجوع إلى مصدر الأمر ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾.

إن هذا التسلسل المنهجي هو دليل صدق المقدّمة الأولى (الإيمان)؛ ولذلك شدَّد القرآن نكيرَه على من زعم الإيمان وأنكر الحكم ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾، وكان الحكم النهائي في هؤلاء ونحوهم قاطعًا وصريحًا: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ﴾.

ويُلاحَظ هنا: أن التحكيم المطلوب والذي هو دليل الإيمان التحكيم في الأمور التي يكون فيها الشجار والخصومة بين الناس وليس الشعائر الدينيَّة، وهذا ردٌّ على من زعم أن الحكم الشرعي إنما يكون في الشعائر والعبادات الدينيَّة المجردة عن نظام الحياة.

أما التمسُّك بالشهادتين واسم الإيمان الجامع مع الصدِّ عن حكم الله وأمره فهو علامة النفاق ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾، من هنا يكون الوعد الإلهي مرتبطًا بالطاعة وليس بالإيمان المجرَّد: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾.

ولكي لا يظنَّ ظانٌّ أن الحكم الشرعي هو حكمٌ طبقيٌّ أو سلاليٌّ تتحكم فيه طائفة – ولو كان في الأرض من هو خيرٌ منها – جاء التأكيد المبكر ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ۚ﴾ فهذان ركنان في الحكم: الأمانة والعدل، والأمانة معنًى واسعٌ؛ ومن صورها المعاصرة:

الأمانة في الترشُّح للولايات العامة، والأمانة في الاختيار، والأمانة في التصويت، حتى في السلوك العملي الفردي داخل كلِّ مؤسسةٍ ووظيفةٍ، والعدل كذلك هو معنًى واسعٌ لكلِّ ما هو منافٍ للظلم، لكنَّه يتأكَّد في الشأن العام وسياسة الدولة أكثر؛ لتعلُّق مصالح الخلق ومصيرهم وطبيعة حياتهم.

دقائق التفسير

﴿ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾ هو ظلُّ الجنَّة الكثيف لكثرة أشجارها، وفي العبارة إشارة للأمن والسكينة من كلِّ خوفٍ وفزعٍ.

﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ أي: إلى كتاب الله وسنَّة نبيِّه، ومن هنا جاء قول من قال بأن أُولي الأمر هم العلماء؛ لأنهم هم الأقدر على استنباط الحكم من الكتاب والسنَّة، والصحيح أن العلماء مرجعيَّة علميَّة وفقهيَّة، والأمر سلطة تنفيذيَّة، وضبط العلاقة بين الجهتين لا بدَّ منه لتحقيق الحكم الرشيد المستند إلى الرشد والقوة.

﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴾ وهي صورة متكررة لمن يرفض التحاكم إلى دين الله، طالما أنه يرى التحاكم في غير مصلحته، فإذا وقع في المصيبة والحاجة إلى الإنصاف لجأ إلى الشرع طلبًا للحلِّ والصلح، فكأنَّه يؤمن ببعض ويكفر ببعض، وهو سلوك المذبذب وفق هواه، والتائه بين السبل والدعوات المختلفة.

وقد ذكر بعض المفسِّرين سببًا لنزول هذه الآيات: أن رجلًا حكم له الرسول ﷺ فأَبى، ثم جاء إلى عمر ﷺ يستَقضِيه، فحكم عليه عمر بالردَّة وقتَلَه، وهو خبرٌ لا يصحُّ سندًا ولا متنًا، فليس لعُمر أن يحكم عليه بالقتل، ثم يُنفِّذ حُكمَه من غير عِلمِ رسول الله ﷺ.

﴿وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ أي: انصَحهم فيما بينك وبينهم من غير تشهيرٍ؛ لعل هذه النصيحة تؤثِّر فيهم وتبلُغ إلى عقولهم وقلوبهم، وفي الآية من أدب الدعوة والتلطُّف حتى بهؤلاء ما لا يَخفَى على لبيب.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ كان ذلك شرطًا في التوبة؛ لأن طاعة الرسول والتلقي عنه والائتمار بأمره واجبات عينيَّة، وبعد انتقاله ﷺ انتقلت بعض هذه الواجبات إلى سنَّته، وبعضها الآخر إلى خليفته من بعده وكلِّ إمامٍ شرعيٍّ للمسلمين، فالسنَّة حقُّ التشريع، والإمامة حقُّ السلطة والتنفيذ.

وأما استغفاره ﷺ فلا تخفى بركته؛ إذ دعاء المسلم لأخيه مظنَّة الاستجابة فكيف بدعاء النبيِّ ﷺ؟

﴿وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ﴾
معناه: أن الناس بتركهم للوحي يقعون في المظالم فيقتل بعضهم بعضًا، ويؤذي أحدهم الآخر، ولو أنَّ الشرع أمرهم بذلك ما فعلوه، فهم بفعلهم هذا قد وقعوا في الشَّرَّين؛ شرِّ المظالم فيما بينهم، وشرِّ مخالفة الشرع.

ومؤدَّى هذا كلِّه أن الشرع إنما جاء لتحقيق السعادة والرحمة، ورفع الحرج والظلمة، وأن الذي يخالف الشرع ويتنكَّر له سيقع في الشرَّين، والله أعلم.

﴿ يا أيها الذين ءامنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا ﴿٧١﴾ وإن منكم لمن ليبطئن فإن أصبتكم مصيبة قال
قد أنعم الله علي إذ لم أكن معهم شهيدا ﴿٧٢﴾ ولئن أصبكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة
يليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيما ﴿٧٣﴾ ۞ فليقتل في سبيل الله الذين يشرون الحيوة الدنيا
بالأخرة ومن يقتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما ﴿٧٤﴾ وما لكم لا تقتلون في سبيل الله
والمستضعفين من الرجال والنساء والولدن الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا
واجعل لنا من لدنك نصيرا ﴿٧٥﴾ الذين ءامنوا يقتلون في سبيل الله والذين كفروا يقتلون في سبيل الطغوت فقتلوا أولياء
الشيطن إن كيد الشيطن كان ضعيفا ﴿٧٦﴾ ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلوة وءاتوا الزكوة فلما كتب عليهم القتال
إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب قل متع الدنيا
قليل والأخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا ﴿٧٧﴾ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة وإن تصبهم حسنة
يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا
﴿٧٨﴾ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأرسلنك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا ﴿٧٩﴾ من يطع الرسول فقد
أطاع الله ومن تولى فما أرسلنك عليهم حفيظا ﴿٨٠﴾ ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير
الذي تقول والله يكتب ما يبيتون فأعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ﴿٨١﴾ أفلا يتدبرون القرءان ولو كان من
عند غير الله لوجدوا فيه اختلفا كثيرا ﴿٨٢﴾ وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول
وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطن إلا قليلا ﴿٨٣﴾
فقتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأسا وأشد
تنكيلا ﴿٨٤﴾ من يشفع شفعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفعة سيئة يكن له كفل منها وكان الله على كل
شيء مقيتا ﴿٨٥﴾ وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها إن الله كان على كل شيء حسيبا ﴿٨٦﴾ الله لا إله إلا هو
ليجمعنكم إلى يوم القيمة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثا ﴿٨٧﴾ ﴾

القرآن كتاب الأمّة ومصدر معارفها وتشريعاتها وتصوراتها، والأمّة فيها العسكريون والمدنيون، وفيها الدعاة والقضاة، وفيها العلماء والمتعلمون، وكلّ هؤلاء إنما يجدون ضالّتهم في هذا الكتاب، وهنا نقطة منهجيَّة قلَّ من يتنبَّه لها؛ وهي أن آيات القرآن يقرؤها كلُّ هؤلاء جملةً واحدةً دون تبويبٍ أو عناوين فرعيةٍ.

وهنا قد يختلط الأمر بين الآية التي تخصُّ الجندي وبين الآية التي تخصُّ المدني، وبين الآية التي توجِّه القضاة وأصحاب السلطان، وبين الآية التي توجِّه الأفراد، وهذا ولَّد إشكالًا عمليًّا خطيًرا؛ فقارئُ القرآن قد يتحوَّل إلى كلِّ هؤلاء فهو الحاكم والقاضي والجندي والقائد والداعية ... الخ؛ فتتكوَّن شخصية مضطربة يصعب التنبُّؤ بتصرُّفاتها؛ لأنَّك لا تدري ما الذي سيستحضره من الآيات في مواجهة أيِّ حدثٍ أو استفزازٍ يتعرض له!

من هنا كان لا بُدَّ من فرز المجالات التي يتناولها القرآن الكريم، خاصة تلك التي تتطلب نهجًا مختلفًا وخاصًا في الإعداد والتوجيه كالمجال العسكري، وهذا الفرز هو في الجانب العملي حصرًا.

أما التلاوة والتدبُّر والمعرفة فهي واجبات لا تُفرِّق بين مسلم وآخر، فالأمَّة كلُّها رجالًا ونساءً يلتقُون على هذا القرآن، ثم بعد هذا ينطلِقون في تخصُّصاتهم ومجالاتهم المختلفة، فالنهج الشمولي للقرآن لا يستَدعِي تكوين الشخصيَّة الشموليَّة، ولا حتى الجماعة الشموليَّة، وهذا من الأخطاء المنهجية التي جرَّت على الأمَّة البلايا والرزايا.

في هذه الآيات معالم واضحة لما يمكن تسميته بالتربية العسكريّة للقائد والجندي، وهي تربية لها خصوصيّتها من بين كلِّ مجالات التربية، وهذا أمرٌ معلومٌ ومعتادٌ في كلِّ أمم الأرض وشعوبها مهما اختلفت دياناتهم وثقافاتهم:

المَعلَمُ الأول: الحذر:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ والحذر هنا: اليقظة والاستعداد التام والدائم لكلّ طارئ، ويلاحظ هنا أن الأسلوب القرآني جاء بصيغة الأمر السريع والحاسم والمباشر ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ وكأنّه أمر عسكري لا يحتمل سوى سرعة التنفيذ.

ثم أطلق ولم يقيِّد الجانب الذي ينبغي الحذر منه، ليفيد كلَّ الجوانب مرة واحدة؛ وليكون الحذر جزءًا من شخصية العسكري في كلِّ ظرفٍ ووقتٍ.

المَعلَمُ الثاني: السرِّيَّة:

﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ۗ﴾ فالأخبار والمعلومات وكذا الإشاعات لا ينبغي تداولها إلا مع القيادة، وشهوة الكلام والثرثرة تتنافى تمامًا مع شخصية العسكري، سواء أكان في الميدان أم خارج الميدان.

المَعلَمُ الثالث: المبادرة بتنفيذ الأمر:

﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ﴾ ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ ۖ﴾ هؤلاء الذين لهم حساباتهم الخاصة، فهم لم يتربّوا على السمع والطاعة، بل هم ينظرون في الأحداث ومآلاتها وما يمكن أن ينالهم منها ﴿فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ﴾ هؤلاء ليسوا جنودًا بل تجّار يكثرون عند الطمع، ويقلُّون عند الفزع.

ولا يبعد عن هؤلاء أولئك الذين لا يتحرَّكون إلا وفق قناعتهم الذاتيَّة، وكأن كلَّ واحدٍ منهم هو صاحب القرار، وهو الذي ينبغي أن يطَّلِع على كامل الخطَّة العسكريَّة وتفاصيلها واحتمالاتها، وهو لا يفرِّق بين التربية العلميَّة والثقافيَّة وبين هذه التربية، وبقدر هذا الخطأ التربوي يكون خطأ الذي يحاول نقل هذه التربية إلى حلقات العلم والدعوة والعمل السياسي.

هذا الخلطُ في النصوص ومجالات عملها قد ولَّد مثل هذا الارتباك والفوضى، واختلال الموازين.

المَعلَمُ الرابع: الروح القتاليَّة:

﴿ ۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، ﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ﴾، وقد حذّر القرآن من الضعف والتردد والخوف ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ﴾.

ومن الواضح أن هؤلاء ليسوا منافقين بل هم من أهل الإيمان، ولكنّ الضعف البشري وارد خاصة في مثل هذا الموضوع، والقرآن إنما سجّل هذا الموقف ليكون محطّ اهتمام القادة والمربّين، فمهما كانت الثقة بالجند فإن حالات الضعف والتردد والخوف من الموت واردة، والمطلوب محاصرة هذه الحالات والتقليل منها ومعالجة المتبقّي منها بمختلف الوسائل المناسبة.

المَعلَمُ الخامس: الجُهد المكافئ للهدف:

﴿فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا﴾ فالنفير للحرب ينبغي أن يكون وفق الخطة المناسبة للهدف ولطبيعة الحرب وحجم التحدِّيات والقوّة المقابلة، فنفرة الجميع بدافع الإيمان أو العاطفة ليس مطلوبًا في كلِّ حال، بل قد يكون عِبئًا وضررًا ويأتي بالنتائج المعكوسة، وكذا نفير المجموعات الصغيرة من غير مشورةٍ أو تنسيقٍ في مواجهة حشدٍ كبيرٍ قد هيأ نفسه وأعدَّ عدَّته.

وهذا التخيير ﴿أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا﴾ ليس تخيير العفو والسعة وإنما تخيير المسؤوليّة، فالقيادة تتحمّل مسؤوليتها في اختيار الطريقة الأنسب؛ لأنَّ هذا يُقدَّر بقدره في ظرفٍ ووقتٍ، ولا يمكن أن يُحدَّد بالوحي.

المَعلَمُ السادس: شرعية القتال:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾، ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا﴾ فالقتال الإسلامي ليس لفرض الهيمنة لقوم على قوم، ولا لقبيلة على قبيلة، ولا من أجل الاستحواذ على خيرات البلاد الأخرى، بل هو قتالٌ في سبيل الله، والله هو رب العالمين جميعًا.

وقد جاء الحديث عن المستضعفين والمظلومين امتدادًا أو قرينًا لسبيل الله، تأكيدًا لهذا المعنى؛ فالقتال في الإسلام إنما كان لكفّ الظلم والعدوان، ثم ترك الناس أحرارًا في خياراتهم وانتماءاتهم ونشاطاتهم، وهذا تصريح القرآن بما لا يحتمل التأويل ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

المَعلَمُ السابع: التمييز وتحديد جهة العدو:

﴿ مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَاۗ﴾، ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا﴾، فالناس ليسوا سواءً، لا داخل الصف ولا خارجه، وإذا كان العدل وتمييز الصالح من الفاسد مطلوبًا داخل الصفّ فإن تمييز الآخرين ودراسة مواقفهم لا يقلّ أهمية عن ذلك، فليس كل كافر عدوًّا، وليس كلُّ مخالفٍ مُسِيئًا.

وهذا ما أكّدَتْه سورة الممتحنة بشكل أوضح وأدق، وأدب التحيَّة في الإسلام معروف، وهو جزءٌ من الآداب الاجتماعية التواصليَّة، بَيْدَ أنَّ وروده هنا له إيحاءات لا تخفى تتعلق بمواقف الآخرين من الأمم والدول، فهو ذو بُعدٍ سياسيٍّ أكثر من بعده الاجتماعي، يؤكِّد هذا قوله في الآيات الآتيات: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ﴾.

المَعلَمُ الثامن: تحمُّل المسؤوليَّة:

﴿مَآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَۚ﴾ والحسنة هنا: الخير كالنصر والغلبة، والسيئة هنا: الشرُّ وما يصيب الجيش من مشقَّة وخسارة، والمؤمن ينسب كلَّ خيرٍ إلى الله، وإن كان قد باشر هو العمل واتخذ السبب، وينسب كلَّ شر لنفسه وإن كان بقَدَر الله؛ لأن هذا القدر وفق سنن الله المبثوثة في هذا الكون، والتي لا تُحابِي ولا تظلم أحدًا، وهذا مجمع الآيتين؛ آية: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾، وآية: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ فالإنسان ينبغي أن يتحمَّل مسؤوليته كاملةً عن كل تصرُّفاته ولا يعتذر بالقدر، أما القائد فهو يتحمَّل المسؤولية المركَّبة؛ لأن تصرُّفه لا ينعكس على نفسه فقط، ومن هنا جاء النص: ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَۚ﴾ أي: التكليف العام بإدارة القتال والإعداد له، واتخاذ الأسباب اللازمة، وتحريض الجُند وتدريبهم.

المَعلَمُ التاسع: التربية الإيمانيَّة:

وهي القاعدة الأساس التي ينبني عليها كلّ عملٍ تربويٍّ وفي كلّ المجالات، والجندي بحاجة إلى هذه التربية واستحضارها أكثر من غيره لثقل المسؤولية التي يتحملها، وللدقّة المطلوبة منه والسرعة في التنفيذ.

من هنا جاءت الآيات تعالج كلَّ جوانب الضعف والتردد بخطاب إيمانيٍّ تعبويٍّ يرفع من مستوى الهِمَّة والجاهزية المطلوبة للتنفيذ ﴿ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْأَخِرَةِۚ﴾، ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍۗ﴾، ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ ولترسيخ هذه المعاني يأتي الأمر بتدبُّر القرآن فهو عدَّة الجندي ودافعه الأول للعمل والتضحية ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ﴾.

﴿ثُبَاتٍ﴾ جماعات وسرايا متفرِّقة ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ هو ما يسمَّى اليوم بالنفير العام أو التعبئة العامَّة، وهذا لا يكون إلا في حالة الحرب الشاملة وتعرُّض الأمة للغزو الكبير الذي يهدد وجودها واستقرارها.

﴿إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾ أي: حاضرًا، كأنه فرِحٌ بقعوده وشامت بها أصاب المسلمين، وهو دأب المنافقين في كلِّ نكسة.

﴿يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ يبيعونها طلبًا للآخرة.

﴿وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ﴾ هذه سنَّة الله في الحرب، والمسلم ليس استثناء من هذا، بَيْدَ أنه ينتظر الأجر العظيم من الله في كلتا الحالتين.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ أي: من أجل إنقاذ المستضعفين وتخليصهم من وطأة الظالمين، وهذه سبيل لا تختلف عن سبيل الله بحال.

﴿ٱلطَّٰغُوتِ﴾ من الطغيان وهو المتجاوز لحدِّه وحقِّه، ثم استعملت اللفظة في كلِّ مَن حادَّ الله ورسوله، أو تجبَّر وطغَى على عباد الله وسامَهم سوء المعاملة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ﴾ كان هذا في مكة؛ حيث لم يُؤذَن للمسلمين بالقتال، فكان بعض المسلمين يتمنَّون لو أَذِنَ الله لهم بالقتال ليردُّوا عذاب قريش وتنكيلها، فلما استقرُّوا في المدينة تراخَوا عن القتال، وهؤلاء مؤمنون وليسوا من النفاق في شيء، لكنَّه الضعف البشري الذي لا يخلو منه جيل أو مجتمع.

﴿بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ الأبنية المنيعة والعالية التي لا يصل إليها الخطر من سيلٍ ونحوه، لكنَّ الأجل يصلها ويصل غيرها.

﴿مَن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ ليس فيه تعظيمٌ لشأن النبيِّ ﷺ إلى درجة اختلاط مقام النبوة بمقام الألوهيَّة، لكنه تقريرٌ واقعٌ أن النبيَّ ﷺ مبلِّغٌ عن الله، وأنه لا ينطق عن الهوى بل عن الوحي، ومن ثَمَّ كانت طاعته هي طاعة لله على الحقيقة.

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ برجوعهم إن علموا قوة المسلمين واستعدادهم، أو بدحرهم في المعركة، والعبارة فيها إيحاء أن المسلمين ليسوا حريصين على المواجهة، فالهداية أحب إليهم، وهذه غاية الرسالة الكبرى ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

﴿ مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةً﴾ أي: من يكون سببًا في الخير، والسياق يُوحي أنها في الشفاعة التي تعود للجند بالخير بكفِّ عدوٍّ، أو كَسبِ حَليفٍ، ونحو ذلك، فله نصيب من الأجر، بخلاف شفاعة السوء.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتٗا﴾ أي: حفيظًا ومقتدرًا، فلا تغيب عنه نوايا الشفعاء، ولا يعجز عن مجازاتهم.

﴿ ۞ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ۚ فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ ﴾

العلاقات العسكرية

تتناول هذه الآيات فقه العلاقات العسكرية بكلٍّ أبعادها وجوانبها، وأحكام السلم والحرب والمعاهدات، إضافة إلى العلاقات الداخلية ومكانة الجندي المقاتل في مجتمعه، ويمكن تقسيم هذه العلاقات وفق المحاور الآتية:

محور المنافقين:

وهو المحور المثير للجدل والاختلاف ﴿ ۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ ﴾ بمعنى أن الصحابة ﷺ قد اختلفوا في المنافقين إلى فئتَين: منهم من يرى موالاتهم، ومساواتهم بالمسلمين بحكم ظاهرهم وموقفهم المعلَن، ومنهم من يرى البراءة منهم، وربما مُعاقبتهم وقتلهم بحسب افتضاح أمرهم، ونكوصهم عن مقتضيات الإيمان والوفاء بعهود الولاء للدولة المسلمة ودستورها ونظامها.

وهذا الخلاف بين الصحابة مردُّه الخلاف بين ظاهر المنافقين وباطنهم، وتنوُّع النفاق وأساليبه، واختلاف المواقف بين كلّ فئةٍ وأخرى من المنافقين، واختلاط بعض مواقفهم بمواقف المخطئين من المؤمنين والمترددين من الأعراب والقبائل التي لم تحسم موقفها، وهذا كلُّه يبعث على الاختلاف في تقدير الموقف واستنباط الحكم المناسب له.

وإنما جاء اللوم في قوله: ﴿ ۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ على حالة من الاختلاف مع وجود رسول الله ﷺ بين ظهرانيهم، وكأنَّ هناك أسبابًا في تباين المواقف لا صلة لها بالاجتهاد العلمي وأصول الاستنباط، فربما كانت العواطف والمصالح والعلاقات الاجتماعية سببًا في ذلك، وهذا هو محلُّ اللوم؛ إذ المجتهد المستوفي لشروط الاجتهاد لا يستحقُّ اللوم وإن أخطأ أو خالف من هو أعلم منه.

وقد وضَعَ القرآن الكريم هنا دلالتَين عمليَّتَين ظاهرتَين لتقدير موقف المنافقين والحكم عليه:

أولًا: الردّة؛ حيث إن بعض المنافقين قد ارتدُّوا صراحةً ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم﴾ وكما بيّن في موضع آخر: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ [المنافقون: ٣]، وأكّد هذا المعنى بالآية التالية: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ﴾ ولا بُدّ أن تكون هذه الردّة ظاهرة؛ إذ هي مناط الحكم بالنسبة لنا نحن البشر، فمن كتم ردّته لا سلطان لنا عليه.

ثانيًا: رفض الهجرة ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾ والمقصود هنا فئات من المنافقين ممن هم خارج المدينة كبعض المتظاهرين بالإسلام من أهل مكة خديعة للمسلمين، أو بعض الأعراب الذين يدورون مع مصالحهم الدنيوية؛ فمرّة يُوالون المسلمين، ومرّة يُوالون المشركين، والذين ورَدَ فيهم: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ [التوبة: ٩٧]، وهؤلاء إنما يُمتحنون بالهجرة، فمن هاجر وانضمّ إلى المسلمين فهو منهم وسِرّه موكول إلى الله، ومن رفض بلا عذر ظاهر فهو خارج دائرة الولاء.

وهذه العلامات إنما هي لفرز هؤلاء عن مفهوم الأمّة المسلمة وعن استحقاقات الدولة، أما القتال الذي ورد في ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ﴾ فالظاهر أنّها فيمن تولّى عن المسلمين وانضمَّ إلى صفِّ المشركين في قتالهم ومعاداتهم للمؤمنين، وهم فئة من المنافقين.

أما الآخرون فالظاهر من السيرة والسنّة المحفوظة أن الرسول ﷺ لم يقاتلهم، ولم يعتزلهم، وإنما اكتفى بالحذر منهم، والتحذير من أخلاقهم وسلوكيّاتهم.

وخُلاصةُ هذا أن المُنافِقِين فئات متعدّدة ومختلفة، ولا يصِحُّ مُعاملتهم مُعاملة واحدة، والله أعلم.

محور الأعداء المحاربين:

وهؤلاء أكثر وضوحًا ممن سبقهم؛ ولذا جاء الحكم واضحًا ومحدّدًا ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾.

وهنا قرينةٌ أخرى تؤكّد أن المقصود بقوله تعالى المتقدِّم في المنافقين: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ أنهم أولئك الذين انضموا إلى جبهة العدو، فلم يعتزلوا، ولم يكفُّوا أيديهم، ولم يكتفوا بكفرهم الباطني، وهذا يعني أنهم خرجوا من طور النفاق إلى طور المحاربة والمجاهرة بالكفر.

محور المعاهَدين:

وهؤلاء يشتركون مع السابقين في الكفر ويخالفونهم في الموقف؛ حيث ميّزوا علاقاتهم بالدولة المسلمة بمواثيق سلام أو تحالف أو اشتراك في المصالح، ومثال ذلك قبيلة خزاعة التي انحازت إلى معاهدة المسلمين بالضد من قريش وحلفائها، وفي هؤلاء ونحوهم يقول الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ وهو استثناءٌ من المحاربة، فهؤلاء وإن كانوا على دينٍ آخر لا تجوز مقاتلتهم بحال ما داموا أوفوا بعهودهم.

محور المعتزلين:

في كلِّ حرب يكون هناك طرفان أو أكثر، وتكون هناك أطراف أخرى لا ترى لها مصلحة في هذه الحرب ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ فحكم هؤلاء من هذه الناحية كحكم المعاهَدين، أما بنود المعاهدات فهي خاصة بالمعاهدين، ولكلّ معاهدة بنودها بحسب اتفاق الطرفين.

محور القاعدين من المؤمنين:

وهؤلاء اختاروا القعود عن القتال في سبيل الله مع القدرة عليه ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ﴾ وهو تمييزٌ للمُجاهِدين على مَن سواهم من المؤمنين ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾.

ثم فصَّل الدرجة بالدرجات إشارة إلى اختلاف مراتب المجاهدين ومراتب القاعدين، ولم يتضمن هذا التمييز الأحكام الشرعية المتعلقة باختلاف الحالات والدرجات، فالتخلف عن جهاد الطلب ليس كالتخلف عن جهاد الدفع (المقاومة)، والتخلُّف لأداء واجباتٍ أخرى باجتهادٍ صحيحٍ أو بإذنٍ من وليِّ الأمر قد يصل إلى الاستثناء من المفاضلة أصلًا؛ كاستثناء أولي الضرر وأشدّ، لكن الآية بمجملها تؤكِّد من الناحية العمليَّة التكليفيَّة المكانة المرموقة التي ينبغي أن يحظى بها العسكري المسلم في مجتمعه.

وهناك تحت هذا المحور قعود آخر، وهو القعود عن الهجرة، وهو متضمّن للقعود عن الجهاد أيضًا، فإن كان ذلك عن عجزٍ فهُم مشمولون بالعفو ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ﴾.

أما المتكبِّرون والذين يؤثرون مصالحهم الدنيوية على مصلحة الإسلام العليا ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾.

ولا شك أن هذا الوعيد إنما هو فيمن تخلَّف عن الهجرة الواجبة، والتي هي علامة الإيمان ودليل الولاء، وليس كلُّ مكوثٍ في بلاد الكافرين يتناوله الوعيد، والله أعلم.

محور العلاقة بين القاتل والمقتول:

وهذا محور عملي ومتعلِّق بحملة السلاح، وهو جزءٌ من الفقه العسكري، والسياق لا يحتمل غير هذا، وإن كان من الممكن استنباط الجنايات الفرديّة أو الاجتماعيّة منه، وقد جاء في هذه الآيات أربع حالاتٍ من القتل:

الحالة الأولى: قتال المسلم لعدوِّه في ميدان المعركة، وهذا أصل القتال المشروع ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ ﴾ ومفهوم المخالفة أنهم إن اعتزلوا وألقوا السلم وكفّوا أيديهم عن قتالنا فلا يجوز قتالهم.

الحالة الثانية: قتال غير المسلم للمسلم، وهو القتال بدافع معاداة الإسلام والمسلمين،

وقد جاء هذا تفريعًا عن قوله: ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ﴾ الآية، وهؤلاء أعداءٌ يستوجِبُون القتال كما ورد في الحالة الأولى، ويستوجِبُون النار والخلود فيها ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا ﴾، فهو قد قتَلَه عمدًا لإيمانه وتحت هذا الوصف.

أما القتول التي تحصل بين المسلمين إثر خلافٍ وخصامٍ فليس لها ذكر هنا، وإنما جاءت في آياتٍ أخرى كآية القصاص في سورة البقرة، وعدم ذكر القصاص هنا ولا الدية قرينة متسقة مع السياق أن القتل هنا هو قتل الحرب، فهو بالأساس خارج عن سياق الجنايات الشخصية المعروفة.

وهناك قرينة تعضّد ما ذهبنا إليه هنا، وهي قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ مع أن قتل المؤمن للمؤمن في الجنايات الشخصية وارد وقد يكون مشروعًا كما في حالة الدفاع الاضطراري عن النفس وردّ الصائل، لكنَّ الذي لا يُتصوَّر وقوعه أن يقتله لإيمانه ومناصرة لعدوه، فهذا دليل الكفر وعلامة النفاق، ومن هنا استوجب الخلود في النار.

الحالة الثالثة: القتل الخطأ، وهو الذي يقع من مسلمٍ على مسلم بغير قصدٍ، وله صور كثيرة تندرج في الغالب تحت فقه الجنايات، ومناسبة ذكر هذه الحالة هنا الاستثناء الوارد في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ فاقتضى بيان هذا الخطأ والأحكام الفقهيّة المترتبة عليه.

ومع هذا ففي هذه الأحكام تأكيدٌ لموضوع السياق؛ فالقتيل المسلم قد يكون قومه مسلمين أيضًا، وقد يكونون أعداء، أو معاهَدين، وهذه الاحتمالات أقرب إلى فقه العلاقات منها إلى فقه الجنايات ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾.

الحالة الرابعة: قتال المسلمين بالتأويل، وهي حالةٌ يكثر فيها الالتباس واختلاط النوايا، ومن هنا كان الواجب إخلاص النيَّة واستبانة الموقف لكشف اللبس والدخن ﴿فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾.

دقائق التفسير

﴿أَرْكَسَهُم﴾ ردّهم إلى الكفر، بالسنن التي أودعها الله في هذه الحياة، وأن الإنسان يسعى وله ما سعى، وقال: ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ تحقيقًا لهذا المعنى واحترازًا عن شبهة الجبر.

﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ يصلون أي: ينتسبون، فالعهد مع زعماء القوم يتناول كلَّ من انتسب إليهم وتسمَّى بهم.

﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ ضاقت.

﴿وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾ أي: سالموكم ولم يشاركوا في العدوان.

﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾ وهم فئات من المنافقين والمترددين ومن يؤثر السلامة والمصلحة الدنيوية، فهؤلاء لا تصح مقاتلتهم ما داموا قد كفّوا أيديهم ولم يشتركوا بقتال، مع أنَّهم أقرب إلى الفتنة والكفر.

﴿ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ تمكنتم منهم.

﴿سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ حجة ظاهرة.

﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ عتق الرقبة ترغيبٌ بتحرير العبيد وتعويضٌ للمؤمنين عمّا فاتهم بقتل أخيهم، والدية تعويض مالي لورثة المقتول، فإن لم يجد الرقبة صام ستين يومًا؛ تربية على الاحتراز والاحتياط في دماء الأبرياء وفيه شعور إيجابي بمواساة ذوي القتيل.

﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾ هم أهل القتيل إذا رأوا التنازل عن الدية، إذا كانوا أهلًا للتنازل، أما الوارث اليتيم فتنازله غير مقبول، فله سهمه من الدية كاملًا، أما إذا كان أهله أعداء للمسلمين فلا دية لهم بخلاف المعاهَدين فلهم الدية وإن كانوا كافرين.

﴿أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ﴾ حيَّاكم بتحية الإسلام، وهي: (السلام عليكم).

﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ بترك الهجرة وخضوعهم لسطوة المشركين.

﴿مُرَٰغَمًا﴾ مخرجًا ومنعةً يرغم بها عدوَّه.

﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ثبت أجره وعْدًا من الله، والله لا يخلف وعده.

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوٰةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ الصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ ۚ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ اللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾﴾

يحتاج المقاتل أكثر من غيره إلى التوجيه المتواصل بحكم حساسية دوره وخطورة نشاطه، وقد تضمنت هذه الآيات عددًا من التوجيهات التربويَّة نلخصها في الآتي:

أولًا: إقامة الصلاة، وهي صلاةٌ خاصةٌ بالمقاتلين فيها قدر من التخفيف ومزيد من الضبط، فهو يصلي صلاة المسافر قصرًا وجمعًا، ولكنها صلاة منضبطة بإمامٍ واحد، ينقسم الجند فيها إلى مجموعتين؛ مجموعة يصلي بهم الإمام ركعة واحدة فقط، ثم يجلس فتكمل هذه المجموعة صلاتها، ثم تنصرف لتأخذ دور المجموعة الثانية في الحراسة، ثم يصلي الإمام بالمجموعة الثانية ركعته الثانية، فإذا سلَّم قامُوا وأكملوا صلاتهم، وهذه صورة من صور صلاة الحرب أو الخوف، والصور الأخرى معروفة في كتب الفقه.

والمعنى المضاف في هذه الصلاة هو الحرص على وحدة القيادة حتى في الظروف الاستثنائية، ولا يخفى أيضًا التأكيد على أهمية الصلاة بالنسبة للجُند؛ فهي صِلَتهم بهويَّتهم وعقيدتهم، وصِلَتهم فيما بينهم.

ثانيًا: الذكر ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡۚ﴾ وهذا تنبيهٌ على أهميَّة الذكر في صياغة شخصيَّة الجندي إيمانًا وشجاعةً، وتنزُّهًا عن الحطام ودواعي الجُبن والقعود، وفي الذكر ترسيخٌ لقيم الألفة والتعاون ومحبَّة الخير، والتغاضِي عن أسباب النزاع والخلاف.

ثالثًا: الحذر، وهو ركن التربية العسكرية ﴿وَلۡيَأۡخُذُوٓاْ حِذۡرَهُمۡ وَأَسۡلِحَتَهُمۡۗ﴾ ﴿وَخُذُواْ حِذۡرَكُمۡۗ﴾ وأطلق الحذر هنا ليشمل كلَّ ما ينبغي الحذر منه بدايةً من نوازع النفس وشهواتها، حتى مخططات العدو وطرائقه في الاختراق واصطياد المعلومات، وفتح الثغرات.

رابعًا: العزم والتحمل ﴿وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ﴾.

خامسًا: الشعور بالمسؤولية وتحمُّل التَّبِعَات ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾، ومع هذا فبابُ التصحيح مفتوح ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، وحذَّر هنا من التخلِّي عن المسؤوليَّة واتهام الآخرين بالباطل ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾.

سادسًا: البراءة من الخائنين ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾، ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، وقد بيَّن الله سببَ الخيانة ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ فالله معهم وهو يعلم سرَّهم ونجواهم، ولكنهم هم لم يكونوا مع الله، فهوَّنُوا الإثم، واستصغروا حقَّ الله في مقابل حقِّ الناس فتملَّكهم الرياء والرغبة بما في أيدي الناس.

ومن ثَمَّ وجب رفع الغطاء عنهم وكشف مخططاتهم وارتباطاتهم ومحاولاتهم التأثير على مصدر القرار ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ﴾، وإذا كان هذا في حقِّ المعصوم صلوات الله وسلامه عليه، فإن غيره من الخلفاء والأمراء أَولَى بالحيطة.

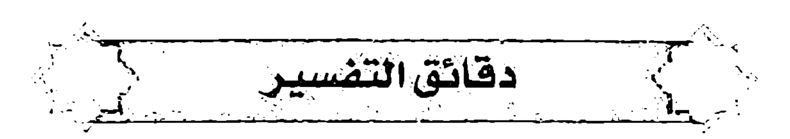
سابعًا: الابتعاد عن النجوى، وهي المحادثات الجانبيَّة في الشأن العام بمعزلٍ عن القيادة، وهي نذيرٌ بالتفرُّق والاختلاف وشيوع الشك والريبة ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ﴾، ثم استثنى التشاور من أجل الإصلاح ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾.

وقد ورد التحذير الشديد من النجوى في سورة المجادلة: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [المجادلة: ١٠].

ثامنًا: التحذير من مجانبةِ الحقِّ وشقِّ الصف ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾، وقد جاء هذا التحذير عقب الحديث عن النجوى إشارة إلى الصلة السببية بينهما.

تاسعًا: البراءة من المشركين وضلالاتهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾. ﴿وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفۡرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ فالمجتمع المسلم كلُّه متميِّزٌ بعقيدته وأخلاقه وطريقة تعامله مع الخلق، حتى الأنعام والبهائم.

عاشرًا: الأخذُ بالأسباب وعدم الاتّكال على الإيمان المجرَّد ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ فسُننُ الله غلَّابة، والسوء في مخالفة السنن الكونية لا يختلف عن السوء في مخالفة الأحكام الشرعية؛ إذ خالق الكون ومنزّل الوحي ربّ واحد وإله واحد ﷻ؛ ولذلك لم يشفع للمؤمنين إيمانهم حينما تركوا ثغرتهم مكشوفة على جبل الرماة يوم أُحُد، وهذا هو عدله سبحانه في الخلق والأمر.



دقائق التفسير

﴿إِنۡ خِفۡتُمۡ أَن يَفۡتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْۚ﴾ شرطٌ ظاهرٌ في قصر الصلاة بالنسبة للجيش، فهو يقصر الصلاة في حالة الحرب وبإمامٍ واحدٍ، أما قصر الصلاة في السفر فلا يشترط فيها خوف العدوّ سواء أكان المسافر عسكريًّا أم مدنيًّا، فسياق الآية يتناول الحرب وليس السفر، وإنما أُخذت صلاة المسافر من السنّة النبويّة.

﴿وَلَا جُنَاحَ﴾ لا حرج ولا إثم.

﴿فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ﴾ وهي الصلاة التامة من غير قصر، في حالة حصول الاستقرار وانتهاء حالة المواجهة والإنذار العسكري.

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوۡقُوتًا﴾ أي: فرضًا مؤقَّتًا بمواقيتٍ محددةٍ، وهذا هو الأصل في الصلاة، وإنما جرى تغيير الوقت في حالة الحرب استثناءً من الأصل، فاقتضى العَود إلى الأصل بذهاب حالة الاستثناء، وفي هذا دليلٌ على وجوب الالتزام بأوقات الصلاة كما فُرضت وكما أدَّاها رسول الله ﷺ، بخلاف بعض المبتدعة الذين يرون الجمع بلا عذرٍ ولا حربٍ ولا سفرٍ.

﴿فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ﴾ وهذا من شأنه أن يُخفِّفَ من وطأة الألم، ويُعين على الصبر والتحمُّل، فالمُشرِك يُجرَحُ ويُقتلُ وهو لا يعتقد بحياة الجزاء الأخروي، بخلافِ المؤمن الذي يرجُو تلك الحياة وثوابَ الله فيها.

﴿وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ أي: مُدافعًا ومجادلًا عنهم.

﴿يَسۡتَخۡفُونَ﴾ يستترون حياءً.

﴿يُبَيِّتُونَ﴾ أصله تدبير الأمر في الليل، ثم استعمل في كلِّ أمرٍ يتمُّ في الخفاء.

﴿بُهۡتَٰنًا﴾ رمي الآخر بالتهمة الباطلة كذبًا وافتراءً.

﴿أَن يُضِلُّوكَ﴾ أن يخدعوك.

﴿يُشَاقِقِ﴾ يخالف ويعاند.

﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: يتخذ طريقًا غير طريق الإسلام، وقد استنبط الأصوليون من هذه الآية حجيّة الإجماع، فما أجمع عليه المسلمون لا ينبغي مخالفته.

﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ من الذنوب كبيرها وصغيرها، وهذا من سعة رحمته وعفوه ومغفرته، وهذا ظنُّنا به سبحانه، فهو الغنيُّ عن خلقه، وهم الفقراء إليه، وفي الآية دليلٌ على جواز العفو عن قاتل النفس؛ إذ هو مما دون الشرك، وهذه قرينة أن وعيد الله لمن

يقتل مؤمنًا متعمدًا بالخلود في جهنَّم إنما في القاتل الكافر الذي يقتل المؤمن لإيمانه، والله أعلم.

وقال تعالى: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ حتى لا يتَّكِل الناس فيتجرؤوا على الذنوب وانتهاك الحقوق، كما هو مذهب غلاة المرجئة.

﴿إِلَّآ إِنَٰثًا﴾ هي الأصنام كمَنَاة والعزَّى، وفيه قبحٌ مضافٌ؛ حيث إنهم يقتلون إناث البشر، ويعبدون إناث الحجر، وهذا القَصرُ ليس على حقيقته؛ بل هو قَصرٌ قُصِد به التنبيهُ إلى شَناعَة فِعلِهم، كما يُقالُ في المَدح: لا فارِسَ إلا زَيد، ولا فتًى إلا عمرو، وكما يُقالُ في النُّصح: لا تخافنَّ إلا ذنبَك، والله أعلم.

﴿شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا﴾ هو إبليس الخارج عن طاعة الله، ويصح إطلاق الشيطان على كلِّ خبيثٍ في جنسه من الجنّ والإنس والحيوان.

﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ وهو نموذج للتديُّن الفاسد، فقطع الآذان ليس من الدين وليس من الخُلق في شيء.

﴿فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ﴾ وهذه غاية الشيطان الكبرى، وطريقته في إفساد الكون، فالموضوع أكبر من قطع الآذان، والانحراف إنما يبدأ بخطوة، فتغيير الخلق يعني تغيير نواميس الكون بدءًا من خصوصية الذكر والأنثى والعلاقة الفطرية فيما بينهما، وصولًا إلى تدمير الحياة والبيئة المحيطة بأنواع التلوُّث، وأسلحة الدمار الشامل.

﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ﴾ ليس بما تشتهون وترغبون.

﴿مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ﴾ تأكيد المساواة الجزائيَّة وتحمُّل المسؤوليَّة.

﴿نَقِيرٗا﴾ الأثر الذي في ظهر نواة التمر، والمقصود أيَّ شيءٍ ولو كان صغيرًا أو قليلًا.

﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ تأكيدٌ لوحدة الدين وربط الرسالات السماوية كلِّها بمصدرٍ واحدٍ وتاريخٍ واحدٍ.

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ۚ وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾

العلاقات الأسرية

تنتاب الأسرة مشكلات كثيرة قد تعصف باستقرارها وتماسكها، وهذه المشكلات متوقّعة في كلّ المجتمعات لغياب الوازع الديني، وضعف ثقافة الانسجام، وطغيان الأثرة والشح وما إلى ذلك من الأمراض النفسيّة والاجتماعيّة، وقد جاءت هذه الآيات لوضع المعايير والقيم الضابطة للسلوك الأسري، ويمكن ترتيبها تنازليًّا كالآتي:

أولًا: القيمة العليا، وهي الإحسان ﴿وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ والإحسان متضمن للإيثار والتنازل عن بعض الحقوق، والعمل على تقديم الخير

لكلِّ أفراد الأسرة صغارًا وكبارًا وأيتامًا ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا﴾ وهذا مقام المتَّقين الصالحين الذين يُؤْثِرون ما عند الله على ما عند الناس.

وقد شاع مؤخَّرًا في ثقافتنا الاجتماعيَّة أن هذا التنازل إنما هو دليلٌ على ضعف الشخصيَّة والقبول بالمذلَّة، وهذا تصوُّرٌ خاطئ؛ فالمصلِح لا يكون مُصلِحًا بحقٍّ إلا أن يبذل مما عنده، ويتغافل عن إساءة الآخرين، ويغفر لهم ويدعو لهم، وهذا من عظمة النفس وكرامتها، ورفعة شأنها.

ثانيًا: العدل، وهي القيمة التي تأتي في المرتبة بعد قيمة الإحسان ﴿وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ﴾ ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ﴾ وفي حال تعذُّر تحقيق العدل الكامل، خاصة في العلاقات المتشعِّبة والمتضمِّنة للعواطف والمشاعر ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ﴾.

والمقصود هنا: العدل في العاطفة والمحبَّة؛ إذ هو لا يقع تحت الضبط والسيطرة، بخلاف العدل في المسائل الماديَّة والتعامل الظاهر، فهذا بمقدور الإنسان تحقيقه، وقوله: ﴿فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾ أي: لا تُتْبِعوا الميلَ القلبي بالميل الماديِّ؛ لأنكم إن عُذِرتم في الأول فلن تُعذَروا في الثاني، والله أعلم.

ثالثًا: الصلح، وهو القيمة الثالثة في هذا السياق، ولا يكون إلا بوجود مشكلة فعليَّة ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ﴾ والصلح هنا هو اتفاق على حلِّ المشكلة، وقد يتضمن تنازلًا فيما دون العدل على أن تبقى الرابطة الزوجيَّة قائمة، والخير الذي فيه إنما هو لبقاء العصمة، واستمرار الرعاية

والنفقة، والحفاظ على الأولاد، ولا يكون هذا في الغالب إلا في حالة فقدان الانسجام والعاطفة التواصليَّة بين الزوجين، والله أعلم.

رابعًا: الفراق بالحسنى؛ وهو الحلُّ الأخير ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴾.

وقد امتزج في كلِّ هذا التذكير بتقوى الله، والتحذير من الأَثَرة والشح ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ﴾ والترغيب بما عند الله والدار الآخرة ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ ﴾.

دقائق التفسير

﴿فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ هي اليتيمة التي يمسك بها وليّها مستأثرًا بمالها وغير راغبٍ بنكاحها فيعضلها عن الزواج أيضًا خوفًا من ذهاب مالها إلى زوجها، وهي حالة مختلفة عن تلك التي وردت في الآية الثالثة من هذه السورة، وهي اليتيمة التي يرغب وليُّها بنكاحها بمهرٍ أقلَّ من القسط، فتحصَّلَت في هذه السورة حالتان:

اليتيمة التي يرغب الولي بنكاحها؛ لأن تكلفة مهرها أقلُّ.

واليتيمة التي لا يرغب بنكاحها ولا يرغب بتزويجها أيضًا حتى لا تذهب بمالها الذي عنده، وكلاهما بغي وإثم.

﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ﴾ حيث كانوا في الجاهليَّة لا يُورِّثون الصغار من بنين وبنات.

﴿كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾ الميل المادي في القسمة والنفقة إضافة إلى الميل العاطفي القلبي.

﴿كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ﴾ أي: ليست بزوجةٍ لها حقوق الزوجة المعروفة في الشرع، ولا مطلقةٍ لترى طريقها وما فيه مصلحتها.

﴿غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرًا﴾ أي: لا تُحابُوا الغنيَّ تقرُّبًا منه، ولا تُحابُوا الفقيرَ رحمةً به؛ فالعدل أن يأخذ كلُّ طرفٍ ما يستحق، وهذا الحكم العدل، فإن أراد الغنيُّ أن يعطف على الفقير من ماله، فهذا إحسانٌ منه، لكن ليس قبل أن يقضي القاضي بينهما بالعدل، فيكون الإحسان فيما بعدُ مُقدَّرًا ومعلومًا.

﴿وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ﴾ نهيٌ عن حرفِ الشهادة أو كتمانها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۚ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ۞ لَّا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾

المنافقون

تقدم الحديث مفصَّلًا عن المنافقين في سورة البقرة، والقرآن يكمِّل بعضه بعضًا، فجاء بسيرة المنافقين هنا في سياق آخر، ففي البقرة كان الحديث منصبًّا للمقارنة العقدية بين الفئات الثلاث: المؤمنين، والكافرين، والمنافقين، أما هنا فقد جاء الحديث مركَّزًا في بيان

موقف المنافقين من المعركة الدائرة بين الإسلام والكفر؛ لمناسبة الحديث المتقدم قبل قليل عن التربية العسكريَّة وشروط الجنديَّة في الجيش المسلم، ويمكن استخلاص الموقف القرآني من المنافقين في النقاط الآتية:

أولًا: إن الإيمان وحدة متكاملة لا تتجزَّأ، وقد جاء بيان أركان الإيمان الخمسة، وأن من كفر بواحد منها فقد كفر بجميعها ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾.

وأما الركن السادس وهو: القدر، فهو مضمَّن في الإيمان بالله؛ إذ حقيقته الإيمان بعلم الله وإرادته وقدرته وحكمته، وهذه صفات إلهية ينتج عنها القضاء والقدر، ومناسبة ذكر الأركان هنا بيان حال الكافر بها ومنهم المنافقون وهم محل الحديث أولًا، ثم يأتي الحديث بعدهم عن أهل الكتاب، وكلهم مشتركون في هذا الكفر وإن اختلفت صفاتهم الأخرى.

ثانيًا: إن المنافقين ليسوا في درجةٍ بين الإيمان والكفر، بل هم قد كفروا كفرًا لا شبهة فيه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

وأما تكرار الإيمان والكفر فهو ليس على سبيل التردد، بل هو طبيعة النفاق، فهم كلما قابلوا المؤمنين قالوا: آمنَّا، وكلما قابلوا الكافرين قالوا: كفَرنا، وأما حقيقتهم الذاتيَّة فهي الكفر، كما قال عنهم في سورة البقرة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨].

ثالثًا: إن المنافقين هم مع الكافرين في ولاءٍ واحدٍ من دون المؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ والمقصود بالكافرين هنا: المُجاهرون بكفرهم وعدائهم للمؤمنين، وإلا فإن المنافقين كافرون وليسوا مُوالين للكافرين، فكفرهم ثابتٌ بنفي إيمانهم من الأصل، وليس بسبب ولائهم.

رابعًا: إنهم يشتركون مع الكافرين في الاستهزاء بآيات الله ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾.

خامسًا: إن تغيُّر مواقفهم إنما يكون بحسب المصلحة، وليس تغيُّرًا في الرأي أو المعتقد ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ ﴾، وهذا هو سبَبُ التذبذُب ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ ﴾ لأنه ليست عندهم راية واضحة ينحازون إليها؛ فاليهودي مُنحازٌ ليهوديته، والمشرك مُنحازٌ لقومه، وهؤلاء ضائِعون انتهازيُّون يبحثون عن الفتات تحت أي سفرة، وليس التذبذُب التحيُّر أو التردد بين الإيمان والكفر.

سادسًا: إنهم مخادعون ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ﴾ أي: أنهم يظنون أنهم يخدعون الحق وأهله، ولكن الحقيقة أن خداعهم راجع عليهم، فهم يخدعون أنفسهم ببعض المصالح الزائلة ثم تكون وبالًا عليهم.

سابعًا: إنهم يتقاعسون عن الطاعة والعبادة؛ لأنهم يتصنَّعونها تصنُّعًا بلا إيمان ولا رغبة ﴿وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ وهذا لا يشمل المؤمن الذي قد يتعرَّض للكسل بطبعه البشري، فهذا ليس من النفاق.

ثامنًا: إن باب التوبة مفتوح لهم، لكن بشروط مضافة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ ﴾ فإصلاح ما أفسدوه في مرحلة النفاق شرط في التوبة، وكذا الإخلاص والاعتصام لمكان الاضطراب والتذبذب وغيرهما من الصفات التي كانوا عليها مما لا تبعث على الطمأنينة والارتياح.

تاسعًا: إن المجاهرة بأقوالهم والمساهمة بنشر أخبارهم وإشاعاتهم، وكذا إعلان الخصومة لهم ليس من الصفات المحبَّبة عند المؤمنين، إلا بقدر ما يندفع خطرهم وظلمهم المتجه نحو

المجتمع كله، أو نحو فرد أو مجموعة معينة ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾.

دقائق التفسير

﴿ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا﴾ إشارة إلى أن الكفر يتفاوت كما يتفاوت الإيمان، فكفر الجاهل مثلًا ليس ككفر العارف المعاند، وهؤلاء المنافقون لأنَّهم عاشوا مع المسلمين وسمعوا من رسول الله ﷺ مباشرة، ورأوا خُلُقه وشمائله، وتأييد الله له، ثم أصرُّوا على كفرهم فهم قد هَوَوا إلى أسفل دركات الكفر، ومن هنا استحقوا أشدَّ العذاب ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾.

﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا﴾ منع الهداية لم يكن ابتداءً، بل بسبب ظلمهم وعنادهم ونفاقهم، وهذا هو الذي يتَّفِق مع عدل الله وحكمته، فالله لا يهدي قومًا ويضل آخرين انحيازًا لأولئك وظلمًا لهؤلاء – حاشا لله –، بل من طلب الهداية هُدِيَ، ومن طلب الضلالة ضلَّ، تمامًا كعالم الأسباب المادِّيَّة، فمن طلَبَ الماءَ ارتَوَى، ومن تركه ظَمِئَ.

﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ ومعنى الجواب: أن من يبتغي العزَّة فليلتجِئ إلى الله، فالانتساب إليه يمنح العبد مكانته وكرامته؛ إذ سيتساوى مع كل البشر مهما كان ضعيفًا أو فقيرًا، أما الابتعاد عن الله فإن الناس بهذا الابتعاد سيتمايَزُون بقدراتهم وإمكانياتهم، وهذه مظنَّة الإذلال وعبوديَّة البشر للبشر.

﴿فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ﴾ إشارة أن مقاطعة المجتمعات الكافرة أو الفاسقة ليس مَطلبًا شرعيًّا ما دام الاحترام قائمًا، أما إن سخروا واستهزؤوا فتتعيَّن العزلة، نزعًا لفتيل الصدام، وتجنبًا للنزول إلى المستوى الذي يضيع فيه الجد، ويهزل فيه الفكر.

﴿يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ أي: ينتظرون نتائج المعركة مع تمني السوء لكم.

﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾ هو جَعل تشريعي، بمعنى: أن الله قد شرَّع لكم من التوجيهات والأحكام ما يضمن لكم النصر والتفوُّق، وهذا كقوله: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ [محمد: ٧]، فالتزامكم بأمر الله واعتصامكم بحبله يقطع سبيل الكافرين في غلبتكم.

﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ﴾ فالله ليس محتاجًا لعذابكم، لا لدفع ضرٍّ عنه، ولا لجلب خير، ولا تشفِّيًا بكم، وهذا فيه ترغيب شديد بالتوبة والإنابة، وبيان لسعة رحمة الله وعفوه وقبوله لمن تاب إليه مهما كان.

﴿إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ﴾ قدَّم الشكرَ على الإيمان، إشارة أن خُلُق الشكر الفطري ومحبَّة الإنسان لمن يحسن إليه سيقود صاحبه إلى الإيمان حتمًا، فمن ذاك الذي أحسن إلينا أكثر من الذي خلقنا من العدم، وأمَدَّنا بكل أسباب الحياة عنايةً ورعاية وكرامة؟

﴿۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ حتى لا يظنَّ ظانٌّ أن ما تقدَّم من فضح المنافقين وأساليبهم الملتوية مبررٌ لأن يكون هذا سمْتًا في المسلمين في تعاملهم مع الآخرين، فالقرآن يذكر صفات وأحوالا يحذّر منها ولا يذكر أسماء وأشخاصًا، أما تناول الأشخاص والجماعات المعينة بالطعن فهذا ليس واردًا إلا في حالة الظلم الواقع من معيَّن على معيَّن، وحتى هؤلاء ندبهم إلى العفو ورغَّبهم فيه ﴿أَوۡ تَعۡفُواْ عَن سُوٓءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرًا﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ ۚ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ ۞ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۖ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ۘ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ۚ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾

يتكرر الحديث عن أهل الكتاب، وهذا دليل على خطورة شأنهم، وعظيم تأثيرهم في هذه الحياة، بيد أن هذا التكرار يحمل معه إضافات جديدة ومعالجات لجوانب أخرى لم تطرح من قبل، وفيه أيضا تأكيد للمقولات والمقدّمات الجوهرية التي ينبغي استحضارها في كل مرة، أما المسائل التي تناولها الحديث في هذه الآيات فهي:

أولًا: تجزئة الإيمان كفر، وهذا هو مدخل الكفر بالنسبة لأهل الكتاب ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ فهم آمنوا بموسى وكفروا بمحمد واختلفوا في عيسى ﷺ.

ثانيًا: عناد اليهود وتكبُّرهم على الحق ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ﴾ وقد ذكَّرهم القرآن بعد هذا بأن الله قد أراهم المعجزات الحسِّيَّة كرفع الطور، لكنَّ قلوبهم القاسية لم تَلِن فازدادت قساوة، وتمادَت في ظُلمها وتكبُّرها.

ثالثًا: جرائم اليهود، وقد جاءت هذه الآيات بنماذج متنوعة، بدأت بكفرهم بآيات الله، ونقضهم الميثاق الإلهي، وقتلهم الأنبياء، وحرصهم على قتل السيد المسيح، وانتهت بأخذهم الربا وأكلهم لأموال الناس بالباطل ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾، ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ۚ﴾ وقد استثنى الله من هؤلاء من رفض هذه الجرائم واهتدى للحق ﴿لَّٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ﴾.

رابعًا: شرك النصارى؛ وهو مدخل ثانٍ للكفر؛ حيث قالوا في عيسى ما يرفعه إلى مقام الألوهية ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾، ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ۚ﴾.

خامسًا: الغلو سبب مضاف للكفر والشرك، وهو قاسم مشترك بين اليهود والنصارى وإن جاء بنتائج متضادّة ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾، فعيسى نبيٌّ ورسولٌ، خلقه الله بأمره وجعل خلقه آيةً، وهذا هو الموقف الحق بين غلو اليهود فيه حتى اتهموه وأمَّه بما لا يليق بآحاد الناس، وبين الغلو المقابل عند النصارى؛ حيث جعلوه نِدًّا لله، ونفَوا عنه صفة المخلوقيَّة.

سادسًا: وحدة الرسالات السماوية من حيث المصدر، ومن حيث الغاية ﴿۞إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾، ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾.

وقد خُتِمَت السورة بمسألةٍ فقهيةٍ وثيقةِ الصلة بالمسائل التي استُهِلَّت بها السورة؛ تأكيدًا للوحدة الموضوعيّة، ومنهجية القرآن في معالجة المسائل المتنوعة، فهي وإن اختلفت في بعض الجوانب، لكنها حقيقة كالنهر المتدفق لا يمكن فصل بعضه عن بعض، فالعقيدة تؤثِّر في السلوك الفردي والجماعي، والعلاقات السياسية مرتبطة بالعلاقات الاقتصادية، وهكذا.

دقائق التفسير

﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ بمعنى: أنهم يدَّعُون الإيمان بالله ثم يكفرون برسله.

﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ﴾ أي: مكتوبًا جاهزًا من السماء، وليس وحيًا يُملَى عليك ثم تُمليه على الناس، وهذا من عِنادهم وصَلَفهم، وإلا فدلائلُ الحق في الوحي ظاهرة، وهي كافيةٌ للهداية وإقامة الحُجَّة.

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ﴾ أي: رَفَعنا فوقهم الطور أثناء أخذ الميثاق منهم إلزامًا لهم، وتأكيدًا لأهمية الميثاق، وقد مرَّ الميثاق في سورة البقرة بالتفصيل المناسب.

﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ دليل على حفظ الله لنبيِّه عيسى من كيد اليهود وغيرهم، ونجاته من الموت على أيديهم، ورفعه إلى السماء ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾.

﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ مُقتضى السياق أن الله نجَّى عيسى ورفعه إليه، ثم يقيم به الحجة على أهل الكتاب الذين غالوا فيه يمنةً ويسرةً، وهو ما سيتحقَّق قبل موته ﷺ.

وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**وَالذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمُ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا، فَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلُ الخِنْزِيرَ، وَيَضَعُ الجِزْيَةَ، وَيَفِيضُ المَالُ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ، حَتَّى تَكُونَ السَّجْدَةُ الوَاحِدَةُ خَيْرًا مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا**».

ثم يقول أبو هريرة: (واقرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾)[1].

وقد أشكل على بعض المفسِّرين تخصيص العموم بهذا التفسير، أي: العموم الوارد بقوله: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ إذ لا دليل على تخصيصه بالجيل الذي سيكون موجودًا عند النزول، فاضطروا لأقوال لا دليل عليها؛ كقولهم: إن كل كتابيٍّ في كل زمان ومكان لا يموت إلا وهو يؤمن بعيسى الإيمان الحق، كأن يرى شيئًا قبل موته - أيْ: موت الكتابي -، وهذا تكلُّفٌ ظاهر، فالتخصيص وارد بالحس والواقع، فالذين سيؤمنون به هم الذين سيُعاصِرُون نزوله ويرونه عيانًا، وهذا شائعٌ في اللغة، وله نظائر في القرآن كثيرة، والله أعلم.

---

(١) متفق عليه، ينظر: صحيح البخاري (٣/ ١٢٧٢/ دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧- ١٩٨٧م)، وصحيح مسلم (١/ ١٣٥/ دار الجيل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).

﴿لَٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ إشارة أن الرسوخ في العلم يقود إلى الهداية؛ لأن هذا الرسوخ هو علامة الصدق والجد، بخلاف العلوم والمواعظ السطحية التي يجمعها علماء النفاق والسلطان الذين يتسوَّلُون الجاهَ والمالَ بعلمهم ومواعظهم.

﴿وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ﴾ فيه جواب ضمني لمن يسأل عن سرِّ وجود الأنبياء كلهم في هذه المنطقة ما بين الفرات إلى النيل، وفيه تأديبٌ أن لا نتناول أحدًا من المصلحين والمؤثرين في العالم؛ لأنه قد يكون من هؤلاء، وإن حُرِّفَت رسالاتهم، فالتوقف عن تناول الأشخاص المعينين منهم أَولَى، والله أعلم.

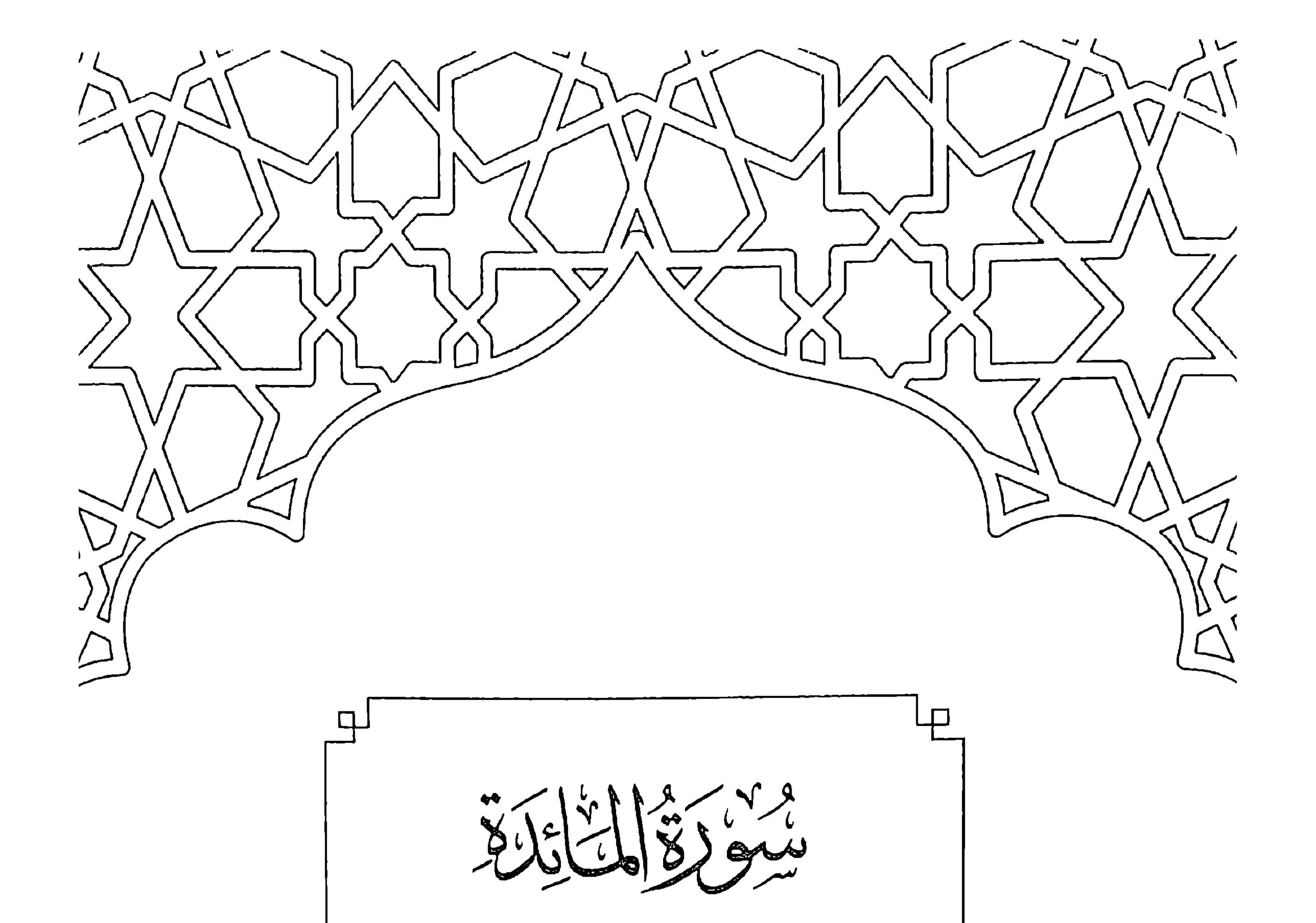
﴿وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ فالدعوة إلى الإيمان إنما هي لمصلحة الإنسان وتحقيق سعادته، وإلا فإن الله غنيٌّ عن العالمين مؤمنهم وكافرهم.

﴿لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ أصل الغلو المبالغة والزيادة، ثم استعمل في التطرُّف والتشدد الديني زيادة على الحق بالكره أو الحب ونحوهما.

﴿وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾ الروح التي خلقها الله بأمره، كما تقول: أرض الله وسماؤه وخلقه، بَيْدَ أن إضافة الروح مباشرة إلى الله فيه تشريف وتعظيم لمقام السيد المسيح ﷺ.

﴿وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ تأكيد للقيمة المحورية لهذا الدين أنه الصراط المستقيم العدل الذي لا عِوَج فيه ولا محاباة ولا ظلم ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ﴾ تقدَّم تفسير الكلالة ومتعلقاتها في مقدمة السورة، وأن قوله تعالى هناك: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ يتكامل هنا بقوله: ﴿كَانَتَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ فمجموعهما يدلُّ في هذه المسألة على أن نصيب البنتَين أو الأُختَين وما زاد هو الثلُثَان.



سورة المائدة

المجلس السادس والأربعون: إكمال الدين وإتمام النعمة

المجلس السابع والأربعون: ميثاق الله السابق لأهل الكتاب

المجلس الثامن والأربعون: الأمن والحياة

المجلس التاسع والأربعون: أهل الكتاب واختبار الحكم

المجلس الخمسون: الولاء والبراء

المجلس الحادي والخمسون: حوار مع أهل الكتاب

المجلس الثاني والخمسون: بناء المجتمع المسلم

المجلس الثالث والخمسون: معجزات النبي عيسى على نبيِّنا وعليه الصلاة والسلام

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْيَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًاۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخْدَانٍۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلْأٓخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾

إكمال الدين وإتمام النعمة

تضمَّنَت الآيات الأُول من سورة المائدة ما يُشعِر بختم الرسالة وإكمالها والاطمئنان على ثباتها ورسوخها في هذه الأرض ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ۚ﴾.

فالدين قد كمل على عهده ﷺ بالوحي المنزَّل والسنَّة الشارحة المبيِّنة، فمن ادَّعى نزول الوحي أو شيئًا من التشريع والأخبار الغيبيَّة على شخصٍ بعد رسول الله مهما كان قُربه ومنزلته فقد كذب وخرق هذه الحقيقة القرآنيَّة الصريحة والجليَّة.

وقد تضمَّن هذا الإتمام بعض الأحكام العمليَّة الدقيقة التي اقتضت سنَّة التدرُّج التشريعي أن تكون في أواخر التشريع.

وقد جاءت هذه الأحكام مُصدَّرة بمبدأ أساس من مبادئ الإسلام ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ۚ﴾ تذكيرًا بالعقد المقتضي للالتزام العملي بكلِّ ما شرَّعه الله، وأكَّد هذا المعنى بقوله: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَـٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ﴾، وهو تذكيرٌ مناسبٌ لختم الرسالة، وتمهيدٌ مناسبٌ كذلك لما سيذكره من أحكامٍ وهي:

أولًا: إباحة الطيِّبات من الطعام ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ ۙ﴾، وهذه الطيِّبات تشمل: الأنعام ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾، وأنواع الصيد ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ ۚ﴾، وما تصطاده الكلاب المدرَّبة ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ﴾، وذبائح الذين أوتوا الكتاب ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ﴾.

ثانيًا: محرَّمات الطعام ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾، ثمَّ نصَّ على أصنافٍ لها حكم الميتة ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ﴾، وصيد المُحرِم

﴿غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ﴾، ثم استثنى من هذا حال الضرورة لدفع خطر الهلاك جوعًا ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

ثالثًا: إباحة الزواج من الكتابيّات بشروطٍ محدَّدةٍ ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ﴾.

رابعًا: تعظيم الشعائر وما يتَّصِل بها، وتوفير الأمن للحجَّاج والمعتمرين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ﴾، ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ﴾.

خامسًا: البُعد عن عادات الجاهليَّة وخرافاتها ﴿وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ﴾.

سادسًا: وجوب التطهُّر لقاصد الصلاة بالوضوء لرفع الحدث الأصغر، وبالغُسل لرفع الحدث الأكبر، وبالتيمُّم لرفع الحدَثَين في حالة عدم وجود الماء، أو عدم وجود القدرة على استخدامه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ وهنا تلازم لطيف بين طهارة القلب بالصلاة وطهارة الجسد بالغُسل والوضوء.

سابعًا: العدل حتى مع الأعداء والمبغضين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾.

والمُلاحَظ هنا تأكيد هذا الخُلُق بأكثر من أسلوب؛ ففي الآية الثانية من هذه السورة حرَّم الاعتداء على الآخرين ولو كانوا قد صدُّونا عن المسجد الحرام، وهنا أمر بالعدل معهم وربط هذا العدل بالتقوى، وهذه قيمةٌ دقيقةٌ من قيم العدل قد تضيع في بحر العداوة والخصومة، فجاء التأكيد ليجلِّيها كلَّ هذا التجلِّي.

وبعد كلِّ هذا ذكَّر القرآن بنعمةٍ قريبةٍ وهي مظهرٌ من مظاهر إتمام النعمة ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ﴾ والظاهر من السياق وقرائن أخرى أنَّ هذه النعمة كانت في الحديبية؛ لقوله تعالى في سورة الفتح: ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الفتح: ٢٥]، وكرَّر ذكر الشنآن في آية الصدِّ هذه، ثم في آية العدل؛ إشارةً إلى أنهم جهة واحدة.

وقد ثبت أن المشركين كانوا قد همُّوا بمقاتلة المسلمين في الحديبية، لكنَّ الله صرفهم إلى الصلح كما قال في آية أخرى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ [الفتح: ٢٤]، ثم إن يوم الحديبية هو الأقرب زمانًا لموضوع الآيات، والأكثر مناسبة لإتمام النعمة. وربما ذهب من ذهب إلى القول بأنهم اليهود الذين حاولوا قتل الرسول ﷺ؛ لمجيء الحديث عن بني إسرائيل مباشرةً بعد هذه الآيات.

والأقرب أن مناسبة ذِكر بني إسرائيل كانت لتذكير المسلمين بعقدٍ وميثاقٍ سابقٍ كان مع اليهود فنبَذُوه؛ تحذيرًا للمسلمين أن يُكرِّروا هذا الخطأ في ميثاقهم الجديد، كما سيأتي في المجلس التالي، والله أعلم.

دقائق التفسير

﴿أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ عامٌّ في كلِّ عقدٍ، ومقتضاه وجوب الوفاء بكلِّ الالتزامات والتعهدات ولو مع كافر.

﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ أصل في الإباحة الأصليَّة، وأن التحريم استثناءٌ لا يكون إلا بدليلٍ.

﴿لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ أي: لا تستبيحوا المحرمات بمعصيةٍ عمليةٍّ أو باعتقاد إباحتها من غير دليلٍ، والشعائر جمع شعيرةٍ، وأصلها العلامة الظاهرة، والمقصود: كلُّ نُسُكٍ وتديُّنٍ ظاهرٍ، وخصَّها بالذكر؛ لأنها تمثِّل هويَّة المجتمع المسلم، وانتهاكها انتهاكٌ لهذه الهويَّة الجامعة، والله أعلم.

﴿ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾ استغراق للأشهر الحُرُم كلِّها، والمنهي عنه هنا بدْءُ القتال، أما ردُّ العدوان فمشروع فيها وفي غيرها، وكذا لو بدأ القتال قبلها ثم استمرَّ؛ لأن إيقافه من طرفٍ واحدٍ معناه الاستسلام للعدوِّ، وعليه يُحمل قوله: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ [التوبة: ٥]، وهذا أَولَى من القول بالنسخ، خاصةً أن هذه الآيات من أواخر ما نزل، والله أعلم.

﴿ٱلۡهَدۡيَ﴾ كلُّ ما يُهدى إلى البيت الحرام قربة لله، فلا يجوز التعرُّض بالأذى له بالصدِّ أو العدوان.

﴿ٱلۡقَلَٰٓئِدَ﴾ ما يقلَّد به الهدي تمييزًا له عن غيره من الأنعام، وخصَّه بالذكر مع أنه هَديٌ؛ لأن صاحبه قد علَّمَه، فلا مكان للشُّبهة ولا عذر بالجهل.

﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ﴾ أي: يحرُم الاعتداء على من قصد البيت الحرام أداءً للنسك، أو طلبًا للرزق، وهو عامٌّ في كلِّ قاصدٍ، ثم خُصَّ بالنهي عن قربان المشركين ﴿فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ﴾ [التوبة: ٢٨].

﴿وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ﴾ الأمر إذا جاء بعد النهي أفادَ زوال النهي فقط؛ فيرجع الحكم إلى ما كان عليه قبل النهي، ولما كان الصيدُ قبل الإحرام مُباحًا، ثمّ حُرِّم بالإحرام، جاء الأمر بالصيد بعد الإحرام مُفيدًا لإباحته لا لوجوبه ولا لندبه، وهذه من الصيغ التي يخرج فيها

الأمر عن معنى الطلب.

﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ﴾ أي: لا يدفعنَّكم عداوةُ قوم لكم وبغضهم إلى أن تعتدوا عليهم، وهذا أصلٌ عظيمٌ من أصول العلاقات بين المسلمين وغيرهم، فالكفرُ لا يبرر العدوان، وإذا كان هذا مع الكافرين فهو بين المسلمين المختلفين أَولَى.

﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾ استثناء من الإباحة الأصليَّة، وهي التي تَنفُقُ بغير ذكاةٍ شرعيةٍ.

﴿وَٱلدَّمُ﴾ الخارج بذبحٍ أو جرحٍ وهو المسفوح، أما الباقي في عروق اللحم بعد الذبح فلا حرج فيه.

﴿وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ﴾ وذكر اللحم؛ لأنه المأكول عادةً، وإلا فالخنزير محرَّمٌ كلُّه، والحديث عن حكمة التحريم نافعٌ في بيان منهج التشريع وحكمته، لكنَّه لا يؤثِّر في أصلِ الحكم؛ لأن إدراك الحكمة من التحريم متفاوت بين البشر زمانًا ومكانًا، فما فاتَ على من قبلنا قد نُدركه نحن، وما فات علينا قد يُدركه مَن بعدنا، فالتحريم ثابتٌ وباقٍ ما بقِيَ النصُّ، وهو باقٍ.

﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ النذور والقرابين التي تُقدَّم لغير الله، فهذا مما يحرُمُ أكله؛ كالميتة، والدم، والخنزير.

﴿وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ وهذه كلُّها من أصناف الميتة، وقد نصَّ عليها لمكان الشبهة؛ إذ قد ينصرف معنى الميتة إلى من تفقد حياتها بمرضٍ أو هرمٍ.

والمنخنقة هي: التي تموت خَنْقًا بحبلٍ ونحوه.

والموقوذة هي: التي تموت بالضرب بعصًا أو بحجارةٍ ونحوهما.

والمتردِّية هي: التي تموت بسبب سقوطها من علوٍّ.

والنطيحة هي: التي تموت بسبب نَطحها من قِبَل بهيمة أخرى.

وما أكل السَّبُع هي: التي يفترسها السبع؛ كالذئب ونحوه.

﴿إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ﴾ استثناء من المُنخَنِقة فما بعدها، فإذا تعرَّضَت البهيمة للخنق أو الضرب أو السقوط أو النطح أو الافتراس، ثم تمكَّن صاحِبُها من ذبحها قبل موتها بحيث يخرج منها

الدم كما يخرج من غيرها، فهي حلالٌ، أما إذا أشرفت على الموت بحيث لم يبق فيها ما يدفع بدمها نحو الخارج، فهي ميتة حُكمًا، والله أعلم.

﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ تفريعٌ لما أُهِلَّ لغير الله به، والنُّصُب كلُّ ما يُنصَب للعبادة والتعظيم من حجارةٍ ونحوها، فالذبح لها تقربًا يحرِّم الذبيحة.

﴿وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ﴾ عادةٌ جاهليَّةٌ أنكرها القرآن لما فيها من غبنٍ وجهالةٍ؛ حيث كان الجاهليُّ يحتكم إلى قداحٍ أو عيدانٍ ثلاثةٍ مُعلَّمةٍ بـ (افعل)، و(لا تفعل)، والثالث غُفْل، وذلك بقصد استنطاق الغيب ومعرفة ما قُسِم له من خيرٍ وشرٍّ، فيمدُّ يده إليها وهي مغطَّاة لا يميِّزها، فإن خرج بيده الأول فهو الخير، وإن خرج الثاني فهو الشرُّ، وإن خرج الثالث أعاد الكرَّة، والاستِقسام معناه: طلب العلم بما هو مقسوم في القَدَر، أو هو من القَسَم بمعنى اليمين؛ لأنه يُلزِم نفسه بما خرج له، كأنه أقسَمَ على نفسه بذلك.

﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ﴾ استثناءٌ من التحريم اقتَضَتْه ضرورة الحفاظ على الحياة بدفع المخمصة، وهي الجوع الشديد المفضي إلى العطب أو الموت، فهذا يحقُّ له أن يأكل من الميتة ونحوها؛ فالتحريم إنما كان لمصلحةٍ بوجود المباحات من الطيِّبات فلما فَقد الطيِّبات وتعيَّن الحرام لدفع العطب انقلب الحرامُ إلى مباحٍ، واشترط عدم التجانُف للإثم بمعنى أن لا يرغب بالإثم، ولا يميل إليه، ولا يستكثر منه.

﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ أصلٌ في التشريع، والطيب هنا كلُّ طعامٍ نافعٍ، وعكسه الخبيث وهو الضارُّ، وما ثبت ضرره من كلِّ وجهٍ فهو محرَّمٌ؛ كالسمِّ والدخان، وما اختلط فيه النفع بالضرِّ فيُراعَى فيه حال الآكل، فمن أدَّى به إلى العطب؛ كالسكَّر لمن وصل به داؤه إلى حدِّ الخطورة فهو محرَّمٌ، ومن كان دون ذلك خفَّ التحريم إلى حدِّ الكراهة أو الإباحة.

وهناك طعامٌ نافعٌ لكنه خبيث الرائحة - كالبصل والثوم - فهذا مباحٌ مع الاحتجاب عن أذيَّة الخلق في الجماعات ونحوها، والله أعلم.

﴿وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ﴾ هنا شروط

الصيد بالحيوانات المُعتادة على الصيد؛ كالصقور والكلاب، وهذه الشروط: التعليم، وعلامته الائتمار بأمر معلِّمِه إرسالًا أو إحجامًا، ثم الجرح بأن يخرج من طريدته الدم، فلو قتل الصيد بثقله، أو طارده حتى مات خوفًا أو وقع في هاويةٍ فلا يحل أكله، وهذا هو معنى الجوارح، ثم الإمساك به على صاحبه، بأن يصطاده له لا لنفسه، فلو أكل منه قبل أن يصل صاحبه فهو له - أي: للكلب - ويحرم على الآدمي.

والعبرة بالإمساك، فإن أمسك ثم تأخَّر عليه صاحبه فبدأ بالأكل فلا حرج؛ لأن علامة التعليم حصَلَت، ومن الفقهاء من فرَّق في هذا بين الكلب والطير، وليس هنا مجال التفصيل.

﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ﴾ أي: عند الإرسال، وهو على سبيل الاستحباب، فلو نسِيَ فلا حرج، وعند الأكل كذلك، والمسألة لا تخلو من خلافٍ فقهيٍّ، والله أعلم.

﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ﴾ المقصود بالطعام هنا الذبائح؛ لأن غيرها مباح بإطلاقٍ من الكتابِيِّين وغيرهم، وطعامنا حلٌّ للكتابِيِّين معناه إطعامنا إيَّاهم؛ لأن المخاطب بالتكليف المؤمنون، وفيه معنًى خفيٌّ للتكافل والتواصل.

وأهل الكتاب هنا هم أهل الكتاب المعروفون على اختلاف نِحَلهم ومذاهبهم، واشتراط التوحيد وعدم القول بالتثليث تكلُّف لا يساعد عليه سياق التشريع، إلّا أن سوء تصرُّف الكتابِيِّ بذبيحته على خلاف دينه يحرِّمُها، وحكمُه حكمُ المسلم الذي يخنق ذبيحته أو يصعقها بالكهرباء صعقًا مميتًا، والتحريم هنا لفقد الذكاة الشرعيَّة وليست لاختلاف الدين، والله أعلم.

﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: الحرائر العفيفات منهم، وهذا نقض لمن توهَّم أن البراءة من الكافرين تقتضي بُغضهم والانعزال عنهم، فالزواج سكنٌ ومودّةٌ ورحمةٌ، وهو مع الكتابيَّة كذلك.

ولا يُعقل أن الله يُبيحُ الزواجَ منها ثم يأمر ببُغضها وبُغض أهلها، وإنما البراء تمييز المعتقد،

وتمايز الصفوف عند القتال، وفي غيرهما يشرع التواصل والتكافل والتعاون والتحاور، والله أعلم.

﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ السِّفاح هو: الزنا، والأخدان: الخليلات والعشيقات.

﴿فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ الواو للعطف، والترتيب هنا معنًى مُضاف بقرينة إدخال الممسوح، وهو الرأس بين المغسولَين، وهما الأيدي والأرجل، وغسل الأرجل ظاهرٌ بالفتح عطفًا على الأيدي، وأما قراءة الكسر فلا تناقض الفتح، والقرآن يكمِّل بعضُه بعضًا، والعطفُ على الرؤوس واردٌ لفظًا لمحلِّ القُرب لا معنًى، وذِكرُ الكعبَين قرينة على الغسل كما في المِرفَقَين؛ إذ المسح لا يستَوفِي كلّ القدَمَين، والعطف على الرؤوس واردٌ لفظًا لمحل القُرب لا معنًى، وربما فيه إشارة خفيَّة إلى جواز المسح في حالة وجود الخفَّين، والله أعلم.

﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ أصل الغائط: المكان المنخفض، والمقصود به هنا: نقض الوضوء بما خرج من السبيلَين، واستعمال الغائط بهذا المعنى؛ لأنه المكان المقصود عادةً لقضاء الحاجة، ومُلامَسة النساء الأظهر فيها: الجماع.

وكأنَّ القرآن قد ذكر الحَدَثَ الأصغر ثم ذكر الحَدَثَ الأكبر، وهما المُوجِبان للتيمُّم عند فَقد الماء أو فَقد القدرة على استعماله، وتفسيره بملامسة اليد - مع ما فيه من الاحتياط - فيه أثر سلبي للعلاقة بين الزوجين، خاصةً في البيوت التي لا يتوفَّر فيها الماء، أو الجاهزيَّة لاستعماله، وفي هذا حرجٌ يتنافى مع قصد المودّة وهو قصدٌ شرعيٌّ.

وقد ورد من السنَّة ما يصرف الملامسة عن معنى اللمس الظاهر؛ كقول السيدة عائشة ﵂: (كان رسول الله ﷺ يتوضَّأ ثم يُقبِّل ويُصلِّي ولا يتوضَّأ)[1]، والله أعلم.

---

(١) رواه أحمد وابن ماجه عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وأرضاها، ينظر: مسند أحمد (٦/ ٦٢/ المطبعة الميمنية، ط. ١٣١٣هـ تصحيح محمد الزهري الغمراوي)، وسنن ابن ماجه (١/ ١٦٨/ دار الفكر، تح محمد فؤاد عبد الباقي).

﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ
ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ
سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ
ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟
حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ
﴿١٣﴾ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ
وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ
جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ
قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ
وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ لَّقَدْ كَفَرَ
ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ
ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ
وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم
بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾
يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ
وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ
وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟
عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟
مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ
فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ
وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ
﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾

بعد إتمام النعمة وإكمال الدين، والدعوة إلى الوفاء بالعقود، والتذكير بميثاق الله لهذه الأمة المحمديَّة ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ﴾، جاء التذكير بميثاق الله السابق مع بني إسرائيل: ﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ ثم ميثاقه تعالى مع النصارى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ﴾.

وفي هذا تعليمٌ للمسلمين بأخبار القوم وتجربتهم في حمل الأمانة، وفيه تحذيرٌ من الوقوع فيما وقعوا فيه، ويمكن تلخيص التجربتين السابقتين بالآتي:

أولًا: نصَّ الميثاق على الإيمان بالله ورسله، وإفراد الله بالعبادة، وتقديم الخير للناس، والوقوف مع الأنبياء وتعظيمهم ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾.

ثانيًا: تضمَّن الميثاق إلزامهم بدعوة النبيِّ الخاتم ﷺ ورسالته الخاتمة: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ﴾، ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ﴾.

ثالثًا: وعَدَهم الله إنْ هم وفُّوا بميثاقهم بأن يكون الله معهم تأييدًا ونصرةً ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ﴾ وأنه سيكفِّر عنهم سيِّئاتهم ويدخلهم جنَّاته ﴿لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ﴾.

رابعًا: تضمَّن الوعد أيضًا التمكين لبني إسرائيل في الأرض المقدَّسة إنْ هم وفُّوا بعهودهم، وتمسَّكوا بميثاقهم ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ﴾.

خامسًا: أن الله قد وفَّى بوعده لبني إسرائيل في مراحل محددةٍ من مسيرتهم بقَدر ما كان هناك التزام من طرفهم ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

سادسًا: أن بني إسرائيل قد نقضوا ميثاقهم فاستحقوا الطرد ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ﴾.

سابعًا: أنهم تقاعَسُوا عن نصرة الحقِّ وخذَلوا أنبياءَهم، فحَرَمَهم الله من التمكين في الأرض ﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾، ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾.

ثامنًا: أنَّ بعضَ النصارى قد خرَجوا عن الدين، وكفَروا بالله وأشركوا به ما لم ينزل به عليهم سلطانًا ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ﴾.

تاسعًا: أن الميثاق إنما هو مسؤوليَّةٌ وأمانةٌ، وليس فيه فُسحة للمحاباة، أو تمييز عنصرٍ على آخرٍ ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ﴾ وفي هذا تنبيهٌ لأمة الإسلام لا تخفَى دلالته.

﴿ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ﴾ نوع من التنظيم لإدارة المجتمع، والنقباء هم القادة الذين يتولون أمر مَن تحت أيديهم.

﴿وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ﴾ أي: عظَّمتُموهم وأيَّدتُّموهم ونصَرتُّموهم.

﴿وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ﴾ النسيانُ هنا عن إهمالٍ أو عن قصدٍ، وهو سلوكٌ معهودٌ في بني إسرائيل يؤمنون بما يروق لهم، ويُهمِلُون ما يثقل عليهم أو يعترض شهواتهم وطموحاتهم.

﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أصلٌ في أدب التعامل مع المخالفين ولو كانوا على دينٍ آخر.

﴿نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ﴾ يزعم النصارى أنهم أبناء الله على المجاز من باب التودُّد والتلطُّف، وهو غير قولهم: إن عيسى ابن الله، فهم يقصدون به الحقيقة المعروفة، وقد أخطأوا في الأولى وكفروا في الثانية.

﴿وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ هذا دَيدَنُ الشعوب المريضة، والتي تتَّكِلُ في كلِّ شؤونها على الأماني وانتظار الفرج من الغير، أنهم يُمنُّون أنفسهم بأن تأتي قوة لتطرد هؤلاء الجبارين بعيدًا عن الأرض المقدسة، ثم يقال لهم: تفضَّلوا، وكان عاقبة هذا التِّيه أربعين سنة.

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا﴾ أي: يخافون الله، فأنعم الله عليهما باليقين والحكمة.

﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ﴾ أي: اقتحموه بقوَّة، فالاقتحام دليل العزم والقوة، وهو - لا شكَّ - من أهم أسباب النصر.

﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْۛ أَرْبَعِينَ سَنَةًۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾ أي: أن الله عاقبهم على جُبنهم وخذلانهم لأنبيائهم بأنْ حالَ بينهم وبين الأرض المقدسة أربعين سنة حتى انقضى ذلك الجيل. والتِّيهُ الضياعُ والحيرة والشتات.

﴿فَلَا تَأْسَ﴾ لا تَأسَفْ عليهم ولا تحزن.

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

الأمن والحياة

الحياة الآمنة المستقرة غاية كبرى للتشريع الإسلامي، وهي الأساس الذي تستند إليه المجتمعات البشريّة في نهضتها وتطوّرها، والسياق القرآني هنا يشير إلى هذه الحقيقة، فالميثاق الذي واثق الله به هذه الأُمّة لتكون الأمينة على رسالة الله، وتقديم الخير والسعادة للعالمين

كلِّ العالمين لا يمكن الوفاء به وبالتزاماته دون تحقُّق الأمن والاستقرار؛ فالأُمَّة المضطربة لا تحمل رسالة ولا تفِي بميثاق.

وقد جاءت هذه الآيات لتضَع التصوُّرَ الكلِّي لهذه الحقيقة، ثم تُفصِّل في بعض التشريعات الأمنيَّة، وكما يأتي:

أولًا: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ هذه هي القاعدة الكليّة التي تعكس روح التشريع الإسلامي وغاياته الكبرى، فالحياةُ مطلبٌ بحدِّ ذاتها، وحياةُ الفرد صورةٌ لحياة المجتمع، وانتهاكُ حياته إنما هو انتهاكٌ لحياة المجتمع كلِّه ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ وقد جاءت هذه القاعدة في سياقٍ تاريخيٍّ متصلٍ بنشأة الإنسان الأولى على هذه الأرض، وقصة ابنَيْ آدم إيذانًا بأن هذه الحقيقة ثابتة من ثوابت الحياة، وثابتة من ثوابت الدين كذلك.

ثانيًا: إن الحفاظ على حياة الفرد أصل، وإن الاستثناء وارد في حال أن حياة هذا الفرد أصبحت مصدر خطر مباشر لحياة الآخرين ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾ وهذا تمهيدٌ مناسبٌ للتشريعات الحاسِمة الآتية.

ثالثًا: حدُّ الحرابة، وهو صورةٌ من صور الاستثناء؛ فالنزعة الإجراميَّة التي تدفع شخصًا ما أو مجموعة أشخاصٍ لضرب النقاط الرخوة في حياة المجتمع؛ كالاعتداء على قوافل المسافرين في الطرق الخارجيَّة والتي يصعب على الدولة تأمينها بالكامل دون وجود ثغرةٍ ينفذ منها أولئك المجرمون لا بُدَّ من التعامل معها بحزمٍ وقوَّةٍ ﴿إِنَّمَا جَزَاؤُا الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾.

وهذه العقوبات التخييرية بين التغريب - وهو الحد الأدنى -، والقتل - وهو الحد الأعلى - ليس تخييرًا مزاجيًّا، وإنما هو المساحة المتاحة للمقنِّن، بمعنى: أن هذه العقوبات ينبغي أن تُحدَّد بقوانين مُلزِمة وواضحة، والتقنين مهمة المؤسسات التشريعيّة في الدولة

المسلمة؛ لأن هذه الجريمة ليست على صفةٍ واحدةٍ، فهناك من يقتل ويسلب المال، وهناك من يكتفي بالمال، وهناك الزعيم الذي يتولَّى كبر الجريمة تخطيطًا وتنفيذًا، وهناك المُغرَّر بهم والملبَّس عليهم بالشعارات والمقولات الدينيَّة أو الثوريَّة، من هنا كان لا بُدَّ من توسيع خيارات العقوبة، والله أعلم.

رابعًا: إن حدَّ الحرابة بعقوباته المتنوعة كلها إنما يكون بحقِّ المجرم الذي لم يعلن توبته ولم يستسلم لسلطان الدولة قبل إلقاء القبض عليه، فإن ثبَتَت توبته سقط عنه الحدُّ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ ويبقى عليه الحقُّ الشخصيُّ إن كان قد قتَلَ أو جرَحَ أو نهَبَ، وهذا بابٌ آخر.

خامسًا: إن الجهاد الحقَّ الذي هو في سبيل الله إنما هو الجهاد الذي يحفظ للناس حياتهم وأمنهم ودينهم واستقرارهم ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ وهذا هو سرُّ ذكر الجهاد بعد قاعدة: ﴿وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ﴾ وفي ثنايا التشريعات الأمنيَّة، وفيه إشارةٌ لا تخفى إلى أن تعقُّب المجرمين وملاحقتهم هو جهادٌ أيضًا.

سادسًا: إن الكفر بالله والبُعد عن هَدي النبوَّة هو الذي يقودُ إلى الجريمة، ومن هنا جاء توصيفُ العدوان على المجتمع بأنه عدوان على الله ورسوله ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ ثم عقَّب على هذا بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ﴾.

وفي الآية إشارةٌ قويَّة إلى أولئك المجرمين الذين ينتهكون أمن المجتمع لتحقيق شهواتهم في جمع المال الحرام بالحرابة أو السرقة، فالله يُذكِّرهم أن هذا المال سيكون وبالًا عليهم، وسيتمنَّون لو أن الله يقبله منهم ثمنًا لخلاصهم وفِكاكهم، وهذا عندي يُشبه قوله تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ ٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ [الماعون: ١ - ٣]، بمعنى: أن هذا هو شأنُ الكافرين.

أما المؤمنون بالله واليوم الآخر فينبغي أن يكون لهم شأنٌ آخر؛ لأن نظرتهم أوسع من الدنيا وما فيها، فالإيمان ضمانة لأمن المجتمع، فإن وجدت منتسبًا إلى الإيمان يفعل ما يفعله الآخرون فإنما هو مُدَّعٍ كاذبٌ، أو جاهلٌ ينقصه التعليم والتكوين.

سابعًا: حدُّ السرقة ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وهذا الحدُّ لم يُشرَّع عقوبةً على أخذ المال كما يتوهَّم المتوهمون، فالمال مهما كان لا يستوجب قطع اليد، فالإنسان أكرم عند الله من ذلك؛ ولذا لا تقطع اليد في المال السائب مهما بلغ، ولا فيمن دخل الدار بإذن أهلها، ولا في العامل المأذون في التصرُّف، فهذه اختلاساتٌ تستوجب التأديب وردَّ الحقوق لأصحابها لا غير.

أما السرقة فهي انتهاكُ الحرمة وأمن البيوت، وهي شبيهةٌ بالحرابة من حيث تقصُّدها للمناطق الرخوة في حياة المجتمع، فالدولة لا تستطيع أن توفِّر حراسةً لكلِّ بيتٍ، فمن تعمَّدَ انتهاك البيت وكسر أبوابه ونوافذه بسلاح أو بغيره فقد انتهك أمنَ المجتمع، وحالة واحدة من هذا النوع تجعل المجتمع كلَّه في قلقٍ واضطرابٍ، وتجعل الدولة كلها في حالة توتُّر واستنفار، هذه هي السرقة التي تستوجِب الحدَّ.

تجدُرُ الإشارة هنا إلى أن إقامة الحد لا تكون إلا بقضاءٍ وبيِّنةٍ ودولةٍ مستقرةٍ وقائمةٍ بواجباتها في التربية والتعليم، وسنِّ القوانين ونشرها بين الناس، وسدِّ الحاجات، وضمان الكفايات؛ بحيث لا يبقى عذرٌ لمجرم بنحو جهلٍ أو ضرورة، فإن قصَّرَت الدولة في ذلك، انتقل الحدُّ إلى التعزير والتأديب بالطرق المناسبة؛ لأن الحدود تُدرأ بالشبهات، ومنها: الجهل الشائع، والفاقة العامة، والله أعلم.

﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ دلالة أن الحسدَ دافعٌ للتباغض والمعاداة وطريقٌ للجريمة، وظاهر الآية أنه حسدٌ دينيٌّ، فالذي خسر قربانه ولم يتقبَّله الله منه حسَدَ أخاه فتوعَّده بالقتل حتى قتله.

والمفسِّرون يذكرون قصة ما قبل القربان، وفيها حسدٌ آخرٌ، وهو حسدٌ دنيويٌّ؛ إذ أصل الخلاف بين الأخَوين كان على الزواج؛ حيث أصرَّ القاتل على الزواج من توأَمَته المولودة معه ولو كانت مُحرَّمة عليه، وعلى هذا يكون الحسَدُ بكلِّ صوره دافعًا أساسًا من دوافع الجريمة، وهذا هو الاستنباط العملي الأهم، والله أعلم.

﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ أمسك عن قتل أخيه مع أنه كان في حالة الدفاع عن النفس، ولكنه استعظَمَ القتل، وفيه دلالة أن التديُّن الحقَّ يحُول دون الجريمة، وأن الدِّين الحقَّ هو المؤتمن على هذه الحياة، وأن جُنُوح الإنسان إلى الدم الحرام سببُه قلَّةُ التديُّن، أو فهمٌ مقلوبٌ وشاذٌّ لطبيعة الدين.

﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ يحذِّر أخاه من أنه سيتحمَّل إثمَ قتله مع ما عليه من إثمٍ سابقٍ، وقوله: إني أريد، يعني: أنه إنما أمسك عن المقاتلة والمدافعة مع قدرته؛ لأنه لا يريد أن يتحمل إثمًا، كأنَّه يدعو أخاه ليتَّعِظ ويقتَدِي به، وليس فيه معنى الرغبة أن يدخله النار، إذ لا مصلحة له في هذا، والله أعلم.

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ حيث لم يكن القاتل يعرف كيف يتعامل مع جثَّة القتيل، وفيه أنه كان أوَّل آدمي يموت على هذه الأرض، وفيه إمكانية تعلُّم البشر من الكائنات الأخرى كما تعلَّمُوا الدفء بجلود الحيوانات والزينة بريش الطيور.

﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ الأقرب أنه ندم على قتل أخيه؛ لأن جهله بالدفن لا يستوجب

الندم، وندم القاتل بعد سُكُون الغضب وخفوت جمرة الحسَد أمرٌ معهود في البشر، يؤكد هذا قوله: ﴿فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ﴾ فتذكُّره لرابطة الأخوة في هذا الموضع قرينة معتبرة، وربما رأى في الغراب وهو يدفِن غرابًا مثله ما أثار فيه هذه الفطرة، والله أعلم.

﴿وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ إشارةٌ أن رسالة الرسل تعزِّز معنى الحياة، وتدعو لصيانتها وحمايتها.

﴿يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ النفي عقوبةٌ وقائيّةٌ تتحقَّق بالتغريب أو بالحبس، لمنع المجرم من استغلال حريَّة الحركة والتنقل لتنفيذ أغراضه العدوانية.

﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ دلالةٌ أن العبد لا يصِل إلى مرضاة ربِّه بالأماني، بل لا بُدَّ من اتخاذ الوسائل التي تُوصِلُه إلى ذلك، وهي اجتناب المحظور، وامتثال المأمور، والصبر على المقدور، ومنها محبَّة الصالحين وطلب الدعاء منهم، فكلُّ هذا من العمل المُنجي من عذابه، والموصل إلى رضوانه.

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾ قدَّم الذَّكر على الأنثى؛ لأنه أجرأ على السرقة، وهنا إشارةٌ خفيَّةٌ إلى أن السرقة الموجبة للحدِّ هي سرقة اختراق الحرز وانتهاك الحرمة، وليست الاختلاس الخفي الذي يسهل على كل أحد.

﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ دلالةٌ على سعة رحمة الله، حتى مع السارق والمحارب، وهذا ترغيب للمجتمع أن يحتضنه ويتقبله ويغيِّر نظرته، بشرط التوبة إلى الله، وتعويض الضرر، وإرجاع الحقوق، وهذا هو الإصلاح.

۞ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا ۛ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ۚ وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾

الاحتِكامُ إلى الدين فرع الإيمان به، ودعوى الإيمان مع رفض الحكم به دعوى باطلة، وأهل الكتاب يدَّعون الإيمان بالله وبأنبيائه الذين بلّغوهم رسالته وشريعته، بَيْدَ أنهم في كلِّ مرَّةٍ يرفضون حكم الله حيثما يكون هذا الحكم بخلاف شهواتهم.

وقد سجَّل القرآن هذا عنهم في أكثر من موضع، وقد مرَّ بنا في سورة البقرة: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥].

وهنا يتكرَّرُ النَّهج نفسه مع رسول الله ﷺ، فهم يحتكِمُون إليه طلبًا للحكم الأخف والأيسر عليهم، والأقرب لأهوائهم، فإن كان حكمه بخلاف ذلك رفَضُوه ولو كان مثل ما عندهم.

وقد جاء في «الصحيحين»: (أنّ اليهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلًا منهم وامرأةً زنَيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاةِ فِي شَأْنِ الرَّجْمِ؟»، فقالوا: نفضَحهم ويُجلَدُون، فقال عبد الله بن سلام: كذَبتُم، إن فيها الرَّجْم، فأتَوا بالتوراة فنَشَرُوها، فوَضَعَ أحدُهم يدَه على آية الرَّجْم، وجعَلُوا يقرَؤُون ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفَع يَدَك، فرفع يَدَه، فإذا فيها آية الرَّجْم، فقال: صَدَقَ يا محمد، فيها آية الرَّجْم، وأمر بهما النبي ﷺ فرُجِمَا)[1].

وكانت هذه الحادثة مناسبةً لشرح موقف الكتابِيِّين من مسألة الاحتكام للشريعة التي يدَّعون الإيمان بها:

أولًا: أنهم يدَّعُون الإيمان بألسنتهم لكن قلوبهم تنكر ذلك ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ والظاهر من السياق أن هؤلاء هم اليهود، وبدلالة قوله تعالى

(١) متفق عليه من حديث ابن عمر ﵄، ينظر: صحيح البخاري (٦/ ٢٤٩٩/ دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧ - ١٩٨٧م)، وصحيح مسلم (٣/ ١٣٢٦/ دار الجيل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).

الآتي: ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فهم يدَّعون الإيمان بالتوراة ثم يتنكَّرون لما جاء فيها.

ثانيًا: أن كفرهم بالتوراة قد جاء من طريقَين: تحريفهم لكلام الله، وانتقائهم الأحكام التي تروق لهم ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ ﴾.

ثالثًا: أنهم لا يبالون بالكذب وأكل الحرام ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ ﴾ وهذه مخالفاتٌ صريحةٌ للتوراة التي يدّعون الإيمان بها.

رابعًا: أنهم لو حكَّموا التوراة وحكَّم النصارى الإنجيل من غير تحريفٍ ولا انتقاءٍ لهُدُوا إلى الحقِّ وإلى الصراط المستقيم ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ ﴾، ﴿وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ﴾، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ ﴾، ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ ﴾.

خامسًا: أنهم لم يكتفوا بتحريف كتابهم والتنكُّر لبعض ما فيه من عقائدٍ وشرائعٍ، بل هم يسعَون لصرف المسلمين عن كتابهم ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ ﴾.

سادسًا: أن هذا التلاعب بالدين، ومنهجهم الانتقائي فيه يجعلهم أقرب إلى الجاهلية ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ لأن الجاهليَّة تصنع دينها وأحكامها وفق هوى الكبراء والزعماء، وهؤلاء كذلك، ومن ثَمَّ استحقُّوا جميعًا هذه الأحكام الحاسِمة مجتمعةً أو متفرقةً ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾.

ولا شكَّ أن السِّياق لا يتناول إلا المُتلاعِبين بدين الله تحريفًا وزيادةً ونقصًا وانتقاءً وإخفاءً بطريق القصد والاختيار، أما العُصاة والخائفون من تطبيق الشريعة لضعفهم، وغلبة

عدوهم، والخاضعون لسلطانٍ غير سلطان المسلمين فهؤلاء لهم بابٌ آخرُ من الأحكام، ولا يجوز إدراجهم في هذا السِّياق بحال.

سابعًا: أنهم على ما هم عليه من كفرٍ أو ضلالٍ لا ينبغي التعامل معهم إلا بالعدل ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾.

دقائق التفسير

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ تلطُّفٌ برسول الله ﷺ وتخفيفٌ عنه وهو يحزَن على أولئك الذين يُهلِكون أنفسهم باتِّباعهم الباطل، ومجافاتهم لما فيه خيرهم وذكرهم، وهو يحزَن كذلك على مستقبل الدعوة وهو يرى كلَّ هذه المعوِّقات والمنغِّصات، وهذا الحزن بشَطرَيْه نابعٌ من حرصه على الدعوة، ورحمته بالخلق.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ﴾ هي إرادة الله الموصولة بعدله وحكمته وسننه المبثوثة في هذا الكون؛ فمن طلب الهداية هُدِيَ، ومن سعى إلى الضلال ضلَّ، ومن اجتهد فاز، ومن قعد خاب.

﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ ليس النكير على تحكيم النبيِّ ﷺ، وإنما هو على منهجهم الانتقائي، فهم يحكِّمونه عندما يظنون أن في حكمه مصلحة عاجلة لهم، ويكفرون به وبدينه فيما عدا ذلك، وربما حكَّموه اختبارًا وامتحانًا، يدل على كلِّ ذلك بقاؤهم على دينهم، وتشبُّثهم الظاهر والمعلن بما عندهم.

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ﴾ دليلٌ على وحدة المصدر لكلِّ الرسالات السماويَّة، فما كتبه الله في التوراة هو مصداقُ القصاص الذي كتبه الله في القرآن.

﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ﴾ هذا هو مضمار المنافسة الحقَّة، أما التمسُّك بالمقولات المجردة والتغني بمآثر الأجداد ونحو ذلك مما هو بعيد عن العمل فمحض غرور.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلۡكُفۡرِ وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ ﴿٦١﴾﴾

الولاء والبراء

بعد بيان حال أهل الكتاب وتحريفهم لكتابهم، وسعيهم لصرف المسلمين عن دينهم، أصبحت نفوس المؤمنين مهيَّأة لتلقِي الأمر بإعلان المفاصلة، وهذه المفاصلة إنما هي في الانتماء وتمايز الهويَّة، فقد أصبح للمسلمين دينهم، وللآخرين أديانهم، وهذا الدين هو محور الانتماء والالتقاء.

وقد فصَّلت هذه الآيات الخطوط العريضة لعقيدة الولاء والبراء هذه، وكما يأتي:

أولًا: النهي عن موالاة اليهود والنصارى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ والنص على اليهود والنصارى لمكان الالتباس في المشتركات الدينيَّة؛ كالإيمان بالله والوحي والنبوة من حيث المبدأ، أما المشركون فقد كانت المفاصلة عنهم مبكِّرة من العهد المكي كما هو معلوم من قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]، ثم في قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الممتحنة: ١].

ثانيًا: إن موالاتهم بعد هذا النهي الصريح والحاسم هو انتسابٌ لهم، وانفكاكٌ عن آصرة المسلمين وهويتهم الجامعة، فالعبرة في الموقف لا في الادِّعاء، فمن وقف في صفِّ المسلمين فهو منهم، ومن وقف في صفِّ الكافرين فهو منهم ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾.

ثالثًا: إن الدافع لموالاتهم مع بيان حالهم إنما هو النفاق ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾ وهو التعبير المطَّرِد عن المنافقين، كما مرَّ في أوائل سورة البقرة: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠].

رابعًا: أما المؤمن فلا يمكنه بحالٍ موالاة الكافرين، وإن وقع فهي علامة الردَّة - والعياذ بالله - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾.

خامسًا: إن قوَّة المسلمين وهيبتهم وعزَّتهم هي الضمانة لمنع حالات التفلُّت نحو الأعداء ﴿يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ فحالات الخوف والقلق وشتات الأمر وضياع السلطان هي البيئة التي يضطرب فيها الولاء، وهذا أمر معهود ومعروف.

سادسًا: إن الولاء الحقَّ إنما هو ذلك الولاء المستند إلى عقيدةٍ صحيحةٍ واضحةٍ، وانتماءٍ أصيلٍ وناصعٍ لهذا الدين ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ وهذا الحصر يقتضي بطلان الولاءات القائمة على أساس الأرض، والنسب، والانتماء الحزبي، والاجتهاد المذهبي، ونحو ذلك من الولاءات المُجزَّأة.

سابعًا: إن الولاء الحقَّ هو طريق العزَّة والنصرة ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ وذاك لتحقق القوَّة الدافعة بالإيمان، وتحقق الوحدة بموالاة المؤمنين بعضهم بعضًا.

ثامنًا: إن الولاء الحقَّ يَنتُج عنه خُلقٌ عمليٌّ تواصليٌّ ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ وهو خُلُق يجمع بين القوة والتواضع، فالقوة لردع العدو، والتواضع لكسب الصديق، وهذا نظير قوله في سورة الفتح: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

تاسعًا: إن البراءة تتأكَّد فيمن ناصَبَ الإسلام العداء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ﴾، ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾.

عاشرًا: إن سبب هذا النصب والمجاهرة بالعداء إنما هو التكبُّر على الحقِّ، ورفض الانصياع له ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ وأما ادِّعاؤهم الإيمان فهو ادِّعاءٌ باطلٌ من قبل ومن بعد، فقد ضلُّوا على عهد أنبيائهم، وعبَدُوا العجل، وخانوا الميثاق فاستحقوا لعنة الله ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ وقد ضلُّوا على عهد النبيِّ الخاتم محمد ﷺ ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ﴾.

تجدر الإشارة في ختام هذه المسألة إلى أن هناك خلطًا لدى بعض المسلمين اليوم بين عقيدة الولاء والبراء وبين فقه العلاقات، فالتعامل بالحسنى مع المخالفين أصلٌ في هذا الفقه، وكذا الوفاء بالالتزامات والعقود، وإمكانية التعاون في المشتركات الإنسانيَّة والخدميَّة والصناعات والتجارات؛ إذ الولاء المحرَّم إنما هو ولاء الانتماء، وضياع التمييز في الدين والمعتقد، أو تأييد الكافرين على المؤمنين بالقتال والمناصرة، والله أعلم.

﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ بحكم الواقع، وأما الحكم الشرعي فلا بُدَّ فيه من التفصيل والتفريق بين الحالات التي تدخل في باب العقيدة، والحالات التي تدخل في فقه العلاقات، وكذا التفريق بين المختار والمكره، والمنحاز لصفِّهم المقابل لصفِّ المسلمين وبين الذي تعلَّق قلبُه بامرأةٍ منهم أو صديقٍ أو شريكٍ، والخلط في هذه المسائل قد يجرُّ إلى كوارث في الحكم والتعامل، ومن بينها الجرأة على التكفير، والعياذ بالله.

﴿نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ أي: تقلُّب الزمان، وتغيُّر الحال، فتحتاج إلى من كنت مستغنيًا عنه، وهذه إحدى دوافع التذبذب عند المنافقين.

﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾ الفتح معروف المعنى ومحدد، والأمر مطلق، وهو الباب الأوسع للأمل والرجاء، فأمر الله لا يصدُّه حدٌّ، ولا يمنعه سدٌّ، وهو فوق كلِّ تقديرٍ وحسابٍ.

﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ وهي علاقةٌ فوق موضوع الطاعة والجزاء، فمحبَّة العبد لربِّه خُلُقٌ قلبيٌّ دائم الحضور في كلِّ وقتٍ وحالٍ، ومحبَّة الله للعبد تجعله أهلًا للعناية والرعاية في كلِّ وقتٍ وحالٍ كذلك.

﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه معنى التنازل والإيثار، وهو معنًى أرقَى من العدل أو المساواة، وهذا هو الذي يُديمُ الألفةَ والمودَّة، وأما العلاقة التي تقوم على المنافسة ولو كانت بالحقِّ فإنها تتعرَّض للتصدُّع بأول خلاف؛ إذ تقدير الحقوق مختلف بين الناس، وخلاف المادة قد يُحَلُّ بالقضاء العادل، ولكن خلاف القلوب لا يحلُّهُ عدلٌ ولا قضاءٌ.

﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ أيَّ لائمٍ ولو بثوب الصديق الناصح، فالموقف الحقُّ له ضريبته من حياة العبد وماله وسُمعته وعلاقاته، ومن أصغى للائمين أحجم عن تقديم هذه الضريبة، لكنه سيخسر الموقف الذي يحبُّ الله أن يراه فيه.

﴿وَهُمۡ رَٰكِعُونَ﴾ كناية عن الديمومة والاستقامة على الطاعة وفعل الخير.

﴿حِزۡبَ ٱللَّهِ﴾ تعبير عن أمة الإسلام، والحزب فيه معنى التعاضد والتضامن، وهو الأنسب لمقام الولاء والبراء.

﴿بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ أي: بمن يستحق أشرَّ الجزاء وأشد العذاب، وإطلاق المثوبة هنا نظير البشارة في قوله: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1]، فهما من كلمات الخير، واستعملهما القرآن في العذاب على سبيل التهكُّم، والله أعلم.

﴿وَإِذَا جَآءُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلۡكُفۡرِ وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦۚ﴾ هم اليهود، وهذا هو الظاهر في السياق، وادعاؤهم الإيمان إنما هو الإيمان بالتوراة والاحتكام إليها، لكنهم ينقضون ذلك في كلِّ مرة، وهم مُصِرُّون على ذلك دون انقطاعٍ أو ترددٍ.

وأما تفسيرُه بالمنافقين من اليهود، الذين يدَّعون الإسلام، فهم إن وجدوا حقًّا فإنهم أقلُّ وأحقر شأنًا من أن يكونوا محلَّ هذا التأكيد؛ حيث تكرَّر هذا الوصف لليهود في أكثر من موضع، وفي هذا الموضع جاء السياق كلُّه للبراءة منهم، والتحذير من عداوتهم، فلا يناسب أن ينصرف كلُّ هذا إلى أفرادٍ منهم شابَهُوا المنافقين العرب في سلوكهم، والله أعلم.

---

(١) ذُكِرَ هذا المقطع الكريم ثلاث مرات في القرآن الكريم: سورة آل عمران/ ٢١، وسورة التوبة/ ٣٤، وسورة الانشقاق/ ٢٤.

﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٦٢) لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ (٦٣) وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ (٦٤) وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (٦٥) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ (٦٦) ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ (٦٧) قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ (٦٨) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٩) لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ (٧٠) وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ (٧١) لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (٧٢) لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧٤) مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٧٥) قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٧٦) قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ (٧٧) لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ (٧٩) تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ (٨١) ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ (٨٤) فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ (٨٥) وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ (٨٦)﴾

بعد إعلان التمايز بين أمَّة الإسلام وأهل الكتاب شرع القرآن في محاورة أهل الكتاب ودعوتهم للحقِّ، وهذا تفريعٌ عن التمايز، فالحوار مع الآخر لن يكون قبل معرفة مَن نحن ومَن الآخر، أما تداخل الخنادق بالمجاملات الظاهريَّة، بحيث تتغطَّى نقاط الخلاف، فهو طريق التجهيل، وضياع فرصة التصويب والتصحيح.

ويمكن استخلاص منهجية القرآن في هذا الحوار بالنقاط الآتية:

أولًا: تسجيل نقاط الخلاف والملاحظات التي تحتاج إلى التصحيح أو الإصلاح بمنتهى الدقة والأمانة العلمية، ومن هذه النقاط:

أ- قول اليهود: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ كنايةٌ عن البُخل، وهي عبارةٌ وقِحَة تعبِّر عن نفسيَّةٍ مضطربةٍ، وفيها جانب من الطمع؛ لأنها تُوحِي بسخطهم على الله، لأنه لا يستجيب لطلباتهم وتطلعاتهم المفتوحة، وفق تصوُّراتهم بأنهم شعب الله المختار، وأن الله سخَّر الخلق جميعهم لخدمتهم، وقد ردَّ الله عليهم هذه التصورات وما نتَجَ عنها بقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ فالإنفاق إنما يكون وفق مشيئته سبحانه، وحكمته في تدبير الخلق.

ب- أن اليهود مكذِّبون للرسل، ومتلبِّسُون بقتلهم ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ وقد بيَّن القرآن أساسَ هذه الجرائم وهو الهوى، وكأنَّهم يطلبون من الأنبياء أن يُسايِرُوهم على أهوائهم.

جـ- أن هذه العقائد والتصوُّرات الباطلة قادَتْهم إلى السلوك الباطل، والتعدِّي على حقوق الناس ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، ﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

د- أنهم الأشد عداء للمسلمين ﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾، ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ أي: أوقدوها عليكم أيها المسلمون.

هـ- أنهم يُوالون المشركين من عبَدَة الأصنام على المسلمين ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ وقد بانَ بهذا كذِبُهم في ادّعائهم الإيمان بالله وأنبيائه ﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ (٨١) ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ﴾.

و- أنّ النصارى كفَرُوا كذلك بقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾، وبقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ﴾، وقد ردَّ القرآن هذه الافتراءات ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾.

﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾.

ثانيًا: بيان أسباب هذا الانحراف، ويمكن تلخيصها كالآتي:

أ- تعطيل منافذ المعرفة الذاتيَّة ﴿وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ﴾ فقد كانوا يتوهمون أنهم ليسوا بحاجةٍ إلى النظر والتفكُّر، وأنهم مهما فعلوا فلن يؤدي ذلك إلى الفتنة والشر، بحكم تصوّرهم أنهم شعب الله، أو أولاد الله، وأن الله لا يُهلِك شعبَه، ولا يعذّب أولادَه!

ب- تعطيل أدوات الإصلاح المجتمعيَّة، وخاصة من أهل العلم والصلاح ﴿ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾، ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾.

جـ- الحسد الديني، وهو آفة الطوائف والمذاهب المختلفة؛ حيث لا يرى الحاسد في محسوده إلا القبح والمنكر ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴾ وقد تكرّر هذا النص مرَّتين في هذا المقطع دلالة على أهميته، وتكرار تأثيره في النفوس.

د- الغلوُّ ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ﴾.

هـ- التقليد الأعمى ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

ثالثًا: تمييز أحوالهم ومواقفهم والتنزُّه عن التعميم ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾، ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم﴾، ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾، ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ﴾، ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ﴾، ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

رابعًا: الحكم بالعدل عليهم وعلى غيرهم، وميزان الحكم الإيمان والعمل ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

خامسًا: دعوتهم لتحكيم التوراة والإنجيل ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ﴾ وفي الآية إشارة إلى أن إقامة التوراة والإنجيل ستهديهم إلى الإيمان بما أنزله الله بعدهما وهو القرآن، والآية تأكيدٌ لوحدة الرسالات من حيث المصدر، وأنها كلام الله الذي يؤيد بعضُه البعضَ، وفي هذا طمأنةٌ لهم أنهم باتِّباعهم القرآن لن يخسروا ما عندهم من كتاب ربهم.

سادسًا: ترغيبهم بالخير واتِّباع الحقِّ كله ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ﴾، ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

سابعًا: ترهيبهم بالعقوبة الإلهيَّة التي تنتظرهم على عنادهم وتكبُّرهم، وصدِّهم عن السبيل ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾، ﴿لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ﴾.

ثامنًا: إبراز النموذج الأفضل للتأسِّي والاقتِداء ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ﴾.

تاسعًا: تشجيعهم على النظر الهادئ والتفكير الجاد في الحقائق الماثِلَة أمامهم ﴿قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ﴾، ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ﴾.

عاشرًا: إلزام أهل الحقِّ ببيان الحقِّ كلِّه، والصبر على لأْواء الطريق ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ ولا شك أن هذه الأمّة تابعة لنبيِّها في مهمَّة التبليغ: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً»[1].

دقائق التفسير

﴿وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ﴾ أي: المال الحرام.

﴿لَوۡلَا يَنۡهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ﴾ هلَّا كان ينهَاهم الربانيون، فيه لومٌ وتقريعٌ وبيانٌ لسبب تمادِيهم في المنكر.

---

(١) جزء من حديث رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ، ينظر: صحيح البخاري (٣/ ١٢٧٥/ دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧- ١٩٨٧م).

﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ بالفضل والإحسان وسعة الرزق، وهذا ردٌّ على قبح مقولتهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ﴾.

﴿وَأَلۡقَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ هذا من سُنن الله فيمن زاغَ عن الحقِّ تكبُّرًا وحسدًا، فهم لا يجتَمِعُون إلا على مصلحةٍ آنِيَّةٍ فإن ذهَبَت ذهب اجتماعهم، وفي هذا ردٌّ على من يقول: إن الكفر ملَّةٌ واحدة، بمعنى: أنهم على قلبِ رجلٍ واحدٍ مودَّةً واتحادًا وتناصرًا، بل هم مللٌ ونِحَلٌ وفرقٌ لا يجمعها جامع.

﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ﴾ بتخاذلهم أو بتمكين المسلمين منهم يوم كان المسلمون أقرب إلى الله وأقوى في التمسك بأدوات التمكين.

﴿لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ﴾ كناية عن كثرة الرزق ووفرته.

﴿أُمَّةٞ مُّقۡتَصِدَةٞۖ﴾ أي: معتدلة ومحافظة على ما معها من نور الكتاب.

﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ أي: يحمِيك حتى تُبلِّغ رسالةَ الله كاملةً، وفيه دلالة على إتمام النعمة وكمال الدين به ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

بعد إعلان الهويَّة الإسلاميَّة المتميِّزة عن غيرها، ثم الحوار المعمَّق مع الآخر المختلف في هويَّته وعقيدته، عاد القرآن إلى المجتمع المسلم ليضع أمامه قواعد البناء السليم بمنهجيَّةٍ مترابطةٍ ومتكاملةٍ:

أولًا: مرجعيَّة التشريع ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ فوحدة مصدر التلقي ضمانة لوحدة المجتمع نفسه، والاجتهاد لا يهدم الوحدة وإن تنوّع؛ لأنه يبحث فيما دون القطعيَّات، وكذلك فهو يبحث فيما يحتمله النصُّ من المعاني، وهذا جمعٌ بين ضمانةِ الوحدة ومرونةِ الفكر والاجتهاد.

ثانيًا: الهويَّة الجامعة ﴿۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ﴾ فالشعائر الظاهرة مع ما فيها من تعبُّدٍ ونسكٍ فإنها تحمل كذلك معاني الهويَّة الجامعة للأمَّة المسلمة، ومن ثَمَّ كان انتهاك هذه الشعائر إثمًا كبيرًا، ولو كان بصورة تعمُّد قتل الصيد في الحرم، أو عند الإحرام بالحج ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾.

ثالثًا: التربية الإيمانيَّة في سلَّم الرقيِّ والتنافس الإيجابي ﴿إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تطويعًا للنفس على معاني الإيمان والتقوى والعمل الصالح حتى بلوغ مرتبة الإحسان، التي هي غاية السائرين إلى الله، والمرتبة العليا في الرقابة الذاتيَّة والخشية الحاضرة من الذنب والخلل حتى يأتي العمل في غاية الدقَّة والإتقان ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ﴾.

رابعًا: التربية العلميَّة وصيانة الفكر من الخرافة ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، ومن التقليد الأعمى بلا دليلٍ ولا بيِّنةٍ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ

ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ وفي هذا السياق يأتي تحريم الخمر والميسر والأنصاب والأزلام، فالأول يذهبُ بالعقل، والثاني قمارٌ ولعبٌ لا دخل للجهد الذهني في تحصيله، والثالث والرابع تقليد لخرافات الأجداد بلا حجة ولا تفكير.

خامسًا: التزوُّد بالطيبات، والتنزُّه عن الخبائث ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِۚ ﴾، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ ﴾ فالطيبات كلُّ نافعٍ من طعامٍ وشرابٍ وملبسٍ ومسكنٍ وسلوكٍ عمليٍّ وعلاقةٍ اجتماعيَّةٍ ونحو ذلك، والخبيثُ كلُّ محرَّمٍ مما ليس فيه سوى الضرر المحض للفرد أو الجماعة.

سادسًا: مسؤوليَّة الكلمة والعهد والالتزام ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ﴾، ﴿وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْۚ ﴾ فالمؤمن لا يُعطِي عهدًا وهو يعلم أنه غير قادر على الوفاء به، وفي هذا السياق يأتي تقدير مآل الكلمة ونتائجها ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ والسؤال في أصله مطلوبٌ ومشروعٌ ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنبياء: ٧].

وقد تكرَّر في القرآن: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ ﴾ لكن هناك أسئلة غير عمليَّة وغير مناسبة في زمانها أو مكانها، وهذه هي محل النهي، والتفريق بين النوعَين مسؤولية السائل، فهو الذي عليه تقدير موقع سؤاله ومآلاته على المسؤول أو السامع، أو على المجتمع بشكل عام.

ومثال ذلك: أن يسأل عن حادثة تثير فتنة بين المستمعين، أو يسألُ سُؤالًا فيه جنوح للغيب المحض الذي لا ينبني عليه عمل، أو فيه التشدُّد والتعمُّق بقصد استنزال التحريم فيما لم يحرِّمه الله، فكلُّ هذا وارد، ولكن الذي يظهر من السياق أنه طلب المعجزات، وهو الموضوع الذي ركَّزت عليه خواتيم السورة في قصة عيسى ﷺ، وعلى المسؤول أيضًا إرشاد السائل وعدم الانسياق وراء كلِّ سؤالٍ يعرض له.

سابعًا: التراحم والتكافل ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ﴾، ﴿هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ﴾.

ثامنًا: العدل وأداء الشهادة على وجهها ﴿يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾، ﴿فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ﴾، ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ﴾.

تاسعًا: إن المجتمع الذي يهتدي لهذه الموجِّهات الربَّانيَّة ويعتمدها في حياته العامة وفي سلوكه العملي مجتمعٌ محصَّنٌ من الاختراق، ومُستَعْلٍ بإيمانه وقِيَمِه عن مكائد الآخرين وشُبهاتهم وشهواتهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ وليس في هذه الآية أيَّة دعوة إلى السلبيَّة والتقاعُس عن الدعوة والإصلاح، والمجادلة بالحقِّ والعلم، وحُسن الخلق، فهذه واجبات منصوص عليها وهي - لا شكَّ - من شروط الهداية ولوازمها.

دقائق التفسير

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ لأن تحريم ما أحل الله تشريع، والتشريع لله وحده؛ ولأن الحياة لا تستقيم بغير هذه الطيِّبات، ومن مقاصد الشريعة إعمار الأرض وليس خرابها، وإسعاد الناس وليس إشقاءَهم؛ ولذلك قال: ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ﴾.

﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ﴾ بتجاوُز الطيبات إلى الخبائث، أو بالإسراف المُضِرِّ منها، أو بتشريع ما لم يأذَن الله به.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ هو الحَلِفُ بالله الذي يجرِي على اللسان من غير قصدٍ، بخلاف ما عقَّدتم أي: قصَدتم وجزَمتم.

﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ أي: أطعموا الفقراء والمساكين من طعامكم المعتاد، كلٌّ بحسب وضعه وعادته.

﴿ٱلْخَمْرُ﴾ المُسْكِر، وكلُّ ما يُذهب العقل؛ كالحشيشة ونحوها.

﴿وَٱلْمَيْسِرُ﴾ القمار، وفيه الربح بلا جهد، أو الخسارة بلا نفع.

﴿وَٱلْأَنصَابُ﴾ حجارة تُنصَب وتُقدَّم عليها القرابين والنذور.

﴿وَٱلْأَزْلَٰمُ﴾ قِداحٌ وعِيدانٌ مُخبَّأة، فيها توجيه غيبيٌّ للعمل أو تركه، وهي من عادات الجاهليَّة.

﴿رِجْسٌ﴾ خبث.

﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ تهديدٌ شديدٌ لا يخفى على متدبِّرٍ عارفٍ بأساليب العرب.

﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ أي: يتصدَّق من الأنعام بشاةٍ، أو بقرةٍ، أو بعيرٍ ونحوها بمثل ما قتله من الصيد في الحرم كفارة لذنبه، وليس هو الذي يُقدِّر مستوى الكفارة، بل يقدِّرها حكَمان عَدْلان بخبرتهما وأمانتهما.

﴿۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ القيام يُطلق على النشاط المستمر كما يطلق على الثبات، فالبيت الحرام يشهده الناس للعبادة والنسك وعمل الخير، وهو الذي تلتقي عليه أفئدتهم حبًّا وإجلالًا وتعظيمًا، وهو ثابتٌ من ثوابت دينهم وهويّتهم.

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ أوصافٌ لأنعام يُحرِّمها المشركون على أنفسهم، أو يُحرِّمون الانتفاع بها بوجهٍ من الوجوه، فالبَحِيرةُ ناقةٌ يُعلِّمونها بشَقِّ الأُذُن فلا يركبها أحد.

والسائبةُ: التي تُترك بعد بلوغها سنًّا معيَّنةً، فلا تُؤكَل ولا تُركَب، ولا يُستفاد منها بشيء، وقد ينذرها صاحبها لذلك قبل هذا السنِّ.

والوصيلةُ: هي التي تَلِدُ ناقةً ثم تتبعها بأخرى دون أن يفصل بينهما ذكر، فهذه تُسيَّب كذلك.

والحامِي: هو الجمل الذين يَحمُون ظهرَه من الركوب، أي: يُحرِّمُون ركوبه، وهذه العادات قد انتهت والحمد لله، لكن الناس يبتَدِعُون مثِيلاتٍ لها بأسماء أخرى، فينبغي التنبُّه والتنبيه.

﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ أي: اهتَدَيتُم إلى الحقِّ كلِّه، وأدَّيتُم ما عليكم، ومنه الإصلاح والدعوة والتعليم وتبليغ الحقِّ للناس.

﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ أي: من غير المسلمين، وهذا في الإشهاد على وصيَّة المسافر، للحاجة إليه إن لم يكن معه في سفره أحدٌ من المسلمين، والله أعلم.

﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا﴾ أي: تبيَّن كذب الشاهدين.

﴿فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ أي: لما بطلت شهادة الشاهدين فنرجع إلى الورثة ومن لهم الحقّ في مال المتوفَّى من دائِنِين وغيرهم، فإن قدَّمُوا البيِّنة على خيانة الشاهدين، يُرجع القول إليهم في إثبات الدَّين بالنسبة للدائِنِين، وتقدير مال المتوفَّى بالنسبة لوَرَثَته، فيأخذ كلُّ ذي حقٍّ حقَّه، والمسألة لها أكثر من صورةٍ وأكثر من وجهٍ، ومحلُّها كتب الفقه، والله أعلم.

﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾

معجزات النبي عيسى على نبيِّنا وعليه الصلاة والسلام

المعجزة أمرٌ خارقٌ للعادة يظهره الله على يد النبي تصديقًا وتأييدًا له، وهي مأخوذةٌ من الإعجاز؛ لأنها تثبت عجز الآخرين عن تقليدها أو الإتيان بما يبطلها، ومعنى أنها خارقة للعادة: أنها تخرِق النظام المعتاد في هذا الكون، وليست هي خارقةٌ للعقل؛ لأن العقل يتصوَّر

مخالفة النظام في بيئةٍ أخرى، فما يحترق على الأرض قد لا يحترق على كوكبٍ آخر، والمسافة التي يقطعها المرء على الأرض في ساعة قد يقطعها على كوكبٍ آخر في ثانيةٍ. أما المستحيلات العقليَّة؛ فهي التي لا يمكن تصوُّرها في الذهن مثل: اجتماع النقيضين، ووجود جزءٍ أكبر من كلِّه.

وفي هذه الآيات بيان للمعجزات التي أيَّد الله بها رسوله عيسى ﷺ مع بيان الإطار الإيماني والسلوكي الذي ينبغي استحضاره عند النظر في هذه المعجزات:

أولًا: إن رسالة الأنبياء هي تبليغ الدين وليست صناعة المعجزات؛ ولذلك استهَلَّت هذه الآيات بقوله تعالى: ﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ﴾ فالسؤال إنما يكون عن تبليغ الدعوة ومدى استجابة الناس لها.

ثانيًا: إن مصدر المعجزة إنما هو الله، وليس النبيّ أو الرسول ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ﴾، ﴿فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ﴾.

وتكرار الإذن هنا مُشعِرٌ بتكراره مع كلِّ معجزة؛ دفعًا لتوهُّم التفويض والتوكيل المطلق بصناعة المعجزات، كما يتوهَّم غُلاةُ الرافضة مع أئمَّتِهم، فالمُلكُ لله وحده، والله لم يتنازَل عن مُلكه لأحدٍ، لا على سبيل التمليك، ولا على سبيل التفويض ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ﴾.

ثالثًا: إن المعجزةَ متلبِّسةٌ بالأمر والنهي ونور الوحي، فوظيفتُها إقامة الحجة على صدق الوحي، ودفع الناس للالتزام والتمسُّك به ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى﴾.

أما الخوارق المصحوبة بالجهل والخرافة، وظلم الآخرين، والبُعد عن أحكام الشريعة وآدابها، فهذه ليست من الدين في شيء، وليسلت علامة على الإمامة أو الولاية مهما بلغت في أعين الناس.

رابعًا: إن الاستئناس بالمعجزات الحسِّيَّة لزيادة الإيمان والطمأنينة وارِدٌ، ولا يتعارَض مع أصل الإيمان؛ لأن الإنسان مجبولٌ على التعلُّق بالمحسُوسات ﴿قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ فالعلم بالمحسوس فيه إضافة على العلم الحاصل بطريق النظر والاستنتاج.

خامسًا: إن المعجزة الحسِّيَّة مع قوتها ومناسبتها لطبيعة الإنسان، إلا أنها قد تكون فتنة له، فالحاسد المكابر سيدَّعي أنها من السحر كما فعل اليهود ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ .

وأما المحبُّ الجاهل فقد تدفعه للغلو ورفع مقام النبوة إلى مقام الألوهيَّة ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فهؤلاء شطَّت بهم المعجزة بعيدًا عن نور الوحي بسبب جهلهم وغلبة عاطفتهم.

سادسًا: أدب النبيين مع المعجزة، ووقوفهم عند حدِّ عبوديَّتهم لله؛ إذ لم تمنعهم هذه المعجزات أن يقولوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾، ﴿مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾.

سابعًا: إن ميزان التفاضل بين البشر ليس في الخوارق ومن شاهدها أو لم يشاهدها، بل الميزان هو الصدق؛ الصدق مع الله، والصدق مع النفس، والصدق مع الآخرين ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ هو ملك الوحي جبريل ﷺ والعبارة موحية بالقرب والملازمة، وليس إيصال الوحي فقط، والله أعلم.

﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ في المهد معجزته في تبرئة أمّه مريم ﷺ، وكهلًا لتبليغ رسالته، وهنا اقتران المعجزة بالرسالة.

﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى﴾ الأكمه الأعمى، والأبرص المتغيِّر لون جلده بخلقةٍ أو مرضٍ، ويقال: إنَّ عصر عيسى كان مشهورًا بالتطبُّب؛ فجاءت المعجزة من جنس اهتمامهم وتفوُّقهم.

﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى﴾ أي: تدعوهم فترتدُّ أرواحهم إليهم فيخرجون إليك.

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾ الحواريُّون هم أصحابُ عيسى ﷺ المقرَّبون منه، والوحي إنما كان له، وهم استمعوه منه، فاستجابوا لربهم، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠]، والإنزال إنما كان للرسول ﷺ والله أعلم.

﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ليس على سبيل الشك بقدرته سبحانه، بل على سبيل التأدُّب والاحتياط في الطلب، كقولك لمن تجلُّه وتحترِمُه: هل يمكنك مساعدتي؟ وأنت عارف بإمكانيته، لكنَّك تُقدِّم العذرَ له إن ردَّك؛ لأنه يعلم ما لا تعلم، والله أعلم.

﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ هو علم الشهود لا علم النظر.

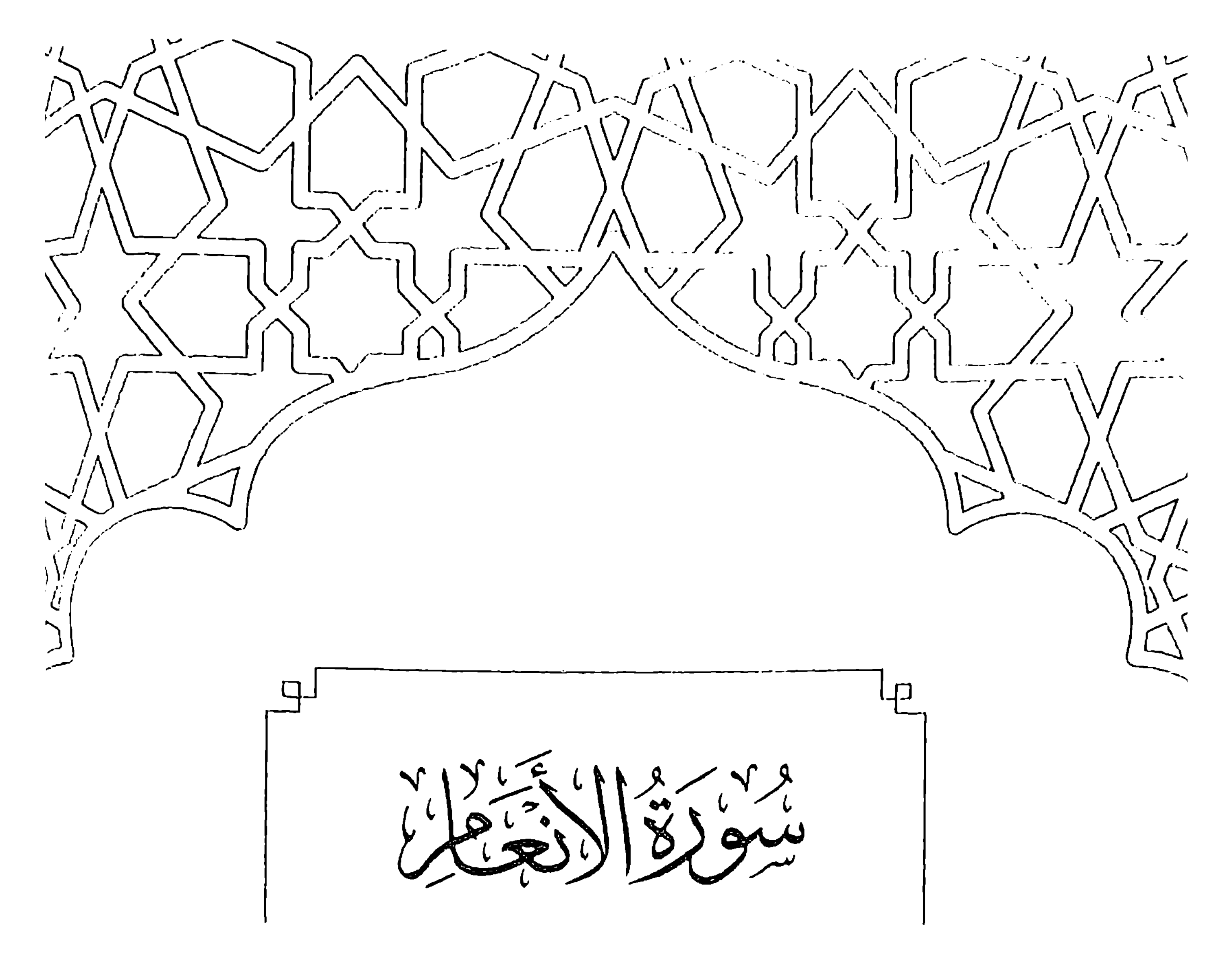
﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ أي: موسمًا للاحتفاء والاحتفال، والتذكير بنعمة الله ووجوب شكرها.

﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ دلالة أن الحساب على قدر النعمة، وعلى قدر المعرفة، فلما أصبح الغيب عند هؤلاء شهادة

بنزول المائدة التي سألوها من السماء، أصبح الإنكار محض عنادٍ ومكابرةٍ لا شبهة فيه لجهلٍ، ولا لغفلةٍ.

﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ﴾ تفويضُ الأمر إلى الله، وفيه روح الشفاعة وحسن الطلب، كأنه يقول: إنهم عبادك يا ربِّ، وأنت أَولَى بهم مني ومن أنفسهم.

﴿وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ كأنه يقول: أنت الغنيُّ عن معاقبتهم، وغفرانك لهم غفران العزيز المتفضِّل، وفي هذا نوعٌ من التذلُّل في الطلب، وهو مظنَّة الاستجابة، ولولا هذا المعنى الدقيق لكان الأنسَب أن يقول: إن تغفِر لهم فإنك غفورٌ رحيمٌ، والله أعلم.



سُورَةُ الأَنْعَامِ

المجلس الرابع والخمسون: القرآن في مواجهة المُكذِّبين

المجلس الخامس والخمسون: حوار مع المشركين

المجلس السادس والخمسون: التكوين الإيماني للمجتمع المسلم

المجلس السابع والخمسون: الهَديُ الإبراهيميُّ

المجلس الثامن والخمسون: الوحيُ والحياة

المجلس التاسع والخمسون: طرقُ الغِواية والضلال

المجلس الستون: نماذج من العَمَه والضلال

المجلس الحادي والستون: الشريعةُ السَّمحة

المجلس الثاني والستون: وصايا عشرٌ وتوجيهات ختامية

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾

نزلت سورة الأنعام في مكة بعد أن استقرَّ موقف قريش على تكذيب الرسول ﷺ، من هنا كان الموضوع الأساس لهذه السورة وفي هذه الآيات بالذات هو بيان هذا الموقف وتحليله ومناقشته، وكما يأتي:

أولًا: تقرير الحقيقة الكبرى التي لا تستطيع قريش ولا كلُّ الناس نُكرانها ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم﴾، ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ فانبثاق هذا الكون وجريان الحياة فيه لا تدَّعِيه قريش ولا أصنامها، وهذه الحقيقة التي يؤكِّدُها القرآن ويسوقها في كلّ مواجهة مع هؤلاء المشركين، فهذه لوحدها كافية لإبطال ألوهيَّة الأرباب المزيَّفة التي يصنعها الناس بأيديهم.

ثانيًا: إن دعوة قريش وغيرهم لهذا الدين والحرص على هدايتهم أجمعين إنما هو لمصلحتهم وفائدتهم في الدنيا والآخرة، وهذا أصلٌ في علاقة الخالق العظيم بهذا الخلق ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ﴾ وما رسالة محمد ﷺ إلا لتحقيق هذه الرحمة.

ثالثًا:إن هؤلاء المكذِّبين لا يكذِّبون رسول الله ﷺ تشكيكًا بصدقه وأمانته، كيف؟ وهم الذين ينادونه الصادق الأمين، لكنَّه الرفض لدعوة الحقِّ مع وضوحها وظهور حجَّتها ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ وذلك لمرضٍ في نفوسهم، ولحساباتٍ أرضيَّةٍ ودنيويةٍ لا تمُتُّ بصلةٍ إلى البحث والرغبة في المعرفة.

رابعًا: إن خسارة الإنسان لنفسه وتلوُّث فطرته الآدميَّة هي التي تقُودُه إلى هذا الجُحود ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فالنفس البشرية تفرق عن سائر الحيوان بعلوِّها على الشهوة الحيوانيَّة، والمقاييس الماديَّة البَحتة، بتشوُّقها للمعرفة، وتطلُّعها للعالَم الأسمى، فإذا

عاش الإنسان حبيسًا في شهواته ورغباته الماديَّة انتكَسَت فيه هذه الفطرة، ولم يعُدْ مُهتمًا بمجالات التفكُّر والحوار والنظر في ما وراء العالم المحسوس.

خامسًا: إن هؤلاء قد عطَّلُوا منافِذَ المعرفة لديهم ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ﴾، ﴿۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾.

سادسًا: إنهم استَعَاضُوا عن البحث العلمي، والنظر الجادِّ، والحوار الهادف بالسخرية والاستهزاء ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وفي الآية دلالةٌ أن قولهم الذي حكاه القرآن عنهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ﴾ كان من قَبيل السخرية لا غير.

سابعًا: إنهم مُصِرُّون على التكذيب حسدًا وعنادًا، بغضِّ النظر عن الحجَّة والأدلة ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ﴾.

ثامنًا: إن التكذيب منسجِمٌ مع سلوكهم الكاذب واعتيادهم الكذب على الله، وعلى أنفسهم، وعلى بعضهم البعض ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ﴾، ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾.

تاسعًا: إن هذه سنَّة ماضية في كلِّ الدعوات، فالحسد والعناد والمكابرة واتباع الهوى أمراضٌ متكرِّرة في المجتمعات البشرية ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ﴾.

عاشرًا: إن هؤلاء المكذِّبين الضالِّين إنما يُهلِكُون أنفسهم، ويَسعَون بشقائها وعذابها ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾، ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا

يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾.

حادي عشر: إن النبي لا يملك إلا الدعوة والدعاء وبيان الحجَّة، والقيام بما كلَّفه الله به، أما الآيات والمعجزات فهي لله وحده، وإنما تظهر على يد النبيِّ بإرادة الله وحكمته ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

ثاني عشر: إن الدعوةَ إلى الله ماضية، وإن أهل الحقِّ على طريقهم لا يضرُّهم من ضلَّ وكذَّب، وإن المفاصلة بين الفريقَين قائمة حتى يرِثَ الله الأرضَ ومن عليها ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ﴾، ﴿قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

دقائق التفسير

﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ﴾ عدَّدَ الظلمات ووحَّد النور بإشارةٍ إلى أن طريق النور واحدة، وأن سبل الغواية كثيرة ومختلفة، بعكس النور الحسِّي فهو مُتعدِّدٌ بتعدُّد مصادره، وبعكس الظلام الحسِّي أيضًا فإن له سببًا واحدًا وهو فَقد النور.

وذِكر الظلمات والنور فيه تمهيد للحديث عن المكذِّبين الغارِقين في ظلمات الجهل والهوى بعيدًا عن نور الوحي.

﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ فيه تعجُّبٌ واستنكارٌ لمن يُسوِّي مخلوقًا بخالقٍ، ومرزوقًا برازقٍ، وهذا المعنى متضمنٌ للمعنى الثاني، وهو العدول بمعنى الإعراض؛ إذ هم

أعرضوا عن الله بهذا الشرك، واستعمال الباء بمعنى (عن) ليس بمُستبعَد في اللغة، والله أعلم.

﴿خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ بخلق آدم من الطين وهو أبو البشر، وكذا فإن جسم الإنسان إنما يتغذى بالنبات المتكوِّن من الماء والتراب، ومن الحيوان المتكوِّن من الماء والنبات، فأجسادنا كلُّها من هذا الطين، والله أعلم.

﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ الأجل المقضِي هو أجل الناس الذين توفاهم الله، والثاني آجال الناس إلى قيام الساعة، والقضاء هنا الاستيفاء بحلول الموت، وليس بتقديره؛ لأن التقدير مقترنٌ بالخلق فلا يعطف عليه بـ (ثمَّ)، والله أعلم.

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ﴾ السموات والأرض من مخلوقات الله، والمخلوق لا يحيط بالخالق ولا يحتَويه، والله مُتعالٍ عن خلقه، وله العلوُّ المطلق والكبرياء، والخلق كلُّ الخلق مُفتقر إليه، وهو الغنيُّ عمَّن سواه، ولكنَّ آيات الله وتجلِّيات أسمائه وصفاته ظاهرةٌ في السموات والأرض وفي كلِّ خلقه ﷻ، وأما البحث في العلاقة المكانيَّة وعلاقة ذات الخالق بذات المخلوق فهذا بُعدٌ عن نور الوحي، وتغريرٌ بالعقل، ومجازفةٌ لا معنى لها.

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ﴾ مدرارٌ كثيرٌ وغزيرٌ، وأصله من: درَّ الضرع إذا جادَ باللبن، وعطفَ الأنهار على الأمطار إشارةً إلى أن المطر سابق، فهو مادَّة تكوين الأنهار، والله أعلم.

﴿فِى قِرْطَاسٍ﴾ أي: في كتابٍ كاملٍ منزَّلٍ من السماء، وليس وحيًا ثمَّ يخطُّه كتبَة الوحي، وهذا من دعاوى المشركين وأسلوب مُحاجَجاتهم.

والآية تُخبِر أنهم لو رأَوا ذلك ولَمَسُوه بأيديهم لأنكروه أيضًا؛ لأن الإنكار سببه الكبر والحسد، وليس الشك بصدق الرسول، ولا بنور الوحي الذي معه.

﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ الأقرب في هذا: أنه لو أنزل الله عليهم ملكًا بصورته التي خُلق عليها فإنهم لن يُنظَروا بعدها، وسيمحَقهم الله فورَ إنكارهم، وهم أَولَى

بالإنكار كما مرَّ في آية القرطاس، وكما في قوله الآتي في هذه السورة: ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١]، وليس هذا الذي منع من إنزاله، فالله لا يستجيب لكلِّ اقتراحٍ أو طلبٍ للبشر، وإنما أمرُهُ يجري وفق حكمته هو سبحانه.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ تفريعٌ على اقتراح المشركين، فالمَلَك الذي يقترحونه لن يُغنيهم عن اتباع النبيِّ الذي تنكَّروا له حسدًا وباطلًا، وهذا المَلَك لا يكون بديلًا عن النبيِّ إلا إذا حوَّل الله صورتَه إلى صورة رجلٍ مثلهم حتى يتمكَّن من قيادتهم وتوجيههم، وهنا سيلتَبِس عليهم أمرهم كما التَبَس عليهم مع نبيِّهم، والله أعلم.

﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بتعطيل عقولهم ومعاني إنسانيتهم، وهبوطهم إلى الاهتمامات الجسدية والماديَّة البَحتة، فهؤلاء لم يعودوا قادرين على الوصول إلى معاني الإيمان والمعارف الجليلة التي تقودهم إليه.

﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خالِقها من العدم ليس على مثال سابق، ولا من مادة أوليَّة كما هي صناعات البشر واختراعاتهم.

﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ دليلٌ على غِناه سبحانه وافتقار من سواه إليه، وفيه تعريضٌ بالأصنام التي يقدِّم لها المشركون الذبائح والنذور، فكأنهم يُطعِمُونها وهي بالمقابل لا تستطيع إطعامهم.

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ أي: أول من يدعو لهذا الدين ويتحمل أعباءه في مقدِّمة الداعين والعامِلين له بعد أن انقطعت النبوة لمدة من الزمن، فالأول إن كان معناه: المتقدِّم على غيره، فرسولُنا ﷺ هو الأول بإطلاق، وإن كان الأول زمانًا فهو الأول لما بعد الفترة.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ خطاب لكلِّ مُكلَّف وإن كانت صورتُه للنبيِّ ﷺ، وفيه معنى آخر، وهو تيئيس المشركين من محاولة ثَنْي النبيِّ عن دعوته.

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ﴾ تخويفُهم بالله، وهو الأسلوب الأنسَب في مُخاطبة المعاندين والحاسدين، وهو الأسلوب الذي يستخرج معاني الفطرة الكامنة.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾ مقتضى السياق أنه يستشهد بأهل الكتاب كورقة بن نوفل وغيره من المُنصِفين، وليس المقام مقام مُحاجَجة أهل الكتاب؛ لأن السورة نزلت في مكة، وكانت المواجهة مع المشركين، وليس مع أهل الكتاب.

﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ الأقربُ أن سبب فتنتهم أنهم دلَّسُوا على أنفسهم في الدنيا، فتأوَّلوا الشرك بتأويلاتٍ زائفةٍ؛ ليُرضوا متطلبات فطرتهم الناطقة بالتوحيد، كما يفعله كثير من أئمة البدعة ورؤوس الرفض في تقديس القبور والسجود لها والطواف بها، وحجتهم دائمًا أن هذا ليس شركًا بل هو حبٌّ لعباده الصالحين!

وهذه الحجَّة نفسها سيكررونها هناك لَمَّا يسألهم الله: ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ﴾ فيأتي القضاء العدل ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾.

﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أغطية تحجبها عن الحقِّ.

﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ﴾ الصمم الذي يحول دون سماع الحقِّ.

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ﴾ أي: لا ينتفعون به لأنفسهم، ولا يسمحون لغيرهم بالانتفاع به، فجمَعوا بين المنكَرَين.

وفيه إشارة أن رغبَتَهم في إبعاد الآخرين أقوى من رغبتهم في النأي عنه، ولذا قدَّم النهي على النأْي.

وقد ورَدَ أن بعض زعماء قريش كانوا ينهون عن سماع القرآن، ثم يتردَّدون هم لسماعه من بعض الصحابة؛ وهذا لُملامَسَة نور الوحي لكوامِنِ الفطرة في داخلهم، والله أعلم.

﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ دليل أنهم لم يكن يمنعهم الجهل، وإنما الكبر والحسد.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً﴾ هي بالنسبة للكافرين بغتة من كلِّ وجه، أما المؤمنون فالبغتة نسبيَّة؛ لأنهم استعدُّوا لها بأعمالهم، وترقَّبُوها بأشراطها المعروفة في الكتاب والسنَّة، ولكنَّ تحديد يومها وساعتها يبقى من الغيب الذي لا يعلَمُه إلا الله.

﴿فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأۡتِيَهُم بِـَٔايَةٖۚ﴾ إشارةٌ إلى شدَّة حرصِ النبيِّ ﷺ على هداية قومه، وحُزنه على حالهم وتمسُّكهم بأصنامهم، ولكنَّ الأمر لله وحده، والآيات بيد الله وليس بيد النبي، ولا أحدٍ من الخلق.

﴿۞ إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَ﴾ أي: فتحوا منافِذَ المعرفة التي عندهم، وسمعوا سماع العاقل الناظر في فحوى الكلام ودلائله، وهؤلاء أقرب للإيمان، بخلاف الذين جعلوا الوَقْر في آذانهم، وهو وَقْر التكبُّر، فهؤلاء كالأموات الذين لا ينفعهم قولٌ، ولا تردُّهم موعظة.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٧) وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٩) قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٠) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (٤١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٤٣) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٥) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (٤٦) قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ (٤٧) وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٤٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٤٩) قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ (٥٠) وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٥١)﴾

حوار مع المشركين

مع تأكيد القرآن أن هؤلاء المكذِّبين لن يؤمنوا حتى لو أنزل الله لهم ملكًا أو قرطاسًا يلمسونه بأيديهم جاءت هذه الآيات تحاورهم وتقيم الحجَّة عليهم، وفيه بلاغ لمن خلفهم من الضعفاء والمتردِّدين، والذين التبس عليهم الأمر لشدَّة اللغو بالباطل، ومكر الليل والنهار، ومحاصرة الكلمة الصادقة، والتضييق على أصحابها ومطاردتهم.

وقد جاء الحوار بمنهجيَّةٍ مختلفةٍ إلى حدٍّ كبيرٍ عن حوار القرآن مع الكتابيِّين:

أولًا: إن رسالة الأنبياء بشارة بالحق، ونذارة عن الباطل ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ وهذا الحصر نفيٌ لما كانت تُشيعُه قريشٌ عن أغراض شخصيَّة أو دنيويَّة، وتنزيه شخصيَّة الداعية عن هذه الشبهات مقدِّمة لقبول دعوته؛ ولذلك تكرَّر في القرآن نحو: ﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾.

وأهل الباطل في العادة حينما يعجزون عن ردِّ الحقِّ والتشويش عليه يلجَؤون إلى التشويش على حمَلَته والداعين إليه، والغايةُ عندهم واحدة.

ثانيًا: إن النبي لا يغري الناس بالجاه، ولا بالمال، ولا بالمتاع الزائل، كما يفعل الملوك والسلاطين والباحثون عن الصدارة والوجاهة، وهذا فيه تنزيهٌ لمقام النبوَّة من جانب، وفيه تنقية الأتباع وتزكيتهم من جانب آخر ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾.

ثالثًا: أخذُ المشركين إلى العالم الأوسع، وفتح أعينهم على الحقائق الكبرى المبثوثة في هذا الكون؛ علَّهم يتخلَّصُون من العقد الضيِّقة التي تتولَّد نتيجةَ الاحتكاكات اليوميَّة، والمنافسات المجتمعيَّة الصغيرة ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾.

فأنتم لا تسكنون في هذا العالم لوحدكم، ولن تستطيعوا أن تعيشوا لوحدكم، وهذا العالم كلُّه محكوم بناموسٍ واحد، وهو الشاهدُ على ربوبيَّة الخالق العظيم لهذا الخلق، وكل ما يحتاجه الإنسان لإدراك هذه الحقيقة أن يفتح مغاليق عقله وفكره ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ وهي ظلمات الجهل والحسد والتكبُّر التي تُعمي وتُصِمُّ ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾.

رابعًا: أخذُهم إلى قرارة أنفسهم، وكوامِنِ فطرتهم بعيدًا عن الصخب وضوضاء المجتمع المرتبك، وتأثيرات الملأ وذوي الأغراض المتشابكة والمختلفة ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ

ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ ﴾، ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمۡعَكُمۡ وَأَبۡصَٰرَكُمۡ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِهِۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ هُمۡ يَصۡدِفُونَ ﴾.

فالمشركون يعرفون أن آلهتهم لن تجلِب لهم خيرًا، ولن تدفع عنهم شرًّا، واستنطاق هذه الحقيقة من أقوى طرق الدعوة معهم ومُحاجَجتهم في ذات أنفسهم.

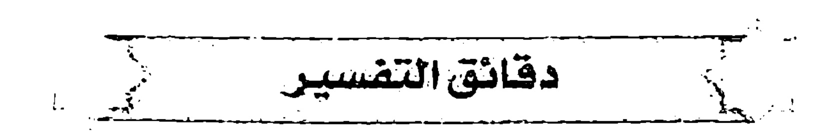
خامسًا: إن العذاب الذي هو دون الاستئصال من نحو جوعٍ أو مرضٍ مدعاةٌ للتضرُّع والخضوع للحقِّ، وهذا هو الشأن في سلوك المجتمعات البشريَّة، وهو حاصلٌ ومتكرِّرٌ كما في النقطة السابقة، لكن بعض الناس تقسُوا قلوبهم؛ لشدَّة تزيين الباطل في أنفسهم، ومحاولة إرضاء ضمائرهم به حتى يتمكَّن من نفوسهم كما يتمكَّن الحقُّ في نفوس أهله، وذلك أشد أنواع الضلال والغواية ﴿فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ وهذا شبيه بقوله في المقطع السابق: ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ﴾.

سادسًا: تنبيههم أن دوام الحال من المحال، وأن الجاه والنعيم الذي هم فيه لن يبقى، ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ﴾ وفي الآية إشارة إلى سبب تكبُّرهم وتعاليهم على الحقِّ، وهو الفرح بما عندهم من الجاه والمتاع.

سابعًا: تحذيرهم من عذاب الله الذي ينتظرهم إن أصرُّوا على تكذيبهم وكفرهم ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغۡتَةً أَوۡ جَهۡرَةً هَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.

ثامنًا: ترغيبهم بنعيم الله الدائم وأمنه وطمأنينته ﴿فَمَنۡ ءَامَنَ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾.

يُلاحظ هنا أن منهجيَّة الحوار مع المعاندين المكذِّبين تعتمد على تحريك الجوانب الإيجابيّة في داخل النفوس، فالخطابُ خطاب للنفوس أكثر من كونه خطابًا للعقول؛ وذلك لأنَّ المشكلة التي تحُولُ بينهم وبين الحقِّ إنما هي مشكلة نفسيَّة، فلم يكن أهلُ مكة أهل علم وفلسفة ولا كتاب سابق، فاحتاجوا إلى هذا الخطاب، بخلاف الآخرين من أهل الكتاب ونحوهم.



دقائق التفسير

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ كلُّ كائنٍ حيٍّ متحرِّكٍ على هذه الأرض.

﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾ أي: مجاميع، لكلِّ مجموعة نظامها الخاص بها، تتكاثر وتتحرك وتعيش ضمن ناموسها الذي وضعه الله لها، فالتشابه مع البشر إنما هو من حيث التحرُّك ضمن الناموس الكوني، وليس في شكل الخلقة وخصوصيتها؛ لأن كلَّ أمة في هذا الخلق لا تشبه أمة أخرى، فالسباع نفسها لا تتشابه، وكذا الطيور، والأسماك، فعدم مشابهتها للبشر من باب أَولَى.

﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ﴾ ما تركنا ولا أهملنا شيئًا، فكلُّ هذه الأمم من الإنس والجن وسائر الحيوان قد أحاط الله بها علمًا، ووضع لها نظامها وطريقة عيشها، وقدَّر لها أرزاقها وآجالها.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ﴾ هو فرح البطر والغرور، أما الفرح بفضل الله ونعمته فهو مشروع، وهو الفرح المستوجب للتواضع والشكر.

﴿بَغۡتَةً﴾ فجأة من غير ترقُّب منهم ولا مقدِّمات.

﴿مُّبۡلِسُونَ﴾ يائِسُون.

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ۚ﴾ الدابر هو آخر القوم، وقطع دابر القوم استئصالهم أولهم وآخرهم.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ الفسق الخروج عن الجادَّة، ويطلق على الكفر؛ لأنه خروج عن الإيمان، ويطلق على المعصية؛ لأنه خروج عن الطاعة.

﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ﴾ إشارة إلى أن دعوة الصادقين والجادِّين في البحث، والذين ينتابهم القلق على مصيرهم لئلَّا يقعوا في الباطل أَولَى من الانشغال بمجادلة المعاندين والمتكبرين، مع أن أصل الدعوة للعالمين كلِّ العالمين.

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ
فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ
بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ
مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾
قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ
بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ
عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ
إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ
﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ
يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا
يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ
تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ
أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ
يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ
فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى
ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ
ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ
مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا
يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى
ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ
﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ
عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾

التكوين الإيماني للمجتمع المسلم

في خضم الحوار مع المشركين يلتفت القرآن إلى الصف المؤمن ليمنحه أسباب الثبات والقوة الإيمانيَّة الذاتيَّة التي تستعصِي على التفكك أو الذوبان مهما كان حجم الضغوطات الخارجية، وتتجلَّى هنا معالم التكوين الإيماني كما رسَمَها القرآن:

المَعْلَمُ الأول: وحدة الصف المؤمن، وعدم التفريط بالمسلم مهما كان حالُه وظرفُه ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ وقد كان هذا مطلبًا لبعض أسيَاد قريش؛ أن يطرد الرسول ﷺ أتباعه من الضعفاء والفقراء حتى تكون الأجواء مهيَّأة لدخول أولئك الأسياد!

المَعلَمُ الثاني: أن وحدة الصف لا تعني ضياع المسؤولية الفردية، فكلُّ فردٍ في هذا الصف مسؤول مسؤولية تامة عن خياراته وتصرُّفاته، لا يختلط هذا بذاك، ولا ذاك بهذا ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾، ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾.

المَعلَمُ الثالث: أن الرحمة هي القيمة العليا التي تنظم العلاقات البينيَّة داخل هذا الصف، في ظلال الرحمة الإلهيَّة الشاملة، والرحمة هنا تكميلٌ لمعنى المسؤولية، فالفرد يتحمَّل مسؤوليته كاملة، هذا من حيث العدل والقانون، فإن احتاج إلى معونة من إخوانه أعانوه إلى حدِّ الإيثار بالمال والنفس، وإن احتاج إلى المراجعة وتصحيح الموقف فباب التوبة مفتوح.

فالمسؤوليَّة ليست جامدة بالقدر الذي يسحَق الفرد تحت سطوته، بل هما قيمتان متناغمتان؛ المسؤوليَّة، والرحمة ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

المَعلَمُ الرابع: العلم بالباطل ونهجه ومبتداه ومنتهاه ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ والسبيل: الطريق من أوله إلى آخره، واستبانته للمؤمنين شرط في تكوينهم الإيماني؛ لئلَّا يختلط الحقُّ بالباطل، وطريق الجنة بطريق النار؛ ولذلك قال بعده: ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

المَعلَمُ الخامس: العلم بطريق الحقِّ ﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ وبالتالي فكلُّ من سلَكَ الطريق بلا بينة ولا علم يُخشَى عليه الضلال والتوَهَان في مسارات الباطل.

المَعلَمُ السادس: تنمية الرقابة الذاتيَّة من خلال اليقين بعلم الله المحيط بكل شيء ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ ومع الرقابة والمحاسبة الذاتيَّة هناك شعورٌ بالطمأنينة والثقة، فليس هنا في هذا العالم مجال للعبث، أو النسيان، أو العشوائية حتى ورقة الشجر الذابِلَة الساقطة! ومن باب أولَى سلوك هذا الإنسان المكلَّف بعمارة الأرض ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾.

المَعلَمُ السابع: عقيدة الجزاء الأخروي الدافعة لفعل الخير وتجنُّب الشرِّ ﴿لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾، ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ﴾.

المَعلَمُ الثامن: الإعراض عن مجالس الإثم واللغو الباطل؛ صيانةً للنفس، وحمايةً للمجتمع ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

المَعلَمُ التاسع: العمل على الدعوة والإصلاح وإنقاذ الناس، وهذا المعلم مكمِّلٌ لما قبله حتى لا يكون الإعراض إعراضًا سلبيًّا ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾.

المَعلَمُ العاشر: التذكيرُ بالأصل الكلِّي الذي قام عليه هذا الدين، واجتمع عليه هذا الصف، ألا وهو التوحيد ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾، ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾، ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ﴾.

دقائق التفسير

﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾ بالغداة استعدادًا للعمل، وبالعشي مراجعةً واستغفارًا وتنظيفًا للقلب عما عَلِقَ به.

﴿فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ قانونٌ كلِّيٌّ في هذا الخلق؛ إذ التفاوُت بين الناس وجهٌ من وجوه الابتلاء والاختبار، إيمانًا وكفرًا، قوةً وضعفًا، غنًى وفقرًا، والحاكم مُبتلى برعيته، والرعية مُبتلاة بحاكمها، والوالد مُبتلى بولده، والولد مُبتلى بوالده، والنجاة إنما تكون بمعرفة واجب كل طرف تجاه الآخر، فالصدقةُ واجبُ الغنيِّ، والرحمةُ واجبُ القويِّ، والقناعةُ واجبُ الفقير، والدعوةُ واجبُ الداعِي، والإصغاءُ واجبُ المدعُو، وهكذا.

﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ السلام العام والشامل، وهو رسالة الإسلام الكليَّة، وهو مظهرٌ من مظاهر الرحمة ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ﴾ ويبعُد أن يكون السلام هنا سلام التحيَّة؛ إذ التحيَّة على القاصِد لا على المقصود، والله أعلم.

﴿وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ كأنها تتجلَّى بنفسها دون بحثٍ وجهدٍ، حتى لا يبقَى عُذر لمعتذر.

﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهۡوَآءَكُمۡ قَدۡ ضَلَلۡتُ﴾ ارتباطٌ بين الهوى والضلال، فكلُّ من سارَ خلف رغباته وشهواته متجنّبًا سبيلَ العلم والمعرفة، فقد وقع في الضلالة لا محالة.

﴿مَا عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦٓ﴾ فمهمةُ الداعي تبليغ الدعوة، وتطبيق الشرع، لا الاستجابة لطلبات المدعوين بأي اتجاهٍ كانت، فالملكُ لله وحده، بيده الثواب والعقاب، وهو وحده الذي يقدِّر الآجال والأرزاق.

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ أي: عنده علم الغيب كلِّه؛ لأن الذي لا يملِك المفتاح أو المفتح - مفرد مفاتح - لا يهتدي إلى ما بداخل الصندوق.

وإنما ذكر المفاتح إشارة إلى حرص الإنسان على معرفة الغيب كحرصه على الحصول على ما في الصناديق المغلقة من كنوز، والمقصود بالغيب هنا: المقابل لعالم الشهادة، أما ما يجهله الإنسان من عالم الشهادة بحكم محدوديَّة قدراته وأدواته فهذا قد يصِل إليه بتطوير هذه القدرات أو الأدوات، كأدوات الاتصال الحديثة التي قرَّبَت البعيد، وجعَلَت ما كان غيبًا في الماضي معلومًا ومشهودًا في الحاضر، فهذا غيبٌ نسبيٌّ لا دَخلَ له بعالم الغيب.

﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ﴾ هو علمُه سبحانه المحيط بعالم الشهادة، وهو العلم الذي قد يكون للمعرفة الإنسانيَّة منه نصيبٌ، بخلاف عالم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ﴾ سمَّى النومَ وفاةً؛ لما بينهما من مشابهة وغياب الإنسان عن وعيه، وفقده القدرة على الحركة، وهو تذكيرٌ بما ينتظر الإنسان من غيابٍ أكبر وعجزٍ أشد.

ثم شبَّه الاستيقاظ بالبعث: ﴿ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ﴾ تذكيرًا بذلك اليوم الذي سيحشر فيه الناس جميعًا إلى خالقهم بعد ذلك الموت العميق.

﴿جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ أي: اكتسبتم من أعمالٍ، واختيار الجرح إشارة لنوع هذه الأعمال التي فيها من الأذى على الفاعل نفسه وعلى مجتمعه، فالكسبُ في عادة البشر لا يخلو من جراحات وكدورات وآثام، وكأنه يشبِّهُ كسبَ الإنسان بكسب الجوارح لصيودها، والله أعلم.

﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦ﴾ بحكم ربوبيته وقدرته المطلقة، وهذا لا يتعارض مع رحمته الشاملة؛ إذ الذي يملك الرحمة إنما هو القوي الغالب لا الضعيف العاجز، وقد خصَّ العباد - وهم العقلاء - مع أن قدرته على العقلاء وغيرهم على السواء؛ تنبيهًا للعقلاء أن يخضعوا الخضوع التكليفي باتباع الأوامر، واجتناب المناهي، كما خضعوا خضوعهم الخلقي لقهره سبحانه وإرادته وقدرته.

﴿وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً﴾ هم الملائكة الذين يحفظون على المكلَّف كلَّ أعماله حسنها وقبيحها، ما استحقَّ الثواب، وما استوجب العقاب، وهذا من سُننه سبحانه في هذا الخلق أن يجعل لكلِّ شيءٍ سببه، ولكلِّ مخلوقٍ دوره ووظيفته، وإلا فإن الذي يُحصِي الأوراق المتساقطة لا يُعجزه الإحاطة بسلوكيات هذا الإنسان وتصرفاته.

﴿تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ﴾ التضرُّع: التذلُّل، والخُفية: ضدُّ الجهر، والمقصود بهما الدعاء الخالص الصادق الذي لا تشوبه شائبة الرياء، ولا التأثر بعاطفة الجمهور، فكلُّ امرئٍ يمرُّ بنوعِ شدَّة فإنه يلجأ إلى من ينتشله منها، وحينما يعجز الأهلون والأقربون، وتتقطَّع الأسباب الدنيويَّة، تتحرَّك الفطرة الثابتة في كينونة هذا الإنسان (يا الله) على وجه التذلُّل الكامل، والصدق الخالص.

﴿قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ﴾ تفريع لما قبله، كأنه يقول: إنكم تتضرعون إلى خالقكم حينما تكونون في ظلمات القفار والبحار، ثم تنسونه في حياتكم العامة في بيوتكم ومجالسكم ومواطن أمنكم، فهل تظنُّون أن الله قادرٌ عليكم هناك، وأنه لا يقدر عليكم هنا؟!

ثم ذكر أمثلة من العذاب التي تصيب الناس في مأمنهم؛ كالزلازل، والصواعق، والحروب: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾.

﴿حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ فالمقاطعة ليست مقصودة لذاتها بل هي مطلوبة بقدر تجنُّب الإثم، فإذا عاد اللاهون عن لهوهم تحرَّك المؤمن بدعوته لإنقاذهم، وإصلاح أحوالهم.

﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ﴾ أن تقع في اليأس والقنوط من رحمة الله بسبب الإصرار على الضلال، والصدِّ عن باب التوبة والإنابة.

﴿لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى﴾ إشارة إلى العمل الجماعي في الدعوة إلى الله، مشورةً وتعاونًا وتكميلًا للأدوار والمهام.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٧٤) وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٨٧) ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٨) أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩) أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ (٩٠)﴾

الهَديُ الإبراهيمي

في هذه الآيات تقصُّ علينا سورة الأنعام نموذجًا للمناظرة العلميَّة بصيغة الناظر لا المناظر، وبأسلوب الباحث لا المجادل، وهذا - لا شكَّ - أقرب للقلوب وأدعى للقبول،

وقد جاءت هذه المناظرة في سياقٍ متَّصلٍ وإطارٍ متكاملٍ في معركة القرآن الكبرى مع الآلهة المزيَّفة التي صنعها الإنسان بنفسه لينازع بها سلطان الله في خلقه وملكه:

أولًا: دعوة الأقربين قبل الأبعَدين ﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ﴾ وهذا نهج النبيين عامة ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، وهذا يلقي في نفوس الآخرين طمأنينة وثقة أن هؤلاء الأنبياء لا يعملون لمطمح شخصي، ولا لمطمع دنيوي، بل هم يدعون إلى الحقِّ والخير، ويبدؤون بأنفسهم ثم بأقرب الناس إليهم؛ ليتحمَّلوا أعباء الطريق من بدايته، وأتعاب الحرث والغرس قبل وفرة الظل، ونضج الثمر، ولولا البعد الأخروي في هذا لما بدأ الأنبياء بآبائهم وأبنائهم وأزواجهم، مع التأكيد المتكرر ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَـٰلَمِينَ﴾.

ثانيًا: الدعوة بالعلم ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ فما كشفه الله لإبراهيم من ملكوته أورث عنده علمًا يقينيًّا بتلك الحقائق الإيمانيَّة التي يدعو لها، وهذه إشارة أن العلم شرط الدعوة، وأن اليقين أساس العمل.

ثالثًا: إن النظر العلمي الذي يبدأ بملاحظة الظواهر وافتراض الفرضيات، ثم تصنيف المقدمات وتركيبها، ثم استظهار النتائج هذا هو طريق المعرفة الأول، فإبراهيم ﷺ رأى كوكبًا ثم افترض فرضًا؛ أن يكون هذا الكوكب ربًّا لأنه أكبر من الأصنام وأعلى وأكثر فائدة، فمن جوَّز عبادة الحجر المظلم الصغير لماذا لا يجوِّز عبادة الكوكب الكبير المنير؟ فلما أفل الكوكب بطلت الفرضية؛ لأن الربَّ لا ينبغي أن يزول، ولا ينبغي أن يترك مربوبيه.

فلما رأى القمر افترض فرضيَّة أخرى؛ أن هذا أكبر من ذلك الكوكب، وأظهر بزوغًا وإشراقًا، فلعلَّه يثبت ولا يعتَرِيه ما اعترى الكوكب، فلما أفل بطلت الفرضية أيضًا، وهكذا افترض في الشمس بعد أن رآها أكبر الأجرام المرئيَّة، وأكثرها نفعًا وضياءً، فلما أَفَلَت أَفَلَت فرضيتها كذلك.

وهذا كلُّه على سبيل تنزيل المناظر منزلة الناظر، وإلا فإن إبراهيم يعلَمُ أن هذه الأجرام تأفل وتغيب قبل ذلك اليوم؛ لأنها من الظواهر المتكررة التي يراها الصغير والكبير، ولا يدور في خلد عاقل أن إبراهيم كان ينتظرها في ذلك اليوم ليراها تأفل أم لا؟

كما أن السياق لا يقتضي أنه كان يناقش عبَدَة الكواكب، بل السياق متصل في مناقشة أهل الأصنام أبيه وقومه.

وإنَّما عرَّجَ على هذه الكواكب لحثِّ هؤلاء على النظر خارج الدائرة الضيقة المحكومة بموروثات الآباء والأجداد، كأنه يقول لهم: مَن أَولَى بالعبادة: هذه الأحجار الصماء، أو تلك الكواكب والنجوم الباهرة بكبرها وعلوِّها وإشراقها؟! فإذا جاء بهم إلى هذه الدائرة فقد نجح في تخليصهم من الموروث، وفتح أذهانهم لمستوى آخر من البحث والحوار.

رابعًا: إن الإيمان بالله عن ثقة ويقين يقود إلى الطمأنينة والشعور بالأمن، وذلك بخلاف المتخبِّط في ظلمات الجهل، والمكبَّل بحبال التقليد ﴿أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

فانظر كيف قَرَنَ الأمنَ بالسلطان وهو هنا الحُجَّة والبُرهان، وبالعلم وهو نتيجة النظر والاستدلال، وهذا قانون كلِّيٌّ في حياة الإنسان؛ أنه يخاف مما يجهله، ويستأنس بما يعلمه، وما غاصَ في أعماق المحيطات ولا ركب في طبقات الفضاء إلا بعد أن تيسَّرت له من المعلومات ما تبدد عنه شكوكه ومخاوفه، فعابد الحجارة الصغيرة كيف سيتعامل مع هذا الكون؟

ومثله ذلك الذي تهرَّب عن الاعتراف بالجهل تحت مظلَّة (الصدفة) وهي ترسيخٌ للجهل لا أكثر، فأيُّ أمنٍ يشعر به وهو لا يرى في كلِّ ما يراه إلا الفوضى والعشوائيَّة الخالية عن كلِّ قصدٍ، وعن كلِّ نظام؟

خامسًا: إن هذا الإيمان هو أساس العمل، وهو شرط القبول ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وهذا قانون إنساني عام، فمن لا يعترف بربِّ العمل كيف يطلب منه فيما بعد المكافأة على عمله؟

وفي هذا جواب لمن يسأل عن أولئك الذين يقدِّمون أعمالًا دنيويَّة جليلة مع كفرهم بالله، فهؤلاء لهم كلُّ ما يستحقونه في الدنيا من مكافآت قانونيَّة، ويستحقون كذلك الشكر من كلِّ شخصٍ مُنتفعٍ بما قدَّموه، أما الآخرة فلا يفوزُ بها إلا من آمَنَ بها، واستعدَّ لها، وسعَى لها سعيَها.

سادسًا: إن قافلة الإيمان واحدة، من قبل إبراهيم ومن بعده ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ﴾.

سابعًا: إن هذا النموذج والنماذج الأخرى في هذه المسيرة الإيمانية من الخبرة المتراكمة والحركة الميدانية المنبثقة من نور الوحي كلها تكوِّن المثال والقدوة الحسنة لكلِّ السائرين على هذا الطريق ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ﴾.

دقائق التفسير

﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ الأظهر أن آزر هو أبو إبراهيم، وهذا هو الأصلُ في استعمال اللغة، وليس من مسوِّغ ظاهر للخروج عنه، وورود اسمه في التوراة (تارح) ليس بحجَّةٍ كافية، ولو صحَّ ذلك فلا مانع من وجود اسمَين لشخصٍ واحد، كما في يعقوب وإسرائيل.

والقول بإيمان جميع آباء الأنبياء وأمهاتهم يحتاج إلى نصٍّ، وليس بين أيدينا مثل هذا النص.

ومن احتجَّ بإطلاق العرب الأب على العم، فهو يصلح احتجاجًا على الإمكان لا على الوقوع، وإلا لكان اسمُ الأب أينما ورد فإنه ينصرف إلى المعنيَين على سبيل الاشتراك، ولا قائِلَ به.

﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ هذا الخطاب فيه قوة وشدَّة، والظاهر أنه جاء في مرحلة تالية لخطابه الوارد في سورة مريم: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم:٤٢]، وما بعدها من الآيات، فهو انتقال بحسب تغيُّر الحال، والله أعلم.

﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ وهو متيقِّن أنه سيأفل، فهذا هو المعتاد والمشاهد في كلِّ يومٍ وليلةٍ.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ﴾ دليلٌ على ارتباط الإيمان بالعمل الصالح لتحقيق النجاة، على خلاف قول المرجئة: (لا يضر مع الإيمان معصية) بل المعصيةُ تضُرُّ: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١) وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩٢) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ ۖ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣) وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٩٤) ۞ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٩٥) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧) وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨) وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ۗ انْظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩) وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١) ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ۖ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣) قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (١٠٤) وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١٠٥) اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (١٠٦) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا ۗ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (١٠٧)﴾

الوحي والحياة

حاجة الحياة إلى الوحي لا تقِلّ عن ضرورة الحياة نفسها؛ فانبثاق الحياة لا يزال اللغز الأكبر في المعارف الإنسانية، وهو الذي يجعل الإنسان يعيش حياةً عبثيَّةً، لا يدري المنشأ ولا يدري المصير، ولا يعرف غايةً لوجوده سوى المتاع، وهو هنا يغالط نفسه، فقدرته على المتاع لا تتجاوز سوى مرحلة عمريَّة وسطيَّة، قبلها طفولة يعيش فيها عالَةً على أبَوَيه، وحين يكبر تعتَرِيه الأمراض وآثار الشيخوخة حتى يعودَ كما بدأ بحاجةٍ إلى عنايةٍ ورعايةٍ، ومرحلة الشباب ليست خالِصةً من المُنغِّصات من فقرٍ ومرضٍ وحوادثَ وكوارثَ، فما قيمةُ الحياة إن كان هذا مبلغها؟

الوحي يفتح نافذةً لما قبل الحياة، ولما بعدها أيضًا، ويرسم الغاية الكليَّة وسبيل تحققها والوصول إليها، وفي هذه الآيات إضاءات وإشارات على هذا السبيل:

أولًا: إن هذه الحياة ليست عبثًا ولا مصادفةً، ولا يمكن لها أن تكون كذلك ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ﴾، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ﴾، ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾.

ثانيًا: إن النظام الذي يضبِطُ حركة الحياة ويؤلِّف بين أجزائها ومفرداتها شاهد على نفيِ العَبَث والفوضى في أصل الخلقة ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

ثالثًا: إن الذي يشاهد كلَّ هذا النظام فيلوذ بالجحود والنكران بذريعة أنه لم يَرَ الخالق، إنما هو مكابرٌ معاندٌ، فدلالة الأثر على المؤثِّر دلالة عقليَّة فطريَّة علميَّة يتعامل معها الإنسان في حياته اليومية دون تكلُّف.

فمن سُرِقَ ماله خفية لا يمكنه أن ينكر وجود السارق، ومن وجد كتابًا ليس عليه اسم مؤلِّفه أو صورته لا يمكنه أن يُنكِر وجود المؤلِّف ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾، ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ﴾.

رابعًا: إن الذي أبدع هذا الخلق لا يمكن أن يتركه للضياع دون هدايةٍ وتعليمٍ، وذلك هو معنى الوحي ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ﴾ فمقتضى الحكمة أن صانع الشيء لا يهمله.

ومن هنا يأتي الربط بين حقيقة الخلق وحقيقة الوحي ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ﴾، ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾، ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ﴾، ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

خامسًا: إن ابتعادَ الإنسان عن الوحي الحق يجعله نَهبًا للجهل والخرافة، والدعاوى الباطلة، والشعارات الخادعة التي تستعبده وتذلُّه وتقهرُه ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ﴾، ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

سادسًا: إن إغماضَ العين عن الحقيقة لن يَحُول أبدًا دون مُواجهتها، وخيرٌ للإنسان أن يفكِّر بذلك المصير قبل الوصول إليه ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ﴾ هناك سيخسر الظالمون المتكبِّرُون ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ ولن ينجو كذلك الرعاع الذين غرَّهُم

الشركاء المزيَّفون والشفعاء الكاذبون ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

دقائق التفسير

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ إنكار الوحي جملةً فيه انتقاصٌ من مقام الألوهيَّة؛ إذ مُؤدَّاه أن الله خلق الخلق ثم تركهم، وهذا لا يليق بحقِّ أيِّ صانعٍ، فكيف بخالق هذا الكون العظيم؟

وهو قولُ بعض علماء الطبيعة اليوم الذين آمنوا بالخالق لتفسير عِلِّيَّة الخلق، ثم تنصَّلوا عن الدين، وتكبَّروا على الوحي، وهو لا يختلف عن موقف المشركين السابقين الذين تُناديهم فطرتهم بالإيمان ثم يصدُّون عن الرسول حسدًا وكِبرًا.

﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ دلالة أن منكري الوحي لا ينطلقون من تفكيرٍ جادٍّ، ورأيٍ مدروسٍ، بل هو الهوى واللعب بالحقائق العلميَّة والدينيَّة على حسب أهوائهم.

﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ مكة، وهي أكبر القرى وأصلها الذي ترجع إليه في شؤون العبادة والتجارة وغيرهما، والنذارة ليست قاصِرَة على مكة وما حولها، بدليل قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ:٢٨]، فالعام يتضمن الخاص دون تعارُض أو تضاد.

﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ التحذير من طريقَين من طرق الضلال؛ ادِّعاء النبوة كذبًا كما فعل مُسيلمة وغيره، وإعطاء البشر حقَّ التشريع من دون الوحي، وهو حالُ الأنظمة المعاصرة التي تدَّعِي ضمنًا أن قوانينها الوضعية أصلَح للحياة من الوحي.

﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾ على سبيل التحدِّي، بمعنى: أنكم لو كنتم تملكون من الأمر شيئًا فأنقذوا أنفسكم من هذا العذاب وأفلتوا بها عن طوق الموت.

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ إشارةٌ إلى أن الحياة الاجتماعيَّة مرحلةٌ مؤقَّتةٌ ومحدودةٌ في حياة الإنسان، فهو قد وُلد فَرْدًا ثم يموت فردًا، وأنه كذلك يحاسَب فردًا حتى في أعماله الجماعيَّة أو الاجتماعيَّة، والصلة الثابتة والدائمة إنما هي صلة الإنسان بربِّه والمخلوق بخالقه.

﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ من مالٍ ومتاعٍ؛ حيث لم يكن سوى عارية على سبيل التخويل لا التمليك الدائم.

﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ أي: تقطَّعَ ما كان سببًا في وَصلِكم من التصوُّرات الخاطِئة، والمُعتقَدات الفاسدة.

﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ﴾ لإنبات الزرع والشجر، ولولا ذلك لما استمرَّت الحياة.

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ إذ أصل الخلق كان من التراب الذي ليس فيه روح، ثم يكون من النطفة والحبة والنوى، وهي أشياء جامدة وإن كانت فيها مقوِّمات الحياة الأولى، لكنها أشبَه بالميت في جمودها وسكونها وعدم قُدرتها على الحركة.

﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ۚ﴾ في دورة الحياة المألوفة؛ حيث تخرج البذرة الجامدة من الشجرة النامية، وتخرج البيضة الساكنة من الطائر المتحرِّك، وفي الآية إشارة إلى أن الأصل في هذه الدورة هو خلق الكائن الحي، ثم تخرج منه النطفة والبيضة والبذرة بدلالة (مُخرِج) الذي يعني: الثبوت والاستقرار، بخلاف ﴿يُخْرِجُ﴾ الذي يفيد التكرار، وقصة خلق آدم تعضد هذا التدبّر.

أما تفسيره بإخراج المؤمن من والدٍ كافرٍ، وإخراج الكافر من والدٍ مؤمنٍ ونحوه فهو مُستبعَد في السياق، وإن كان محتملًا بطريق الإشارة.

﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ﴾ إشارة إلى أهميَّة علم الحساب، وأنه معتبر، بخلاف من ظَنَّ أنه يُعارض الرؤيةَ الشرعيَّةَ للهلال؛ إذ الرؤية وسيلةٌ كما الحساب، والمقصود إدراك حركة

الأهِلَّة، وضبط دخول الأشهر القمريَّة وخروجها، وربما كانت الرؤية متعيِّنة لضعف هذا العلم في العصور الغابِرة، أما وقد تقدَّم حتى صار أكثر دقَّة من الرؤية، فلا دليلَ على المنع، والله أعلم.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ يعني: آدم ﷺ، فحواء خلقها الله منه، ثم تكاثَرَ النسل بهما.

﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ الأظهر أنهما مصدران لبيان الحال، كأنه قال: مستقرون في الأرض ومستودعون فيها إلى آجالكم المعلومة، فلولا الاستقرار لما صحَّ التكليف، ولولا الاستيداع لظنَّ الناس أنهم مخلدون فيها، فالاستقرار إنما كان بقدر تحقق غاية الاستخلاف والاختبار، وبعدها تردُّ الودائع، كما قيل:

ومَا المَالُ والأَهْلُونَ إلَّا وَدِيعَةٌ   وَلَا بُدَّ يومًا أَن تُرَدَّ الوَدائِعُ

﴿حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ الذي يركب بعضه بعضًا كما في سنابل القمح والشعير.

﴿قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ هي عذوق الرطب القريبة من التناول.

﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ الشَّبَه في الشجر، والتمايُز في الثمر، حتى إنك ترى البساتين كأنها شيء واحد بأصولها وأغصانها وأوراقها، فإذا بانَ الثمر عرفت هذه من هذه.

﴿وَيَنْعِهِۦٓ﴾ الثمر إذا نضج.

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾ بالخوف منهم وتعظيمهم وطاعة شياطينهم، وإن كانت العبادة مصروفة للأصنام، كما قال إبراهيم لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [مريم: ٤٤]، فالشيطان أصل الضلال، والله أعلم.

﴿وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ كقول النصارى ببنوَّة عيسى، وقول المشركين: إن الملائكة بنات الله، وخرقوا: اختلقوا كذبًا وزورًا.

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مبدعهما، وموجدهما من العدم.

﴿لَا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ أي: لا تحيط به الأبصار لعظمته وجبروته، وأما رؤية الآخرة، فهي رؤية تليق بجلاله وعظمته، ومقتضى الرؤية غير مقتضى الإدراك، والله أعلم.

﴿وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ﴾ مجاز في مجانبة الحقِّ والصدِّ عنه.

﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ﴾ هي تهمة لإنكار الوحي، كأنهم ينسبون القرآن إلى علمٍ بشريٍّ كَسْبيٍّ منسوبٍ لحبرٍ أو كاهنٍ.

﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْۗ﴾ هي مشيئته المطلقة التي أتاحت للإنسان حريَّة الاختيار، وبها يفوز أو يخسر، ولو شاء الله لجعلنا ملائكة بلا تكليف ولا اختبار، وليس في الآية مُتنفَّس لأهل الجبر الذين يظنُّون أن الله أجبَرَ الكافرين على كفرهم، فهذا مُنافٍ لحكمة الخلق، ولحكمة التكليف والابتلاء.

﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

طرق الغواية والضلال

بعد بيان القرآن لصلة الوحي بالحياة، وحاجة البشرية إلى الهداية الربانيَّة، صار من المناسب ذكر الأسباب التي دفعت بكثيرٍ من البشر إلى المروق عن جادَّة الوحي هذه، وعن طريق السعادة الدائمة في حياتَي الدنيا والآخرة، ومن ذلك:

أولًا: الجهل، وهو عدوُّ الإنسان الأول، وهو أساس كلِّ غوايةٍ وشرٍّ ﴿مَّا كَانُوٓاْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ﴾، ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾.

ثانيًا: الطغيان، وهو حالةٌ نفسيَّةٌ مرضيَّةٌ تدفع بالإنسان إلى أن يتعالى ويتكبر على الحقِّ حتى لو كان فيه منفعَته، كتكبُّر المريض على الدواء، ومُعاداته للطبيبِ الحريصِ على شفائه، ﴿وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾، ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا لِيَمۡكُرُواْ فِيهَاۖ﴾، ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

ثالثًا: العناد، وهو قرينُ الطغيان، فقد يتبنَّى المرءُ فكرةً ما، فإذا تبيَّن له أن الحقَّ بخلافها صعب عليه التراجع، وغالبًا ما يكون هذا في الذين يظنون بأنفسهم العلم ﴿۞ وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾.

رابعًا: الهوى، واتباع المصالح الشخصيَّة والفئويَّة القاصرة ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا لَّيُضِلُّونَ بِأَهۡوَآئِهِم﴾.

خامسًا: الكذب، وهو عامٌّ في تزييف الحقائق، وتحريف الكتاب، والبُعد عن طريق الصدق والأمانة العلميَّة في البحث والحوار ﴿يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ﴾، ﴿فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ﴾.

سادسًا: تزيين الباطل ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ﴾ ونسبة التزيين إلى الله هو نسبةٌ إلى الأسباب التي أودعها الله في هذا الكون، والتي هي بمتناول البشر، إن شاءوا أخذوا بأسباب السعادة، وإن شاءوا أخذوا بأسباب الهلاك، فالله خالق كلِّ شيء، والإنسان يميِّز ويختار، وهو يتحمل مسؤوليَّة اختياره.

سابعًا: تعاوُن أهل الباطل في باطلهم ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾، ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾.

ثامنًا: اتباع الأكثريَّة وغوغائيَّة الجماهير التائهة دون تبصُّر ولا دراية ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾، ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم﴾.

ولا يظنَّنَّ ظانٌّ أن في هذا تزكية لما عليه الأقلية؛ إذ لو كان كذلك للزم اتباع الأقليَّة في كلِّ خلاف، وإنما يجري التنبيه على الأكثريَّة؛ لأنه المعتاد في السلوك البشري أن يتأثَّر الناس بالرأي العام، والعرف السائد.

والقرآن يُرشِدنا إلى أن المعرفة الصحيحة إنما تكون بالحجة والدليل لا بأقليَّة ولا بأكثريَّة، أما تعبير الناس عن رغباتهم ومطالبهم في دائرة الخيارات المشروعة، فلا شك أن حكم الأغلبيَّة راجِح، والله أعلم.

تاسعًا: الذنوب، فكلما انغمس المرء في مخالفاته وشهواته كان أبعَد عن طريق المعرفة، فإن العلم نورٌ، والذنوب تحجب القلب عن هذا النور، كما قالوا: ونورُ الله لا يُؤتَى لعَاصٍ؛ ولذا جاء التذكير هنا: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾، ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾.

فهذه الذنوب تُورِثُ القسوةَ، وتتلبَّد على القلوب فتمنعها من النظرة الصحيحة السليمة ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ النهي عن سبِّ الأصنام والآلهة المزيَّفة؛ كي لا تكون سببًا في استفزاز مُتَّبِعيها على مسبَّة الله، وفي هذا عدوان على الذات الإلهيَّة سببه الأول سوء تصرُّف المسلم مع الآخرين.

وفيه إبعاد لأولئك عن السماع لقول الحقِّ من حيث نحن مكلَّفُون بدعوتهم وهدايتهم.

وفيه منهجيَّة البحث عن مآلات الأقوال والتصرُّفات وإن كانت في ذاتها مشروعة.

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ إشارةٌ إلى أن الذنب الأول يقودُ إلى الذنب الثاني، وأن الذي اعتاد التكبُّر عن الحقِّ سيتكبَّر عنه في كلِّ مرَّة، وأن علامة الخير وحسن الخاتمة اتباع العلم والهدى بلا عنادٍ ولا تكبُّر، فهذا دليل الصدق مع النفس، وهو أساس الهداية.

وتقليب الأفئدة والأبصار معناه: الشعور بالاضطراب والتردُّد بين قبول الحقِّ الذي يراه وبين دواعي النفس الداخلية في الصدود والمكابرة والمعاندة.

﴿فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ العَمَه هو الضلال والحيرة والتخبُّط، كالأعمى الذي لا يجِد دليلًا، ولا يهتدي سبيلًا، والصلة بين الطغيان والعَمَه صلة سببية، فالطغيان أصل التِّيه والضلال، بخلاف التواضع الذي هو أصلٌ في كلِّ خير.

﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا﴾ أي: لو جاءتهم كلُّ الآيات، ولو أتيناهم بكلِّ الخلق ليشهدوا لهم بالحقِّ لما اتبعوا الحقَّ؛ ذاك لأن هؤلاء لا تنقصهم المعرفة، بل هم طغاة معاندون متكبرون.

﴿شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ دليلٌ أن الشيطان وصفٌ يدخل في كلِّ جنسٍ، فما خبُث من جنٍ وإنسٍ وحيوان فهو شيطان، وتفسيره بحسب السياق، ومن هذا القَبيل وصف الكلب

الأسود بأنه شيطان، فهو بهذا المعنى لا أنه مختلف عن جنس الكلاب، بدليل أنه لو ولَغَ في الإناء فطهوره الماء والتراب كسائر الكلاب.

﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: تميل هذه الأفئدة إلى وحي الشياطين؛ لأنها مغلَّفة بشهوات الدنيا، فلا ترى أبعَد من هذه الشهوات، أما التفكير بالحياة وما قبلها وما بعدها فهذا شأنُ القلوب الحيَّة، والعقول المتحرِّرة من هذه القيود.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ صدقٌ في الخبر، وعدلٌ في الحكم، وهذه ميزة الوحي عن تصورات البشر وقوانينهم، فالبشر يظنُّون ويخرصون، وقد يتعمَّدون الكذب دفعًا لضررٍ، أو جلبًا لنفعٍ، والبشر يظلمون لهذه الأسباب أيضًا، فما الذي يدفع الوحيَ إلى مثل هذا السلوك، وهو من الله العليم بكلِّ شيء، والغني عن كلِّ شيء؟!

وهذه الحقيقة الكبيرة جاءت تفسيرًا وتدليلًا لفحوَى السؤال الاستنكاري المتقدم: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا﴾.

﴿يَخْرُصُونَ﴾ الخرص هو الحزر والتخمين بلا بينةٍ ولا دليلٍ.

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ من الذبائح التي لم تقدَّم للأصنام، وكذا المحرَّمات التي ليست على هَدي الله كالدم والميتة والخنزير، ثم استثنى منها: ﴿إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ لحفظ الحياة؛ لأن مفسَدة تناول المحرمات أقلُّ في ميزان الله من هلاك النفس بسبب الجوع أو الظمأ.

﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ إشارة أن مساحة العفو المباح هي الأصل، فما لم يفصَّل في ديوان المحرَّمات فهو مباحٌ، ورد به دليل معيَّن أو لم يَرِد.

﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ إثم الظاهر ما يراه الناس ويطَّلِعون عليه، وهذا النوع فيه العدوان على حُرمات الله وعلى مشاعر المسلمين، أما الإثم الثاني فهو الذي يُخفِيه المذنب عن الناس حياءً منهم، أو طمعًا في الوجاهة بين المسلمين، وهذا الإثم إن كان لضعفٍ في الإرادة

وقلَّةٍ في العزم فهو أهوَن من الأول؛ لأن المجاهَرة دليل الوقاحة، وقلة الحياء، أما إن كان مَكْرًا ونفاقًا وكيدًا بالمسلمين فهذا أخطر من الأول، والله أعلم.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ فيه التفريق بين المعصية التي مؤدَّاها الفِسْق، وبين طاعة الطاغوت التي مؤدَّاها الشرك، فالواقع في الإثم مع استِشعاره الإثم لا يخرج من الدين، لكن من فَضَّل قانون البشر على قانون الله رغبةً وقناعةً وطاعةً فهذا مُخرِجٌ من الدين بلا ريب، فمن أكل الربا مثلًا حُبًّا في المال فهو فاسقٌ آثم، بخلاف ذاك الذي يدافع عن الربا ويستنكر تحريمه مع علمه بقطعيَّة التحريم، فهو كافرٌ خارجٌ من الدين.

﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ﴾ فاختيارُ الرسل إنما يكون بعلم الله وحكمته، لا على مقاييس البشر وتصوراتهم.

﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ هو الذلة والمهانة التي تناسب طيشَهم وغرورَهم وتكبُّرَهم.

﴿ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ فالذي يحاول الصعود على الشواهق يشعر بالخوف والقلق وضيق النفَس، وهو تشبيهٌ لحال المتكبِّر المتعالي على الحقِّ، فهو يشعر بالضيق والحرج عند سماعه للحقِّ والحجة والبرهان.

وقد أثبتَ العلمُ الحديثُ أن الصاعد في طبقات الفضاء بطائرة أو مركبة يختَلُّ عنده الضغط الجوي، فيشعر بضيقٍ في الصدر، وصعوبةٍ في التنفس.

﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ﴾ تأكيدٌ للصراط المستقيم الذي هو طريق الذين أنعم الله عليهم من المؤمنين الصادقين، غير المغضوب عليهم بسبب عنادهم وكبرهم، أو الضالين بسبب جهلهم وتقصيرهم في طلب العلم، وهذا الصراط المستقيم هو الموصل إلى السعادة الأبدية ﴿ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ﴾.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣٥﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾

نماذج من العَمَه والضلال

الانحراف عن الصراط المستقيم يُوقِع المرء في حالة من التخبُّط والعَمَه في تصوراته وسلوكيَّاته وعلاقاته الحياتيَّة والاجتماعيَّة؛ ذاك لأنه فقد الدليل الموجِّه والنور الذي أنزله الله مُبدِع هذه الحياة وخالق مفرداتها وجزئيَّاتها، وهنا يعرض القرآن لنماذج من هذا العَمَه:

أولًا: التصوُّرات الخاطئة عن الجن وطريقة التعامل معهم؛ حيث لم يكن هذا عن علم، لأن معارف الناس في هذا مغلقة، فلا سبيل إلى مثل هذه العوالم الغيبيَّة إلا الوحي، ومع كفرهم بالوحي وإعراضهم عنه سيكونون نهبًا للخرافة، وفي هذا يقول القرآن: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ أي: أضلَلتم منهم كثيرًا فصاروا أعوانًا لكم، وأتباعًا لنزواتكم ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ والاستمتاع حصول المتعة والمنفعة المتبادلة، وهي هنا منفعة آنيَّة؛ فمَرَدَة الجن يشعرون بالغلبة والتسلط حينما يتوسل بهم الإنس ويقدمون لهم النُّسُك والقرابين، ومَرَدَة الإنس يُهيمِنُون على ضِعاف النفوس ويسلبون منهم أموالَهم بالدجَل والسحر والشعوذة.

ثانيًا: الغرور بما نالوه من ذلك الاستمتاع حتى صدَّهم هذا الغُرور عن كلمة الحقِّ، فتمادوا في كفرهم وظلمهم ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾.

ثالثًا: التلاعب بأموال الناس وصرفها في غير وجهها، فمرَّة يأكلونها باسم الله، ومرَّة يأكلونها باسم الأوثان ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، وهذا من تمام ضلالهم أنهم يحتاطون في شِركهم لجانب الأوثان، فكلُّ ما التَبَسَ بين حقِّ الله - بزعمهم - وحقِّ الأوثان صرَفُوه للأوثان.

رابعًا: التحليل والتحريم بلا دليلٍ ولا حجةٍ، وإنما هو الهوى واتباع العادات والخرافات الباطلة ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ﴾.

خامسًا: قتل الأولاد خشية الإملاق ونقص الرزق، أو خوفًا من العار ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾، ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ﴾.

سادسًا: تمييز الذكر عن الأنثى في الأكل من لحوم الأنعام ﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ﴾.

هذه النماذج الصارخة تدلِّل على مستوى الانحراف والشذوذ الذي يمكن أن تَهوِي فيه المجتمعات البشريَّة حين تتخلَّى عن هَدي النبوة، وتزِيغُ عن الصراط المستقيم.

دقائق التفسير

﴿ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ جعلتم كثيرًا منهم أعوانًا لكم في الضلالة والسحر والشعوذة.

﴿ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ تبادل الخدمات والمصالح الآنيَّة والمتاع الزائل.

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ ظاهرٌ في بعثة الرسل من الجن ومن الإنس، والاكتفاء بهذا الظاهر أَولَى من الدخول في المجادلات والتأويلات؛ لأنها مسألة غيبيَّة بَحتة لا ينبَنِي عليها عمل، كما أن معنى الرسل في الجن ليس بالضرورة أن يكون كمعناه في الإنس، كما أن هذا الخبر لا يُؤخَذ بمعزلٍ عن الأخبار الأخرى، ومنها: أن نفرًا من الجنِّ قد استمعوا للقرآن فقادهم هذا الاستماع إلى الإيمان، وهذه قرينةٌ أنّهم مُخاطَبُون بهذه الرسالة، والله أعلم.

﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ أصلٌ في أن الله لا يعاقب غافلًا لم تبلغه الدعوة الصحيحة، فلا عقوبة قبل إرسال الرسل وتبيين الشرائع؛ لأن هذه العقوبة ستكون عقوبة ظالمة، والله منزَّه عن الظلم، وعليه فلا معنى للجدل حول مصير الشعوب التي لا ندري أبَلَغتها الدعوة أم لا، ولو بَلَغتها فلا ندري هل الذي بلَّغهم كان عالمًا بها

وناصِحًا أمينًا أو لا؟ فالأَولَى الاهتمام بواجب الدعوة، وترك الأحكام الأخرويَّة التي لا يعلمها إلا الله.

﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ﴾ لأنه غنيٌّ، فهو ليس بحاجة إلى الظلم كحال المتنافسين على متاع الدنيا وزينتها، ولأنه ذو الرحمة فهو لا يحبُّ الظلم، ولا يرى فيه ما يراه الجبابرة من لذَّة السطوة والاستعلاء على الضعفاء والفقراء، وهاتان الصفتان الإلهيَّتان اقترنتا في هذا الموضع لتنفِيَا عن الله الظلم بكل أشكاله ودوافعه.

﴿قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَامِلٞۖ﴾ فيه وعيدٌ وتهديدٌ شديدٌ، كأنه يقول: اعمَلوا ما شئتم، وابقوا على ضلالكم وعنادكم وسوف تعلمون، وفيه أيضًا مقابلة العمل بالعمل؛ فأعمال الشرِّ والكيد للإسلام لا بدَّ أن يقابلها عملٌ يكافئها قوةً، ويخالفها منهجًا ﴿إِنِّي عَامِلٞۖ﴾ ولم يقل: إني داعٍ أو منتظرٍ لقدر الله وعقابه لكم، فالعمل مسؤوليَّة، ومن قَصَّر في العمل لم يُسعِفه القدر.

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ﴾ وهذا من جهلهم وظلمهم، فكيف يُعطَى للأوثان نصيبٌ من القرابين أنعامًا وثمارًا وهذه الأوثان ليس لها نصيبٌ في خلق هذه الأنعام، ولا هذه الزروع والأشجار؟! فالله وحده هو الذي ذرَأَها وخلقها وسخَّرَها لهذا الإنسان.

﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمۡ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمۡۗ﴾ فهم لم يكتفوا بالقسمة الظالمة الكافرة؛ بل كانوا يمِيلُون على نصيب الله فيأخذون منه، ويتساهلون فيه ما لا يأخذونه، أو يتساهلون فيه من نصيب الأوثان، وإذا اختلط هذا بهذا احتاطوا للأوثان أكثر، وهذا السلوك يذكره القرآن نموذجًا لحالة الجهل وانعدام الموازين في المجتمعات البشريَّة التي تتخلَّى عن الوحي.

﴿وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ وهو هدفٌ كبيرٌ من أهداف الباطل؛ إذ التديُّن فطرة مغروزة في النفوس لا يمكن اقتلاعه أو محوه؛ ولذلك كان التحريفُ والتلبيسُ أيسَر وأقرَب، وهذه معضلة بشريَّة عامَّة في مجال التصورات والسلوكيات الدينية.

﴿وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾ هو نوعٌ من الظلم مُلتبِسٌ باسم الدين، كما هو دَيدَن الكهنة والسدنة الذين يتحكَّمُون بالموارد الدينيَّة وببعض أموال الناس من حرثٍ ونَعَمٍ بلا حقٍّ ولا حُجَّة.

﴿وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ أي: حرَّمُوا على الناس ركوبها كجزءٍ من شهوة التحكم في أموال الناس وتصرفاتهم.

﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ﴾ الظاهر أنه الجَنين الذي يُخرج من بطن أمه بعد ذكاتها، فإن خرج حيًّا فهو للرجال خاصة، وإن خرج ميتًا فالرجال شركاء مع النساء! وهذا نموذجٌ للظلم الاجتماعي، الذي يتجاوَز في بعض الأحيان هذا التمييز الغذائي إلى التصفية الجسديَّة كما في الآية التالية.

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ﴾ المعروف في الجاهلية أنهم كانوا يئِدُون البنات خشيةَ الإملاق، أو خوفَ العار، لكن الآية تُشيرُ إلى قتلٍ آخر مُلتبِسٍ بالدين ﴿ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ﴾ وكأنهم يتقرَّبُون بهذا القتل إلى الله، وربما كان هذا في بعض النذور الآثمة، وفي حالات مخصوصة، كما في قصة عبد الله والد النبيِّ ﷺ، والله أعلم.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ (١٤١) وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ (١٤٢) ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٤٤) قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (١٤٥) وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ (١٤٦) فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ (١٤٧) سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ (١٤٨) قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ (١٤٩) قُلۡ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشۡهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشۡهَدۡ مَعَهُمۡۚ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ (١٥٠) ﴾

الشريعة السَّمحة

في مُقابل الخرافة التي تلُفُّ المجتمع الجاهلي في التصور والسلوك والمعتقد يُقدِّم القرآن الصورة الثانية، صورة المجتمع المؤمن الذي تحكمه شريعة الوحي، وفيها مُقارنة ومحاججة للتصوُّرات والمفاهيم الجاهلية:

أولًا: إن الذي خلق الحَرثَ والنَّعَم هو الله وحده ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ ﴾، ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾.

ثانيًا: إن الله خلق هذا كله للإنسان قُوتًا ومتعةً وزينةً ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾، ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾.

ثالثًا: إن الأصلَ في كل هذا الإباحة المطلقة، وأن التحريم مخصوصٌ بأدلةٍ ظاهرةٍ ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ﴾ وهذا التخصيص على قلَّتِه مخصوص بقواعد الضرورة ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

رابعًا: إن الذي حرَّمه الله على يهود إنها كان على سبيل العقوبة المحدودة زمانًا ومكانًا وحالًا، وليست تشريعًا خالدًا ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ ﴾، ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ﴾ فهذه عقوبات لا تصلح للتأسِّي ولا للقياس.

خامسًا: إن الذي يحرِّم على الناس غير ما حرَّمَه الله مُطالَب بالدليل، وإلا كان كاذبًا مفتريًا على الله ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ﴾، ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ﴾ وهذه التأكيدات تبيِّن خطورةَ التحريم والتضييق على الناس بغير وجه حق، وهذا من تمامِ سماحة هذه الشريعة ومنهجها المنبثق من رحمة الله العامة الشاملة.

سادسًا: إن مقابل هذه النعم هناك حقٌّ يؤدِّيه المُوسِرُون للمُعسِرين، والمتنعِّمون للمحرُومِين محبةً ورحمةً وتكافلًا يتقرَّبُ به العبدُ من معبُوده، ثم من قلب أخيه ﴿وَءَاتُوا۟

حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ﴾ لأن الإسراف مُضِرٌّ بالنفس، ومُضِرٌّ بالثروة العامة، ومُضِرٌّ بعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان، فالإسراف المبالَغ به رياءً وكبرًا وتميُّزًا مع وجود الجَوعَى والمحرومين يضرُّ بالبنية التركيبيَّة للمجتمع، ويُثِيرُ الحسدَ والنفرةَ والأعمال السيئة؛ كالسرقة والرشوة ونحوهما.

يلاحظ هنا أن القرآن لم يعرِض للعلاقة بين الجن والإنس مع أنه أثارها في المشهد السابق حينما تكلَّم عن عمَهِ المجتمع الجاهلي وضلاله، أما في المجتمع الإسلامي فالأصلُ أن لا علاقة، فالجنُّ عالمٌ غيبيٌّ نؤمِنُ بخبر الوحي فيه، ولسنا مُكلَّفين تجاههم بأيِّ تكليفٍ، أما مسألة الوأد وقتل الأولاد فقد ردَّها القرآن في موضعها، وبيَّن زيفها وبطلانها.

دقائق التفسير

﴿مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ ﴾ الشجر منه ما يصلح أن يكون على هيئة العريش فيوفِّر ظلالًا واسعةً؛ كشجرة الكرم، ومنه ما لا يصلح لهذا، والناس في العادة لا يحتاجون إلى أكثر من عريشٍ واحدٍ في البستان، والآية تُنبِّه إلى فائدة جانبية لبعض الأشجار غير الثمر، وهي الظلال الجميلة، وما يكون تحتها من أُنس وراحة وصلة.

﴿مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍۚ ﴾ منظره العام متقارب خُضرةً وظلالًا، وأما ثماره فمختلفة الطعم والشكل والرائحة.

﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦۖ ﴾ الحقُّ: الزكاة، وكلُّ صدقةٍ واجبة كالنذر والنفقة اللازمة، وفيه معنى المبادرة والمسارعة في الخيرات.

﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ۚ ﴾ أي: في الأكل، والإسرافُ: مُجاوزةُ الحدِّ في الاستِهلاك، وفيه مِن الضَّرر ما فيه، كما تقدَّم.

﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ ذكر ثلاث فوائد للأنعام؛ الحمولة كالإبل والخيل والبغال والحمير وكلّ حيوان معدٌّ للحمل ونقل المتاع، والفرش ما يتخذه الناس للجلوس والنوم من الوبر والصوف والشعر، والأكل وهو شامل للحم واللبن، والله أعلم.

﴿دَمٗا مَّسۡفُوحًا﴾ هو الدم الخارج من الذبيحة بخلاف الدم المتبقي في عروق اللحم.

﴿لَحۡمَ خِنزِيرٖ﴾ أطلق اللحم وأراد كلَّ ما يتصل به من شحمٍ وعظمٍ وكبدٍ وغضروفٍ، فكل هذا حرام أكله.

﴿أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ﴾ هي النذور والقرابين المقدمة لغير الله، سواء قدمت لصنمٍ أو نصبٍ أو قبرٍ، وما إلى ذلك.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ﴾ في هذه الآية ذكر ما حرَّمَه الله على اليهود من الأنعام عقوبة لهم، فهو ليس من شريعتنا قطعًا، فلا حاجةَ للخوض في تفاصيل معانيها وأحكامها.

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا﴾ هو نوعٌ من الاحتجاج بالقدر، وهو احتجاجٌ باطلٌ، فالحجة للأمر والنهي، وأما القدر فنؤمن به ولا نحتج به، نؤمن به مع إيماننا المطلق بحكمته ورحمته وعدله وتنزهه سبحانه عن الظلم.

﴿تَخۡرُصُونَ﴾ تحزرون وتخمنون بلا دليل.

المجلس الثاني والستون | سورة الأنعام | من الآية ١٥١ - ١٦٥

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣) ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (١٥٤) وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥) أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (١٥٦) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ (١٥٧) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٥٨) إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (١٥٩) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦٠) قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١٦٤) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٥) ﴾

وصايا عشرٌ وتوجيهات ختامية

في خواتيم هذه السورة جاءت التوجيهات الربانيَّة لتلخِّص الصورة التي ينبغي أن تكون عليها الأمة المسلمة مُستهديةً بالوحي، ومستفيدةً من تجارب الأسبقِين، وقد تصدَّرت هذه التوجيهات عشر وصايا وهي:

أولًا: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ التوحيد.

ثانيًا: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ بر الوالدين.

ثالثًا: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا أَوْلَٰدَكُم﴾ الحفاظ على حياة الأولاد.

رابعًا: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ النهي عن الزنا ومقدماته.

خامسًا: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ الحفاظ على حياة الناس.

سادسًا: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ الحفاظ على أموال اليتامى.

سابعًا: ﴿وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ العدل وحفظ أموال الناس وحقوقهم.

ثامنًا: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ أمانة القول وعدالة الحكم والشهادة.

تاسعًا: ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا﴾ الوفاء بالعهد.

عاشرًا: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ الوحدة والثبات على الطريق المستقيم.

وجاءت تسميتها بالوصايا لتكرار كلمة: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ مما يشعر بأهميتها وخطورتها في حياة المسلمين.

ومما يُثار هنا مدى صلة هذه الوصايا بالوصايا التوراتيَّة العشر المقدَّسة عند اليهود إلى اليوم، وبنظرة علميَّة موضوعيَّة يمكن تسجيل الملاحظات الآتية:

أولًا: هناك تشابهٌ وتقاربٌ كبير بين المنظومَتَين، فكلاهما تركزان على التوحيد والأخلاق وبر الوالدين، والعدل والحفاظ على حقوق الناس وأموالهم.

ثانيًا: لا مانع أن تكون هذه الوصايا مما بقِيَ على حاله في التوراة دون تحريف، فنورُ الوحي فيها ظاهر، واتِّساقها مع وصايا القرآن شاهِدٌ على ذلك.

ثالثًا: التشابه بين الكتب السماويَّة أصلٌ بحكم وحدانيَّة مصدرها ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ [الشورى: ١٣]، وهذه الوصايا مثالٌ واضح لتجسيد هذه الحقيقة.

رابعًا: إن سورة الأنعام نفسها قد عقَّبَت مباشرةً بعد سرد الوصايا العشر بالقول: ﴿ثُمَّ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ﴾ ثم وصَفَت القرآن بهذه الأوصاف أيضًا ﴿فَقَدۡ جَآءَكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞۚ﴾ وفي هذا إشارات لا تخفى عن مدى التشابه بين الكتابَين بشكلٍ عام، وفي هذه الوصايا بالذات بدلالة السياق، والله أعلم.

بعد هذه الوصايا العشر جاء التأكيد لعددٍ من الحقائق الإيمانيَّة والتاريخيَّة والتي تتَّجِهُ كلُّها لبناء شخصية الأمة وتمييز هويتها:

أولًا: إن البشر كلهم سائِرُون إلى مصيرهم المحتوم، فالدنيا إلى زوال، وهناك يفوز المؤمنون بإيمانهم، ويبُوءُ الكافرون بعاقِبَةِ كفرهم وظلمهم ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ﴾.

ثانيًا: إن دين الله واحد في أصله وجوهره وغايته، وإنما جاءت التفرِقَة بالتحريف والتحزُّبِ واتِّباع الهوى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ﴾، ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

ثالثًا: إن ميزانَ الحساب واحدٌ بين جميع البشر: العدل والفضل ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾، ﴿وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾.

رابعًا: إن التفاوت في الرزق وغيره على هذه الأرض لا ينافي العدل؛ لأن هذه الأرض دار اختبارٍ لا دار جزاءٍ، والله يبلُو هذا بذاك وذاك بهذا، الغني بالفقير، والفقير بالغني، والقوي بالضعيف، والضعيف بالقوي، وهكذا ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾.

خامسًا: إن المسلم موصول بالله في كلِّ حركاته وسكناته، وخلواته وجلواته ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾.

سادسًا: إن التوحيد هو أساس الدين، وأساس كلِّ خيرٍ، وهو الذي يحقق الانسجام بين الإنسان وفطرته من الداخل، وبينه وبين هذا الكون الفسيح أيضًا ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

دقائق التفسير

﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ شاملًا لكلِّ معاني البرِّ، من قولٍ وعملٍ ونيَّةٍ ورعايةٍ ومتابعةٍ ومبادرةٍ، مع كامل المودة، وكبير الاحترام.

﴿مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ هو الجوع الواقع الذي يجعل بعض النفوس الضعيفة تُضحِّي بأولادها للتخفيف من وطأته وشدته.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ القبائح المنكرة، وأكثر استعمال الفاحشة في الزنا، وقال: لا تقرَبُوا؛ تنبيهًا إلى ترك كلِّ ما يُفضي أو يؤدِّي إليه؛ من نظرةٍ، وكلمةٍ، وخلوةٍ، وملامسةٍ، وخضوعٍ في القول أو الفعل.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ كلُّ نفسٍ مؤمنةٍ أو كافرةٍ، فحياة الإنسان مُصانةٌ إلا في ميدان القتال، أو ساحة القضاء، والأول للإمام أو نائبه، والثاني للقاضي بشروطه وأدلته، وهذا كله مفصَّل في مظانِّه من كتب الفقه.

﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ أي: ما فيه مصلحة اليتيم من بيعٍ أو شراءٍ أو نفقةٍ، والأصل تحريم التصرُّف فيه، والقُرب منه.

﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ نصٌّ في الأموال المكيلة والموزونة، ويُقاسُ عليها المعدود ونحوه، وإشارة في كلِّ حقٍّ ماديٍّ أو معنويٍّ.

﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ﴾ أصلٌ في الحكم والشهادة، ويقاس عليها كلُّ قولٍ بين اثنين أو رأيين أو خبرَين، وهكذا.

﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ دلالته أن الابتِعاد عن الصراط المستقيم يؤدِّي بالضرورة إلى التفرُّق والاختلاف.

﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ﴾ أي: أنه كتابٌ كامِلُ الهداية يدعو لكلِّ فضيلةٍ وخيرٍ، وينهى عن كلِّ رذيلةٍ وشرٍّ، وهذا الإتمام مناسب للمُحسِنين الراغبين في الهداية، والباحثين عن الحقِّ، فهو كافِيهم هدًى وحكمةً ونورًا في كلِّ ما يحتاجون إليه من عقائد وشرائع.

﴿يَصۡدِفُونَ عَنۡ ءَايَٰتِنَا﴾ يعرضون عنها.

﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ﴾ إشارةٌ إلى قرب القيامة وشرائطها وأهوالها، وما ينتظر الناس بعدها من حسابٍ وثوابٍ وعقابٍ، وأنَّ ﴿يَأۡتِيَ رَبُّكَ﴾ هو خبرٌ حاصل على ما يليق به من غير نقصٍ ولا تشبيهٍ ولا زوالٍ، أما مجيء المخلوق فهو لحاجةٍ؛ إذ لا يمكنه التصرُّف في مكانَين إلا بالانتقال من أحدهما إلى الآخر.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعًا﴾ تفريق الدين غير الاجتهاد في فهم الدين، فالأول يكون بهدم أصوله وثوابته وأحكامه القطعية؛ وبذلك يتفرَّق الناس على أديان مختلفة ومتناقضة، والثاني يكون بإعمال العقل في استنباط الأحكام الدقيقة والمعاني اللطيفة، فتتعدَّد المدارس والمذاهب في تعدديَّةٍ ثريَّة وحيويَّة، وهذا ما عرَفَتْه الأمةُ أيام أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وغيرهم من أهل الفقه والحديث والتفسير واللغة والتاريخ.

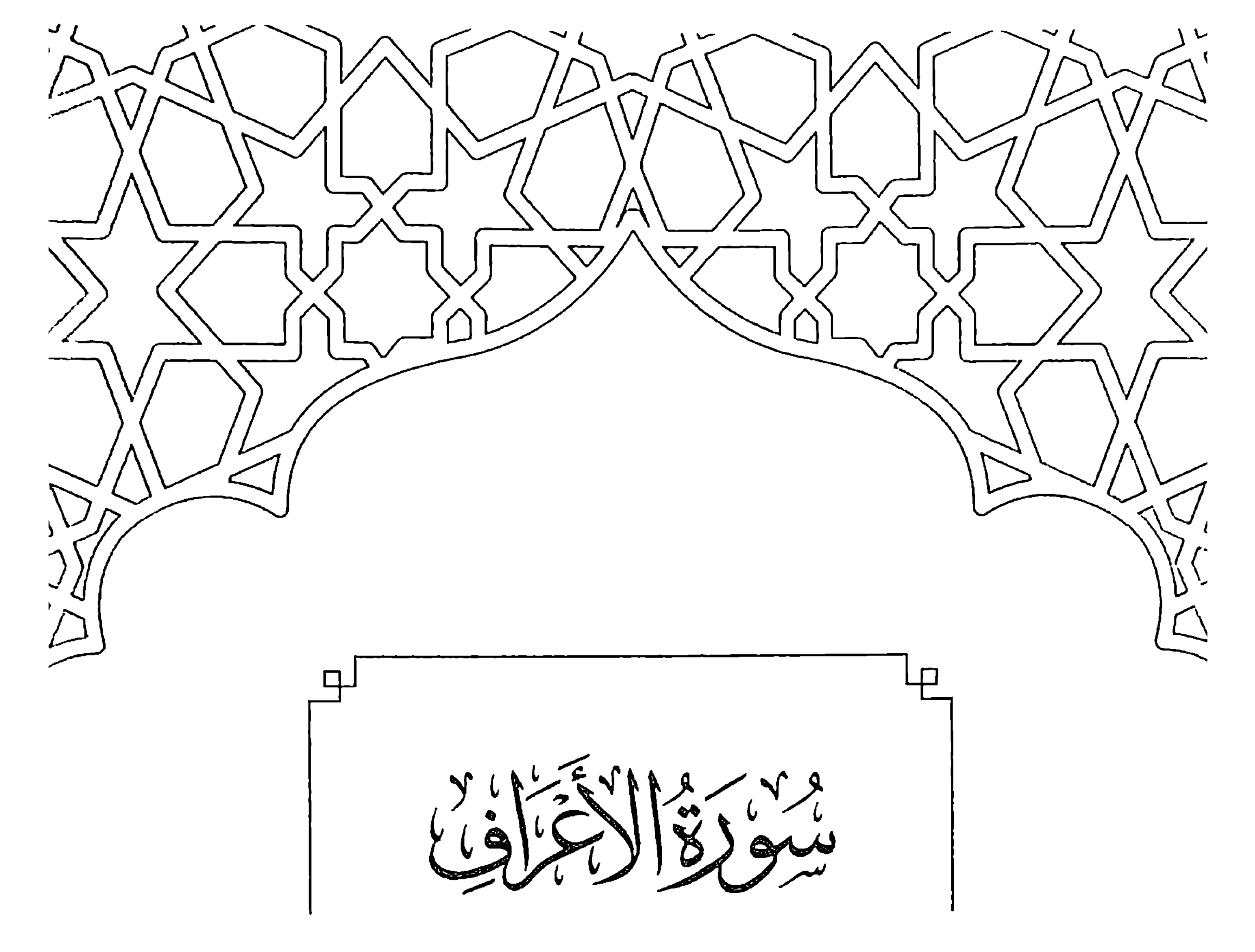
﴿دِينًا قِيَمًا﴾ فيه معنى الثبات والاعتدال من القيام اللازم، أو بمعنى القيام بشؤون الناس، والإجابة عن أسئلتهم واحتياجاتهم الدينيَّة تمامًا من غير نقصٍ، وبيانًا من غير إبهامٍ، وكلُّ هذه المعاني صحيحة ويحتملها اللفظ، والله أعلم.

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فيه ردٌّ على من فَصَلَ بين شؤون العبادة وأمور الحياة، فالمسلمُ خاضعٌ لله مُتَّصِلٌ به في كلِّ شؤونه الحياتيَّة والدينيَّة، الفرديَّة والجماعيَّة، الدنيويَّة والأُخرويَّة.

﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ من هذه الأمة بعد فترة الرسل؛ حيث جاء ﷺ ليؤسِّس الأمة الجديدة على هذه الأرض، وإن كان امتدادها الديني مُتَّصِلًا بإبراهيم وبنوح وبآدم ﷺ.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: لا تحمل نفسٌ ذنبَ غيرها، بل كلٌّ يحمل ذنبه.

﴿خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ جيلًا بعد جيل.



سورة الأعراف

المجلس الثالث والستون: درس الحياة الأول

المجلس الرابع والستون: يا بني آدم .. خطاب الإنسانيَّة والفطرة

المجلس الخامس والستون: حوارات في دار الجزاء

المجلس السادس والستون: دعوة المرسلين من محمد إلى نوح عليهما السلام

المجلس السابع والستون: هود وصالح عليهما السلام

المجلس الثامن والستون: لوط وشعيب عليهما السلام

المجلس التاسع والستون: النبوة في مواجهة السحر

المجلس السبعون: الصراع المفتوح مع فرعون وملئه

المجلس الحادي والسبعون: قيادة موسى عليه السلام لقومه بعد هلاك فرعون

المجلس الثاني والسبعون: الخطاب القرآني لليهود

المجلس الثالث والسبعون: سبيل الهداية وأسباب الضلال

المجلس الرابع والسبعون: تلخيص وتوجيهات ختاميَّة

المجلس الثالث والستون

سورة الأعراف

من الآية ﴿١ - ٢٥﴾

﴿الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾

درس الحياة الأول

تناولت سورة الأعراف قصة الخلق الأولى والنموذج الأول لصراع الحقِّ والباطل؛ حيث كان آدم وحواء يواجهان إبليس في تجربة فريدة قُدِّر لها أن تؤسِّس لخط المعركة الممتدة بين الفريقَين من تلك الساعة حتى قيام الساعة.

وقد مهَّدت سورة الأعراف بجملةٍ من الحقائق والمبادئ قبل الدخول في جوهر القصَّة:

أولًا: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾ هذا الاستهلال يُوحي بأهمية القصة، ويُلقي في النفس الطمأنينة التامة بصدقها وثبوتها، كما هو الشأن في كلِّ خبرٍ أو توجيهٍ يرِدُ في هذا الكتاب العزيز، فليس في هذا القرآن إلا الصدق والعدل والحق.

ثانيًا: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾ وهي الخطوة التالية للتصديق، فالعبرة دائمًا لا تقف عند التصديق والتوثيق، بل لا بُدَّ من العمل وإلزام النفس بمقتضى ذلك التصديق.

والإشارة هنا أن آدم وزوجه قد أُخرجا من الجنة؛ لأنهما لم يقرِنا الإيمان بالعمل، ولا التصديق بالاتِّباع؛ حيث أكَلَا من الشجرة التي نُهِيَا عن الأكل منها.

ثالثًا: ﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ٤ فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ تحذيرٌ ووعيدٌ لمن أخلَّ بواحدةٍ من المقدِّمتَين المتلازمتَين؛ الإيمان والعمل، أو التصديق والاتباع، فمن كذَّب بالحقِّ فقد ظلم، ومن حادَ عنه بعلمٍ فقد ظلم؛ وكلاهما مستوجب الهلاك، والعياذ بالله.

رابعًا: ﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ﴾ العدل في الحساب والجزاء، وهذه هي النتيجة النهائية لسلوك الإنسان على هذه الأرض، فآدم وذريته أجمعون قد خُلقوا لهذا الاختبار والامتحان ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ﴾[1] وبعد ختم الأجل وغلق السجلِّ ينتظر الناس نتائج أعمالهم: ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٨ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾.

---

(١) تكرَّر هذا النصُّ الكريم في كتاب الله مرتين: سورة هود/ ٧، وسورة الملك/ ٢.

بعد هذه المقدِّمات يعرض القرآن لقصَّة الخلق الأولى، والدرس الأول الذي يؤصِّل لمصير البشر وانقسامهم الكلِّي، وطبيعة الصراع الدائر بين المعسكَرين؛ معسكر الإيمان والعلم والعمل الصالح، ومعسكر الكفر والجهل والعمل الظالم الآثم، ويمكن تلخيص هذه القصة والمعاني المستنبطة منها في الآتي:

أولًا: أن الخلق لله والأمر له أيضًا، فالذي يخلق هو الذي يأمر، وهذه قاعدةٌ متينةٌ في التصور الإسلامي، والتي ينبني عليها الربط بين الإيمان والعمل، وبين توحيد الربوبيَّة وتوحيد الألوهيَّة ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾.

وأمرُ الملائكة بالسجود استتبعه أمر آدم وحواء بالابتعاد عن الشجرة، وأمر الله لخلقه من إنسٍ وجانٍّ وملائكةٍ إنما كان بحكم أنه هو الذي خلقهم ومَنَّ عليهم بالوجود الذي هو أصلٌ لكلِّ نعمة.

ثانيًا: أن المأمورين بالسجود قد انقسموا؛ فمنهم من أطاع وهم الملائكة، ومنهم من عصى وهو إبليس ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ وهذه إشارة لما سيكون عليه الناس بعد أن يأتيهم الوحي ويتنزَّل عليهم الأمر.

ثالثًا: أن المعصية قد لا يكون سببها الكفر أو الجهل، فالنفس بحاجةٍ إلى قوَّةٍ ذاتيةٍ لتنفيذ ما اقتنعت به من حقوقٍ وحقائق؛ إذ قد يَحُول بينها وبين التنفيذ عوائق الشهوة والكبر والحسد، وما إلى ذلك.

ومن هنا تأتي أهمية التزكية مع العلم، لترويض النفس على قبول الحقِّ ولو كان بخلاف ما تشتهي، وهذا الذي أوقع إبليس في المعصية مع علمه ومعرفته اليقينيَّة بالحقِّ والحقيقة ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾.

رابعًا: أما معصية آدم وحواء فكانت درسًا قدريًا لذرِّيتهما إلى قيام الساعة أن أخطر ما يدفع الإنسان نحو المعصية إنما هو تزيينها وتسميتها بغير اسمها حتى يخادع الإنسان نفسه، ويغمض عينه ويتوهَّمها بصورة ثانية غير التي حرَّمها الله، وفي أعماق النفس شهوةٌ خفيَّةٌ للذَّةٍ عابرةٍ، أو مصلحةٍ زائلةٍ ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾.

والإشارةُ هنا جليَّةٌ لمدى حبِّ الإنسان للملك وخوفه من الموت، وهذان يعيشان مع الإنسان ما دام فيه نفس، إلا من رَحِمَ ربُّك.

خامسًا: أنَّ المعصية تَنزِع عن الإنسان لباسَ التقوى الذي يجمِّله هيبةً ووقارًا، فيتبدَّل من حالٍ إلى حالٍ، يقسُو قلبه، وتغلظ طباعُه، ويقِلُّ حياؤه.

هذا هو شأن العصاة الذين تنكسِر هيبة الله في قلوبهم فتضيع هيبتهم، ويهتِكُون ما بينهم وبين خالقهم فيهتِك الله ما بينهم وبين الخلق، وقد كانت الصورة الحسِّيَّة في ذلك الدرس والتي تعبِّر عن كلِّ هذه المعاني أن الله نزَعَ عنهما ما كان يُواري سوءاتهما فور اقترافهما للإثم وأكلهما من الشجرة ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾.

سادسًا: أنَّ المعصية ليست نهاية المطاف، فرُبَّ معصيةٍ أورَثَت ذلًّا وانكسارًا وتوبةً؛ فأفلَحَ بها صاحِبُها ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ وصورة آدم وزوجه وهما يُبادِرَان إلى ورق الجنَّة ليستُرَا به سوءاتهما دليلٌ عمليٌّ على الندم والحياء، وهما من شروط التوبة، على خلاف معصية إبليس؛ حيث ابتَعَدَ بها أكثر عن كلِّ معنًى من معاني الحياء والأدب ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ فنسب الغواية إلى الله، ثم أخذ يتوعَّد مَن أمره الله بالسجود له أن يعمل على إيقاعه في أنواع المعصية ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾!

اللهم فلك الحمد ولك الشكر رغم أنفِ إبليس وما توعَّد به.

سابعًا: أن المعصية الناتجة عن كبرٍ واستعلاءٍ باطلٍ وإعجابٍ بالنفس لا تؤول في الغالب إلى الندم والتوبة، بخلاف المعصية الناتجة عن غفلةٍ أو شهوةٍ طارئةٍ، أو تضاليلٍ وخداعٍ، فالأولى هي معصية إبليس، والثانية هي معصية آدم وزوجه.

ثامنًا: أن العداء بين آدم وذريَّته من ناحيةٍ، وبين إبليس وذريَّته من ناحيةٍ أخرى مُستمرٌّ على هذه الأرض إلى قيام الساعة، وهي معركة الوسوسة والتضليل وتزيين الباطل.

وهذا هو الدرسُ الذي كان الإنسان بحاجةٍ إليه ليعرف طبيعةَ الاختبار الذي كتَبَه الله عليه في هذه الحياة ﴿ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾.

دقائق التفسير

﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ﴾ الحرج: الضيق، ويشمل كلَّ ما يدعو الإنسان للتردُّد والشعور بالثِّقَل، كالشكِّ، وخوف العاقبة، وشدة المعارضة، ونحو ذلك مما يُواجِهُه كلُّ دعاة التغيير والإصلاح في كلِّ زمان وفي كلِّ مكان.

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ صِيغة التكثير، بمعنى: أنَّ كثيرًا من القرى قد استحقَّت الهلاك بظلمها وإعراضها عن سبيل الحقِّ.

﴿بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ يأتِيهم الهلاك في أوقات لَهوهم وراحتهم، في غسق الليل، أو قيلولة الظهيرة.

﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ يسأل الله الأقوام الذين امتنَّ عليهم برسالاته عن مدى استجابتهم لها وقيامهم بحقِّها، ويسأل المرسلين عن حال هؤلاء الناس ليشهدوا عليهم شهادة الحقِّ في يوم الحقِّ عند الملك الحقِّ ﷻ.

﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ بعد استجواب الأقوام، ثم استنطاق الرسل للشهادة، يحكم الله بما يعلمه فيهم، وبما هو مُدوَّن في كتاب كلِّ واحدٍ منهم من كبير أعمالهم وصغيرها، حتى مثقال الذرَّة من خيرٍ أو شرٍّ.

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ بالحسنات.

﴿خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ﴾ إفراد التصوير عن الخلق فيه تنبيهٌ إلى دقَّة خلق الله وعنايته بهذا الإنسان، حتى كان بأجمل صورةٍ، وأحسن هيئةٍ.

﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ ﴾ دليلٌ على أنه كان مأمورًا بالسجود معهم وإن لم يكن منهم.

﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ حجَّةٌ ربما كانت أقبَح من الذنب نفسه، وهي طريقةُ المتكبِّرين في تبرير أخطائهم؛ حيث يصعُب عليهم الاعترافُ بالزَّلَل والشَّطَط مهما كان جُرمه، ومهما كانت عاقبتُه.

﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ الصَّغارُ: الذلُّ والمهانة، وهو العقوبة الأنسَب للمتكبِّرين.

﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾ أي: من المؤخَّرين إلى قيام الساعة؛ تحقيقًا لمعنى الاختبار والصراع الدائم بين معسكر الخير ومعسكر الشر.

﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: لأمنعنَّهم عنه، ولأغرينَّهم بغيره يمينًا وشمالًا؛ ليكون مصيرُهم مع المغضوب عليهم عنادًا وتكبُّرًا، أو مع الضالِّين الجاهلين الذين شغَلَتهم الدنيا عن طلب العلم ومعرفة الحق.

﴿ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ﴾ تنبيهٌ إلى تنوُّع مداخل الشيطان بالشبهة والشهوة والغفلة ونحوها، ومتابعته لابن آدم في كلِّ أحواله صحته ومرضه، غِناه وفقره، خلوته وجلوته، وهكذا، وليس المقصود بذلك الأمكنة والجهات المحسوسة، والله أعلم.

﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ تنبيهٌ إلى أهميَّة الشكر، وإشارةٌ إلى أن سلوك طريق الحقِّ عقيدةً وشريعةً وخلقًا إنما هو لتحقيق معنى الشكر؛ ولذا قال في آية أخرى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾ المذءُوم هو المَعِيب الذي غطَّاه عيبُه، والمدحُور هو المطرود المُبعَد.

﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ كأنه كان عارفًا أنهما إن أكَلَا من هذه الشجرة المحرَّمة نُزِعَ عنهما سترهما ولباسهما، وغاية إبليس إحراجهما وإهانتهما حسدًا على ما أنعم الله به عليهما من نعمةٍ وكرامةٍ.

﴿ وَقَاسَمَهُمَآ﴾ من القسَم، وهو اليمين والحلِف.

﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ هذه من أخبار الغيب التي لا يصلح معها اجتهاد، والخوضُ فيما هي عليه في عالم الغيب مجازفة لا تُوصِل إلى علمٍ، ولا تقود إلى نفعٍ، فنوعُ الشجرة وعلاقتها بانكشاف العورة والورق الذي استعملاه في الخصف، كلُّ هذه غيُوب لا نُدرِك كُنهَها، أما العبرة منها فظاهرةٌ ولا تخفَى على متدبِّر.

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ تحمُّل المسؤوليَّة، والاعتراف بالخطأ، وعدم التشبُّث بالأعذار القَدَرية، هذه علامات النجاح، وشرائط التوبة الصادقة.

﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ استقرارٌ نسبيٌّ ومؤقَّتٌ بقدر ما يتحقق الاختبار، ويتمايز المصلح عن المفسد.

﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ إشارة إلى أن الأرض هذه باقية حتى يبعث ما في بطنها من أموات، وأن الدمار الذي يلحقها عند قيام الساعة هو دمارٌ نسبيٌّ، وليس الفناء التام، والله أعلم.

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٢٨ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ٢٩ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ٣٠ ۞يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣٢ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٣ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٣٤ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٥ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٦ ﴾

يا بني آدم .. خطابُ الإنسانية والفطرة

بعد قصة آدم وما دار بينه وبين عدوِّه قبل أن يهبطوا على هذه الأرض، جاء الخطاب القرآني:

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ وهو الخطاب المتكرر والخالد والمباشر لكلِّ آدميٍّ يعيش على هذه الأرض حتى قيام الساعة، وقد تضمَّن الخطاب جملةً من الوصايا والتوجيهات القريبة من وقائع القصة وأجوائها والدروس المستفادة منها:

أولًا: أن ستر الجسد باللباس الكاسي وحسن التجمُّل والتزيُّن به هو من مظاهر الفطرة البشرية، ومن ثَمَّ جاء الخطاب عامًّا لكلّ بني آدم ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ ﴾، ولأهمية هذه الفطرة في حفظ كرامة الإنسان والمحافظة على نمط سلوكه العام استهدفها عدو الآدميين الأول ﴿ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا ﴾.

وليس أدلَّ على أن هذه فطرةٌ بشريةٌ عامة من توافق البشر على اختلاف أجناسهم وأديانهم على عدم مواجهة بعضهم بعضًا إلا بنوعٍ من اللباس يطولُ أو يقصُر، فالعُريُ شاذٌّ ونشازٌ، ولا وجود له في بيئة الآدميِّين، وهذا التوافق توافقٌ فطريٌّ؛ إذ لا يوجَد ما يُلزِم كلَّ البشر به إلا فِطرهم.

ثانيًا: أن اللباس الذي يستر العورة هو أيضًا علامةٌ على الحشمة والاحترام والنزاهة عن أسباب الفسق والفجور، ومن هنا جاء قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ ﴾ مباشرةً بعد قوله: ﴿يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾.

ومن ثَمَّ فكلُّ مجتمعٍ ينزع عنه ثوب الحياء، فإنه سيكون أقرب للفاحشة، وانتهاك الأعراض، واختلاط الأنساب، بينما عقَّب بالتقوى وهي الاسم الجامع للطاعات ولكلِّ أعمال الخير على اللباس وستر الجسد ﴿لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ﴾ وهكذا يربط القرآن بين المظهر والمخبر، والروح والجسد، فأحكام الشريعة كلُّها تتكامل وتتناسق لصياغة الشخصية المتوازنة والمجتمع السليم.

ثالثًا: أن الحياء والستر والاحتشام علاماتٌ للنجاة والفوز بسعادة الدارَين، والعكس بالعكس، ولذا أكَّد القرآن صلة نزع اللباس بالخروج من الجنَّة: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾.

والخطاب لبني آدم وهم لم يحضروا تلك القصة أصلًا فيه تحذيرٌ لا يخفَى أن من نزع ثوب الحياء في الدنيا لا يكون جديرًا بدخول الجنة في الآخرة، والله أعلم.

رابعًا: أن الزينةَ أمرٌ مُحبَّبٌ شرعًا وهو مكمِّلٌ للفِطرة أيضًا ﴿۞يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾، ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ﴾ وعطف الريش على اللباس فيه إضافة التزيُّن برقيق الثياب، وجميل ألوانها استعارة من ريش الطيور المزيَّنة بألوانها المُتناسِقة الباهية.

ثم أكّد هذا المعنى بأسلوبٍ استنكاريٍّ على من توهَّم أن التديُّن يقتَضِي إهمال الزينة ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾.

خامسًا: أن زينة اللباس مثلها مثل طيبات الرزق، فهي كلُّها نِعَم يسَّرَها الله لهذا الإنسان. فالتزيُّن والتطيُّب والتنعُّم كلُّ ذلك مُتاحٌ ومرغَّبٌ فيه، وهو من تمام شكره تعالى، فنِعمة المنعم الكريم لا تُردُّ ولا يُزهَد فيها، وقد امتنَّ الله على عباده بهذه النعم وذكرها في كتابه، فكيف يصح بعد هذا التنكُّر لها، أو الترفُّع عنها؟

إن العبوديَّة الحقَّة أن تقبل هديَّة الله إليك، ثم لا تستعملها إلا بما أوصاك به: ﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ﴾.

سادسًا: أن منهج الإسلام في التحريم يقوم على دفع المفاسد بكلِّ أنواعها، وليس التحجير على الخلق، والتضييق في حياتهم وعلاقاتهم، وهذا هو التديُّن السليم ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

سابعًا: بعد هذا البيان وهذه الأسس العمليَّة الواضِحة والمُنسَجِمة مع فِطرة الإنسان وإمكانيَّاته، فإن الناس أحرارٌ في خياراتهم وهم يتحمَّلُون بعد ذلك كامل مسؤولياتهم ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٞ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

دقائق التفسير

﴿لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشٗاۖ﴾ ذكر الضروريَّ والتحسينيَّ، فالضروريُّ سَترُ السوءة، والتحسينيُّ ما يتفاوت فيه الناس من نعيم وزينة، والريش مأخوذٌ من ريش الطائر نعومةً في الملمس، وتنسيقًا في اللون، وجمالًا في الهيئة.

﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ قرَنَ زينة الجسد بزينة الروح؛ ليجمَع كمال الظاهر بكمال الباطن، والخير مطلق في كلِّ عملٍ وسلوكٍ حسنٍ، وأشار باللباس إلى معنى التقوى الشاملة والملازمة كملازمة الثوب للجسد، وكماله في الستر.

﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ مفاد هذا الإخبار مع أنه معلوم أن عداوة الشيطان لبني آدم إنما تعتَمِدُ الوسوسة وتزيين الباطل، وليس من قَبِيل العداوة التي يعرفها البشر فيما بينهم.

﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾ سببان للضلال؛ تقليد الآباء على ما هم عليه بلا تبيُّن ولا بصيرة، واتباع الأديان المحرَّفة الباطلة، والفتاوى الكاذبة المخالفة للنهج الرباني الصحيح.

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ﴾ كلُّ أمر الله يقوم على هذا، العدل في كلِّ شيء، وبين كلِّ الخصوم والفرقاء، وكلُّ ما خالف العدل فليس من أمر الله في شيء.

﴿وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ الاستقامةُ والوضوحُ في تنفيذ أمره ونَهيِه سبحانه، وإعمار مساجد الله بتعهُّدها وملازمتها «**وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالمَسَاجِدِ**»[1].

﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ تقليدًا لآبائهم، أو تقديسًا لأحبارهم ومراجعهم، ولولا هؤلاء وأولئك ما تمكَّن الشيطان من تزيين هذا الباطل حتى ظنَّ أهلُه بأنفسهم أنهم على الهداية.

﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ كما خلقكم أوَّل مرة من غير علمٍ منكم، ولا رأيٍ، ولا مشورةٍ، فكذلك تعودُون إلى حياتكم الثانية.

﴿۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ خاطَبَ المؤمنين المكلَّفين وحدهم بعمارة المساجد بـ ﴿۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾ إشارة إلى أن موضع الخطاب - وهو أخذ الزينة - لا يَخُصُّ المؤمنين دون

---

(١) جزءٌ من حديث متفق عليه عن أبي هريرة ﷺ، ينظر: صحيح البخاري (١/ ٢٣٤/ دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧ - ١٩٨٧م)، وصحيح مسلم (٣/ ٩٣/ دار الجيل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).

غيرهم، بل هي الفطرة البشريَّة العامة، وفيه ردٌّ على من زعَمَ أن المسجد مكانٌ للدين والآخرة بعيدًا عن الدنيا وزينتها ومتاعها.

﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ﴾ المبالغة في الأكل والشرب والتزيُّن يضُرُّ بالإنسان في روحه وجسده وماله، وفي علاقاته مع إخوانه أيضًا، فالمبالغة تعني الطبَقِيَّة البغيضة، والتقاطع والتحاسد، ومن ثَمَّ كان توفير الزائِد عن حدِّ الحاجة، والتنعُّم المقبول لاحتمالات المستقبل ولمساعدة المحتاجين والمعوزين أَولَى وأليَق.

﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ﴾ تأكيدٌ لمنهج الإسلام في الجمع بين الدنيا والآخرة، فالنعيمُ في الدنيا للذين آمنوا لا يمنعهم التديُّن عنه، ولا يمكن أن يكون حِكرًا على أهل الدنيا الغافلين عن آخرتهم، أما في الآخرة فإن النعيم خاصٌّ بالمؤمنين، فالإيمان وفق المنهج القرآني سببٌ للجَمع بين السعادَتَين الدنيوية والأخروية.

﴿وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ﴾ الأول ذاتيٌّ غير مُتعدٍّ؛ كشرب الخمر، والتهاون في الصوم والصلاة، والثاني مُتعدٍّ على حقوق الآخرين، فهو إثمٌ مركَّبٌ؛ لأنه معصيةٌ لله، وعدوانٌ على خلقه.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۖ﴾ أي: لكلِّ أمة مكذِّبة بالرسل مُهلة للتفكُّر والتراجع، وإعلان التوبة، ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةًۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾، وليس هذا عامًّا في كلِّ الأمم؛ لأن هلاكَ الأمم لا يكون بأجلٍ واحدٍ لكلِّ أفرادهم، فلكلِّ فردٍ أجله، إلا إذا حُمِل على معنى الدولة والسلطان، فلكلِّ دولةٍ نهايةٌ، فهذا حقٌّ من حيث هو، لكن السياق لا يقتَضِيه، والله أعلم.

﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾ يتلُونها عليكم تِباعًا آيةً بعد آية لتتفقَّهوا وتتدبَّروا، وفيه إشارة إلى تناسق الآيات وتسلسل معانيها، وانسجامها كما تتسلسل أحداث القصَّة الواحدة.

المجلس الخامس والستون

سورة الأعراف

من الآية ﴿٣٧ - ٥١﴾

﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله قالوا ضلوا عنا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ﴿٣٧﴾ قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا اداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون ﴿٣٨﴾ وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون ﴿٣٩﴾ إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط وكذلك نجزي المجرمين ﴿٤٠﴾ لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزي الظالمين ﴿٤١﴾ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفسا إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴿٤٢﴾ ونزعنا ما في صدورهم من غل تجري من تحتهم الأنهار وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴿٤٣﴾ ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا قالوا نعم فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين ﴿٤٤﴾ الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة كافرون ﴿٤٥﴾ وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون ﴿٤٦﴾ ۞ وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين ﴿٤٧﴾ ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون ﴿٤٨﴾ أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ﴿٤٩﴾ ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين ﴿٥٠﴾ الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون ﴿٥١﴾﴾

حوارات في دار الجزاء

في سورة الأعراف مشاهد مثيرة تشدُّ العقلَ والقلبَ والوجدانَ لا مثيل لها في كلِّ آيات القرآن، مشاهد من ذلك اليوم يوم القيامة، لكنها مشاهد مختلفة عن تلك التي يعرضها القرآن في غير هذه الآيات، هناك يتحدَّث القرآن عن الجنة ونعيمها، أو عن النار وعذابها، أما هنا فالمشاهد أشبَه بالمقاطع الصوتية التي تسجِّل حوارات مختلفةً بين مجموعاتٍ مختلفةٍ، وفي أماكن مختلفةٍ:

المشهد الأول: نداء الملائكة للميت في ساعة موته ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ هذا هو جوابُهم وشهادتهم على أنفسهم: ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾[1]، فيأتي القرار الحاسم والقضاء العادل: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ﴾.

المشهد الثاني: حوار مجموعتَين مختلفتَين من أهل النار ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ٣٨ وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ إنه تلاومٌ وتخاصمٌ، ورغبةٌ في الانتقام واستزادة العذاب لبعضهم البعض، وهو لا شكَّ تصوير للعذاب النفسي الذي يعيشُه أهل النار إضافةً إلى عذابهم الجسدي، أعاذنا الله من كلِّ ذلك.

المشهد الثالث: دعاء المؤمنين لبارئهم وشكرهم له أن وفَّقهم لطاعته، وأثابَهم بجنته ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

والظاهر من السياق: أنهم يدعون ربهم دعاءً واحدًا موحَّدًا كأنهم مُجتمعون في مكانٍ واحدٍ، وفي هذا أُنسٌ مُضاف إلى أُنسهم، ثم يجابون على دعائهم وشكرهم بما يمنحهم الشعور بثمرة العمل والجهد والجهاد الذي بذلُوه في هذه الحياة، وهذه لذَّة أخرى لا تسدُّ عنها لذَّة، ولا يعرفها إلا من ذاقَ ثمارَ غرسه، وحصل نتائج سهره وتعبه.

المشهد الرابع: حوارٌ بين أهل الجنة وأهل النار ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ صورة مكتملة، أهل الجنة يبدؤون بمخاطبة أهل النار ولومهم

---

(١) تكرَّر هذا النصُّ الكريم في كتاب الله مرتين: سورة الأنعام/ ١٣٠، وسورة الأعراف/ ٣٧.

وتقريعهم، فلا يملك أهل النار إلا أن يُقرُّوا بخسارتهم وهلاكهم، ثم يأتيهم صوتٌ آخرٌ لا من هؤلاء ولا من هؤلاء ﴿أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ليضيف على المشهد بُعدًا ثالثًا، وحركةً لافتةً، وكأنها جاءت لتذكِّرَ بوعد الله الحقِّ الذي كان أهل الإيمان يُحذِّرُون منه هؤلاء الكافرين الظالمين لَّما كانوا يعيشُون معًا على هذه الأرض.

وأخيرًا: ينسَى أهل النار عداوتهم للمؤمنين وما سبَّبُوه لهم من أذًى، ويبدؤون بمُناشَدَتهم أن يتصدَّقُوا عليهم ببعضِ ما أنعم الله به عليهم، فهم يعرِفونهم رغم عداوَتهم أنهم هم أهلُ الصدقة، وأهلُ الخير، وأهلُ الرحمة ﴿أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾، فيأتي الجوابُ حاسِمًا ومُؤلِمًا أن قوانين الآخرة ليست كقوانين الدنيا؛ ففي الدنيا كانت الأرزاق مشتركة، والمنافع متبادلة، والصدقة واردة، أما هنا فإن الله حرَّمَهما على الكافرين.

المشهد الخامس: أهلُ الأعراف يُحيُّون أهل الجنة ﴿وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ﴾ هؤلاء الذين نجَّاهم الله من النار، ثم لم يكن عندهم من العمل ما يرفعهم إلى مقام الجنة، إنهم هنا يؤدُّون دورًا جميلًا بالنسبة لأهل الجنة، يذكِّرونهم بتفوُّقهم الذي نالُوه بما كانوا يعملون، نعم، فقد كانوا يعمَلون أكثرَ من غيرهم، ويُضحُّون ويتحمَّلُون الشدائد والمصائب في سبيل دينهم ودعوتهم.

المشهد السادس: أهل الأعراف يُقرِّعون أهل النار، ويتعوَّذُون منهم ﴿۞ وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾.

دقائق التفسير

﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ باتخاذه شريكًا معه، أو بتحريف كتابه وتأويله على غير ما أنزل، أو التقول عليه تحليلًا وتحريمًا وإخبارًا بما لم يقُلْه.

﴿نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ﴾ ما قُدِّرَ لهم في علم الله جزاء أعمالهم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ﴾ الرسل هنا ملائكة الموت المكلَّفون بقبض الأرواح.

﴿ضَلُّواْ عَنَّا﴾ غابوا ولم يحضروا معنا في هذه الساعة التي كنَّا نظنُّ أنهم سيقِفُون معنا فيها.

﴿ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ﴾ ادخلوا النار مع جماعات مثلكم.

﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ﴾ تحسُّرًا وتضجُّرًا وتلاومًا.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ﴾ تلاحقوا واجتمعوا فيها.

﴿قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ﴾ أي: الأتباع للمتبوعين، وفيه أن قادة الكفر يدخلون النار قبل أتباعهم من غوغاء القوم وسفلتهم، فهو تأخرٌ في الشأن، وتأخرٌ في الوقت، والله أعلم.

﴿فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا﴾ أي: مُضاعفًا؛ لأنهم ضلُّوا وأضلُّوا.

﴿قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ﴾ استحقاقًا؛ لأنكم ضللتم وكفرتم، وكنتم عونًا لكبرائكم على الضلال والإضلال.

﴿فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ﴾ ليس لكم علينا مَيزة في كونكم أتباعًا؛ لأن التابع شريك المتبوع.

﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ فمكانهم السفل، لا يُقبل لهم دعاء، ولا يصعد لهم عمل.

﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾ حتى يدخل الجمل من الإبل في ثقب الإبرة، مَثَلٌ لاستحالة الأمر وتعذُّره.

﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ﴾ فِراشٌ وغطاءٌ، وغواشٌ من الغاشية التي تعلو البصر فلا تدعه يبصر، وهو هنا من اللهب والدخان المتصاعد، أعاذنا الله بلطفه ورحمته.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ الوُسع: الطاقة، إشارة إلى أن عملَ الجنةِ سهلٌ ميسورٌ على خلاف ما يظنُّه غلاة المتديِّنين، أو أولئك الذين فرُّوا من الدين لما أخذُوه عن التديُّن؛ من صعوبةٍ وضنكٍ وعقدةٍ وعزلةٍ، فليس في الدين

سوى ما ينسَجِم مع فطرة الخلق وحاجاتهم، وضمان سعادتهم.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ الغل: الحقد الذي يخرِّب الأخوَّة، ويقطِّع الأرحام، فأهلُ الجنة براءٌ من كل هذا، فلا يبقَى معهم ما كان بينهم في الدنيا، ولا يستجدُّ أيضًا، فليس في الجنة غير الودِّ والصفاء.

﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ليس فيه تعارُضٌ مع ما ورد في الحديث: «**لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الجَنَّةَ**»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**لَا، وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ**»(١) لأن العامل إنما يستحق الثواب برحمة الله، ولولا هذه الرحمة لما كان لهذا العمل قيمة؛ إذ ما جَدوَى العمل بالنسبة لله الغني الحميد؟

﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ﴾ نادى مُنادٍ، على جهة التنكير فلا فائدة عملية من معرفة عينه وجنسه.

﴿يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ هم الذين يحاربون الحق ويحاولون لَيَّه عن طريقه المستقيم ليوائِمَ أهواءهم وشهواتهم.

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ أي: بين الفريقين؛ أهل الجنَّة وأهل النار، فلا يصِلُ أحدٌ من أهل النار إلى الجنة إلا بإذنه سبحانه، كما لا يصِلُ أحدٌ من أهل الجنة إلى النار.

﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ العُرْفُ المكان المرتفع، وهؤلاء قومٌ ليسوا من أهل الجنة وليسوا من أهل النار لكنَّهم مشرفون عليهما، ليس من باب الرفعة والشرف كما توهَّم بعض المفسِّرين؛ لأن قوله تعالى فيهم: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ دليلٌ على أنهم دون أهل الجنة مكانةً وتنعُّمًا وقُربًا من المولى الجليل، وطمعهم في الجنة لم يردَّه الله عليهم، وهذا مُؤذِنٌ بتحقُّقه ولو بعد حين، والله أعلم.

﴿يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَٰهُمْ﴾ يعرفون أهل النار بوجوههم المعذَّبة الكالحِة، ويعرفون أهل الجنَّة

---

(١) متفقٌ عليه من حديث أبي هريرة وعائشة رضي الله عنهما مع اختلافٍ في الألفاظ، وقد تكرَّرَت رواياتُ الحديث في كلا الصحيحين، ينظر: صحيح البخاري (٥/ ٢١٤٧/ دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧- ١٩٨٧م)، وصحيح مسلم (٨/ ١٣٩/ دار الجيل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).

بوجوههم النيِّرة، وثيابهم وحليِّهم.

﴿ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ عرضًا لا قصدًا؛ لأنهم لا يُريدون أن يروهم.

﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ هو من قول أهل الأعراف لمن يعرفونهم من أهل النار: أهؤلاء المستضعفون الذين كنتم تتكبَّرون عليهم، وترون أنهم لا يستحقون الخيرَ لا في الدنيا ولا في الآخرة، انظُروا كيف فضَّلَهم الله عليكم، وأدخَلَهم الجنة بلا خوفٍ ولا حُزنٍ، هذا المعنى هو المناسب للسياق، وهو أقرب من حمله على أنه خطاب الله لأهل الأعراف حينما يأذَن لهم بدخول الجنة، فتكون جملة: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ ﴾ لا صلة لها بجملة: ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ ﴾ لأن الكافرين لم يُقسِمُوا على أهل الأعراف، بل أقسَمُوا على من ناوَأهم من المؤمنين، والله أعلم.

﴿أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ ﴾ صبُّوا علينا الماء لعله يذهب بالعطش، أو يُخفِّف من النار.

﴿ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ كأي متاع يتسلَّون به ويسدُّون به بعضَ فراغهم، بلا علمٍ وبحثٍ وتدقيقٍ، ولا عمل جادٍّ ومُثمرٍ، ومن نظر في بعض شعوب الأرض وكيف يتعاملون مع تراثهم الديني، وكيف يحتفلون بمناسباته الدينيَّة يُدرِك مغزى هذه الآية، ومثل هؤلاء من جعل الدين وسيلةً للكسب والعيش، كحال الكثير من المراجع، والسدَنَة، ورجال الدين.

﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ هو نسيانُ الإهمال والترك، وهو المناسب لإهمالهم أنفسهم وتركهم لطريق العلم البحث في مستقبلهم ومصيرهم.

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾

دعوة المرسلين من محمد إلى نوح عليهما السلام

بعد قصة آدم وما فيها من دروسٍ ومعالم أساسٍ لطبيعة الحياة ومغزاها على هذه الأرض، وما ينتظر الناس من بعثٍ ونشورٍ، وثوابٍ وعقابٍ، شرَعَ القرآن في بيان طريق النجاة، وأنه لن يكون بغير الوحي الإلهي الذي أنزَلَه الله واختارَ له خيرة خلقه.

وكان من المناسب البدء بالرسالة التي هي مدار البحث والصراع الحالي، وهي رسالة سيدنا ونبينا محمد ﷺ قبل البدء بالتسلسل التاريخي للرسالات، ومن ثَمَّ جاء الحديث عن رسالة سيدنا نوح مباشرةً عقِب الحديث عن رسالة سيدنا محمد عليهما الصلاة والسلام وكما يأتي:

أولًا: أن الرسالة الخاتمة هي رسالة العلم والهدى والرحمة ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً﴾.

ثانيًا: أن كلَّ ما وعد به القرآن أو توعَّد به فهو الصدق والحق ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾.

ثالثًا: أن الذين يصدُّون عن هذا القرآن ستأكلهم الحسرة، ويُهلكهم الندم ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾.

رابعًا: أن الله هو الذي خلق هذا الكون وأودع فيه كلَّ ما يحتاجه الإنسان ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ﴾، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾.

خامسًا: أن إفراد الله في العبادة فرعٌ عن تفرُّده في الخلق، فلأنه خلق الخلق بلا مُعينٍ أو شريكٍ فهو المستحق للطاعة والعبادة والخضوع لأمره ونهيه بلا وسيطٍ، ولا شريكٍ ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ﴾، ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ﴾.

سادسًا: أن هذه العبادة مرتبطة بإصلاح الأرض وتحسين ظروف الحياة، وليس العكس ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

بعد هذه المعالم الأساس في دعوة سيدنا محمد ﷺ رجع القرآن مباشرةً إلى رسالة نوح ﵇ وتجربته مع قومه، مختصرًا الأجيال والآماد، في تأكيدٍ واضحٍ على وحدة الرسالات السماوية في مصدرها وغايتها، وأصولها الإيمانية والعملية:

أولًا: التوحيد أساس الدعوة ومنطلقها الأول ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾.

ثانيًا: العلم قرين الدعوة، وضمانة استقامتها وسلامتها ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، ﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

ثالثًا: محبَّةُ الخير للناس، ونُصحهم والخوف عليهم تلك هي دوافع الدعوة الذاتية ﴿أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾، ﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ﴾، ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾.

رابعًا: أن العاقبة لمن آمن وصدَّق، والهلاك والبوار لمن كذَّب وتكبَّر ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ﴾.

دقائق التفسير

﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ﴾ هو القرآن الكريم، فيه تفصيل الأخبار والأحكام، وفيه العلم اليقيني، والهدى للبشريَّة، والرحمة الشاملة التامة لهم.

﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ﴾ أي: تحقيق ما أخبر به القرآن عن الآخرة وأحوالها، فالتأويل هنا من المآل، وهو العاقبة والنتيجة.

﴿قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ تأكيدٌ أن سبب كلِّ ضلالٍ هو خسارة الإنسان لنفسه، وهبوطه بها إلى درك الأنعام، فلا يفكِّر ولا يبحث عن الحقيقة، ولا يسعى إلى الحقِّ؛ لأنه مُنشغِلٌ بملذَّاته الدنيويَّة، وشهواته الجسديَّة، فهذه خسارةٌ لقيمة النفس التي كرَّمَها الله، ثم هي خسارةٌ كاملةٌ حينما يقودُ هذا الهبوط وهذا الخسران إلى ذلك الخسران الأكبر، أعاذَنا الله من هذا وذاك.

﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾ هي ليست من أيامنا؛ لأن يومَنا هو حصيلةُ دوران الأرض حول نفسِها أمام الشمس، ولكلِّ كوكبٍ يومه، فكيف باليوم الذي كان قبل خلق السموات والأرض؟ فذلك لا يعلمه إلا الله.

والمقصود بالإخبار عن تلك الأيام إنما هو التقديرُ على مراحل كما هي سنَّة الخلق كلِّه، حتى الجنين في بطن أمه، والبذرة في بطن التربة، وفيه أيضًا بيان المساحة الأوسع التي يجهلها الإنسان في هذا الكون من بداية انبثاقه، فعلم الإنسان مهما بلغ فهو علمٌ محدود.

﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ علا عليه علوًّا يليق به سبحانه؛ إذ العرش مخلوقٌ وربِّي خالقٌ، والمخلوق لا ينفكُّ محتاجًا إلى خالقه، وليس الخالق محتاجًا إلى أحدٍ من خلقه، تبارك ربُّنا وتعالى.

﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا﴾ يغطِّي النهار بالليل، وفيه علوُّ الظلمة على الضوء؛ لأن الضوء له سببٌ، والظلمة ليس لها سببٌ فهي الأصل؛ ولذلك فكلُّ ضوء نراه إنما هو استثناءٌ من حالة الظلام العامة، فالظلام يغشَى الضياء من كلِّ جانبٍ، ثم هو يطلبه حثيثًا؛ لأنه كلما انسحب الضوء بانسحاب مصدره، أو بانسحاب بقعة الضوء عن مصدرها حلَّ الظلام محلَّه، فهو يتبَعه كأنه طالب له يتعقَّبُه أينما ذهب.

﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ أصلٌ في التوحيد، جامعٌ بين توحيده تعالى في الخلق، وتوحيده في الأمر وهو الحكم، فما أحلَّه فهو الحلال الحقُّ، وما حرَّمه فهو الحرام الحقُّ، ومن نازع الله في هذا وذاك فقد نازَعَه في حكمه، وخصائص ألوهيَّته.

﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ ادعُوه تذلُّلًا وسرًّا، والله لا يحبُّ المعتدين الذين يتكبَّرون على الله فلا يدعونه ولا يعبدونه، أو يعتدون على المؤمنين بمنعهم من الدعاء والعبادة، وربما يتناول المعتدين بالدعاء نفسه إذا كان ليس على سبيل الطاعة والخضوع لله، كالدعاء للظالمين، أو الدعاء على المظلومين نفاقًا وتملُّقًا لأهل الباطل، أما رفعُ الصوت بالدعاء فلا يدخل في هذا النهي بوَجهٍ، والله أعلم.

﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ إشارةٌ أن الدعاء المستجاب هو دعاء المحسن في دعائه وفي عمله، بخلاف المُسِيء في دعائه، أو المُتمنِّي على الله فيدعُوه بلا عملٍ ولا سلوكٍ حسنٍ.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا﴾ أي: الرياح هي التي تحمل السحاب الثقيل المحمَّل بالماء، وفيه تبيينٌ لمعنى الماء النازل من السماء الذي ورَدَ في آياتٍ أُخر، فالسماء هنا المكان المرتفع وليس من السموات السبع، فالسحاب نراه قريبًا، وقد نعلو فوقه بالطائرات وببعض الأبراج العالية والجبال الشاهقة، فهو أقربُ إلى الأرض منه إلى السماء.

﴿كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ أي: كما تشاهدون انبثاق الحياة في بذور النبات وفي خلايا الفطر المبثوثة في التراب، والتي قد تمرُّ عليه السنة والسنتان دون نموٍّ ولا حركةٍ، فإذا نزل الماء رَبَت ونَمَت ودبَّت فيها الحياة، فكذاك حال الأجساد البشريَّة المختلطة بعد موتها بهذا التراب، هناك يوم ستتهيَّأ فيه أسباب الحياة فتَحيَا، لفت لأنظار الناس لقياس الغائب بالحاضر، وغير المحسوس بالمحسوس.

﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ﴾ فالمُزْنُ لا ينبت الزرع دون وجود التربة الصالحة، وفيه تشبيهٌ ضمنيٌّ لحالة البشر مع نزول الوحي، فالقلوب الطيبة تتلقَّاه وتؤمن به، وتعمل بمقتضاه؛ فتثمر كلَّ خُلقٍ وسلوكٍ طيبٍ، والنفوس الخبيثة ترفضه وتزداد معه عنادًا وتكبُّرًا، فلا تُثمر غير النكد والشقاء.

﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ وإن اتخذتم آلهةً أخرى؛ لأن كلَّ إلهٍ اتخذتموه دون الله فهو باطلٌ.

﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ (٦٠) قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ﴾ تواضع الأنبياء، ونزولهم إلى مستوى ردِّ الشبهات الوضيعة، بخلاف ما يظنُّه بعض العلماء والدعاة اليوم، فالشبهة مهما كانت وضيعة ومتهافتة لا بُدَّ من نفيها ودحضها؛ لأن مستويات الناس متفاوتة، فالشبهة التي لا تخدع العالم قد تخدع الجاهل.

﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ مع أنها رسالة واحدة، لكنها من حيث التدرُّج والتنوُّع والتفصيل كأنها رسالات، وفيه إشارة إلى دقَّة التبليغ، وأمانة المبلِّغ.

﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ من الطوفان، وفيه اقتران القدر بالسبب، فالطوفان قدرٌ إلهيٌّ، والفلك صنعٌ بشريٌّ، وهذا هو منهج الإسلام: إيمانٌ بالقدر، وأخذٌ بالسبب، والفصل بينهما بدعةٌ لا تمُتُّ إلى الإسلام بوَصلٍ.

﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ﴾ جمع عَمٍ، وهو بمعنى أعمى، والمقصود به:عمى القلب، وفيه إشارةٌ إلى وجوب النظر والبحث والتفكُّر.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (٧١) فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٧٢) وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ ۚ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨) فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (٧٩)﴾

هود وصالح عليهما السلام

هما رسولان بعثَهما الله في جزيرة العرب بعد نوح وقبل إبراهيم عليهم وعلى نبيِّنا الصلاة والسلام، أما هود فبُعث في جنوب الجزيرة ناحية حضرموت إلى قومٍ يقال لهم: عاد، وأما صالح فبُعث في شمالها بين الحجاز والشام إلى قومٍ يقال لهم: ثمود، وعادة القرآن أن يذكرهما متتاليَين؛ لتشابه البيئتَين، وطبيعة القومَين، وأن قوم هود كانوا بعد قوم نوح، وقوم صالح كانوا بعد قوم هود، ويمكن ملاحظة الشبَه بين التجربتَين في النقاط الآتية:

أولًا: كلاهما بادرَ قومه بالدعوة إلى التوحيد ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾، ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ ﴾ وهذا يدلُّ على تمكُّن الشرك في جزيرة العرب من شمالها إلى جنوبها وفي مرحلة مبكِّرة جدًّا في تاريخها، وتوحيد الخطاب حتى في الصيغة دليلٌ على تشابه المخاطَبين في مستوياتهم وطريقة تفكيرهم.

ثانيًا: كلاهما كان حريصًا على قومه ناصِحًا لهم، قال هود لقومه: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾، وقال صالح لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾.

ثالثًا: إن عادًا وثمودَ كلاهما كانا أُولي بأسٍ وقوةٍ ونعمةٍ، أما عادٌ فقال الله فيهم: ﴿وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾.

وقال في ثمود: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾.

رابعًا: إن عادًا وثمودَ كانا أهل عنادٍ ومكابرةٍ؛ بحيث إنهما استعجَلَا عذابَ الله قولًا وفعلًا وبصَلفٍ وتحدٍّ، فقالت عادٌ لنبيِّها: ﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

وقالت ثمود لنبيِّها: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

خامسًا: إن عادًا وثمودَ قد أهلكَهما الله بعذابٍ حاسمٍ، ففي عاد قال الله: ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾، وفي ثمود:﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾.

﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ هي أخوّة النسب، واستعمالها هنا دليل على أن صلة الرحم لا يقطعها اختلاف الدين، وأن الداعية عليه أن يحافظ على وشائج العلاقات الإنسانية، ولا يُفرِّط بها، فهذا من تمام خلق الداعية وسبيله للتأثير والإقناع، ومن ظنَّ أن في هذا خلافًا لعقيدة الولاء والبراء فقد وَهِمَ.

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ﴾ هم وُجهاء القوم وأشرافهم وقادة الرأي فيهم.

﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾ اتهام لرسولهم بالجهالة وخفَّة العقل؛ لأنه خالف ما عليه قومه وما ورِثُوه عن آبائهم وأجدادهم، وهذه شُبَة تُلاحِق كلَّ خارجٍ على المألوف، ولو كان هذا المألوف فاسدًا أو باطلًا.

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ ﴾ تواضُع الأنبياء وتنزُّلهم لردِّ الشُّبهات الوضيعة مهما كانت.

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾ و﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى﴾ أتى بالجمع في الأولى، وبالإفراد في الثانية؛ لأن الأولى جاءت مع المضارع فهي متجددة ومتنوعة بحسب الحال والمقام، بعكس الثانية التي جاءت إخبارًا عن الماضي؛ حيث تمَّت الرسالة بالفعل، فأصبح من المناسب الحديث عن وحدتها، وليس عن تنوُّعها وتجدُّدها، والله أعلم.

﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ نعمه التي أنعَمَ بها عليكم.

﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ أي: قد استوجَبتم ذلك بعنادكم وتكبُّركم.

﴿أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ ذكر الاسم وأراد المسمَّى، كأنه قال: أتُجادلونني في أصنامٍ سمَّيتموها أنتم آلهة، وما هي كذلك.

﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟﴾ أي: بلغ الهلاك آخرهم، فلم ينج منهم أحد.

﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ إضافة اختصاصٍ وتشريفٍ وإلا فالكون كلُّه لله، ومناسبة الاختصاص أن الله خلقها لا على مثال سبق؛ لتكون آيةً على صدق رسوله، وحجَّة ظاهرة على قومه.

﴿وَبَوَّأَكُمْ﴾ أنزلكم وأسكنكم.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ دلالة على صلة التكبُّر بالضلالة والبغي والجهالة.

﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ﴾ نحَرُوها ظلمًا وعنادًا، ومخالفةً لوصيَّةِ نبيِّهم ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ خالفوه عن قصد وتكبُّر.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ زلزلة وهزَّة في الأرض.

﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ أجسادًا بلا أرواح تراكم بعضها فوق بعض.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ صورةٌ للداعية الناصح الأمين الذي بذَلَ حياته كلها في نصح قومه، وتحذيرهم من سوء العاقبة، ثم هو يراهم هكذا جاثِمِين بلا حراكٍ، فيخاطبهم وهو عالمٌ أن لا جَدوَى من الخطاب، لكنها صورةٌ لِحرص هذا القلب النقِيِّ على هداية قومه ونجاتهم مهما عانَدُوه وخالَفُوه، وفيها عِظةٌ وتثبيتٌ للقِلَّة الناجية بإيمانها واتباعها سبيل المرسَلِين.

﴿ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين (٨٠) إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون (٨١) وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون (٨٢) فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين (٨٣) وأمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين (٨٤) وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين (٨٥) ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين (٨٦) وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين (٨٧) ۞ قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا قال أولو كنا كارهين (٨٨) قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علما على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين (٨٩) وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون (٩٠) فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين (٩١) الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين (٩٢) فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين (٩٣) وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون (٩٤) ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون (٩٥) ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون (٩٦) أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون (٩٧) أوأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون (٩٨) أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون (٩٩) أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون (١٠٠) تلك القرى نقص عليك من أنبائها ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين (١٠١) وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين (١٠٢)﴾

وهما نموذجٌ آخر مختلف عن سابقه، حيث كان مبعثهما في نواحي الشام، وهي الأقرب للمدنيَّة بخلاف قوم هودٍ وصالحٍ، فطبيعةُ المدينة مختلفةٌ عن طبيعة البادِية، وأمراض المجتمعات المدنية مختلفة بالضرورة عن أمراض المجتمعات البدوية؛ أما لوط فكان ممن عاصَرَ إبراهيم ﷺ وآمَنَ به ثم بعثه الله إلى سدومٍ وما حولها من القرى في بلاد الشام.

وأما شعيب ﷺ فبُعِث في أرض مدين وهي من بلاد الشام كذلك، ومن ثَمَّ يعرض هذا النموذج لتجربةٍ إصلاحيةٍ جديدةٍ مختلفةٍ عن تجربة النبيَّيْن السابِقَين، ولنبدأ مع سيدنا لوط ﷺ:

أولًا: القضية المركزيَّة في هذه التجربة كانت مُحاربة الشذوذ الجنسي، والذي هو مظهرٌ صارِخٌ للهبوط في كلِّ الجوانب الإنسانيَّة الثقافيَّة والسلوكيَّة ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾.

والإسراف هنا: مجاوزة الحد والحقِّ بإطلاق، فهم قد تجاوَزُوا الفطرةَ والدينَ والعقلَ وكلَّ معنًى متصلٍ بالسلوك القويم.

ثانيًا: لم ينشغل هؤلاء بالردِّ ولا بالمناقشة وطلب الآيات والبيِّنات، كما هو المعهود في باقي الأمم، وإنما بادروا بقرارٍ واحدٍ: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾، فهم لا يريدون أحدًا يُعكِّر عليهم ما هم فيه منغمِسُون، وهذا دَيدَنُ الغارق في الشهوة، بخلاف صاحب الشبهة والفكرة الخاطئة.

ثالثًا: ثم كانت النتيجة أن أهلَكَهم الله بعد أن نجَّى لوطًا ومن آمن به ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾.

أما قصة شعيبٍ مع قومه فتتلخَّص في الآتي:

أولًا: أنه بدأ بدعوتهم إلى التوحيد كسائر الأنبياء مع أقوامهم ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ﴾.

ثانيًا: ثم ثنّى بقضيَّةٍ مركزيَّةٍ خاصة في هؤلاء القوم ﴿فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ منبِّهًا أن هذا الظلم يقود إلى فسادٍ عريضٍ في الأرض ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ﴾.

ثالثًا: ثم ثلَّث بدعوتهم إلى ترك الناس وما يختارون بلا ظلمٍ ولا إكراهٍ ﴿وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗاۚ﴾.

رابعًا: أن الناس قد انقسموا إلى طائفتين اثنتين: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٞ مِّنكُمۡ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٞ لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ فَٱصۡبِرُواْ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ بَيۡنَنَاۚ﴾.

وكان بين الطائفتين كلامٌ وأخذٌ وردٌّ، يحاول أهل الباطل فيه أن يُثنُوا أهلَ الحقِّ ﴿لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ﴾.

خامسًا: كتَبَ الله على هؤلاء المكذِّبين الهلاك كما كتبه على المكذِّبين من كلِّ قومٍ ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾.

تعقيب قرآني

بعد أن عرض القرآن لهذه النماذج المختلفة خلص إلى تقرير القواعد والتوجيهات الكليَّة، وكأنها خلاصة ما ينبغي استنباطه من تلك التجارب:

أولًا: أنه تعالى لم يُهلِك قومًا إلا بعد أن أقام الحجَّة عليهم بإرسال الرسل وبيان الحقِّ ﴿تِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

ثانيًا: أنه تعالى لم يأخذ قومًا على غرَّة، بل جاءهم بما يكفي للتذكُّر والتدبُّر ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾ ثم يعفُو ويصفح، ويبدِّل الحسنة مكان السيئة، والرخاء مكان الشدَّة، لعلَّ الذي لم تُرجِعه الشدة أن تُرجِعه النعمة ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾.

ثالثًا: أن العذاب والضنك والشقاء قرين الظلم والبغي والتكذيب بالحق، والعكس بالعكس ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾.

رابعًا: أن هذه العاقبة سنَّةٌ من سنن الله لا تستثني أحدًا، وأن وعيد الله قائمٌ لكلِّ ظالمٍ متجبِّرٍ كَفَّارٍ إلى قيام الساعة، فليست هذه قصصًا تاريخيَّةً مجرَّدةً، بل هي سنَّةٌ ماضيةٌ حتى يرث الله الأرض ومن عليها ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾.

خامسًا: أن السلوك الأغلب لعامة البشر وفق كلّ هذا التاريخ الطويل يؤكِّد انحياز الناس إلى شهواتهم وموروثاتهم، والرغبة في إبقاء ما كان على ما كان دون التأكُّد من صحة الفكرة، أو سلامة السلوك، هذا هو شأنُ المجتمعات البشرية، وهو سبب التخلُّف الذي يَعتَرِيها وتكرار مآسيها وتجاربها الفاشِلة أو القاتِلة ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴾.

يجدر التنبُّه هنا أن بدايات الدعوة كما يقصُّها القرآن في هذه النماذج لم تكن واحدة؛ ففي قصة نوحٍ وهودٍ وصالحٍ كانت الدعوة خالصة إلى التوحيد، بينما في قصة لوطٍ كانت الدعوة لمحاربة الفساد الخُلقي، وكأنها غاية الرسالة ومحورها الأساس.

أما في قصَّة شعيب فهناك جمعٌ واضحٌ من البداية بين الدعوة إلى التوحيد والدعوة إلى رفع الظلم الاقتصادي.

وهذه كلُّها تُعطِي خياراتٍ واسعةً للعمل الإسلامي المعاصر، فقد يكون الباب الأنسَب للدخول في الإسلام ما يَمَسُّ حاجةَ الناس واهتمامهم، وليس بالضرورة أن يكون في مسائل العقيدة والتوحيد والإيمان بالغيب، كما أن فتح منافذ التفكير ورفع قيود الشهوة، والتخفيف من وطأة الظلم كلُّ هذه شروط متقدمة وممهدة لنجاح الدعوة، وصناعة بيئة مناسبة للموعظة، والمجادلة الهادفة.

دقائق التفسير

﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ دليلٌ على انحراف قوم لوطٍ ليس عن الدين فقط، بل عن السلوك البشري عامة، مما يدلِّل على أن هذه الفاحشة مُنافية لقواعد الفطرة الآدمية، بل ولسلوك الكائنات الحيَّة عامة.

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ مع أنه ليس فيهم من صفات الرجولة شيء، وإنما هو استقباحٌ شديدٌ لفِعلهم، كأنه يقول: هؤلاء خلقهم الله ليكونوا رجالًا، فكيف انتكَسَت فطرتكم، وارتَكَسَت عقولكم، فحوَّلتم الرجولة إلى متعة ومَلهاة؟

﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ إشارة إلى جانب آخر من الفساد، فالنساء اللواتي لا يجِدن بُغيتهن من رجالهن سينحرفن أيضًا، ويبدو أن المجتمع كان مُجتمعًا فوضويًّا عابثًا، وليس هو اكتفاءً تامًّا بالرجال عن النساء؛ إذ لو كان كذلك لانقطَعَ النسل بالكامل، والله أعلم.

﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ ربما كان ذلك على سبيل التهكُّم والسخرية، لكن حالة هؤلاء القوم لا يُستبعَد معها أنهم يُفاخِرون بالفساد والرذيلة، ولا يحاولون تغطيتها أو تسميتها بغير أسمائها، وهذا دركٌ ما تحته درك، وشذوذٌ ما بعده شذوذ.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ المؤمنين، بدلالة هلاك امرأته وهي من أهله - دون شكٍّ -؛ لأنها لم تكن من المؤمنين.

﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ الهالِكِين بمخالفة أمره، وموالاتها لقومها حتى أصابَها ما أصابَهم.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ هو مطر العذاب والهلاك، وأصل المطر الماء النازل من السماء، واستعمل هنا في غير الماء في الحجارة ونحوها بجامع النزول من العلو؛ بحيث لا يمكن لأحدٍ أن يمنعه أو يتحكَّم به.

﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ أصلٌ في المكيلات والموزونات ونحوها، ولا يمنع تعدِّيه لسائر الحقوق المادِّيَّة والمعنويَّة.

﴿إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ بالمال والعيال، وفيه تنبيه أنهم لم يكونوا بحاجةٍ إلى تطفيف الميزان، فقد كانوا أهل نعمةٍ وخيرٍ، لكنَّه الطمع والاستهانة بمال الآخرين.

﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا﴾ يفصل بيننا بالعاقبة، وهي نجاة المؤمنين وهلاك المكذِّبين.

﴿۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ﴾ تأكيدٌ قرآنيٌّ، وتكرارٌ أن التكبُّر هو السبب الأول والأبرز في الضلالة، والصدِّ عن سبيل الحقِّ.

﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ استعظامٌ لإكراه الناس على غير ما يؤمنون به.

﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم﴾ هذه قاعدةٌ كبيرةٌ للعلماء وللدعاة إلى الله أنهم حينما يُجامِلُون الباطل فإنهم لا يرتكِبُون ذنوبًا ذاتيةً كسائر الناس، بل إنهم يكذِبُون على الله، فالناس يأخذون عنهم دينَهم بأقوالهم وأفعالهم، وفعل العالم الظاهر للناس بخلاف ما يعلم هو تبليغٌ كاذبٌ عن العلم الذي يحمِلُه، وبهذا يكون قد ضلَّ بنفسه وأضلَّ غيره.

﴿إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ قال: الملَّة، وهي الدين والمعتقد، ولم يقل: الأرض أو القبيلة أو المجتمع؛ لأن التعايش مع الكافرين لا ينقض الإيمان، ولا يعارض عقيدة الولاء والبراء كما توهَّم من توهَّم، إذا كانت المفاصلة في الدين قائمة؛ ولذلك بقي المسلمون في مكة ولم يفكروا بالخروج عنها إلَّا بعد حملات التنكيل والتعذيب؛ بحيث لم تعُد صالحةً للدعوة، ولا

للعيش والسكن، ولو كان أصلُ العيش محرَّمًا معهم لخرجوا قبل ذلك.

﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: افصل بيننا وبينهم، وميِّزنا عنهم إن حكَمتَ بهلاكهم.

﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ﴾ كأنهم لم يسكنوا ولم يقيموا فيها.

﴿لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ أتى بالجمع؛ تنبيهًا إلى تنوُّع رسالته بين دعوته للتوحيد، ودعوته لرفع الظلم الاقتصادي، ومحاربة الفساد في الأرض.

﴿فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾ حوارٌ مع النفس يحكِي حالَ التردُّد بين التسليم بقضاء الله وحكمه وفصله، وبين الحزن على الأقربين الذين ماتوا على الكفر وهلَكُوا بسببه، وهو تردُّدٌ مشروعٌ ومقبولٌ؛ إذ الحزن هنا لا يعارض التسليم، بل هو لوعةٌ عاطفيَّةٌ بحكم الرحِم والقُربَى، تجري جنبًا إلى جنبٍ مع الإيمان بالله، والتسليم بقضائه.

﴿بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ أنواعٌ من البلاء في النفس والمال، والحياة العامة والخاصة.

﴿يَضَّرَّعُونَ﴾ يتوبون ويرجعون إلى الحقِّ، ويخضعون لله وحده.

﴿مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ﴾ مكان البؤس النعيم، ومكان الضر الخير.

﴿حَتَّىٰ عَفَواْ﴾ كثروا نسلًا ومالًا لما منحهم الله من السكينة والاستقرار والنعيم.

﴿وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ كأنهم يقولون: هذه هي الدنيا لا تستقيم على حال، ولم يتنبَّهوا إلى ما في كلِّ ذلك من تنبيهاتٍ ومواعظٍ، فأغلقت عقولهم، وسكِّرَت أبصارهم عن مشاهدة السرِّ الإلهي في كلِّ هذه الأحوال، ولذلك لم ينتَفِعُوا منها بشيءٍ، بل زادوا بها طغيانًا على طغيانهم، وغفلةً على غفلتهم.

﴿فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ﴾ بالنسبة لغفلتهم، وإلا فإنَّ الله أنذَرهم بالرسل، ثم برسائل القدر من ابتلاءاتٍ، وتنبيهاتٍ متنوعةٍ ومتكررةٍ.

﴿فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ من الآثام والمظالم، وفيه تأكيدٌ أن القدر مقتَرِنٌ دائمًا بعدل

الله وحكمته ورحمته، وهو منزَّهٌ عن الظلم والعبَث، تعالى الله وتقدَّس عن ذلك.

﴿بَيَـٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ وقت الراحة.

﴿ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ وقت الغفلة، وكلاهما من ملابسات البغتة - والعياذُ بالله -، وفيها أن قدرة الله مطلقة لا يحدُّها مكان، ولا يقيِّدها زمان.

﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ باستدراجهم في النعماء حتى يظنُّوا أنهم قد فُضِّلُوا على من سِوَاهم، وأنهم مُستثنَون من وعيد الله، وهذه حالُ أهل الكبر والغفلة حتى تصدمهم الحقيقة، وتحلَّ بهم القارعة.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ﴾ أي: ألم يتبيَّن لهؤلاء الذين يعيشون في الأرض اليوم بعد هلاك أسلافهم ومن كان يعمرها قبلهم؟

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ هو طبعٌ وفق سنن الله العادلة، فالكبر والجهل والظلم كلُّ هذه أسبابٌ لتغليف القلوب، وتحجير العقول، فلا يطبَعُ الله على قلبٍ ظُلمًا له، أو خروجًا عن هذه السنن وهذه الأسباب، فكان مَثَلُ هؤلاء مَثَلُ من يشرب السمَّ، فيكتب الله عليه الموتَ بذلك، والله أعلم.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣) وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٥) قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨) قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢) وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦) ۞ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦)﴾

النبوّة في مواجهة السحر

بعد النماذج التي قدمتها سورة الأعراف لدعوة المرسلين في الجزيرة العربية (هود، وصالح)، ثم في بلاد الشام (لوط، وشعيب) ﷺ، شرعت في عرض النموذج الآخر، وهو نموذجٌ مختلفٌ تمامًا؛ فموسى ﷺ لم يبعثه الله إلى قبيلةٍ ولا إلى قريةٍ، وإنما إلى دولةٍ وحضارةٍ ومدنيةٍ وجيوشٍ وعروشٍ.

ومن ثَمَّ اقتَضى المقام تفصيلًا أكثر، وعرض مشاهدٍ متنوعةٍ وصورٍ مختلفةٍ لهذه التجربة من الصراع بين الرسالة السماوية وبين الدولة الفرعونية، وأولى هذه المشاهد هي استعانة فرعون بالسحرة، فكانت هذه اللقطات المثيرة:

أولًا: عرض موسى ﷺ لقضيَّته بشكلٍ صريحٍ وواضحٍ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن

رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فهو رسولٌ من الله يبلِّغ الناسَ كلمة الحقِّ، وهو كذلك صاحب قضية تتلخَّص في إنقاذ قومه من وَطأة فرعون وظلمه، وهنا تقرن الرسالة الموسويَّة في خطوتها الأولى بين العقيدة والسياسة، وبين الإيمان والمصلحة، والدين والدنيا، وهو إيذانٌ بشموليَّة الرسالة وقيادتها للمجتمع الجديد في كلِّ نواحي حياته.

ثانيًا: فرعون يطلب من موسى أن يعرض بيِّنَتَه بعد أن عرض قضيَّته ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾، وفي هذا نزولٌ للميدان الذي يُتقِنُه الفراعنة؛ ليكون فيه استدراجهم، ولتكون هزيمتهم أشدَّ وأوقَعَ؛ حيث كان المصريون قد بلغوا في السحر شأنًا رفيعًا، وكانت الصنعة التي يتداول أخبارها كلُّ الناس على مختلف طبقاتهم ومستوياتهم.

ثالثًا: فرعون يختار السحرة ليُواجِه بهم النبوَّة ﴿وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ لقد استُدرِجَ فرعونُ بالفعل، وراحَ يستَدعِي كبار السحرة ويُرغِّبهم، ويحشد الناس من حولهم.

رابعًا: في وسط الميدان، حوار ومباراة، ثم هزيمة ساحِقة لفرعون وسحرته ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

خامسًا: السحرة يُعلِنون إيمانَهم بالله ربِّ موسى وهارون، ويكفُرُون بفرعون وملَئِه ﴿وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾.

سادسًا: فرعون يهدد السحرة ويلجأ إلى منطق القوة ليواجه به منطق الحقِّ ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ وهكذا ثبتَ السحرة ولم

يُبالُوا بفرعون ووعيدِه بعد أن رأَوا الحقَّ عيانًا، واكتشفوا زَيفَ الألوهيَّة الباطلة التي كان يتزيَّنُ بها فرعونُ، ويتسلَّط بها على العباد.

دقائق التفسير

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ ﴾ أي: بعد من تقدَّم ذكرُهم من الأنبياء؛ نوحٌ وهودٌ وصالحٌ ولوطٌ وشعيبٌ، وهو تثبيتٌ للتسلسل التاريخي.

﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ إشارةٌ أنَّ الفساد مقترنٌ بالظلم، وهو نتيجةٌ من نتائجه، وثمرة سيئة من ثماره.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ ﴾ فيه المبادرة والشجاعة، والخطاب بالعدل دون مدحٍ ولا قدحٍ.

﴿فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ أطلِقْهم من نِيْر عبوديتك، واسمَح لهم بالخروج من مصر.

﴿فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ حوَّل الله عصا موسى إلى ثعبان؛ ليُرِيَ فرعون ضعفه البشري، ويهزَّ هيبته وسلطانه الباطل.

﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ أي: حين أخرَجَ يدَه تحوَّلَت إلى لونٍ أبيضٍ ظاهر الحسن والوضاءة من غير سُوءٍ.

وربما يكون في هذه المعجزة إشارةٌ لطبيعة دعوة الأنبياء، فبعد أن أرهَبَ فرعون بعصاه أخرج له اليَدَ البيضاء؛ فالقوة والسلام، والترغيب والترهيب، والجنة والنار، هذه هي المقولات الإيمانيَّة التي تدفع الإنسان لتحمل مسؤوليته في خياراته وقراراته، وفيها الأساس الذي يقوم عليه أمن المجتمع وسلامة أفراده، فالقوةُ لرَدع المعتدين والمجرمين، والمكافأة للصالحين المصلحين.

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ هو دورُ الملأ دائمًا في رفع الحرج عن أسيادهم، فبعد أن بانَ ضعفُ فرعون وزَيف ادِّعائه للربوبيَّة والألوهيَّة بادر الملأ دون إذنٍ من فرعون ليتقولوا عن الحقِّ: إنه سحر، وعن النبي: إنه ساحر، تمامًا كما يفعل قرناؤهم في كلِّ

زمان، فما قال عالِمٌ كلمة حقٍّ بوجه سلطانٍ ظالمٍ إلا انبَرَى مَلَؤُه ليقذفوا صاحب الحقِّ بكلِّ نقيصةٍ وشائبةٍ.

﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ اترك موسى وهارون برهةً من الزمن حتى نجمع لهما السحرة، وهو قبول بالتحدِّي، لكنه قبول فارغ يهدف إلى طمأنة فرعون والتملُّق له، وتأكيد دعواهم أن الذي جاء به موسى إنما هو السحر.

﴿وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ يحشرون لك السحرة من كلِّ المدن.

﴿قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ هكذا قال السحرة لفرعون، وهو على خلاف عادة العبيد مع أسيادهم، فليس للعبد أن يشترط، ولا أن يطلب عِوَضًا عن عمله، والظاهرُ أنه نوعٌ من صناعة جوِّ الاحتفال، وإعطاء حركة من الفرح والبهجة، وهذا يُناسِبُ في العادة أجواءَ المباريات والألعاب التنافسيَّة.

﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا ﴾خيَّرُوه إظهارًا لتمكنهم، واختارَ هو أن يبدؤوا هم أولًا؛ ليظهر للناس غاية ما عندهم، حتى إذا سقطوا كان سقوطهم أبلَغَ وأوقَعَ.

﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ دلالة أن سحرهم لم يكن حقيقةً، فهم يسحَرُون أعينَ الناس، ولا يسحَرُون حقائق الأشياء، وهذا ظاهرٌ في السحر؛ حيث يدَّعِي الساحر أنه يقلب الحجر ذهبًا، ليأخذ بذلك من الناس درهمًا، ولو كان صادقًا لاكتَفَى بالذهب.

﴿أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ تعضيد للمعنى الأول؛ فالسحر إنما هو إفكٌ وكذبٌ.

﴿ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ تعبيرًا عن غاية استسلامهم وإذعانهم، وإيمانهم بالحقِّ الذي أظهَرَه الله أمامهم على يد موسى ﷺ، وإيمان السحرة إظهارٌ لحجة الله على خلقه، وتمييزٌ قاطعٌ لمعجزة النبي عمَّا يلتبِسُ بها في أذهان بعض الناس من خرافةٍ وسحرٍ وشعوذةٍ.

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ﴾ شأن الطغاة دائمًا، يتعجبون حينما يقتنع أحد من

الناس بفكرة دون إذنٍ منهم؛ لأن عقول الناس وإراداتهم ينبغي أن تخضع لهم، تمامًا كما تخضع لهم أموالهم ودماؤهم وآلامهم وآمالهم، فليس للعبد مع سيده خيار ولا قرار.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ إنها المؤامرة، المؤامرة لقلب النظام وإخراج المدينة من ملك أهلها الأصليين وتسليمها للغرباء الطارئين، وهكذا فكلُّ فكرةٍ أو مقولةٍ أو مشروعٍ يخرج عن عباءة السلطان فليس له تفسير عند السلطان سوى المؤامرة، وهذه التهمة ركيزة لثقافة الانتقام المغروسة في نفوس الظالمين لكلِّ مخالفٍ لهم، أو خارجٍ عن طوعهم.

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ قطع اليد اليمنى والرجل اليسرى أو العكس، إمعانًا في النكاية، وليراها الناظر من كلِّ جانب.

﴿لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: يربط أجسادهم على جذوع النخل، ليجعلهم مُثلةً وعبرةً للآخرين، وهكذا تكون القرارات الفرعونيَّة بلا قضاء، ولا محاكمة، ولا فرصة للحوار أو الرد.

﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أي: أنزِل علينا صبرًا كثيرًا يُؤهِّلنا للثبات في مواجهة غضبِ فرعون وشرِّه ووعيدِه.

﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ دلالة أن دين الأنبياء واحد، وهو الإسلام.

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾

الصراع المفتوح مع فرعون وملئه

بعد خسارة فرعون في ميدان الحجّة والبرهان واستسلام السحرة وخروجهم عن طاعته لجأ كما يلجأ كلّ الطغاة في التاريخ إلى الأساليب الأخرى؛ المكر والقتل وكسر إرادة الناس بالقوة، وهنا بدأت المرحلة الأخيرة والحاسمة بين أهل الحقّ بقيادة موسى عليه السلام وبين أهل الباطل بقيادة فرعون:

أولًا: دور الملأ في التأليب والتحريض ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ۚ ﴾ وهم هنا إنما يدافعون عن مكاسبهم وامتيازاتهم كشأن كلّ جماعة مقرَّبة من السلطان، لكنّهم يستخدمون مفردات الحرص على الأرض والنظام والتراث،

ويتَّهمون أهل الحقِّ بالفساد والإفساد.

ثانيًا: الإفراط في استعمال القوة؛ لكسر إرادة الناس وإشعارهم باليأس من المقاومة ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَـٰهِرُونَ﴾.

ثالثًا: لجوء المؤمنين إلى الله الواحد القويِّ المتين، وتدرُّعهم بالصبر وطول النفَس في ظل انعدام القوة الماديَّة المكافئة لقوة فرعون ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾، وحين يُلامس حالةً من الضعف والندامة أو الملامة ﴿قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ﴾ يقول لهم: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ إنه باب الأمل المعزَّز بحسن الظن بالله، مع الشعور بالمسؤوليَّة، والاستعداد للمتغيِّرات.

رابعًا: الله يستجيب دعاء نبيِّه والمستضعفين من أتباعه، فيُرسل بالنذارة تلو النذارة لفرعون وملئه لعلَّهم يتدبرون ويتعظون ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ ثم شدَّد عليهم أكثر ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَـٰتٍ مُّفَصَّلَـٰتٍ﴾.

خامسًا: اتسم السلوك الفرعوني بالعناد والمكابرة مع شيءٍ من الخداع والمراوغة ﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ بل كانوا يحمِّلون موسى ما يجري لهم على طريقة التشاؤم؛ تنفيرًا للناس عنه ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ﴾.

وحينما يطول عليهم العذاب يلجئون إلى موسى ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فيرفع الله عنهم الرجز؛ ليقيم الحجة عليهم وهو أعلم بحالهم ومآلهم ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَـٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾.

سادسًا: لم تكن خاتمة الصراع لصالح السطوة الفرعونيَّة، بل كانت لصالح الضعفاء المستضعفين ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦) وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾، والقرآن هنا يذكر النقاط الحاسمة للاتعاظ والعبرة دون ذكر الوقت الذي أخذَته هذه المعركة حتى حُسِمَت بهذه النتيجة، فلعلَّها كانت سنين وعقودًا، كما هو الشأن في آجال الدول والممالك، والله أعلم.

دقائق التفسير

﴿وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ دليل أن فرعون كان له آلهة، ربما صنعَها هو للناس يستعبِدهم بها؛ ولذلك قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤].

﴿وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ نتركهم أحياءً بلا رجالٍ؛ ليكُنَّ ذليلات وخادمات له ولقومه.

﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ فوقيَّة الاستعلاء والسلطة، وليست فوقيَّة المكان، وهو شائعٌ في اللغة.

﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا﴾ بالتمييز العنصري؛ حيث كان الفراعنة يُذِلُّون بني إسرائيل ويستعبِدُونَهم، وقد قتل فرعون أبناءَهم لرؤيا رآها.

﴿وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ لمحاولة ثَنْيِهم عن اتباع الرسالة الموسويَّة، فهو اضطهادٌ دينيٌّ مضافٌ إلى الاضطهاد العنصري.

﴿بِالسِّنِينَ﴾ سنوات القحط وقلة المطر والزرع.

﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ﴾ أي: إذا حصل لهم خيرٌ من خصب وزرع ونعمة قالوا: هذا حقُّنا؛ لأننا أهلٌ لكل خير. وان انقلَبَت النعمة ألقَوا اللائمةَ على موسى، كأنه شؤمٌ لهم.

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ﴾ أنواع من العذاب يستهدف أجسادهم كالقمَّل، أو يستهدف مزارعهم كالجراد، أو يستهدف دورهم ومساكنهم كالطوفان، وهكذا.

﴿ٱلرِّجْزُ﴾ العذاب.

﴿ٱلْيَمِّ﴾ البحر.

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ﴾ جنس الأرض، وليست عين الأرض التي خرج منها فرعون؛ فبنو إسرائيل لم يرجعوا إلى مصر بعد خروجهم، بل نزلوا في صحراء سيناء مرحلة التِّيْه، ثم استوطنوا فلسطين على عهد داود ﷺ، والله أعلم.

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ۞ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ ۖ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا ۖ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ۖ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾

أهلك الله فرعون وجنده الذين خرجوا معه لملاحقة بني إسرائيل، أهلكهم الله غرقًا لينجو بنو إسرائيل بقيادة رسولهم الكريم موسى ﷺ، لتبدأ مرحلة جديدة في تأريخهم، مرحلة يكون القرار فيها لهم وليس لفرعون، يصنعون فيها أهدافهم ويصوغون فيها حياتهم، ويتحملون فيها مسؤولياتهم، وهذا هو الاختبار الجديد الذي كلَّمَهم عنه نبيُّهم أيام كانوا تحت وطأة فرعون: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

وفي هذا الاختبار كُشِفَت معادن بني إسرائيل، ومستوياتهم المتفاوتة والمتباينة في الإيمان والعمل والأخلاق، كما برزت تجربة إصلاحيَّة وقياديَّة كبيرة شملت كلَّ نواحي الحياة في ضوء الوحي الإلهي الذي كان يُتابع هذه الحركة، ويتنزَّل مع كلِّ حادثة أو مشكلة أو منعطف.

وقد ضمَّت هذه السورة عددًا من خصائص هذه المرحلة ومعالمها:

أولًا: الجنوح المبكِّر نحو الوثنية ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾، ثم تكرَّر هذا الجنوح باتخاذهم العجل ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ ۚ﴾.

إن تفكير بني إسرائيل بهذه الطريقة مع أنهم من أسباط يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم ﷺ، وهم قد خرجوا للتوِّ بمعجزة إلهيَّة يُثيرُ تساؤلات كثيرة: فما الذي يدفع البشر إلى مثل هذا السلوك، مع علمهم أن هذه الأصنام مخلوقة ومجعولة: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا﴾؟!

الظاهر أن هناك غريزة داخل النفس البشرية تدفَعُها للبحث عن المعاني المجسَّمة في صور محسوسة وملموسة بعيدًا عن المعاني المطلقة، مع أن تلك المعاني هي الأصل، وهي القاسم المشترك لكلِّ هذه السلوكيات على اختلافها وتبايُنها؛ فعبادة الحجر والشجر والبقر لا يمكن أن تكون عن اقتناعٍ ذاتيٍّ بهذه الأشياء، لكنها الرغبة في تجسيدِ الإيمان بالله الذي لا تُحيطُ به المدارك.

من هنا تأتي أيضًا عبادة القبور عند الشيعة، والغلو في صورة الحسين، ورفعه إلى مقام الألوهيَّة كما يفعل النصارى مع السيد المسيح، فهو سلوك بشري متشابِه تتركَّب فيه فطرة الإيمان بالله مع غريزة التعلُّق بالمحسوس، لتنتج هذه الصور من الشرك، والخروج عن معنى الإيمان الصحيح.

والمنهج الإسلامي لا يلغي هذه الغريزة بالكامل، بل يُوجِّهها الوجهة الصحيحة من خلال الشعائر؛ كتعظيم الكعبة، والصفا والمروة، ومقام إبراهيم، مع الفصل التام بينها وبين عقيدة التوحيد، فهذه ليست آلهة ولا وسائط بيننا وبين الله، بل هي علامات وأماكن لعبادة الله وحده.

ثانيًا: إصلاح النفس يأتي في المقام الأول، فالذي يتصدَّى للشأن العام محاولًا الإصلاح والتغيير الأفضل لا بدَّ أن يتجه أولًا إلى تزكية نفسه، وإعدادها الإعداد المناسب لهذه المهمة.

وهذا هو الدرس الذي تقدمه لنا سورة الأعراف ﴿ ۞ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ﴾، فهذه أربعون ليلة اعتزل فيها موسى قومه؛ ليكون مع الله في صلةٍ روحيَّةٍ إيمانيةٍ، لا نعلم نحن البشر عن أحوالها وتفاصيلها شيئًا غير تلك الإيحاءات السريعة ﴿ ۞ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ﴾، ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ وهي كافيةٌ لاستشعار عظمة الموقف، وفضل الله الكبير على هذا النبيِّ الكريم.

ثالثًا: الرسالة الموسويَّة، وهي الرسالة الشاملة من بين كلِّ الرسالات السماويَّة السابقة ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾، وهذه إحدى أهم وجوه الشبه القويَّة بين الرسالتين المحمديَّة والموسويَّة، فهما الرسالتان الوحيدتان اللتان ينص القرآن على شموليتهما وسعتهما؛ ولذلك جاءت قصة موسى الأكثر تكرارًا وتفصيلًا في القرآن الكريم، والله أعلم.

رابعًا: التكبُّر هو العقبة الأكبر في طريق العلم والهداية ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا

وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًاۚ﴾ فالمتكبِّر أعمى وأصم لا يرى إلا ما يريد هو أن يراه، ولا يسمع إلا ما يريد هو أن يسمعه ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ فهي غفلةٌ على سبيل الإعراض المتعمَّد، والغرور الزائف، وليست غفلةَ الجاهل البسيط المشغول بهمومه ومتطلَّبات عيشه.

خامسًا: إدارة المجتمع، وهي مهمةٌ مُقترنةٌ بالدعوة والإصلاح، فالمجتمع الفوضوي لا يمكن إصلاحه، وفي هذه التجربة نرى كيف أن موسى ﷺ لما ذهب إلى ميقات ربِّه لم يترك قومه في فراغٍ، بل أوكل مهمة القيادة إلى أخيه هارون ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

ثم لما عاد موسى من ميقات ربِّه، راح يختار صفَّ القيادة الأول ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَاۖ﴾ وهو الميقات الثاني، في إشارةٍ لحاجة هذا الصف إلى تلك التزكية وذلك الإعداد تهيئةً لهم ليكونوا حلقة الوصل بين القائد الأعلى وبين عامة الناس، فمهما كانت عبقرية القائد وقوته، فإنه لا يمكنه أن يدير المجتمع لوحده.

سادسًا: الطبيعة البشرية للأنبياء ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنۢ بَعْدِيٓۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِۚ﴾ إنها صورة الإنسان ولو كان نبيًّا ومصطفًى من الله، وهذا من كمال النبوَّة، فلو كان النبي جنسًا آخر مختلفًا عن طبيعة البشر لَمَا قامت به الحجة، ولَمَا صلح لاقتداء الناس به، فالنبي إنما هو بشرٌ يُوحَى إليه، فبالوحي يكون الخلاص واليقين بسلامة المنهج، وبالبشرية يصح الاقتداء والتأسِّي، ومحاولة تكرار التجربة على مرِّ الأجيال.

سابعًا: الانقسام المتوقع لكل المجتمعات البشريَّة تجاه دعوات الخير والإصلاح ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ

رَّحِيمٌ﴾، ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾، ﴿قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾، وإذا كان كلُّ هذا يحصل مع وجود النبيِّ والآيات والمعجزات، فحصوله مع مَن هم دون ذلك أَولَى.

دقائق التفسير

﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ تقليدٌ أعمى لما عليه الآخرون وإن كان لا يستَنِد إلى منطق أو حُجَّة، وهو عادةُ الشعوب والمجتمعات الضائِعة التي لا تجمعها هويَّة، ولا تَحمِيها عقيدة.

﴿مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ أي: هالك ومسبب لهلاكهم.

﴿فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بحمل الرسالة، وليس تفضيلًا بالخلقة، ولا تمييزًا لجنسهم دون الأجناس.

﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ يذيقونكم.

﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ أي: أرِنِي أنت نفسك، لأنْظر أنا إليك؛ لأنه يعلم أنه لن يتمكَّن من النظر إلى ربِّه، إلا أن يكون ربُّه في صورة المرئي، قال: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ نفَى القدرةَ عن موسى، ولم يَنفِ قابلية الذات الإلهية للرؤية، ولو قصد هذا لقال: لا أُرَى، بمعنى: أن موسى ليس عنده القابليَّة للرؤية؛ لأنه بشرٌ محكومٌ بنواميس الكون، وقد أعطاه الله درسًا حينما تجلَّى للجبل فجعله دكًّا، وخرَّ موسى صَعِقًا.

فهذه كلها تأكيدات لضعف الخلق وقصورهم أمام عظمة الخالق ﷻ، والموضوع بعيدٌ عن أحوال الآخرة التي ستتغيَّر فيها النواميس، والله أعلم.

﴿فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾ علَّقه بممكن أصلًا مستبعد حالًا، وهو تأكيدٌ أن النفي

حاصلٌ بسبب ضعف القدرات وليس لاستحالة أصل الرؤية، والمفاجأة كانت بدكِّ الجبل، وهي حالة غير متوقَّعة وغير لازمة في الذهن، كأن الله أراد أن يقول لموسى: إذا كان الجبل لم يتحمَّل ذلك التجلِّي الإلهي، فكيف بك يا موسى؟ ولذلك خرَّ موسى صَعِقًا.

﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾ أفاق من صعقته بعد أن أدرك ضعفَه البشري أمام العظمة الإلهيَّة، فلاذَ بالتسبيح والتوبة مع أنه لم يقترف ذنبًا، لكنه مقام العبودية، واستشعار ضعف النفس وذلَّتها وتقصيرها أمام خالقها العليِّ الكبير.

ومن ظنَّ أن التوبة كانت عن السؤال فقد وَهِمَ؛ لأن الله في كلِّ هذه القصة وفي كلِّ مواردها لم يُنكِر عليه سؤاله، ولو كان إثمًا لما تأخَّر بيانُه بحال.

﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ الظاهر أنها الألواح التي كتبت عليها التوراة بدلالة قوله: ﴿وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ وهو وصفٌ للتوراة، ولو كانت التوراة غير الألواح فما مضمونها إذًا بعد أن تكفَّلَت الألواح بتفصيل كلِّ شيء؟

أما المادة التي صُنِعَت منها الألواح فلا تعنينا بشيء، والخلاف فيها ترفٌ فكريٌّ لا قيمة له، ولا ينبني عليه عمل، وحسبنا التصديق المجمل بالخبر كما ورد في الوحي.

﴿سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ وعيدٌ لمن فسق عن أمر الله ونكث عهده، وهو تفريعٌ مناسبٌ لقوله في الألواح: ﴿فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ﴾ فمن حاد عن ذلك فقد فسق، ومن فسق استوجب العقوبة، وهي خراب بيوتهم، ونهاية أمرهم.

﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ صَرفًا على سنن الله وأسبابه المعروفة، وليس صَرفَ إجبارٍ وإكراهٍ، فمن تكبَّر فقد أغلق باب الهداية عن نفسه، وصرفها عن الحقِّ.

﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ﴾ أي: بطلت وخاب سعيُهم ومكرهم وتكبُّرُهم، هذا هو مُقتضَى السياق، أما البحث عن بطلان الأعمال الحسنة التي تقع من غير المؤمنين فهذه مسألة أخرى لا يقتضيها السياق، وإقحامها فيه لا يخلو من التكلُّف.

﴿لَهُۥ خُوَارٌ﴾ صوتٌ كصوت البقر، والأمر لا يعدو كونه حيلة وخديعة انطلَت على بني إسرائيل، خاصة أنهم مُهيَّئون لمثل هذا من يوم خروجهم الأول لما قالوا: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾.

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: وقعوا في الندامة.

﴿غَضْبَـٰنَ أَسِفًا﴾ معناهما متقارب، وجيء بهما معًا للتأكيد المعنوي، والله أعلم.

﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى﴾ تأكيدٌ لعادة بني إسرائيل في احتقار أنبيائهم واستضعافهم وقتلهم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بابٌ واسعٌ من الرجاء؛ إذ جاء هذا تعقيبًا على عبدة العجل الذين ندموا على فعلتهم، فالرجاء بعفو الله فيما هو دون هذا أوسع وأكبر.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ أي: هدأ الغضب بطول الوقت، ونسبة السكوت إلى الغضب دليلٌ على صحة المجاز فيه وإن لم تصح نسبته على الحقيقة بحال، وهو اشتراط بعض أهل العلم في استعمال المجاز، وهو اشتراطٌ تحكُّميٌّ لا دليل عليه، والآية هذه تكفي لردِّه، والله أعلم.

﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ إشارةٌ أن الخوف من الله أصلٌ في تحقيق الرحمة وسلوك طريق الهداية، بخلاف صفة التكبُّر التي هي أصلٌ في القسوة والغفلة والضلال.

﴿سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ عددٌ تُمليه الحاجة الإداريَّة زمانًا ومكانًا وحالًا، وليس هو تشريعًا، ولا مثالًا ثابتًا للاقتداء.

﴿لِّمِيقَـٰتِنَا﴾ ميقاتٌ آخرُ مع الله، فالأول كان مع موسى خاصَّة، والثاني كان معه السبعون الذين اختارهم من صفوة قومه، وقد أخذَتْهم الرجفة كما أخذه الصعق في لقائه الأول، وهذه مسائلُ غيبيَّةٌ نقِف فيها مع الوحي دون زيادةٍ ولا نقصانٍ، والعبرة فيها ظاهرة، والله أعلم.

﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ نفي بصيغة السؤال، فالله لا يأخذ أحدًا بجريرة أحدٍ، وفيه استعطافٌ لرحمة الله، وبراءةٌ من السفاهة والشرك وعبادة العجل.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ اختبارك للناس وامتحانك لهم تمييزًا لصادقهم عن كاذبهم، ومؤمنهم عن منافقهم.

﴿هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ تُبنا إليك، ونسبة اليهود إلى هذا الفعل واردة، فاليهود معناهم: العائِدُون والتائبون إلى الله، كما أن المسلمين معناهم: المُستسلِمون لله، والخاضعون لشريعته، والله أعلم.

﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ دليلٌ أن الرحمة أصلٌ، والعذاب استثناء، ورحمة الله سبقت غضبه، وعفوه غلب عقوبته.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗاۖ مِّنۡهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنۡهُمۡ دُونَ ذَٰلِكَۖ وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ۞ وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾

ينتقل السياق القرآني بلا مقدمات ولا فواصل ليربط بين صورة الماضي وصورة الحاضر؛ بين صورة اليهود وحراكهم المضطرب والمتذبذب وهم تحت قيادة نبيٍّ منهم ومن بني جلدتهم، وبين صورتهم وهم أمام نبيٍّ من قومٍ آخرين، يدعوهم للإسلام الذي هو رسالة إبراهيم وموسى وهارون وكلِّ الأنبياء السابقين، ويمكن تلخيص الخطاب القرآني في هذا المشهد بالآتي:

أولًا: أن الرسالة المحمديَّة هي امتدادٌ للرسالات السماويَّة السابقة، وأن هذه الرسالات قد بشَّرت بالنبي الخاتم محمد ﷺ ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾.

ثانيًا: أن الرسالة المحمديَّة رسالةٌ شاملةٌ لكل الناس لا تميِّز بين جنسٍ وجنسٍ، ولا قومٍ وقومٍ ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

ثالثًا: أن الرسالة المحمديَّة رسالةُ خيرٍ ويُسرٍ ورحمةٍ ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾.

رابعًا: أنه لا خلاص ولا نجاة إلا باتباع هذه الرسالة الخاتمة ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾، ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

خامسًا: تذكير اليهود بتاريخهم مع أنبيائهم في كبريات الأمور ودقائقها ﴿وَقَطَّعْنَـٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾، ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ

وَقُولُواْ حِطَّةٌ ﴾، ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ﴾، ﴿ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ﴾. والمغزى من هذا التذكير: إقامة الحجة عليهم؛ فهذا النبي الأمي الذي لم يتعلَّم الكتاب، ولم يسمع من أحباركم وعلمائكم ها هو يُخبِركم بما يجهلُه كثيرٌ منكم، وبما هو موجودٌ في كتبكم، ألا يدعوكم هذا للنظر والتفكير في دعوته ومراجعة أنفسكم قبل أن تُعرِضوا وتصدُّوا الناسَ عنها بلا حجَّة ولا بيِّنة؟

وفيه أيضًا تحذيرٌ ووعيدٌ لهم إن هم استمرُّوا في عنادهم؛ حيث إن بعض ما قصَّه عليهم قد تضمن عقوبات إلهية شديدة على مخالفاتٍ هي أهون من تكذيبهم للنبي، من مثل تبديلهم لكلمة حطَّة ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ ومثل وقوعهم في إثم الصيد يوم السبت ﴿ فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾.

وفيه أيضًا تنبيه المسلمين إلى حقيقة هؤلاء القوم، فهم إن كانوا بهذا العناد والمكابرة مع أنبيائهم الذين هم منهم ومن بني جلدتهم، فما المظنون بهم وقد انتقلت النبوَّة عنهم إلى غيرهم؟

سادسًا: تمييز الصالح منهم عن الفاسد، وعدم أخذ هؤلاء بجريرة هؤلاء، وهذا هو العدل والإنصاف، فمهما كان تاريخ هؤلاء القوم وواقعهم فلا يصحُّ التعميم في الحكم عليهم، ولا طمس النقاط المضيئة في تجربتهم ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾، ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾، ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾.

سابعًا: أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد جاء هذا في وصف نبيِّنا ﷺ ﴿ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ وفي وصف الثُّلَّة المؤمنة التي كانت تُحاول الإصلاحَ في بني

إسرائيل ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾، وفي هذا دليلٌ على أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى مع ضعف الرجاء بالاستجابة، وقد استثنى الله من عذابه هذه الثُّلَّة ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾ ووعَدهم بالثواب والأجر ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾.

ثامنًا: أن مستقبل هؤلاء اليهود المعاندين والكافرين بنبوَّة محمد ﷺ أنهم يعيشون كلَّ حياتهم في ضعفٍ وعذابٍ يتسلَّط عليهم الآخرون ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾.

وهذا ظاهرٌ من عهد الرسول ﷺ حتى تمكُّنهم مؤخرًا من تشكيل دولةٍ صغيرةٍ ومحاصرةٍ في أرض فلسطين، وهي دولة قلِقَة، وتتعرَّض بين الحين والحين إلى ضربات المقاومة، كما أنها تستمِدُّ قوتها ووجودها من ارتباطها بالقوى الصليبية. وهذه الحالة الاستثنائية من عمر الزمن لا تعارض تلك الحقيقة الكبيرة؛ أن اليهود فشلوا في أن تكون لهم أمَّة وحضارة واستقرار ككلِّ شعوب العالم، مع أنهم يمتلكون عمقًا تاريخيًا لا يختلف عن بقيَّة الأمم إن لم يَزِد على كثيرٍ منها.

دقائق التفسير

﴿ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾ هو سيدنا محمد ﷺ وهو أمِّيٌّ لا يقرأ ولا يكتب.

ويبدو أن هذا هو وَصفُهُ في التوراة والإنجيل، وكونه أُمِّيًّا أبلغ في تصديق نبوته؛ إذ لو كان قارئًا لوَجدَ المبطلون بابًا للشكِّ.

﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ مبدأ عظيمٌ من مبادئ التشريع الإسلامي، والطيب: كلمةٌ جامعةٌ لكلِّ ما هو نافعٌ ماديًّا ومعنويًّا، والخبيث: اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما هو ضارٌّ ماديًّا ومعنويًّا.

﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ ما يشقُّ عليهم.

﴿وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ من القيود والتكاليف الثقيلة التي كانت عقوبةً لهم على عنادهم وظلمهم، وكذلك التي ابتدعوها من أنفسهم جهلًا أو غلوًّا.

﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ عظَّموه.

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ قسَّمناهم إلى قبائل ومجموعات، فكانوا اثنتَي عشرة قبيلة من اثني عشر ولدًا، وهم أبناء يعقوب، يوسف وإخوته.

﴿فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ خرجت من الحجر اثنتا عشرة عين ماء صالح للشرب، لكلِّ سبطٍ منهم عين.

﴿ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ بيت المقدس.

﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ ظاهرة فوق الماء؛ لكثرتها وتزاحمها.

﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾ لا يقطعون عملهم.

﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ نزيد في امتحانهم كلَّما زادوا في فسقهم؛ عقوبةً لهم وتمحيصًا للإيمان الذي يدَّعون.

﴿قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ طلبًا للعذر منه تعالى؛ حتى لا نكون منهم ولا نُلام على تقصيرنا في دعوتهم ونصحهم.

﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾ وهذا من تمام معذرتهم بعد أن أدَّوا ما بوسعهم، وفيه إشارةٌ إلى أن مَن لم يَنْهَ عن السوء فقد استوجَبَ العقوبة، والله أعلم.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ أي: أخبرَ وبيَّنَ.

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ هم اليهود الذين ورثوا التوراة عن أسلافهم وعاصروا البعثة المحمدية.

﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ نزلت فيمن يشتَري متاع الدنيا وزينتها بتحريف الكتاب

والكذب على الله، وهم أحبارُ اليهود، وكانوا يُمَنُّون أنفسهم بمغفرة الله لهم بعد كلِّ ذنبٍ من هذا القَبيل، لكنَّهم يعودون إليه في كلِّ مرة، فلم يكن رجاء المغفرة صادقًا عندهم، ولو كانوا صادقين لتوقَّفُوا عن بُهتهم وتحريفهم.

﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ ﴾ يتمسَّكون به، ويحافظون عليه، ويُظهرونه ولا يكتمونه.

﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ خصَّ المصلحين من بين الصالحين؛ لأن المصلح هو من يبذل جهده في نصح الآخرين وتبيين الحقِّ من الباطل، وهؤلاء هم الذين يقوم بهم الدين، أما الصلاح بلا إصلاح فهو صلاحٌ زائلٌ وذاهبٌ في غمرة الباطل.

﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ ﴾ خلعناه من مكانه ورفعناه فوقهم كأنه سحابة ثقيلة.

﴿خُذُوا مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ ﴾ بعزمٍ وحزمٍ دون ضعفٍ أو تردُّدٍ.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤) وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧) مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٨) وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩) وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠) وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٨١) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١٨٤) أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥) مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٦) يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٧) قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨)﴾

سبيل الهداية وأسباب الضلال

بعد هذا التطواف في تاريخ الدعوات وتجارب الأنبياء مع شعوبهم في الجزيرة والشام ومصر، على اختلاف تلك الشعوب في طبائعها ومستوياتها الثقافيَّة والحضاريَّة، وعاقبة المحسنين منهم والمسيئين، شرعت الأعراف في شرح سبيل الهداية وتمييزه عن أسباب الضلال، لتترك الناس أمام مسؤولياتهم فيما يختارون وما يسلكون:

أولًا: إن الإيمان هو نداء الفطرة المغروس في كينونة الإنسان، وإن الإنسان لا يحتاج إلى جهدٍ

كبير لاكتشاف هذا الغرس مهما كانت أغشية الجهالة والغفلة ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾.

ثانيًا: إن فتح منافذ المعرفة شرطٌ في الهداية والوصول إلى الحقيقة، والتحرُّر من قيود الجهل والغفلة والتقليد الأعمى ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ﴾، ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟﴾، ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾.

ثالثًا: إن المعرفة البشريَّة لها حدودها؛ لأن وسائل البشر محدودة أيضًا، وهذه المحدودية تتناسَب مع وظيفة الإنسان على هذه الأرض، فهو يعمِّر الأرض ويفكِّر في الملكوت الأوسع من خلال آثاره في عالم الشهادة، فالشهادةُ عملٌ ومسؤوليَّةٌ، والغيبُ إيمانٌ وتأملٌ وتدبُّرٌ ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾.

رابعًا: إن العلم النظري من غير تزكيةٍ وتربيةٍ لا يقود إلى الهداية؛ إذ سيكون طَوع الهوى والشهوة والمصلحة الآنيَّة ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾.

خامسًا: إن محور الهداية الحقَّة إنما هو التوحيد ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾ فالأسماء الحسنى له وحده بمعانيها وصفاتها، وهي الشارحة والمبيِّنة لحقيقة التوحيد، وإن غير الله مهما كان شأنه لا يختلط مقامه بمقام الله ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا

﴿وَلَا ضَرًّا﴾ وإن المشرك لا يقبل له عذر ﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ﴾.

دقائق التفسير

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ صورةٌ من صور الغيب لا يعلم كُنهَهَا وحقيقَتَها إلا الله، وإن كان المغزى منها واضحًا، وهو الإقرار الفطري بوحدانية الخالق وربوبيَّته، ولا يبعد هذا عن قوله تعالى في خلق السموات والأرض: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، فالكونُ كلُّه مخلوقٌ له ويسبح بحمده في أصل تكوينه ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾(١).

والناموس الكوني الموحَّد الذي يجمع أجزاء هذا الكون كلها في نظامٍ متكامل ومتناسق شاهد على وحدانية الخالق، أما الخوضُ بلا دليلٍ من الوحي في كُنْه الغيب وذلك العالم السابق على عالم الشهادة فهو من التكلُّف الذي لا يُنتج عملًا، ولا يُوصل إلى معرفة، ويُغني عن هذا كلِّه قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠].

﴿نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ الرجل الذي تعلَّمَ الكتابَ وأصبح من علماء أهل الكتاب.

﴿فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾ تنكَّر لها وابتعد عنها.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ أي: بهذه الآيات وتلك العلوم إلى منازل الأبرار.

﴿وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ ركَنَ إليها والْتَصَقَ بالدنيا مُؤْثِرًا متاعها الزائل على ما عنده من العلم.

﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ أي: إن زجرته أو تركته فهو في الحالَين سواء،

---

(١) تكرَّر هذا النصُّ الكريم في سورتي الجمعة/ ١، والتغابن/ ١.

وهو مَثَلٌ لمن تأتيه النُّذُر والمواعظ فلا يتغير ولا يتعظ، ويبقى لاهثًا وراء شهواته وملذَّاته، وهي صورة مركَّزة في العالِم الذي عنده الآيات والدلائل، فينسلخ منها ويذهب وراء الجاه والمال، يبيع دينه وعقله وأمانته، وهو حالُ كثيرٍ من ذوي العلم في كلِّ زمان، والعياذ بالله.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ هيَّأنا لها.

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ هي في ذاتها صالحة للفهم والبصر والسمع، لكنَّهم يعطِّلونها عن معرفة الحقِّ، ولا يستعملونها إلا في أهوائهم وشهواتهم؛ ولذلك شبَّهَهم بالأنعام.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ وهي أسماء توقيفيَّة ورَدَ الوحي بها مثل: الله، الرحمن، الرحيم، الغفور، الودود، وليس للمخلوق أن يخترع لخالقه اسمًا يدعوه به ولو كان معناه صحيحًا ومقبولًا، فالوقوف عند ما سمَّى الله به نفسه هو من تمام التعبُّد وحسن الأدب.

﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ أي: يجحدونها ويكذِّبون بها، ويدخل فيه أيضًا الاستهزاء والتشكيك والإشراك، وكل ما يُوحي بسوء الأدب وقلَّة الإجلال والتعظيم.

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هو نوعٌ من مكر الله بالمتكبِّرين الذين يظنون أنهم يمكرون بالله وبالمؤمنين، فيُعطيهم الله ما شاءوا من نعيمٍ وجاهٍ وسلطان ثم يأخذهم وهم سادِرون في غيِّهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ [الأنعام: ٤٤].

وهذه صورةٌ من صور الاستدراج، ومنه العلم الذي يؤتيه الله لبعض الناس فيصدّهم عن سماع الحقِّ من غيرهم عنادًا وتكبرًا، والمقيم على البدعة وهو فرِحٌ بها ويظنُّ أنه خيرٌ من بقيَّة الناس هو استدراجٌ كذلك، والعياذ بالله من كلِّ ذلك.

﴿وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ أمدَّ لهم فيما يشتهون وأمهلهم، وهذا تفسيرٌ لمعنى الاستدراج، وفيه التأكيدُ أن الاستدراج هو من كيد الله الذي يقابل كيدهم.

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ﴾ بمعنى: أنهم لو أعمَلُوا عقولهم لما اتَّهَمُوا نبيَّهم بالجنون، وهو يأتِيهم بكلِّ هذه البيِّنات، وهو الصادقُ الأمينُ في حياته وسلوكه معهم.

﴿فِي طُغْيَنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ يتخبطون كما يتخبط الأعمى في الليل البهيم.

﴿أَيَّانَ مُرْسَنهَا ﴾ نهايتها، كأنها المحطة التي ترسُو عندها سفينة الحياة وتتوقف.

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ﴾ تعليمٌ للعالِمِ إذا سُئِلَ عما لا يعلَمُه.

﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ﴾لا يُظهرها في وقتها إلا الله، كأنها حقيقة واقعة وموجودة لكنها خفية على مدارك البشر، وفيه تأكيدٌ لحتميَّة مجيئها، وإشارةٌ أن الزمن عند الله واحد، وإنما يفرق الماضي عن المستقبل بالنسبة للمخلوق ومداركه المحدودة.

﴿ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَوَتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ثقيلة بحقيقتها وأهوالها، وثقيلة من حيث عجز المخلوقين عن إدراكها والتنبُّؤ بها.

﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ كأنك تعلمها لشدة اهتمامك بمعرفة وقتها وسؤالك عنه، وأنت لست كذلك؛ لأنك تعلم أن هذا لله وحده ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾.

﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ ﴾ فما يُصيب الإنسان من فقر ومرض وخسارة وحوادث متنوعة دليلٌ على أنه لا يعلم الغيب، ولو كان يعلم الغيب، لتجنَّبَ الكثير من هذا، ولتحصَّل له الكثير من الخير، والخيرُ هنا هو خيرُ الدنيا، وكذلك السوء سوء الدنيا، أما خيرُ الآخرة فيتحصَّل بالإيمان والعمل الصالح، والرسول ﷺ هو المثل الأعلى، والأسوة الحسنى.

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠) أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (١٩٢) وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ (١٩٣) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ (١٩٥) إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٦) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (١٩٧) وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (١٩٨) خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (٢٠١) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (٢٠٢) وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٣) وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤) وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٥) إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ (٢٠٦) ﴾

تلخيص وتوجيهات ختامية

تضمَّنَت خواتيم سورة الأعراف النقاط القوية التي تُلخِّص رسالةَ السورة من أولها إلى آخرها:

أولًا: التذكير بقصة الخلق الأولى وما تضمَّنَته من درسٍ عميقٍ في التوحيد الذي هو أساس الدين وركنه الأول والأهم ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾، ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

ثانيًا: مناقشة المشركين واعتقاداتهم الباطلة في معنى الألوهية، وتصوراتهم الخاطئة عن علاقة الخالق بالمخلوق ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ

يَنصُرُونَ ﴾، ﴿فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾.

ثالثًا: الحذر من الشيطان وتلبيساته ووسوساته ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾.

والمناسبة هنا أن الشيطان هو الذي أضلَّ أبَوَينا حتى أكلا من الشجرة المحرمة، وهذا هو ديدَن الشيطان مع ذريَّة آدم حتى يرِثَ الله الأرض ومن عليها.

رابعًا: التمسُّك بالقرآن الكريم، فهو العاصِم من مكائِد الشيطان ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾.

خامسًا: الذكر المستمر، وبناء الروح القوية بالله، الموصولة بمعرفته والمتسامية على دناءات الدنيا ومستنقع شهواتها وآثامها ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾، ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾.

سادسًا: السجود لله وحده والذي هو رمز للتوحيد والخضوع العملي لله الخالق العليِّ العظيم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴾ في تذكير بالمعصية الأولى في قصة الخلق؛ حيث تكبَّر إبليس ورفَضَ الخضوع لأمر الله، بينما كان الملائكة ولا يزالون ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴾ والإنسان مخيَّر بين أن يسلك طريق الملائكة أو يسلك طريق الشيطان، وهو يتحمل مسؤولية خياره وقراره.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ آدم ﷺ.

﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ حواء، خلقها الله من ضلع آدم.

﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ ليستقر ويشعر بالراحة والطمأنينة، وهذا هو دور كلِّ امرأة مع زوجها، وقد أعطاها الله من الخصائص ما يؤهِّلها للقيام بهذا الدور، الذي يُضيف على الحياة قيمة نفسيَّة وجماليَّة أرقى بكثير من تلك القيم المادية الجامدة.

﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا ﴾ تعبيرٌ عن الجماع.

﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت ﴾ كبر الحمل الذي في بطنها.

﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا ﴾ مولودًا سليمًا ومعافى من كلِّ نقصٍ ومرضٍ.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ انتقال والتفات إلى حال المشركين من ذريَّة آدم الذين يُعطيهم الله الأولاد الصالحين، ثم يشركون فيهم أصنامهم بالتسمية؛ كعبد العزى، وعبد اللات، وبالنذور والقرابين ونحوها.

والالتفات ظاهر في السياق الآتي كلِّه، فهو مناقشةٌ لعقيدة الشرك الصارخة والمتغلغلة في نفوس المشركين، ولا يمكن أن يكون الخطاب في كلِّ هذا موجَّهًا لآدم وحواء، فهما قطعًا لم يكونا من المشركين.

﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ بيان لعجز الأصنام ونقصها قياسًا بما لدى البشر الذين يعبدونها، فالمشركون يستطيعون المشي والبطش والبصر والسمع، فهم أقوى وأقدر من أصنامهم.

﴿فَلَا تُنظِرُونِ ﴾ لا تؤخِّروني أو تمهلوني.

﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ﴾ الذي ينصُرني ويؤيدني.

﴿وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ فعيون الأصنام مفتوحة كأنها تنظر لكنها لا تنظر؛ لأنها منحوتة بأيدي البشر، وليست عيونًا حقيقةً كتلك التي خلقها الله في البشر، ولا يبعُد في السياق أن يكون المقصود المشركين أنفسهم، فهم ينظرون إليك يا محمَّد لكنهم لا يُبصِرُون الحقَّ الذي معك.

﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾ صفتان للداعية الناجح؛ يأخذ بالعفو حلمًا وتكرُّمًا وتغافلًا عن سوءات الناس ومثالِبهم، ويأمر بالعُرف، أي: المعروف الذي هو كلُّ طيِّبٍ من قولٍ وعملٍ وسلوكٍ، والسياق بعيد عن معنى الصدقة، وأن المقصود أخذ العفو من أموال الناس، وهو الزائد عن حاجتهم، وإن ورَدَ هذا المعنى في سياقٍ وموضعٍ آخر، والله أعلم.

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ﴾ دافعٌ يدفعك للشرِّ والمعصية من وسوسةٍ وفتنةٍ وتزيينٍ للباطل.

﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ﴾ اطلب الحماية منه سبحانه، ولا تغترَّ بما عندك من علمٍ وتعبُّدٍ.

﴿طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ عارِض من الوسوسة والأفكار السيئة.

﴿تَذَكَّرُواْ﴾ الحقائق الإيمانيَّة بذكرهم لله وتلاوتهم للقرآن واستِذكارهم لما هم فيه من نعمة الطاعة وأُنس المناجاة.

﴿وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ﴾ الشياطين يمدُّون إخوانهم المشركين بما يدفعهم أكثر نحو الضلال والجريمة والتمسك بالعادات السيئة.

﴿وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ﴾ يطلبون الآيات على هواهم، فإن لم تأت كذلك لامُوا النبيَّ ﷺ كأنه هو من ينزِّل الآيات، وكذلك يفعل أهل الباطل مع علماء الدين، يطلبون الفتاوى على مقاييسهم، فإن تمسَّك العلماء بما عندهم من الحقِّ لامُوهم وعاقبوهم وحاربوهم.

﴿تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ﴾ تذلُّلًا لله، وتقرُّبًا إليه، وخوفًا منه.

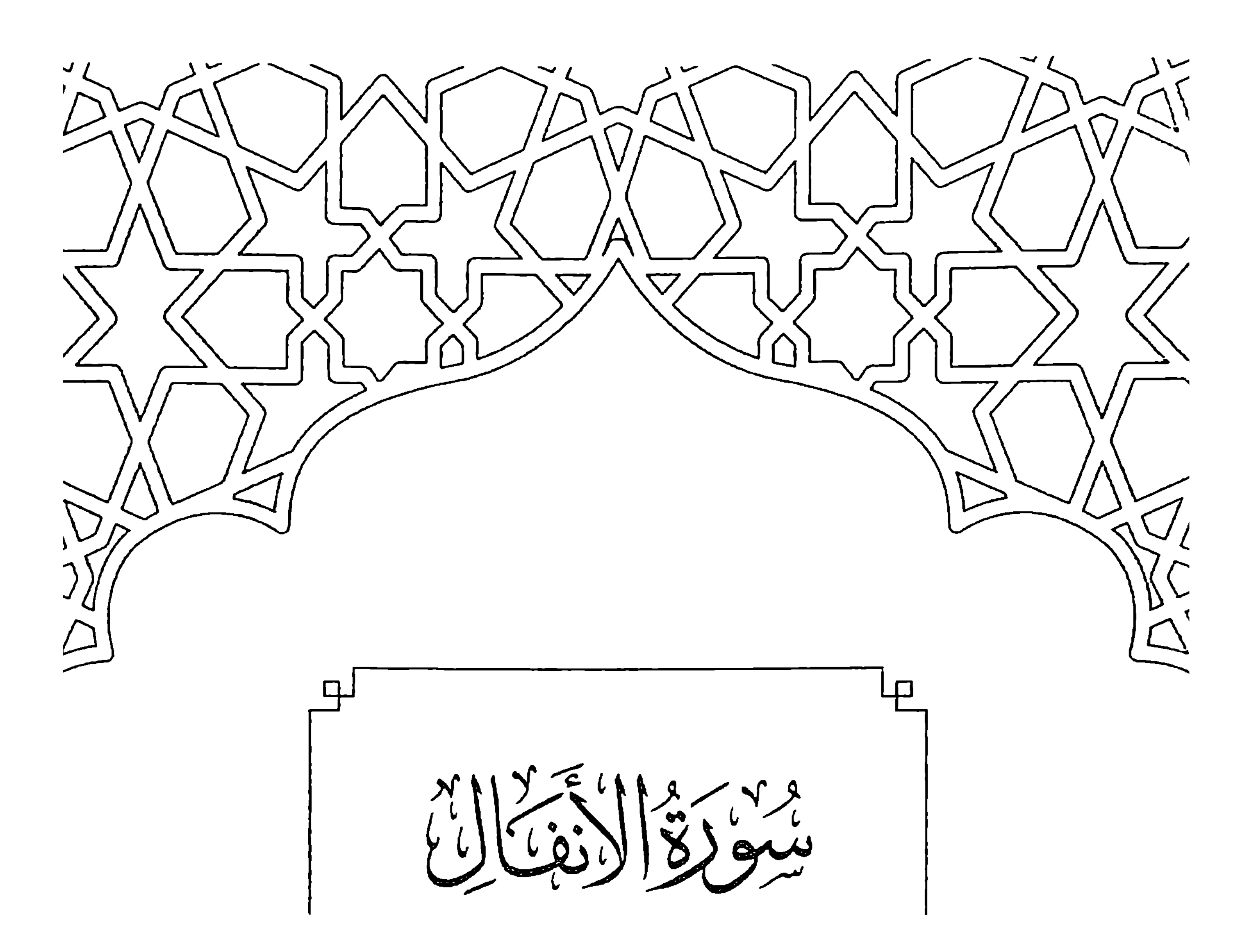
﴿وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ في القرآن أو الدعاء أو الذكر بأنواعه، فيكفي الصوت المفهوم دون

الصراخ والصياح الذي لا مُوجِبَ له.

﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ بداية النهار وآخره، وفيه الإشارة للمداومة وترك الانقطاع.

﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ فمن لم يذكُر الله فهو غافِل.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ الملائكة.



سورة الأنفال

المجلس الخامس والسبعون: يوم الفرقان

المجلس السادس والسبعون: تمايز الصفوف

المجلس السابع والسبعون: بيان المعركة

المجلس الثامن والسبعون: فقه الجهاد

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾

الموضوع الأساس لسورة الأنفال هو معركة بدر، ولذلك فهي من أوائل السور المدنيَّة، وقد تخصَّصت في الشأن العسكري عقيدةً وتربيةً وتجربةً وأحكامًا، إنها تتحدَّث عن الجيش، وليس عن المجتمع المدني، وهذه النقطة جديرة بالملاحظة لكلِّ من يريد أن يفهم طبيعة هذا الدين؛ لأن الخلط بين الفقه العسكري والفقه المدني قد ولَّد إشكالات كثيرة لدى الباحثين والمهتمِّين فضلًا عن غيرهم.

في الدرس الأول تتحدَّث الآيات عن معركة بدر من حيث فلسفتها الكليّة وعمقها الثقافي والحضاري ومسوغاتها وأهدافها، إنها الأسس المبدئيَّة التي ينبغي استحضارها قبل الدخول في مجريات المعركة وأحداثها وأحكامها التفصيليَّة:

أولًا: إنها معركة عقيدة ومبدأ، لا معركة مصالِح ومكاسِب، إنها معركة المؤمنين حقًّا ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ في مُقابل الكافرين المجرمين الذين ﴿شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

ثانيًا: إن الله تولَّى أمرَ المؤمنين في هذه المعركة، فأمَدَّهم بأسباب النصر ومقوِّماته ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾، ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ ومع الملائكة كانت المؤيِّدات الأخرى ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ ثم بعد كلِّ هذا يأتي التأكيد الربَّاني أن الله تبارك وتعالى هو الذي قتل الكافرين وردَّ كيدهم ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ﴾.

إن القرآن هنا يُؤسِّس لمعنًى جديد في القتال يختلف عن ذلك القتال الذي يألَفُه الناس، إنه القتال الذي يربِط عالم الغيب بعالم الشهادة، وهذا الربط له ظلاله في طبيعة القتال وأساليبه وآدابه وأسبابه ونتائجه، القتال الذي يحرص فيه المقاتل أن ينقذ عدوَّه من وحل الشرك والشرّ والمصير البائس إلى الرحمة والعدل وجنَّة الخُلد مهما كان جنس هذا العدو وشكله ولونه.

وهو ليس قتالًا من أجل الإكراه على الدين ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، بل هو لرفع الظلم والأغلال التي تقيِّد حريَّات الناس في خياراتهم وقراراتهم، ثم بعد هذا يتحمل كلُّ إنسان مسؤوليَّته، إنه قتال ليس لكلِّ المخالفين أو الكافرين، وإنما هو لمن ﴿شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ ظلمًا وعدوانًا حتى منعوا الناس من سماع القرآن، ومنعوا المؤمنين من الصلاة والطواف والجهر بدعوتهم، أما مع غير هؤلاء فالدعوة هي الأصل، وسلاحها البيان والحوار والأخلاق والقدوة الحسنة وليس السيوف والسِّنان، فالسيف ليس وسيلةً للهداية، والذي يهتدي تحت حدِّ السيف ما هو بمُهتدٍ على الحقيقة.

ثالثًا: إن رسالة المعركة كانت لإحقاق الحقِّ وإبطال الباطل ﴿لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ وهذا معنًى واسع لم ينتبه له إلا القليل؛ فإحقاق الحقِّ غير الحقِّ، وكذلك إبطال الباطل، فالحقُّ قبل المعركة وبعد المعركة سواء، وكذلك الباطل، لكن الجديد والذي هو غاية المعركة وهدفها الكبير إنما هو (إحقاق الحقِّ) و(إبطال الباطل)، فالحقُّ الذي ليس له سيادة على أرضه هو حقٌّ ضائعٌ، أشبه بالنظريات الفلسفيَّة والأماني الأفلاطونيَّة التي لا وجود لها إلا في بطون الكتب.

إن الدولة الجديدة التي أنشأها الرسول ﷺ لا يمكن أن تستمر دون فرض سيادتها على الأرض، وقد كان الاختبار الأول لهذه السيادة هو اختراق أبي سفيان وقافلته لأراضي هذه الدولة دون علمٍ ولا إذنٍ، وهو أمرٌ مرفوضٌ لدى كلِّ دول العالم قديمًا وحديثًا، من هنا كان اعتراض القافلة، ولو مرَّت القافلة دون اعتراض فلن يكون هناك معنًى لهذه الدولة الجديدة.

قيادة قريش أدركَت هذا المغزى ووصَلَتها هذه الرسالة، فتجهَّزَت للردِّ وليس لحماية القافلة

فقط؛ ولذلك قال أبو جهل بعد سماعه بخبر نجاة القافلة: (والله لا نرجع حتى نرِدَ بدرًا، فننحر الجَزُور، ونشرب الخمر، فتسمع بنا العرب وبمسيرنا، فلا يزالون يهابوننا)[1].

فالهيبة هي هاجس أبي جهل وليس العِير، ووجود دولة تتحكم في الطرق التجارية بين مكة وبلاد الشام يَخدِش هذه الهيبة، وعلى هذا اندَلَعَت المعركة لتُقرِّر في النهاية لِمَن السِّيادة على هذه الأرض، ثم تبِعَتْها سلسلةٌ من المعارك، حتى أقرَّت قريشٌ بسيادة المسلمين على أرضهم في صلح الحديبية، فكان بذلك الفتح المبين.

رابعًا: تعظيم المعركة وتنقِيَتها من الشبهات والشائِبات؛ حيث إن اعتراض القافلة قد يلتبِس بالأغراض الماديَّة الصغيرة؛ ولذلك استهل القرآن هذه السورة بقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ وهي الأموال المُحصَّلة بعد الحرب، فكان الجواب سريعًا ومقتضبًا: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

فالمعركة ليست معركة غنائم وأنفال، ولا استرجاع حقوقٍ ماليَّة اغتصَبَتْها قريشٌ من المهاجرين، كما يُوهِم كلام بعض من كتب في فقه السيرة، والقرآن كأنه يقول هنا للمسلمين: اتركوا الأنفال، فالله سيُمضي بها حكمَه، وهذا المعنى أكَّده بعد بضع آيات: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾.

إن يوم الفرقان لا يمكن أن يكون يومًا لاسترجاع الأموال المغصوبة، أو الثأر لأيام العذاب التي تحمَّلَها المستضعفون في مكة، هذه حقوق نعم؛ لكنها صغيرة جدًّا أمام عظمة يوم الفرقان.

خامسًا: ابتداء التشريع العسكري، ونزول الأحكام العمليَّة المنظِّمة لأداء الجيش وسلوك الجند ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) ينظر: السيرة النبوية للإمام أبي محمد عبد الملك بن هشام الحِميَري المُعافري (ت ٢١٣) (٣/ ١٦٦/ مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط. ٢، ١٣٧٥ - ١٩٥٥م، تح مجموعة من المحققين).

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ الغنائم، واحدها النَّفل وهو الزيادة؛ وسمِّيت بذلك لأنها زيادة على المقصود من الحرب، فالنصر أساسٌ والنفلُ زيادةٌ، والله أعلم.

والفعل (سأل) إذا عُدِّي بنفسه كان معناه: طلب الشيء، وإذا عُدِّيَ بـ (عَن) كان معناه: طلب العلم به، والصحابة ﷺ لم يسألوا الأنفالَ، وإنما سألوا عن حُكمها، وهذا هو دَأبُهم في كل ما يستجد لهم.

﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ﴾ أمرها لله، وتنفيذ الأمر موكول لرسول الله ﷺ، كأنه أراد تأخيرَ بيان الحكم حتى تستقرَّ الأسس المتينة للتربية الجهاديَّة، والتأخير بحدِّ ذاته تربية وتزكية للنفوس، تسمو بها عن الاهتمام بحطام الدنيا وغنائمها إلى معالي الأمور المتعلقة بأصل البعثة، والغاية الجليلة لهذه الرسالة.

﴿وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أمر بإصلاح العلاقة بين المؤمنين، وفيه الإشارة إلى أن التعلق بحطام الدنيا سبب لفساد العلاقة بين الناس.

﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ تعظيمًا لله، وهذا واحدٌ من الأعمال القلبيَّة الجليلة المنبثقة عن الإيمان.

﴿زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ الإيمان واحد، لكنَّ حضوره في القلب متفاوت، وآثاره في الخُلق الباطن والسلوك الظاهر متفاوتة أيضًا، وبقدر ذكر الله وتدبُّر آياته يكون المؤمن أقدَرَ على استحضار الإيمان وجَني ثماره المرجوَّة.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ذِكْر الإنفاق عقب الحديث عن الغنائم فيه دلالة تربويَّة دقيقة لا تخفى على متدبِّر.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ هم المؤمنون الصادقون الذين تظهر عليهم آثار الإيمان.

﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أخرجك من المدينة إلى مياه بدر.

﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ كارهون لمواجهة قريش من دون إعداد واستعداد؛

حيث إن كثيرًا منهم قد خرجوا لاعتراض القافلة فلم يأخذوا أُهبَتَهم للقتال الحقِّ.

﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ﴾ لضعف استعدادهم؛ ولأنها أول مواجهة لهم، وهذه من صفات النفس البشرية، لكنها صورة تقابلها صورة أخرى عبَّر عنها أشدَّاءُ الصحابة ﷺ، كما هو مُفصَّلٌ في كتب السيرة، كمقولة سعد والمقداد وغيرهما.

﴿إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ﴾ العير أو النفير.

﴿غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ﴾ العير؛ لأنها غنيمة سهلة، والشوكة: القوة.

﴿وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ آخرهم، ويعني استئصال الكفر من الجزيرة، وقد تحقق بالفعل كما أخبر سبحانه.

﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ﴾ بعد التردُّد والمجادلة، لجأ المسلمون إلى الله، وهذا هو دأب المسلم الحقِّ؛ يسأل ويناقش ويجادل، فإذا عزم الأمر انتهى كلُّ شيء، وباشر بالتنفيذ مع الاستعانة بالله، فهو مصدر كلِّ قوة.

﴿مُرۡدِفِينَ﴾ مددًا وسندًا لكم، فالصحابة أصلُ الجيش، والملائكة تبعٌ لهم، كما يتبع الرديف صاحبه، وهذا أَولَى من تفسيره بالُمتتابِعِين، والله أعلم.

﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ﴾ لأن الإنسان يأنَس بالأسباب ويطمئن لها، كما يأنَس الظمآن بالماء، وهذه فطرة لا تعارض أصل الإيمان.

﴿ إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنۡهُ﴾ فلا ينعس في وقت الشدَّة إلا من اطمأنَّ قلبُه، فالنعاس دليل الاطمئنان، وهو كذلك يعيدُ للجسم نشاطَه، بخلاف الذي يبقى ساهرًا قلِقًا على وتيرةٍ واحدةٍ.

﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ من مؤيدات الله أيضًا لتلك الثلَّة المباركة؛ حيث أذهب عنهم بماء السماء ما علِقَ بهم من وعثاء السفر، وكآبة المنظر، فتطهروا وابتهجوا، ولا شكَّ أن هذا الاستبشار والابتهاج بنزول الغيث يترك أثَره

الطيب في النفوس، ويُسهِم بتنظيف القلوب من وساوِسِ الشيطان وكدوراته.

﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ تعليم للملائكة؛ لأنهم لم يكونوا على علم بقتال الآدميين، وفيه إشارة إلى ضرب مكامن الخطر؛ الرأس الذي هو مصدر القرار، واليد التي هي مقبض السلاح، بلا مُثْلة ولا تمزيق للجسد؛ لأن هذه كلها من بواعث التشفي والحقد الكريه، وليست من أخلاق المؤمنين.

﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ أي: لا تنهزموا وتُعطُوا الأعداء ظهوركم.

﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾ استثناءٌ أول من النهي، وهو صورة المقاتل الذي يفرُّ ويكرُّ، ويتنقل في الميدان بحسب ما تقتضيه ضرورة المعركة.

﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ استثناءٌ ثانٍ، وصورته الانسحاب من المعركة إلى مكان يحتشد فيه المسلمون لتنظيم صفوفهم، فهذا وذاك من الصور المشروعة التي لا تدخل في النهي، وهما يصلُحان للقياس في كلِّ ما ظاهره الفرار، وقصده النكاية بالعدوِّ، والله أعلم.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ لأن الله هو الذي أعطاكم القوة، وأيَّدكم بأسباب الثبات والنصر.

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ النفي ليس مسلَّطًا على أصل الرمي، فالرمي قد حصل منه ﷺ لكنه مسلَّط على آثاره، فالآثار التي ترتَّبَت على هذا الرمي كانت بالتدخُّل الرباني وليس بصورة الرمي الظاهرة، فالتراب الذي ألقاه عليهم رسول الله ﷺ لم يكن ليصِلَ إلى عيونهم لولا إرادة الله وحده.

﴿وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ إشارة إلى أن كلَّ نعمةٍ في هذه الدنيا تحمِلُ معنى الابتلاء؛ فالصحة ابتلاء، والغنى ابتلاء، والنصر ابتلاء، لكنها ابتلاءات حسنة؛ لما فيها من نعيمٍ وبهجة ولذَّة، بخلاف المرض والفقر والنكبة، والعاقبة في كلِّ ذلك لمن صبَرَ وشكَرَ.

﴿مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ مضعفهم وذاهب بقوتهم ومكرهم.

﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾ الخطاب للمشركين على صيغة التهكُّم، والفتح: النصر والغلبة والسيادة، وهذا هو الذي قصَدُوه من الحرب بعد نجاة قافلتهم.

﴿وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ﴾ إن عُدتم لمحاربة النبي ﷺ عُدنا لمناصرته، وفيه إشارة أن مَن عادى رسول الله ﷺ فهو مخذولٌ لا محالة عاجلًا أو آجلًا.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمۡ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗۚ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ فَيَرۡكُمَهُۥ جَمِيعٗا فَيَجۡعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾

محور هذا المجلس قوله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾، فالتمايز سنَّة من سنن الله في هذه الحياة، وهو غاية الابتلاء والاختبار ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[2]، وقد عرضت سورة الأنفال لصورتين متباينتَين ومتمايزتَين:

الصورة الأولى: صورة المؤمنين الطيبين، وقد جاءت ملامحها الجليَّة في هذه التوجيهات الربَّانيَّة، وكما يأتي:

أولًا: الإيمان المقترن بالعمل والتسليم والطاعة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾.

ثانيًا: الإيمان المقترن بالعلم وفتح منافذ التلقي ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾.

ثالثًا: الإيمان المقترن بالمراقبة والمحاسبة الذاتيَّة ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

رابعًا: الإيمان المقترن بالوفاء وحسن الالتزام ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾.

خامسًا: الإيمان المقترن بالإصلاح والحفاظ على هويَّة المجتمع وسلامته ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾.

سادسًا: الإيمان الذي يقود إلى الحياة الأفضل في كلِّ جوانبها ومجالاتها، في الدنيا والآخرة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾، ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ

---

(٢) تكرَّر هذا النصُّ الكريم في كتاب الله مرتين: في سورة هود/ ٧، وسورة الملك/ ٢.

مُسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ مع الحَيطة والحذر من الفتنة والتنافس المحرَّم ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾.

الصورة الثانية: صورة الكافرين الخبيثين الذين أعماهم الحسد، وأصَمَّهم العناد، وهي الصورة المعكوسة عن الصورة الأولى بكل تفاصيلها وملامحها، يضاف إليها:

أولًا: الكفر المقترن بالتعالي والتكبُّر على الحقِّ ﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ وهي صورة للعناد والمكابرة لا تشبهها صورة في كلِّ ما حكاه القرآن عن المكذِّبين الضالين في الأقوام السالفة حتى فرعون الذي قال: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات: ٢٤]، حين أدركه الغرق قال: ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٩٠].

ثانيًا: الكفر المقترن بالتعالي والتكبر على العلم وسدِّ منافذ المعرفة ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾، ﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾.

ثالثًا: الكفر المقترن بالتشبُّث بالعادات والتقاليد ولو كانت خرافة وسفاهة ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ ﴾.

رابعًا: الكفر المقترن بالصدِّ عن سبيل الله وانتهاك الحرمات ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ ﴾.

خامسًا: الكفر المقترن بمعاداة المؤمنين ومحاربتهم بكلِّ أدوات الحرب ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴾.

سادسًا: الكفر الذي يقود إلى الخسارة في الدنيا والعذاب في الآخرة ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ مع أن باب التوبة مفتوحٌ لهم ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾.

دقائق التفسير

﴿وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ ﴾ تنفضُّوا وتتخلوا عنه وتتركوا طاعته ومناصرته.

﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ إشارة إلى صلة الإصغاء بالاستجابة، فمن فتح منافذ المعرفة عنده كان أقرب للحقّ وأولَى به.

﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ سمعوا بآذانهم ولم تسمع قلوبهم، سماع بلا تدبُّر ولا تفكُّر.

﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ الدوابُّ: كلُّ ما دبَّ على الأرض.

و﴿ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ هم كلُّ من عطَّل بإرادته منافذ المعرفة، وحجَبَ عقلَه عن التفكير، فهؤلاء شرار الخلق، وأما من وُلد ناقص الأهلية في عقله وحواسِّه فهو معذور، وهو أهلٌ للرحمة والمعونة.

﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ ﴾ هذا جَارٍ على سنن الله؛ فمن عطَّل عقلَه وسمعه وبصره استحقَّ هذه النتيجة، وليس في الآية معنى التقدير الجبري الذي يُفقِد المكلَّف القدرة على الاختيار.

﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ الحياة الطيِّبة والسعادة الدائمة في الدارين، وهذه غاية الرسالة المحمديَّة ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ بمعنى أنّه تعالى أقربُ إلى العبدِ مِن نفسِه، فلا تخفَى عليه خافِية مهما بالَغَ المرءُ في تحسين صورته الظاهرة أمام الناس، والمقصود دعوة المؤمن لمراقبة داخله وأعماله الباطنية، ونيَّته الخفيَّة.

﴿فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ لأن المجتمع كالسفينة الواحدة، وظهور الفساد في المجتمع دون نكيرٍ يُعرِّض المجتمع كلَّه للهلاك، والمقصود بالآية التنبُّه إلى ضرورة الإصلاح، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

﴿إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تذكيرٌ بحال المسلمين في مكة.

﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ يأخذوكم بسرعة وقوَّة؛ لأنهم أكثر وأقوى منكم.

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ اختبار وامتحان، وليس فيهما منقصة، فالدنيا كلّها اختبار وامتحان ﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ﴾ [الملك: ٢]، والمقصود التنبُّه لشروط النجاح في هذا الاختبار، وليس الابتعاد والانعزال عنه.

﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ نورًا تفرِّقون به بين الحقِّ والباطل، وظهورًا لرايتكم حتى لا تخفَى، ولا تلتبس برايات الباطل.

﴿لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ ثلاثة خيارات كان المشركون يفكرون بها ويعملون على تنفيذها أو تنفيذ واحد منها؛ حبس الرسول ﷺ، أو قتله، أو إخراجه من مكة، وقد اختار الله لنبيِّه الخروج، وهو من مكر الله بالمشركين ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ حيث جاء الخروج بالنصر والفتح والتمكين.

وهنا إشارة إلى أن ما يريده لك العدوُّ بحسب طريقة تفكيره ليس حتمًا أن يكون شرًّا لك، فالواجب النظر في خياراتك وإمكانيَّاتك ومآلات أمورك، ولا عليك بعد هذا إن كانت وافَقَت رغبة العدو أو خالفتها.

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ يعني: عذاب الاستئصال؛ لأنه يعمُّ ولا يخصُّ؛ ولذلك إذا أَذِنَ الله بهلاك قومٍ وفيهم نبيُّهم أمره بالخروج.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ ترغيبٌ لهم بالتوبة والرجوع إلى الحقِّ، وجاء بالفعل المضارع؛ إشعارًا بالحركة والمتابعة، فلو ظهر فيهم بوادر الصلاح والاستجابة للحقِّ ولو على مراحل، ولو طال الزمن، فإن هذا مُؤْذِنٌ برفع العذاب عنهم، بخلاف ما إذا أصرُّوا جميعًا على الكفر، وتعطيل الفكر، وغلق منافذ المعرفة.

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: كيف لا يستحقُّون العذاب وهم يصدُّون عن المسجد الحرام؟

﴿إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ﴾ صفيرًا بالأفواه وتصفيقًا بالأيدي؛ تشويشًا على صلاة المسلمين وسخرية منهم.

﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ﴾ فالخبث مهما تنوَّعَ واختلفت أشكاله وصوره فإن عاقبته واحدة، كالحطب الذي يأتي من أشجارٍ مختلفة وبأشكال مختلفةٍ لكنه يوضع بعضه فوق بعض ثم يُرمى في النار، وهذا مثال للخبث المعنوي في المعتقدات والأعمال الظاهرة والباطنة، والتي تتجمع لمحاربة الحقِّ وأهله لكن عاقبتها الخسران ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٣].

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ فيه سعة رحمة الله حتى بالكفَّار المحاربين، فبمجرَّد توبتهم واعترافهم بخطيئتهم يغسِل الله ما عليهم، ويعودون كيوم ولَدَتْهم أمهاتهم أنقياء أبرياء، وإذا كان هذا للكافر المحارب، فما بالُك بالمؤمن الذي يخشَى ذنبه ويرجو رحمة ربِّه؟!

﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي: سنَّة الله فيمَن تقدَّم من الأمم السابقة أن يُهلِكَهم الله إن هم أصرُّوا على الكفر والتكذيب بالحقِّ بعد أن أقام الله عليهم الحجَّة، واستبانَت لهم السبيل.

---

(٣) تكرَّر هذا النصُّ الكريم في موضعَين من كلام الله: في سورة الأعراف/ ١٢٨، وسورة القصص/ ٨٣.

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾

بيان المعركة

أولًا: إن الصراع بين الفئتَين كان صراعًا حتميًا، وهو أشبه بصراع الوجود ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ فوجود قريش في مكة وسيطرتها على البيت وهيمَنتها على القبائل العربية، مع إصرارها على الشرك وعبادة الأصنام ومحاربة التوحيد وأهله، كلُّ هذا يجعل من الصدام مسألة وقتٍ لا أكثر.

ثانيًا: إن الأمور كلها كانت تدفَع الفريقَين باتجاه المصادمة لحكمةٍ قدَّرَها الله سبحانه، فقد رآهم النبيُّ ﷺ في منامه قليلًا ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ ثم قلَّلهم في نظر المؤمنين عند اللقاء، وقلَّل المؤمنين في نظر المشركين ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ وكان هناك من يُحرِّض المشركين ويُشجِّعهم ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ﴾.

ثالثًا: إن معسكر المسلمين كان في طرف الوادي مما يَلي المدينة، ومعسكر المشركين كان في الطرف الآخر الأبعَد عن المدينة ﴿ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ ﴾ وهو وصفٌ لموقع المعركة.

أما القافلة فقد سلَكَ بها أبو سفيان جنوبًا باتجاه مكة ﴿ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ وفيه إشارة أن المسلمين كانوا قد اتَّخَذُوا موقعًا دفاعيًا يتمكَّنُون فيه من صَدِّ المشركين في حال إغارَتهم على المدينة.

رابعًا: إن التعبئة الجهاديَّة كانت تقومُ على أساس الإيمان بالله، ووحدة الصف والثبات في الميدان ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ بينما كانت تعبئة جيش المشركين تقوم على أساس الرياء والبطر والصدِّ عن سبيل الله ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ

﴿خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

خامسًا: إن الله قد نصَرَ المؤمنين وهزَمَ الكافرين، فكان يوم بدر هو يوم الفرقان ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وقد نكص الشيطان يومئذٍ على عقِبَيْه، وتبرَّأ من المشركين بعد أن وعَدَهم بالنصر والغَلَبة ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

سادسًا: إن مصير قريش هذا هو مصير الباطل في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، مهما تعدَّدت أسماؤه واختلفت أشكاله ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ﴾، ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾.

سابعًا: التحذير من دور النفاق والذين في قلوبهم مرض، وهم العدوُّ الداخلي الذي لا يحمل السلاح وإنما يحمل الدسائس والتشكيك، وإثارة الفتن، وتثبيط العزائم ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

ثامنًا: إن غنائم المعركة ينبغي أن تكون لها وظيفة في التنمية والتكافل وسدِّ حاجات المجتمع ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهو جوابٌ للسؤال الذي استهلَّت به السورة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ وقد أُخِّر حتى نهاية بيان المعركة، والله أعلم.

دقائق التفسير

﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ الفتنة: اسمٌ جامعٌ للشرِّ، شرُّ الدين بالكفر والشرك، وشرُّ الدنيا بالظلم والفوضى والفساد.

﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ الدين لله من قبل ومن بعد، وإنما المقصود خضوع الأرض لهذا الدين، وقبولها لهذه الرحمة.

﴿۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم﴾ من أموال المُحارِبين.

﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ على سبيل التشريف، وإلا فإن الدنيا والآخرة لله، فما ينفق على الفقراء والمساكين والأمور العامة كأنه أُعطِي لله سبحانه.

﴿يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ﴾ يوم بدر؛ لأنه فرَّق بين الحقِّ والباطل، وفرَّق بين مرحلة الاستضعاف ومرحلة السيادة والتمكين.

﴿بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ طرف الوادي الأقرب.

﴿مَفۡعُولٗا لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ﴾ الهلاك بالكفر والعناد بعد قيام الحجة، والحياة بالإيمان بعد وضوح الحجَّة والاهتِداء بها.

﴿وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ﴾ يعني: لو أن النبيَّ ﷺ رآهم في منامه كثيرًا، وقصَّ هذه الرؤيا على المسلمين، لداخَلَهم الخوف والهلع، ولاختلفوا في الخروج، وفيه إشارةٌ لدور الشورى وتأثيرها في القرار.

﴿فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ إشارةٌ إلى أن الذكر عبادة لا تنفصل عن الحياة، بل هو ضرورةٌ لها؛ لأنه يمنحها القوَّة والعزيمة والثبات.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ﴾ دلالة أن ترك الطاعة لله جهلًا أو عنادًا يؤدِّي إلى التنازع، والتنازع يؤدِّي إلى الفشل، فالتربية الصحيحة أصلٌ للوحدة، والوحدة أصلٌ للنجاح، والمجتمع الفاشل لا بدَّ أن يبحث في كلتا المقدِّمَتَين.

﴿وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ تزول قوَّتُكم، ويُمحَى اسمُكم.

﴿خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ هم المشركون الذين خرجوا من مكة بالخمر والقِيَان؛ اغترارًا بقوتهم واستهانة بخصمهم، وطلبًا للسمعة والفخر وبقاء هيبتهم في نفوس العرب.

﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ﴾ ولَّى هاربًا مذعورًا وترك عهوده ووعوده.

﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ﴾ يعني: الملائكة؛ لأن الشيطان كان يراهم ويعرفهم.

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ﴾ ليس خوف التقوى والتعبُّد، بل خوف الجاحد الحاسد الذي يعرف مصيره بعد عصيانه وتكبُّره.

﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ﴾ أصابَهم بالغرور، ودفَعَهم لمواجهةٍ غير محسوبة، والقصد التشكيك والتثبيط، وهو دور النفاق في كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

﴿يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾ صورة من صور الخزي التي تنتظر الكافرين يوم القيامة، وهي الصورة المناسبة لما كانوا عليه من العناد والتكبُّر وتصعير الخدِّ، وهذا أقربُ من القول أن هذا كان يوم بدر؛ لأن الملائكة علَّمَهم الله أن يضربوا فوق الأعناق، ويضربوا كلَّ بنان.

ثم إن كلمة ﴿يَتَوَفَّى﴾ أقرب للمعنى الأخروي، وقد تقدَّمَت على الضرب، فالضرب حاصلٌ عند الوفاة، والله أعلم

﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ الدأب هو الشأن المعتاد والمتكرّر.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ دلالة على أن تغيير النعمة عقوبة، والعقوبة لا تكون إلا بذنب، والظاهر أن النعمة هنا جاءت بمعناها الشامل، أما العوارض والحوادث التي تصيب الناس من صحةٍ ومرضٍ وغنًى وفقرٍ فهذا يحتمل العقوبة، ويحتمل الابتلاء والاختبار، وهو ماضٍ وفق عالم الأسباب وسنن الله وقوانينه في هذه الحياة.

﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۚ﴾، ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ﴾ فسَّرَ الكفر بالتكذيب، والأخذ بالهلاك، ثم ذكَّر بأن الله الذي كفروا به إنما هو ربُّهم الذي يخلقهم ويرزقهم، وهكذا يفسّر القرآن بعضُه بعضًا بنسَقٍ بنائيٍّ تكامليٍّ.

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾﴾

ضمَّت خواتيم الأنفال أحكامًا فقهيَّة، وتوجيهات عمليَّة تفصيليَّة متعلقة بفقه الجهاد وما يتفرَّع عنه من مسائل، وهذه طريقة القرآن في التفقيه والتعليم؛ حيث يسوق المعلومات مع أحداثها وأسبابها؛ لِتكُون مشروحةً بالوقائع، ولِتكُون أدعَى لرسوخها واستذكارها:

أولًا: حكم العدو المعاهد إذا نقض عهده ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ۝٥٦ فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ يلاحظ هنا أن القرآن ذكر صفتَين لهؤلاء؛ تكرار النقض، ووقوفهم في الميدان مع العدو، فهم بهاتين الصفتين يستحقون أشدَّ العقاب، بحيث يكونون عبرةً لغيرهم من المعاهدين.

ثانيًا: حكم العدوِّ المعاهد الذي بدَرَت منه علامات النقض دون تصريح، بحيث تكون هناك خشية من نقضه للعهد في ساعة الشدَّة ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ فالواجب إعلامهم بإبطال العهد قبل البدء بقتالهم، أو يُقدِّمون ما يزيل هذه الخشية وذاك الشك.

ثالثًا: حكم العدو الذي يطلب السلم ﴿۞وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ وهذا دليلٌ أن أصل العلاقة بين المؤمنين وغيرهم السلم والمعاملة الحسنة، وأن القتال استثناءٌ من الأصل، ولا يُلجأ إلى الاستثناء إلا بشروطه.

رابعًا: التنبيه إلى ضرورة الحيطة والحذر عند كلِّ عهد ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فالمؤمنون عليهم أن ينتبهوا لهذه المخادعة إن وُجِدَت، وهذا الانتباه من تأييد الله لنبيِّه ﷺ.

خامسًا: وجوب إعداد القوَّة التي تردَع العدوَّ ومَنْ وراءه قبل أن يفكِّر بالعدوان، والاستعداد لكلِّ طارئ ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ﴾.

سادسًا: وجوب الإنفاق على الجهاد والمجاهدين، وهذا من تمام الإعداد ولوازمه ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

سابعًا: وجوب التوحُّد والتلاحُم والتكافُل بين المؤمنين ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ﴾ وهذا التأليفُ ثمرةٌ من ثمرات الإيمان ونتيجةٌ له، وليس تأليفًا قدَريًّا بالمعنى البعيد عن التكليف وتحمُّل المسؤولية.

ثامنًا: وجوب التحريض على القتال؛ استعدادًا للمواجهة في حال حصولها أو توقُّعها ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ۚ﴾ وخطابُ النبي ﷺ خطابٌ لأمته إلى قيام الساعة.

تاسعًا: حكم القتال إذا كان عدد المسلمين أقلَّ من عدد المشركين ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

ومقتضى الحكم الأول: الثبات في المعركة حتى لو كانت نسبة المسلمين إلى الكافرين واحدًا من عشرة، ثم خفَّف الله الحكم؛ بحيث لا يجب عليهم الثبات إلا إذا بلغوا النصف من عدد عدوِّهم، وهذا التخفيفُ مردُّه إلى تغيُّر مستوى الإعداد التربوي، والقدرة على المقاومة وتحمُّل المشاقِّ بين طبقة المهاجرين والأنصار، والطبقة المتأخرة من الأعراب، والذين دخَلوا في دين الله أفواجا.

وهنا مسألة أخرى: أن الآية تتحدَّث عن الفارق العددي فقط، وهناك فوارق أخرى لم تتعرَّض لها الآية، ومن أهمها: فارق التسليح، وفارق التدريب، وطبيعة الأرض، ونسبة الموارد، ومستلزمات الرعاية والتواصل، وهذه كلها ينبغي أن تُؤخَذ بالحسبان، والظاهر أنها متروكة لأُولِي الأمر وقادة الجيش؛ لأنها مختلفة في كلِّ مكانٍ وزمانٍ، ولا يمكن تحديد ضابط مسبق لها، والله أعلم.

عاشرًا: حكم الأسرى ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ومجموع الآيتين يدلُّ على أن غايةَ القتال تحقيقُ المصلحة العليا للأمة بدفع الخطر عنها، وردِّ عدوِّها، ولما كان الانشغال بالأَسْر وما يكلِّفه الاحتفاظ بالأسرى من حمايةٍ وجهدٍ مُضافٍ على قلَّة عدد المجاهدين تجاه عدوِّهم، وإمكانية رجوع هؤلاء الأسرى إلى القتال، فكان الحكم المناسب هو قتلهم، أما وقد عفا عن قتلهم رسولُ الله ﷺ اجتهادًا منه لعدم وجود النص الإلهي فيهم، وأخذًا بمبدأ الشورى فقد أمضاه الله، ونزل القرآن معلِّمًا للمسلمين فيما ينبغي عليهم فعله في مثل هذه الحالة، وداعيًا للأسرى أن يفكِّروا في الحقِّ وفي هذا النبيِّ ﷺ الرحيم بهم رغم عداوتهم ومحاربتهم له.

والجديرُ بالذكر أن حكم الأسرى يختلف باختلاف الظروف والأحوال، وقد أشارَت الآية الأولى إلى وجه من أوجه الاختلاف: ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، والله أعلم.

حادي عشر: حكم الولاء بين المؤمنين الذين يعيشون في دولة المدينة أنصارًا ومهاجرين ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ فهؤلاء بينهم الولاء الكامل، ويقاس عليهم كلُّ مجتمعٍ مسلمٍ يعيش في دولة واحدة، ويخضع تحت سلطان شرعي واحد، والله أعلم.

ثاني عشر: حكم الولاء للمسلمين الذين يعيشون خارج الدولة المسلمة ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ﴾ وهذا حكمٌ دقيقٌ ومركَّب، فالمسلم الذي يعيش خارج الدولة المسلمة ليس له من حقوق المواطنين شيء، لكنه داخل في الولاء العام للمسلمين، وهو الولاء للأمة المسلمة أينما كان أفرادها، فله أن يستنصر بالمسلمين وبالدولة المسلمة حتى لو كان في دولة أخرى، وعلى الدولة المسلمة نُصرته إلا إذا كانت هذه النصرة تخالف معاهدةً قائمةً؛ فالالتزام بالعهد واجب.

وقد حصل مثل هذا بعد الحديبية مع أبي بَصير وأبي جَندل وغيرهما من المستضعفين في مكة، فردَّهم رسولُ الله ﷺ ووفَّى بعهده مع قريش، بينما لو اعتَدَت قريشٌ على واحد من المسلمين في المدينة فنُصرتُه واجبة، وهذا فارقٌ نفيسٌ في الولاء بين ولاء الأمة التي يجمعها الإسلام، وبين ولاء الدولة التي لا تضمُّ كلَّ المسلمين، كما هو معهُودٌ في الدول المسلمة على اختلافها زمانًا ومكانًا، والله أعلم.

ثالث عشر: حكم الذي يلتَحِق فيها بعد بالدولة المسلمة ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ﴾ فلهم تمام الولاء، ويقاسُ عليه كلُّ مسلم يُهاجر إلى دولة مسلمة، ويحصل فيها على الجنسية باعتباره مواطنًا وليس زائرًا أو كاسبًا، والله أعلم.

رابع عشر: حكم العلاقة بين القرابات والأرحام ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ﴾ وهو ولاءٌ خاصٌّ ومركَّزٌ، ويتضمَّن حقوقًا مضافةً؛ كالتوارث، والتواصل، والنفقة، وهو ولاء داخل ضمن الولاء للدولة، والولاء للأمة.

دقائق التفسير

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي: لا يُرجَى إيمانهم؛ لأنهم سدُّوا منافذ المعرفة لديهم، كما تقدم في قوله: ﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾.

﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ﴾ تظفرَنَّ بهم.

﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ ﴾ اضربهم ضربةً تلقي الخوف والرعب في قلوب الأعداء الآخرين حتى لا يفكروا بعُدوان، ولا يتحالفوا مع عدوٍّ.

﴿تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً ﴾ تظنُّ فيهم الخيانة، والخوفُ هنا توقُّع السوء.

﴿فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أعْلِمْهُم بانتِهاء العهد بينك وبينهم إعلامًا صريحًا لا تشوبه شائبة؛ تحرُّزًا عن شبهة الغدر.

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ﴾ أي: نجوا فلا نقدر عليهم.

﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾ القوة المناسبة لذلك الزمن، والعمل بالآية يقتضي إعداد القوة المناسبة لكلِّ زمنٍ، ولا يشترط إعداد الخيول، وهنا دلالة أن أدوات العمل وتنفيذ الحكم تتغيَّر زمانًا ومكانًا، كما نحُجُّ اليوم بالطائرات والسيَّارات ولا نحُجُّ (رِجالًا) ولا (على كل ضَامِرٍ)[4]، وقد أجمع المسلمون على هذا، وهو بابٌ واسعٌ لمواكبة العصر، والاستفادة من علومه ومخترعاته.

﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ والإرهاب هنا تخويف العدو حتى لا يُقدِم على عدوانه، وليس فيه معنى التوحُّش والرغبة بسفك الدماء - حاشا لله -؛ فالأصلُ في الإسلام: الرحمة، والدعوة للخير ولسعادة الدارين لكلِّ العالمين ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

﴿ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ ﴾ أصل الجُنُوح المَيْل، ومعناه هنا: إظهار الرغبة بالصلح.

﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ ﴾ قدَّم تأليف القلوب؛ لأنه أصلٌ لكلِّ معاني التآلف الماديَّة والمعنويَّة، وأكَّد أن تأليف القلوب لا يكون بالأعطيات والنفقات المُجرَّدة.

﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ إلى أن تكون له القوَّة والشوكة والتمكين.

﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ بالفداء الذي تأخذونه من الأسرى.

﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ ﴾ يريد لكم ثوابها الذي هو أعمُّ وأبقَى.

﴿ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ ﴾ حكمٌ إلهيٌّ سابقٌ أن لا يعذِّب من اجتهد ولو أخطأ، وأن لا يعذِّب أحدًا قبل بيان الحكم؛ لأن حكم الأسرى لم يكن قد نزل فيه وحي، والله أعلم.

﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ ﴾ تأكيدٌ لمشروعية الفداء؛ لأنه جاء باجتهادٍ وشورى دون مخالفةٍ

---

(٤) مُقتبَسة من قوله تعالى: ﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ [الحج: ٢٧].

لنصٍّ، وحاشا لرسول الله ﷺ أن يقع في مخالفةٍ لنصٍّ.

﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ ترغيبٌ لأسرى المشركين أن يهتَدُوا لطريق الحقِّ والخير، وهذا دليلٌ على رغبة الإسلام في تحقيق الرحمة الشاملة لكلٍّ العالمين.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾ هم الأنصار ﷺ الذين آوَوا رسولَ الله ﷺ ونصَرُوه.

﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ تحذيرٌ من مخالفة أحكام الولاء، ومنها: مناصرة المؤمنين، ومنابذة الكافرين المعتدين، والفتنة: الشرُّ العام في دين الناس ودنياهم، والله أعلم.

﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾ عامٌّ في كلِّ القرابات من طريق الأب، ومن طريق الأمِّ، ممن يرِثُون وممن لا يرِثُون، والله أعلم.

تم الجزء الأول،

ويليه الجزء الثاني وأوله

﴿ سورة التوبة ﴾